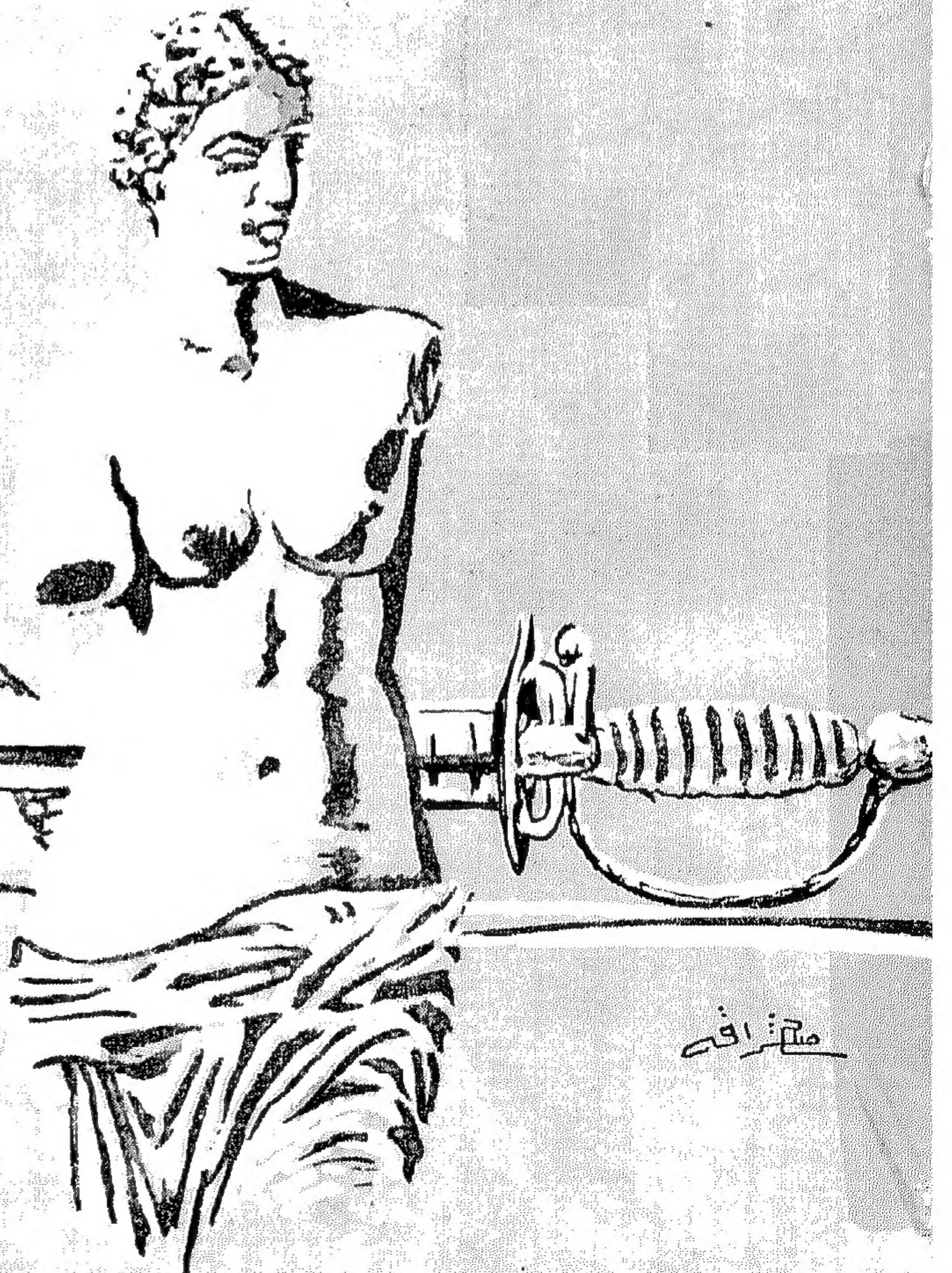




تاريخ العالم الغربي

تأليف: ل. ج. شيني

ترجمة: محمد الدين صفني ناصف
مراجعة: علي أدهم



مكتبة

اهداءات ٢٠٠٣

الأستاذ/ يسري محمد فرج
الإسكندرية

الألف كتاب

٥٤٦

تاريخ العالم الغربي

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب

٥٤٦

تاريخ العالم الغربي

تأليف
ل. ج. شيني

مراجعة
علي أدهم

ترجمة
محمد الدين جفني ناصف

الناشر
دار النهضة العربية
٣٤ شارع عبد الحليم عروت بالقاهرة

هذه ترجمة كتاب :

A History of the Western World .

تأليف

L. J . Cheney.

مقدمة

ورد في إحدى القصص الشرقية القديمة أن ملكاً شاباً تملكته ، فجأة ، الرغبة الملحة في استقصاء أخبار الماضي . فأرسل في طلب علمائه وأمرهم أن يكتبوا تاريخ الماضي جميعاً . وبعد سنوات عدة تذكر أمره وأرسل في طلب العلماء وسألهم عن مدى تقدمهم في العمل . فأخبروه - مسرورين - بأنهم قد أنجزوه ، منذ فترة وجيزة ، في ستين مجلداً . فشكروهم على كدهم وأشار إلى لمتة الشيباء ورجاهم أن يضغطوه في ثلاث مجلدات ؛ وفي هذا ساءخوا عشر سنوات أخرى . ولم يكن لدى الملك وقت ولا قوة تعينانه على قراءتها فأمرهم بأن يضغطوها جميعاً في مجلد واحد . فأكبوا على هذا العمل في جهد لا يصدق وأتوا بالكتاب ، في الوقت الملائم ، إلى الحضرة الملكية . ولكن الملك عندئذ كان قد أمسى شيخاً واهناً وكاد بصره يعشى . فقال لكبير العلماء : « قل لي - أنت يا من قضيت عمرك طراً في هذا العمل المضني - لخص لي في جملة واحدة كل ما وعيت من أخبار الماضي » . فكان جواب الشيخ للملك الشيخ : « عشت سرمداً أيها الملك ، أسألك الرحمة ، فليس عمل هذا في مقدوري » . غير أن الملك أصر . فقال العالم وقد قوست ظهره السنون : « تعلمت أن أجيالاً كثيرة من الناس ولدوا وكدوا وأحبوا وتألّموا وماتوا . . وهنا غضب الملك ، وكان محقاً في ذلك ، إذ كان في وسعه أن يقول ذلك دون عناء . وأسلم العالم إلى الجلال العام ثم رثى لقصر حياة الإنسان وطول التاريخ .

وكلنا ، في شبابتنا ، في مركز يشبه مركز هذا الملك . ولكن من حسن حظنا أن مئات من العلماء قد كدوا طوال القرون لتعلم ونسعد . وبذا يتسنى لنا ، ونحن ما نزال في شبابتنا ، أن نشبع منا حب الاستطلاع .

ولنما في شبابنا يجب أن نعرف كيف ويتسق ، الماضي جميعاً وأن نعرفه على أنه قصة واحدة طويلة تفضى إلى الحياة الخاصة لكل منا .

وهكذا الكتاب حكاية عن أناس وأزمنة وأمكنة ، حكاية ما أتاد الناس ومتى وأين . ومن الجائز بطبيعة الحال (بعد كدٍ مُضْنٍ) كتابته في ستين مجلداً ، إذ أنه لا يعدو أن يكون قطعة من حكاية كاملة . ولو فرضنا إمكان قول كل ما يمكن قوله فإن الجزء الأكبر الذي لا نعرفه وإن نعرفه سيظل مع ذلك مجهولاً .

وإذا شئت الصدفة أن تكون أميراً (وهذا أمر بعيد الاحتمال) فقد تجد سجلاً ما لأسلافك يوصلك إلى بعض من تقدم منهم . ولكن إذا شئت الصدفة أن تكون شخصية عادية فلن تجد مثل ذلك السجل . ومع هذا فإن أسلافك قد عاشوا كل الأزمنة الماضية .

وإذا قدّرت خمسة وعشرين عاماً لكلّ جيل فإن سلسلة طويلة من أسلافك تقودك إلى الإمبراطورية الرومانية . ولقد حوّر هؤلاء الأسلاف ، على صورة ما لغتهم من الأنجلوساكسونية أو الرومانية السلتية (١) أو الدنماركية إلى اللغة الإنجليزية التي تتكلمها اليوم . وهم غيروا عاداتهم ودينهم وأساليب معيشتهم كما غيروا لغتهم . ولقد أسهمت أسرتك في صنع الحاضر من الماضي كما تسهم أنت الآن في تشكيل المستقبل بما تصنعه في الحاضر .

وانتقل الآن إلى حكايتنا التي لا تحوى بطلاً واحداً وحسب بل تغصّ بالأبطال ، حكايتك التي لا أول لها بسبب ضياع السجلات ، والتي لا آخر لها لأننا ما نزال جزءاً منها ، وهي تخصّ كلّ الرجل والنساء والبنين والبنات .

(١) Celtie نسبة إلى السلتيين سكان غرب أوروبا الأقدمين .

محتويات الكتاب

مقدمة

(١) حول البحر الكبير أو شعوب العصور الحالية :

قبل الميلاد وبعده الميلاد — قبل استعمال الحديد — العصر البرونزي —
علم العاديات — أين بدأت المدنية — مصر والفراعنة — إمبراطوريات
بائدة في الشرق القديم — قوة كريت البحرية وقوة آشورية البرية —
الفرس — الإغريق — عظمة المدن الإغريقية وأفولها — الإسكندر —
غرب البحر الأبيض المتوسط ، ملاحوه ومدائنه — كيف بسط الرومانيون
نفوذهم على العالم — قيصر — مواطنو مدينة ليست بالمدينة — الديانات
القديمة واليهود — المسيحية — سقوط بيت المقدس — الكنيسة
في الإمبراطورية الرومانية .

(٢) نهاية الإمبراطورية وضياع العلوم القديمة :

اكتساح الغرب — البربر والأساقفة — الإمبراطور جستينيان .

(٣) رايات الصليب أو مملكة وحصن وكنيسة :

المسيحية : البابا جريجوري الكبير — رجل من الصحراء — الهلال
في أولى مدائعه — شارلمان — رجال من الشمال — ألفرد من وسكس —
مدينة عربية — النورمانديون والحروب الصليبية الكبرى — شؤون الحرب
والعبادة : الحصن والكنيسة — حجاج من كانتربيري — الفرسان
والفروسية — صناع المدن الماهرة — رجال القانون ورجال الدين —
المزارعون — الكنيسة — رجال البحر والبر — حروب الصليب —
نهاية القسطنطينية — سقوط غرناطة في أسبانيا — الاتجاه صوب الجنوب —

وراء رأس الرجاء الصالح — جزائر الغروب وإمبراطوريات عجيبة —
توسع المعمورة — طرق الملاحة .

(٤) إعادة كشف العلوم القديمة :

ثلاث مدنيات — بدء التنقيب — عصر النهضة — الطباعة —
الأرض والسماء .

(٥) ممالك الغرب العظمى ودنيا أمريكا الجديدة :

الأمارات والدول — مذاهب كنسية متعددة بدلا عن مذهب واحد —
Bluff King Hal — أناجيل للحرائين — مائة السنة الأسبانية —
مارى ملكة الاسكتلنديين — الهولنديون — رواد البحر الإنجليز
ودريك — أسطول الأرمادا الأسباني — إنجلترا في عهد إليزابيث —
قرن جديد — المقارنة : بريطانيا — المقارنة : فرنسا — الاتجاه صوب
الغرب — السلطان أو القيصر — بريطانيا تعادى لويس الرابع عشر ولويس
الخامس عشر من ١٦٨٩ إلى ١٧٤٨ — حرب السنوات السبع — الإنسان
والكون — الثورة الأمريكية — ثروة الأمم .

(٦) الثورة الفرنسية :

الثورة — نابليون والبحرية البريطانية — نابليون وأسبانيا وروسيا .

(٧) كثير من الاختراعات والعلوم الجديدة :

عالم اليوم — ثلاث مغامرات — مخامرة السياسة : الممالك والجمهوريون
— السياسة : الحرية — السياسة : أم البرلمان — الاختراع : المهندسون
— الاختراع : الطرق والتقنيات — الاختراع : الفحم والحديد وقوة
البخار — الاختراع : المكسب والخسارة — السياسة : عام ١٨٤٨ في أوروبا —

السياسة : إيطاليا وألمانيا — السياسة : روسيا والثورة — التوسع —
التوسع : قصة الإمبراطورية والسلم البريطانى — التوسع : المستعمرات
البريطانية المستقلة — التوسع : الولايات الأمريكية المتحدة — التوسع :
الهند — التوسع : الشرق الأقصى — التوسع : إفريقيا — الأمم فى جهادها
(أوفى قيودها أو أصفادها) من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ — انهيار إمبراطوريات —
إحدى وعشرون سنة بين حربين من ١٩١٨ إلى ١٩٣٩ — الأمم فى جهادها
من ١٨٣٩ إلى ١٩٤٥ — اختراعات لا آخر لها وأناس كرمال البحر —
انتقال الحاضر إلى المستقبل .

(٨) ختمام :

أنباء العالم — أنباء من لا مكان — الماضى الحى .

مصورات جغرافية

- ١ — الشرق القديم .
- ٢ — إمبراطورية الإسكندر الإغريقية .
- ٣ — الإمبراطورية الرومانية .
- ٤ — غزوات البربر للغرب .
- ٥ — متاعب أوروبا الغربية — القرن التاسع .
- ٦ — الدول اللاتينية التي شاركت في الحملة الصليبية .
- ٧ — مخارج جنوبية من الأطلنطى .
- ٨ — محاولة أسبانية لغزو إنجلترا في سنة ١٥٨٨ .
- ٩ — إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة ١٧٥٥ — ١٧٦٣ .
- ١٠ — إمبراطورية نابليون الحربية ١٨١٠ .
- ١١ — توحيد إيطاليا .
- ١٢ — توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب .
- ١٣ — احتلال أوروبا لإفريقيا .
- ١٤ — إمبراطورية آل هابسبورج ١٩١٤ .
- ١٥ — تفتيت شرق أوروبا .

تمهيد

تاريخ أربعين قرناً

إليك بياناً واضحاً جلياً عن تاريخ أربعين قرناً إنه سجلٌ - لمغامرات
واختراعات وتوسعات إقليمية - يأخذ بالآللاب .

وإنّ ل . ج . شنى المِشارفُ جميعَ ميادين المدنية الغربية : فى السياسة
والفن وأساليب الحكم والعلوم والفلسفة والدين وهو يتقصّى مسببات
الحروب ونتائجها ويحلل طبائع الأمم والرجال الذين شكّلوا المدنية الغربية
والهزات التى حفزتهم إلى ذلك ، أولئك الذين نقلوا تلك المدنية إلى قارّات
أخرى وإلى جزرٍ نائية فى البحار .

على أن هذا السرد الأخاذ البهيج . الحقيقى مع ذلك ، يظهرنا على تفاصيل
دقيقة ، لمشاهد الماضى وأصواته التى قرّبتنا إليها عدسات العلم
والبحث الحديثة .

الباب الأول

حول البحر الكبير أو شعوب العصور الخالية

قبل الميلاد وبعده الميلاد :

تبدأ قصة مدينتنا في البقاع التي تحيط بـ « البحر الكبير » . ونحن نطلق عليه اسم « البحر الأبيض المتوسط » ومعناه : البحر الذي يتوسط الدنيا ، إذ هكذا لاح في وقت ما للرجال والنساء الذين عاشوا حوله . ولقد كانوا يخضعون جميعاً لسلطان حاكم موحد هو القيصر الروماني أو الإمبراطور الذي فتحت كتائب جنده أمصارهم والذي كان يجبي خراجهم .

كانت تلك هي الإمبراطورية العظيمة الذائعة الصيت التي فيها عاش عيسى وحواريوه والتي كان بولس الرسول أحد مواطنيها . وقد امتدت شرقاً إلى نهر الفرات وغرباً إلى المحيط الأطلنطي وشمالاً إلى نهر الراين والدانوب وجنوباً إلى الصحراء الكبرى .

ولقد كان التاجر في تلك الأيام ، في حل من أن يقطع الطريق كلها من بابل إلى يورك ، تحت سلطان حاكم واحد ، متنقلاً من (خان) إلى خان ومن مدينة إلى مدينة على الطرق العامة المستقيمة المديدة الممهدة التي شقها مهندسوا الرومان . ولربما كان الحارس ، الذي أطل من مرقبه فوق الرمال على الصحراء الكبرى ، من مواليد قرية من قرى الدانوب ، وربما كان الرجل الذي خفر معسكراً على الفرات ربيب أسبانيا ، وقد احترق يهود من فلسطين التجارة في أرض الراين ، كما أن تجاراً من بلاد الإغريق قد أقاموا متاجرهم إلى جوار نهر التاين .

ولا عجب إذا كان الرومان قد أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط اسم « ماري نوسترام ، أى « بحرنا » . ذلك أن سفنهم كانت تمنخر مياحه الهائلة وعليها البضائع ، التى أغنت حياة المئات من مدنها ، كالنحاس الأحمر من أسبانيا وزيت الزيتون والحبوب من شمال إفريقيا والعاج والبردى والغلال من مصر والخور والخزف من اليونان والجلود والأخشاب من فرنسا والرقيق من كل مكان .

ولقد وردت فى إنجيل لوقا العبارة الآتية (١) « وفى تلك الأيام صدر أمر أوغسطس قيصر بأن يكتب (٢) كل المسكونة . وهذا الكتاب الأول جرى إذ كان كيرينديوس والى سورية فذهب الجميع ل يكتبوا ، كل واحد إلى مدينته » .

ويستطرد لوقا فيقص كيف أن (يوسف النجار) ومريم جاءا إلى بيت لحم فى اليهودية بناء على هذا الأمر (العالى) وكيف ولد يسوع المسيح فى بيت لحم بزينة (خان) .

وفى زريبة ذلك الخان فى ذاك اليوم يبدأ تأريخنا .

تبدأ تواريخنا وتجرى فى اتجاهين : عكسى وطردي . فالعكسى أوق.م . (أى قبل ميلاد المسيح) يتراجع إلى الماضى المظلم الغامض حتى بدء الخلافة . والطردي أوم . (أى ميلادية ، يعنى سنة كذا من الميلاد) تمتد إلى يومنا هذا .

ولقد حكم أوغسطس قيصر - أول أباطرة الرومان - من سنة ٢٨ فى م إلى ١٤ م . وهذا الملم يعرفه هو لأنه كان يؤرخ لأعوامه من سنة ٧٥٣ ق.م . التى شيدت فيها روما . وبعملية حسابية بسيطة يتضح أن أوغسطس كان يؤرخ لأولى سنى حكمه بـ ٧٢٦ و لآخر سنة فى حكمه بـ ٧٦٧ . وبعملية

(١) الإصحاح الثانى

(٢) يكتب هنا معناها : يدفع ضريبة

حسابية بسيطة أخرى تكون سنة ١٩٥٨ م. — في تأريخنا هي، حسب طريقة تأريخه هو : سنة ٢٧١١ من تشييد مدينة روما .

ولقد كانت الإمبراطورية الرومانية بداية قصتنا عن أوربا الغربية ، كما كانت أيضاً نهاية لقصة تزيد كثيراً في الطول — على عديد من قدامى الشعوب — كالمصريين والبابليين والآشوريين والفرس والقرطاجنيين واليونانيين والفترة التي خلت ، منذ عهد أوغسطس قيصر وولادة المسيح إلى اليوم ، ليست سوى عشرين قرناً وفي وسعنا بالمقابلة ، أن نتلمس في غسق ما قبل الميلاد وظلمته الموغلين — تاريخ مالا يقل عن أربعين قرناً من الأجيال المتمدنة ، ونعني بهم أولئك الذين وسعهم أن يستخدموا المعادن ويشيدوا المباني ويسكنوا المدن ويخلفوا وراءهم سجل حياتهم على صورة ما .

وسنعود في السياق إلى الرومانيين الذين التفت في إمبراطوريتهم نواحي المعرفة والفن التي نشأت مع المدن الحالية. غير أن هدفنا المباشر هو تلك المدن وما يعرف بأنه الأربعون قرناً من التاريخ التي حوته . وسوف نعرض لعلباء العاديات (الآثار القديمة) الذين كشفوا في مهارة - بحفائرهم بين خرائب المدن العتيقة — عن كثير من نواحي التاريخ القديم المهم .

قبل استعمال الحديد

ترجع أقدم سجلات الداس إلى آلاف . وُلغة من السنين إلا أنها سجلات غير مكتوبة . وإنا لنجد الأسلحة والأدوات الحجرية مبعثرة في أنحاء العالم كافة . ونجد البلط البدائية والمكاشط والمثاقب وسنان السهام إلى صنعها الإنسان قبل أن يتوصل إلى صهر النحاس الأحمر والصفير والحديد بعد فصامها عن الصخور وإلى صنع أدوات منها . ونجد شقفاً من الخزف ومن عظام الإنسان والحيوان أما ما استخدمه الأولون — إلى هذا — من الأخشاب والألياف والقش والبوص والجلود والقصب فقد أصابه البلى

والعفاء كما أتى على ملابسهم المصنوعة من الصوف المغزول . وتجد « قشاشة مطابخهم » من عظام الحيوان والأصداف والرماد الباقية إلى جوار مغاورهم وأكوأخهم المقامة من الطين وحفرهم السكنية التي احتفروها في الأرض . ومن أولئك المجهولين الأولين ، من قناصى الحيوان وصيادى السمك ، الفنانون المهرة . ففي الكهوف العميقة بجبال البرانس نقوش على الجدران رائعة تمثل القنص صنعها — بورى المشاعل — أناس من تلك العصور الحجرية السحيقة البائدة .

ولقد تعلمنا الكثير ونهتسنا الكثير عن حياتهم مما نعرفه عن الهنود الحمر وعن زنوج إفريقيا وسكان أستراليا الأصليين والماورى بزيلاندا الجديدة (وهم سكانها الأصائل) وكانوا جميعا ما يزالون يعيشون فى العصر الحجرى عندما جاءهم البيض أول ما جاءوا . ولدينا ، عنهم ، كتب كثيرة ألّفها رحالة ومبشرون دينيون عاشوا بينهم وتعلموا لغاتهم وكتبوها .

وقد توسع فى القيام بهذا النشاط ، حقاً ، العلماء المسيحيون التابعون لجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية .

ولم يسكن رجال العصر الحجرى ونساؤه يتصفون بالغباء أو عدم الإتيقان بل على العكس ، رأينا كثيراً منهم يتعلمون أشياء جديدة غريبة فى سرعة بالغة . وقد استطاع هنود أمريكا الحمر فى أقصر وقت أن يركبوا ويسوسوا الخيل التى أتى بها البيض إلى الدنيا الجديدة . وقد أصبح بعض زنوج الزولو — الذين كان آباؤهم من محاربى العصر الحجرى — دكاترة فى الطب والقانون والعلوم ، وأعطى الملاحون الأنجليز — الذين هبطوا بزيلاندا الجديدة فى السنوات الباكرة من القرن الماضى ليقطعوا شجر الكاورى (١)

(١) الكاورى شجر من الفصيلة الصنوبرية .

كى يصنعوا منه ساريات الشراع والقوائم — أعطى هؤلاء الملاحون الإنجليز بلطهم الحديدية إلى المساورى لقاء الطازج من الطعام . ثم رأوا المساورى يشتغلون ويستخدمون ، فى ارتياح تام ، تلك البلط الحديدية بدلاً من بلطهم العتيقة المصنوعة من الحجر الأخضر (١) وإن كثيراً من صناعات العصر الحجري ليمتاز بجمال الصقل .

تصور نفسك فى مكان امرئ العصر الحجري لا ملابس لائقة ولا أدوات حديدية ولا بيوت بالمعنى المألوف ولا طرق ولا كتب ولا مصابيح بالمعنى المفهوم ولا شئ من وسائل الراحة : لا شئ غير كوخ أو حفرة فى الأرض أو كهف وبعض الأعواد والحجارة والعظام والجلود والصلصال . لا معلومات حقة وإنما فيض من الخوف والفرع من الآرواح الشريرة . لقد بدأ الإنسان بلا شئ وكان عليه أن يكشف كل شئ ثم يلحق بنيه كل ما يعرف . وإنا — عندما نفكر فى كل ما كشفه الإنسان فى العصر الحجري — لنبغى لنا أن نسلّم بأنهم كانوا بارعين وواسعى الخيلة إلى أبعد الحدود . ومهما يكن فإن بعضهم كانوا أسلافنا !

لقد استبانوا فوائد أنواع النبات والحيوان والمعدن وبدعوا حرفة الزراعة وألفوا بعض الحيوان والطيور ، وصنعوا أوانى الفخار البدائية واخترعوا السلالة والنسيج والضفر والعقد (الحبك) وتسقيف المساكن بالقش أو الغاب ، وصنعوا فحم الخشب (الفحم البلدى) ، كما صنعوا السفن الأولى ، وجدوا الألياف حبلاً لبسوا الجلد المدبوغ وخاطوا جلود الحيوان بعضها إلى بعض بإبر من العظام ، واحتفروا المناجم بحثاً عن الحجر الصوانى وعرفوا كيف يصنعون منه الأدوات بالدق والشحذ . ولا مشاحة فى أن بعض مصنوعاتهم كانت دقيقة بشكل مذهل ، ومن ذلك

(١) الحجر الأخضر من الصخور النارية .

البوميرانج (١) الذى يستعمله سكان أستراليا الشُّود ، وقارب الأسكيمو
الجلدى الخفيف الذى يتسع لجل عدد كبير من الركاب والذى يقوى على
الآبحار فى المحيط الهائج ، وكالقوارب ذوات الأجنحة الخارجية التى
كان يستخدمها سكان جزائر بحر الجنوب . وإن المهارة الفائقة لتبدولنا
بوجه أخص فى الحائط الحجرى الجبار والطرق العظيمة التى شيدها
الإنكاس فى بيرو من دون استعمال الأدوات الحديدية

ونحن فى حل من الجزم بأنه كان من بين هؤلاء ، أناس برعوا فى قص
أقاصيص عن الصيد أو الحرب ، أناس رووا حكايات قديمة عن زعماء
أنبياء ومحاربين شجعان وعن أرواح الأشجار والأنهار وعن الأصوات
التي كانت تعوى بين الرياح .

ولقد تعلمت القبائل التى كانت تصغى إلى أولئك القصاصيين ، كيف
ترقص وتبتهج بالغناء والترتيل على أنغام موسيقية غريبة عن آذاننا
ولكنها غنية بالإيقاع ، إنها أصوات طبل من الجلد وقصب من الغاب
وألواح مصلة .

ولقد وضعوا — هم أنفسهم — نهاية العصر الحجرى وذلك بعد أن
تقدموا الخطوات الأولى — والأكثر صعوبة بناء على ذلك — صوب
المدنية . لقد كشفوا عن المعادن .

أولئك البارعون من الذين سكنوا الغاب وانتجعوا الأنهار ، فى فجر
التاريخ ، هم الرواد الشجعان المجهولون لكل مالدينا من معرفة وقوة .

(١) البوميرانج قطعة معقوفة من الخشب إذا رميت رسمت دائرة فى الهواء وارتدت إلى
حيث رميت يتخذها سكان أستراليا الأصلاء أداة لصيد الطير .

العصر البرونزى

« المدنية » كلمة مشتقة من « المدينة » . والمدنية حياة الناس فى المدن والبلدان . ولكى يعيش الناس فى المدن ينبغى إن يكون لهم قواعد وأقوانين تنظمهم وشخص ما يحكمهم ، شخص يطمئن إلى أنهم يتضامنون ويساعد بعضهم البعض أو شخص يحفزهم على التضامن فى العمل . ينبغى لهم أن يتبادلوا السلع أو يشاركوا فى التجارة إذ لا يسعهم أن يعيشوا فى صعيد واحد من دون تجارة ، وهذا مالا يقدر عليه غير الفلاحين الذين يعيشون مع ذلك عيشة الكفاف . وعلى هذا فالمدينة لا تعنى فقط المعيشة فى المدن ولكنها تعنى كذلك : التجارة والقوانين والحكومة .

ولقد بدأ الناس ينشئون المدن فى الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد ، وهذا تعبير موجز لقولنا : بين ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق . م . وبدءوا كذلك يسجلون أحداثهم كتابةً ، بطريقة غير طريقتنا .

وفى الوقت نفسه حول سنة ٣٠٠٠ ق . م — عرفوا كيف يصنعون البرونز وذلك بصهر النحاس الأحمر ومزجه بقليل من الصفيح المصهور ليزيده صلابة ، كما عرفوا كيف يستنبطون الذهب والفضة من باطن الأرض ويشكلونها حلى براقاً . لقد كان البرونز مادتهم الأساسية لصنع الأدوات والأسلحة ولكن الكثيرين استمروا — زمناً طويلاً بعد ذلك بطبيعة الحال — يستخدمون أدوات وأسلحة من الحجر . وكانت الأدوات البرونزية الجديدة بين أيدي الصناع المهرة ، يعول عليها أكثر مما يعول على سابقاتها كما كانت أطول منها عمراً وسهلة الشحذ بل قابلة لأن تعاد صنعاً ، هذا عن أن العمل يتم بها فى وقت يقصر كثيراً ويؤدى على وجه أدق . وعلمنا أن نتذكر أن البرونز أقل صلابة من الحديد وهذا يوضح السبب

فى أن السيف البرونزى كانت أقصر وأغلظ من السيف الحديدى . ولقد كان من دواعى الارتباك حقاً أن تلتوى فى غضون المعركة .

وحول ذلك الوقت نفسه اخترع العجلة عبقرى مجهول ، وساعد هذا على رفع الأثقال بها فى جهد يقل كثيراً عن رفعه بالمركبات الجليدية العتيقة . ثم بدأ استخدام المركبات ذوات العجلتين أو الأربع . وعندما دعت الحاجة إلى دروب معبدة أنشئت الطرق العامة البدائية الأولى . ولم تلبث العجلة أن استخدمت فى مرافق أخرى . فلقد استخدمها صانع الفخار فى تشكيل صاصاله وذلك برمى كومة منه على قرص يدور بينما يمسسه هو بيديه فى اتجاه مضاد . وكذلك استخدم النجار العجلة فى صنع المخرطة غير المصقولة : أداة تستقر فى عجلة . وبإدارة تلك العجلة تدور الأداة . وكل ما على النجار عمله بعد ذلك هو أن يسند قطعة الخشب إلى الأداة فتشقها أو تقصها وتشدّ بها ، فأما المرء الذى كشف الشئ الأول أو اخترعه والمرء الذى كشف الشئ الثانى فسوف يظل شخصاهما ، بلا مرأ ، خافيين أبداً الأبدى .

والخلاصة أن العصر البرونزى بدأ فى آخر الألف الرابع من أعوام ما قبل الميلاد ، واستمر قرابة ثمانية عشر قرناً حتى كشف شخص ما طريقة استنباط الحديد من خامه وصنع السيف الحديدى الطويلة التى هى أطول بكثير من السيف البرونزى .

وكل هذه التواريخ تخمينات تقرىبية («تقديرات») هى الكلمة المحترمة التى يستعملها العلماء) إذ أن معلوماتنا عن تلك الأحداث السحيقة وصلت إلينا بعد البحث فى أطلال الدنيا القديمة المشتتة فى مصر والشرق الأوسط .

ومع العصر البرونزى تدخل التاريخ شخصية هامة جداً وهى شخصية الحداد ، طارق المعدن المتقدم والصانع الماهر الذى يشتغل بالنار والمصهر .

وهو — من بداية أمره — امرؤ غامض . فخرفته تظل في طى الكتمان
سراً يعتز به ويغار عليه ، سرّاً يسكاد يدخل في دائرة السحر . إنه يتيح
للناس القوة بسيوفه الرقيقة ودروعه الصلبة . إنه يدق معدنه ويصيره إلى
أشكال عديدة . إنه يحذى الخيل وقد يحذى كذلك الثيران التي يلزم لكل
منها ثمانى حدوات ويوازيه في المهارة الفنية زملاءه الذين يحترفون صياغة
الذهب والفضة .

ولقد وجدوا في إحدى المدائن الإغريقية القديمة زهرة من الذهب
ترتكز على ساق من الفضة .

وكان أعظم تجار المعادن فينيقيو صور وصيدا (من مدن سوريا الآن)
وإننا لنقرأ في الكتاب المقدس كيف استخدم سليمان — ملك اليهود —
حيرام ، وهو صانع برونز هاهر من مدينة صور ، ليحلى معبد بيت المقدس
بحليّ برونزية : عمد ضخمة تزينها السلاسل الفنية ، زنبق وورمان وطاقسات
وطسوت وسباع وعجل مركبات ، سكت كلها من برونز .

ولقد وجد في حفائر بفرنسا ، منذ وقت غير طويل ، زهرية كبيرة
من البرونز يزينها تمثال لمركبة تجرها خيل يسوقها راكب . ويقدر كاشفوها
أنها صنعت حول سنة ٢٥٠٠ ق . م .

وكان الإغريق يستعملون البرونز في تزيين قصورهم : وفي أقدم قصيدة
من شعرهم — وموضوعها جولات يوليسيز — وصف شائق لقصر ملك اسمه
ألسيونس . وكان لهذا القصر حوائط مغطاة بلوحات من البرونز تعلوها
تربعات زرقاء مطلية بالمينا وأبواب كاملة التذهيب ومعلقة بسواكف (١)
مفضضة مثبتة على عتبات برونزية وهذا الوصف كأنه من قصص الجن .

(١) الساكف أعلى الباب المقابل للخشبة التي يوطأ عليها .

وإلى ذلك فقد وجدنا فى خرائب قصر إغريقى آخر ، بقايا برونزية من هذا النوع . وما من شك فى أنها — وقت جدتها وجلاتها — كانت تعكس ومضات نيران الموقد الذى اعتاد الملك ورفاقه ، بعد العودة من الصيد ، أن يحيطوا به ليستمتعوا بالولائم وليصيخوا لأغاني العازفين على القيثارة من أمثال هومر العازف الأعمى الذى نظم تلك الملحمة عن يوليسيز كما نظم ملحمة أخرى طويلة عن حصار ملوك الإغريق لطروادة الذى دام عشر سنوات

وبجمل ما فات : أولاً : العصر الحجري الذى يرجع إلى عهد لا يعرف أحد مبتدأه . ثم العصر البرونزى الذى بدأ فى مكان ما حول ٣٠٠٠ ق . م . أما متى عاش هومر فلا علم لأحد به على وجه التحقيق . إلا أن حصار طروادة الذى تغنى به حدث حول ١٢٠٠ ق . م .

ولقد كان هذا الحصار أسطورة غير واضحة المعالم فى نظر الإغريق وقت بداية مسجلاتهم المكتوبة حول سنة ٨٠٠ ق . م . وعاش الملك سليمان وحكم اليهود حول سنة ٩٥٠ ق . م . وقد وسع الناس أن يكتبوا فى أيامه ، وقبلها بقرون ، بطبيعة الحال . غير أن مسجلات العصور الخالية — باستثناء الكتاب المقدس وكتابات الإغريق (التى باد معظمها) لم تعرف إلا منذ خمسين سنة .

وتلك السجلات المكتوبة : لفائف من البردى وجدت فى المقابر الملكية المصرية ، ولوحات من الصلصال وجدت فى حفائر مدن ما بين النهرين (العراق) . ومن هذه وتلك تعلمنا كثيراً عن شعوب وإمبراطوريات عتيقة .

علم العاديات (الآثار القديمة)

تعلم أسلافنا تاريخهم من الكتاب المقدس ومن كتابات هيروdotus المؤرخ الإغريقى القديم . ولم يعرفوا أى شىء مما تقدم على قصص العهد

القديم من أمثال قصص إبراهيم ويوسف وموسى ويشوع (١) وشمشون ،
ولا أى شيء أقدم من أساطير الإغريق كحكايات جيسون وأرجونوتس
وتسيوس والمينو ثور (٢) وحصار طروادة .

ولقد كانت مصر فى نظر قدماء الإغريق أرض العجائب (كآبى الهول
والأهرام) وأرض الآلهة الغامضين (كإيزيس وأوزيريس) . ولم يعرف
الإغريق القدماء شيئاً عن تاريخها الطويل الذى امتد قروناً قبل أن يفد
أسلافهم الأشداء متدافعين صوب الجنوب عبر الجبال إلى شواطئ بلاد
اليونان الدافئة وإلى جزرها . وقد تحدثت أساطيرهم عن الحروب والآلهة
وأبطال الملوك على نحو ما كان هومر يتغنى به فى أشعاره . وكان كل مادون
هذا ظلاماً . فهم لم يعرفوا شيئاً عن قصر كريت البديع المنذر ، وكذلك لم
نعلم نحن عنه شيئاً حتى سنة ١٩٠٠ . وهم لم يقفوا ، من أجداد منطقى بابل
وسومر الشرقية ، إلا النزر اليسير . وعندما دلفر ملاحو الإسكندر الأكبر
عبر وادى الفرات فى سنة ٣٣٠ ق.م . مروا بجبال منطقة بابل العالية التى
تضم مدائن مخربة دفنتها الرمال التى ظلت تهب عليها قروناً عديدة .

وتبدد الجهل الطويل عندما أبحر نابليون إلى مصر فى سنة ١٧٩٩
وغزاها . فلقد استصحب طائفة من أهل العلم والبحث ليدرسوا خرائب
آثارها . وكانت إحدى نتائج ذلك أن فرنسياً اسمه شامپوليون بدأ ، فى
سنة ١٨٢٢ ، يفك رموز الهيروغليفية التى كان يكتبها السكمان . وهكذا وجد
مفتاح اللغة المصرية القديمة .

ولقى العلماء تشجيعاً ليدرسوا خرائب أخرى أثرية فى الشرق الأوسط .

(١) يشوع صاحب سفر التوراة .

(٢) المينو ثور حيوان خرافى برأس ثور وجسم بشر .

ففي ١٨٤٥ بدأ هنري رولنسون يحل رموز الكتابات التي حفرت في صخور آشور بأشكال تشبه الأوتاد . واستكشف ليارد في سنة ١٨٤٦ خرائب نينوى الهائلة الحجم . وكان فتى ألماني اسمه شليمان يعتقد صحة قصة طروادة فجمع ثروة كبيرة من الأعمال الاقتصادية وصرفها على خرائب طروادة في سنة ١٨٧٠ . فلم يعثر على خرائب مدينة واحدة فحسب بل عثر على خرائب سبع مدائن يتراكب بعضها فوق البعض ! وفي آخر القرن التاسع عشر استكشف سير آرثر إفانس مدينة مفقودة وذلك عندما بدأ يحفر في كنوسوس بكريت . وقد عثر على قصر ملكي . ولقد كانت كريت — في مدى أجيال طويلة — مهداً لمدينة زاهرة ، ومع هذا نسيها العالم طراً كل النسيان . وقد ظلت الآلاف من لوحاتها غير مقروءة حتى الآن . أكان ذلك هو القصر الذي ذهب إليه زيوس ليدبح المينوثور ؟ أم كان حقاً أن أشيل ربط جسد هكتور في عجلة مركبته وجرّره حول حوائط طروادة ؟ قد لا تظفر أسئلة كهذين بجواب ، غير أن استكشافاتنا تجزم بأن وراء الأساطير القديمة بعض الحقائق . ولقد أشار قدامى الإغريق إلى إحدى المدائن على أنها « ميسينيا الذهبية » . وأغلب الظن أن شليمان — عندما حفر هنالك عثر على كنوز عظيمة من الذهب ، وقد وجد في مقابرها ، منذ فترة جد قصيرة ، مزيد من الذهب الكثير . وقد كشفت ، منذ فترة قصيرة . كذلك ، مجموعة من اللوحات التي تحمل مدونات وذلك في بيلوس (اليونان) وهي موطن نسطور ، أحد أمراء أجاممنون ، فيما يظن . وفوق ما تقدم فأن إنجليزياً — هو المرحوم ميخائيل فنتريس — عرف كيف يقرأ هذه المدونات .

ويجري الحفر — في مثابة — في أماكن عديدة . فالأمريكيون مشغولون به في أثينا ، والفرنسيون في سوريا ، والأتراك في آسيا الصغرى ، والمصريون يتابعون كشف ما في خرائبهم ومقابرهم . وقد كشف سيرليونارد

وولى كشوفاً مثيرة في مدينه أور بالعراق . وقد كشفت ، منذ فترة قصيرة ، كشوف لا تقل عنها استثارة في مدينة إريش التي تجاورها . وما من شك في أن استكشاف الماضى المدفون يتتابع في كل بقعة ، غير أن النشاط الأكبر يجرى في البقاع التي تقع حول شرق البحر الأبيض المتوسط .

وإنا لنعرف الآن تاريخ إمبراطوريات وشعوب عظيمة في بقاع الشرق الأوسط كافة . فلهيها آلاف من لوحات الصلصال المحروق تحمل مسجلات بلغات أهل بابل وآشور والأقطار المجاورة . ولدينا مقادير كبيرة من البردى تحمل مسجلات عن فراعنة مصر الأقدمين . وقد كشفت الحفائر أيضاً عن مدينتي بتمها كمدنيات السومريين والحيثيين والكريتيين . ونحن نطلق على من يشرفون على الحفر عبارة « علماء العاديات » ومعناها : الرجال الذين يدرسون الآثار العتيقة . ويبلغ مدى القصة التي كشفوا عنها أربعة آلاف من السنين ، ويمدنا كل موسم من مواسم الحفائر بمعلومات جديدة . غير أننا لا نخلص إلى ذلك النوع السهل المتدفق من القصص الذي يشبه التاريخ العادى . فهناك ثغرات ومجاذلات كثيرة في شأن التواريخ وشتى أنواع الأسئلة التي يوجهها الناس دون طائل . وستبقى الحال كذلك إلى أن يتصادف العثور على كشفٍ يجيبنا عن تلك الأسئلة . على أن حذق علماء الآثار وصبرهم لما يذهل حقاً . فهم يغربلون كل قدر من التراب يرفعه الجاروف ، وهم يقيسون كل بوصة تحت السطح ، وهم يلجأون إلى استعمال الفرش المصنوعة من شعر الإبل ليزيلوا التراب عن الأشياء المدفونة حتى لا يصيبها تلف . ولا مشاحة في أن القدر الأكبر من الآثار ما يزال مطموراً في باطن الأرض وأنه سيكشف عنه في حينه .

أين بدأت المدنية :

بدأت المدينت الباكورة على ضفاف الأنهار الكبرى في البلاد الدافئة حيث الأرض قوية عنيفة يغمرها في الغالب طمى النهر ويغطيها بطبقة

تكسبها أكبر الخصوبة . وتلك الأنهار هي : النيل في مصر ، والدجلة والفرات في العراق ، والانداس في الهند (١) .

على أن مدينتي موهنجودارو وهارابا - الواقعتين في وادي الانداس - لم تعرفا وتستكشفنا إلا منذ فترة قصيرة وما يزال الشيء الكثير عن الشعوب التي بذتاهما وعاشت فيهما تفتقر إلى معرفة . ومع ذلك فقد كنا نعرف أنهما كانتا تتعاملان مع تجار أودية الأنهار الكبرى في العراق ، وذلك لأننا وجدنا في خرائبهم أشياء لم يكن يستطيع صنعها غير أهل أودية الدجلة والفرات . ومصر تشبه حية طويلة ملتوية ذات رأس جبار . إنها أرض طولها ٦٠٠ ميل وعرضها ١٠٠ تنهى لدى البحر بدلتا بالغة الكبر ، وعرضها ١٠٠ ميل ، كونتها مصبات النيل العديدة وهذه البلاد النهرية المستطيلة يفيض عليها ، في كل عام ، ذوب ثلوج جبال ألبانيا بعمق يبلغ عشرين قدماً في بعض الأحيان . وأرضها خصيبة إلى حد أنه يمكن جنى ثلاثة محاصيل متعاقبة في العام الواحد . فلا عجب إذن إذا كانت مصر قد أصبحت بلاداً عزيزة الجانب تغص بالسكان ، وإنها لتشبه جزيرة خضراء وسط بحر من رمل الصحراء المنقذ .

وبالمثل يتدفق ، في كل عام ، فيض من مياه ثلوج أرمينيا على الدجلة والفرات ويهبط بفتات التربة ويسطها على وجه الوادي ثم يدفعها ، في شكل دلتا كبيرة ، إلى الخليج الفارسي . وهنا أيضاً ، كما في مصر ، تعلم الناس كيف يتعاونون في العمل وكيف يحجزون مياه الفيضان ويتحكمون فيها بحفر قنوات وأخاديد وبتشديد سدود لتصرف المياه . وقد وضعوا لرفع الأرض حدوداً وقاسوها . وقد كانت محاصيلهم تبلغ في بعض الأحيان ثمانين مثلاً من مقدار التقاوى المبذورة .

ولقد أتاحت وفرة الطعام في مصر والعراق لأهلها فراغاً يمكنهم من .

(١) انظر شكل رقم ١ — (الشرق القديم : خريطة بين أودية الأنهار ، في المساحة التي تقع بين البحار والجبال والصحارى) .

مدارسة الأشياء الأرضية والأجرام السماوية فرصدوا نظام الفصول الأربعة وهيئات النجوم المتبدلة . وتعلموا كيف يدورون المسجلات ويدخرون معلوماتهم لينقلوها إلى بنينهم . والناس لم يتحولوا يوماً عن تقصى الأمور بذلك النوع من حب الاستطلاع الذى ما فتئ يدفعنا إلى تفقد الأركان والأبواب المفتوحة وإلى تعرف كيف تجرى الأمور ثم نحسب ما سوف يحدث إذا فعلنا كذا أو كيت . وهذا بداية دراسة العلوم كما قد يكون الفحص عن قطعة من الخشب أو العظم أو الصلصال بداية الفن .

والمعرفة تنمو مع الحذق كما قد ينمو الحذق مع المعرفة . ولقد كانت للناس ، أبدأ ، أيد ماهرة — أصابع تفكر . وكان بعضهم يصنع الأواني الفخارية خيراً مما يصنعه الآخرون ، فأصبحوا خرافين لا عمل لهم فى غير الفخار ، وعلا شأن هذه الصناعة . وكان هذا شأن صناعات الخشب والقرميد والجلد وسائر الحرف . وبزيادة عدد الحرف زادت التجارة . وحذق أناس ضبط مياه فيضانات النيل ، وكانوا من بين ولاية الأراضين . وكان أقوى الناس حكامهم . غير أن أصحاب التفوق فى القوة أولئك ، كانوا يعتمدون على آراء أصحاب التفوق فى الحذق . فكان الملوك والقواد يظفرون بالفخار ولكن الحكماء والكهان كانوا هم المشيرين الذين يوجهونهم .

وكان المتقدمون الأولون يتساءلون كيف صنعت الدنيا وكيف خلقوا هم . لقد عجبوا للرعْد والبرق والأمراض الخطيرة المفاجئة التى تقضى عليهم وللمذنبات التى تلتهب فى السماء وللظلمة التى تدهم فى الظهيرة كلما كسفت الشمس . لقد أخذوا يعتقدون فى دقوى غير مرئية ، : فى آلهة للحبوب والحصاد والنور والأنهار . وحاولوا أن يصوروا أولئك بالطريقة الوحيدة التى يحسنونها وهى الأصنام . وحاولوا أن يدخلوا عليها السرور بالطريقة الوحيدة التى عرفوها وهى أن يقدموا لهم خير ما لديهم كالحنطة والحيوان بل الإنسان . وعبدت الشمس على أنها إله فى التى تهىء للأرض إمدادنا

بالحصاد وإن كانت تصيب الناس نهاراً بضربات قيظ لا ترحم . وفي كل مكان ، على وجه التقريب ، كان الموتى يدفنون ومعهم الطعام والآثاث يستخدمونه في العالم الآخر . وكان العظماء كالملوك والنبلاء — كما قد نتوقع — تجهز لهم مقابر فاخرة تغص بالآثاث وعظائم الكنوز لحياتهم الأخرى . وإنا لنجد الأولين من الملوك والسكان في السجلات التي نستخرجها ، وبتفحص أثاث مقابرهم نعرف مبلغ حذق الصناعات الذين عاشوا في تلك الأزمان السحيقة .

وفي مصر كانوا يستعملون الكتابة المصورة التي نسميها « الهيروغليفية » وهذه كلمة يونانية معناها « كتابة السكان » . وكانوا يكتبون على صحف من البردى ويلصقون أطرافها بعضها ببعض ويبرمونها ويودعونها قراطيس ملفوفة . وقد حفظ رمل بلادهم الجاف وجوها الصحو كسفاً من كومات من هذه السجلات البردية ، حفظها من الانحلال التام . ونحن نستخرجها من خرائب المدائن القديمة ، وفي بعض الأحيان من قشاشات الأكوام العتيقة لبعض المدائن .

وكان أهل العراق يكتبون على صلصال ناعم بالخط الآشوري الذي تشبه حروفه الأوتاد . وقد سميت كذلك لأن كل سمة كانت تثبت بضغط طرف عصي مثلث الشكل . والمجموعات المختلفة من الأوتاد تكون الحروف المختلفة . وهذه الكتابة لا يصيبها العطب لأنها معمقة على لوحات الصلصال ، ولقد كشفت آلات من اللوحات وتيسرت قراءتها . وإذا استخف اليوم امرؤ ، دون إعمال رويته ، بأولئك النساء والرجال الذين تاهوا في زمان النسيان بعد أن طال عليه الأمد بتعاقب الدهور السحيقة عليه فليعلم بأننا — إذا كنا نقسم أيامنا إلى ساعات تحوى كل ساعة منها ستين دقيقة في كل منها ستون ثانية — فإنما نتبع ما سنّه قدامى فلسكي البابليين .

وتلك وشيخة متينة تربطنا ببابل . وإذا حدثنا أنفسنا يوماً بالاستعلاء على أولئك الأقوام الغريبة فلندكر أنفسنا أيضاً أن العلماء وجدوا، على هذه اللوحات الصلصالية المحروقة الفضة ، نماذج من الجذر التربيعى بل من اللوغاريتمات ، وهذه أمور قد تحير شباب اليوم لدى تعلمهم الرياضيات .

مصر الفرعونية

حكم مصر طوال ثلاثة آلاف من السنين — أسر من الفراعنة . و « فرعون » كلمة معناها « البيت العظيم » كان الحاكم يلقب بها لأن اسمه الخاص كان يقدس إلى درجة يمنع معها تداوله على ألسنة الأدميين . ومن دواعى الأسف أن الكتاب المقدس لا يذكر اسم الفرعون الذى استخدم يوسف أو الذى جعل اليهود يبنون ويكدون من أجله ، وذلك لأن المؤرخين ما يزالون فى ريبه من الأمر . إنهم يعرفون أسماء الفراعنة ، أما تاريخا يوسف وموسى فيخمنونها تخميناً .

وحول سنة ٣٥٠٠ ق . م . انضمت مصر العليا (الوادى) ومصر السفلى (الدلتا) تحت حكم موحد لفرعون اسمه ميناء . وحول سنة ٣٠٠٠ ق . م . بدأ الفراعنة يشيدون أهراماً ضخمة من كتل من الحجر الكلسى (أو الجيرى) ليتخذوها مقابر لهم . ويشغل الهرم الأكبر — لفرعون خفرع — مساحة تناهز الاثنى عشر فداناً ويرتفع إلى ٨٠٠ قدم ، وهو جبل من صنع الإنسان كدسه عمل جسيم ، وروعى فيه مع هذا أن يكون دقيق المقاييس . وعلى مقربة منه قُدَّ ، فى الصخر ، أبو الهول على شكل أسد مهول رابض يحمل رأس خفرع . وقد شيد الفراعنة الأولون ، فى ذاك العهد الباكر ، صفّاً طويلاً من أهرام أصغر حجماً .

ومن حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . بدأ سلطان الفراعنة فى الضعف وسطوة الأمراء فى الازدياد بحيث أصبح كل منهم يحكم منطقته وفق مرامه . ومن

ذاك الوقت أخذ الفراعنة والكبراء من موظفي قصورهم ومن كهانهم ومواليهم (أى أشرافهم) يدفنون ، فى أبهة ، فى مقابر قُدت فى الصخور القائمة على جنبى الوادى . ومعرفتنا الغزيرة بمصر الفرعونية مصدرها تلك المقابر : من النقوش الملونة الحية التى تسكو جدران حجرات الدفن ومن لفائف البردى التى أخفيت هناك . ونحن نعرف مهارة الصنّاع فى صنع الزجاج وفى قطع الأحجار الكريمة وفى تطعيم العاج وتلييسه وفى صياغة الذهب والفضة والفخار . ونجد أجساد الموتى المخططة (الموميّات) ملفوفة فى تيل مغزول يعدل الحرير فى رفته . ونرى نمط السفن التى كانوا يستقلونها فى النيل أو يبحرون عليها فى البحر الأحمر أو فى البحر الكبير إلى الشاطئ السورى لينقلوا خشب أشجار الأرض الذى يستخدمونه فى بيوتهم وأثاثهم . ونقرأ فى لفائفهم معلوماتهم فى الجراحة والعلوم الرياضية . ونقرأ عن تدابيرهم المحكمة للتحكم فى مياه فيضان النهر وعن تشريعاتهم وضرائبهم . ونقرأ عن معتقداتهم عن الآلهة الذين يعبدونهم : عن رع الإله الشمس وعن أوزيريس الذى يموت فى كل عام (كحبوب الحصاد) والذى يولد من جديد فى كل عام (كالتقاوى التى تؤخذ من الحبوب) ونعلم كيف وصلوا إلى الاعتقاد بأن أوزيريس سيحاكم أرواح الناس بعد وفاتهم ويزن حسناتهم وسيئاتهم .

وبينما يتاح لنا فى يسرٍ أن نحس صورة رفاهية عيشتهم ومسرّاتهم التى كانوا يمارسونها فى مساكن بهيجة وحدائق مشرقة تظلمها سماء زرقاء صافية يجب ألا تغيب عن أذهاننا الجماهير التى لم تخلد ذكرها والتى وسعها ، مع ذلك ، أن تتيح العيش الهنىء للفراعنة السّواة . لقد كانت حشود من الأهلين تسكن قرى تغص بالأكواخ المقامة من الحجر والطين وكان السواد الأعظم ، من الفلاحين الفقراء الذين كان يهيء كدهم ، فى كل عام ، الحصاد الوافر ما أكب الحكماء والمشرفون على عمل التقويم والتنبؤ بالفيضانات وقياس الحقول وتخطيط مجارى الماء .

ثم عسكر هذا السلام الطويل غزو آسيوى غريب الأطوار قامت به قبائل تسمى بالهكسوس أو الملوك الرعاة . وهذا الأمر يكتنفه شيء من الغموض وإن علم أنه حدث حول سنة ١٨٠٠ ق م . ويبدو أن الغزاة جلبوا معهم الخيل . ولا علم لنا بوقائع الجهاد الذى بدأ بعد ذلك ، غير أنه بعد طرد الغزاة ظهر صف من الفراعنة البواسل يحكمون من طيبة إلى أعلى الوادى . وكان لدى أولئك ، الخيل والمركبات الحربية ، وقد اقتادوا الجحافل عبر حدود مصر . وأحد هؤلاء : تحتمس الثالث الذى غزا سوريا وترك فيها الحاميات المصرية . فكانت لمصر إمبراطورية . وقد شيدوا معابد فسيحة وقصوراً فى طيبة وفى مشارفها .

وقد أقيمت فى معبد الكرنك عمدة مفرطة فى الضخامة نقشات عليها جميعاً صوراً وكتابات ، وفى وادى المقابر الذى يقوم على مقربة من حواشى الصحراء قبور لأولئك الفراعنة المتأخرين وكبرائهم الذين لحدوا فى سناء الذهب والسدر (الأرز) والعاج ، غير أن معظم تلك القبور عرفه وجرده عن كنوزه ، من زمن بعيد ، لصوص مجهولون .

ومن بين أولئك الفراعنة الأباطرة خلد ذكر إخناتون لأنه حاول أن يبدل دين مصر من عبادة قدامى الآلهة ، وهم الشمس وأمون وأوزيريس ، إلى عبادة إله واحد للجميع ، إله يحرس كل الخلائق بعنايته . وثمة ترنيمة تمجيد لهذا الإله تشبه ماورد فى المزمور ١٠٤ (١) الذى نصه : « ما أعظم أعمالك يارب ، كلها بحكمة صنعت » . ولكن لم يكد إخناتون ميتوفى (وقد توفى شاباً) حتى استرد قدامى الآلهة سيطرتهم على عقول الناس . وخليفته توت عنخ آمون مشهور فى الوقت الحاضر لا بمقتضى ما صنع ولكن لأن مقبرته بقيت دون أن يعسكر صفوها للصوص . وعندما استكشفها

وفتحها مستر هو وارد كارتير في سنة ١٩٢٢ ألفي الناس سناء قبر الفرعون ورواه على جمالهما تماماً عندما ختم بعد الدفن .

وظل من تلوا من الفراعنة يقودون الجحافل مصعدين في سوريا .
ولكنهم لقوا هنالك المركبات والفرسان الذين حشدتهم قوة جديدة ،
قوة الحيثيين .

وظل الفراعنة وملوك الحيثيين ، فترة ، يتناوبون السيادة على أصقاع
الشرق الأوسط .

الإمبراطوريات البائدة ، في الشرق القديم :

لم يكن اسم يوريا الحيثي — قائد حرس الملك داوود — ليعني لنا في
كثيرٍ أو قليلٍ حتى بدأ علماء العاديات يكشفون خرائب المدن الحيثية في
آسيا الصغرى . وكان الحيثيون شعباً ذا بأس وسعة أن يقاتل مصر
وبابل . ونحن نعرف — من لوحات الصلصال التي وجدت في خرائب
الحيثيين — أنهم كانوا يحلون القانون والعدالة أكبر محل من الاعتبار ،
كما أنهم يتصفون بالعدل والرحمة . وكانوا ، إلى ذلك ، يهتمون بقصص
الحكايات من أجل الفن ذاته ، أو كما نقول نحن بـ « الأدب » . وإن اهتمامنا
بهم ليزداد فلقد بدأنا نظن أن الإغريق — الذين ندين لهم بمدنييتنا لهم ،
هدينون لهم بدورهم ، بالشئ الكثير . وهم — كالإغريق — هنود أورييون .
وتدفعنا عبارة « هنود أورييون » ، إلى الاستفهام : من أين وفد ، في .
البداية ، أسلاف الناس كافة ؟

وليس هناك جواب يقيني . ولكن في وسعنا أن نقف أسلاف
الشعوب والقبائل مصعدين إلى العصور الموهلة في القدم ثم نحاول أن نردّهم

إلى مكان يبدأون منه . ومن هذه الأماكن : الجزيرة العربية فمنها جاءت الشعوب « الكثيرة » — كالبابليين واليهود والأموريين والفينيقيين والإراميين — الذين كانوا يتكلمون لغة سامية الطراز . وهؤلاء لم يفدوا دفعة واحدة بل على دفعات تفصل بينها فترات طويلة من الزمان . ويبدو كأن قبائل البوادي وأشباه البوادي تتسكأ حتى تضيق بهم الأرض ويقصر عن كفايتهم الطعام . فإذا برز من بينهم زعيم شديد المراس أغاروا على أرض جيرانهم .

ومن أماكن البداية الأخرى الأراضي الحضراء في أقاصى آسيا شألى بحر قزوين وشرقية . ومن هنا جاء أسلافنا نحن من هنا جاء كل الأوام التى تتكلم لغات هندية أوروبية . وذهب بعضهم إلى الهند . واثنى آخرون إلى بلاد الفرس . وهبط آخرون — الحيثيون والميتانيون — أكثر أصقاع آسيا قرباً . وقصد غيرهم — وهم من يسمون بالفيرجيين والإغريق — إلى آسيا الصغرى واليونان . ورحل آخرون — وهم الغال — إلى آسيا الصغرى وشمال إيطاليا واستقروا آخر الأمر فى فرنسا (التى كانت تسمى يوماً بلاد الغال) . وتوجه من يسمونهم بالجرمان إلى أوروبا الوسطى . ثم اتجه من يطلقون عليهم اسم السلاف ، إلى السهل الأوروبى الكبير . ويتضح من هذه القائمة نفسها كيف كان رحيلهم : رويداً صوب الغرب فى مدى آلاف من السنين . تحركت الالويات من الأسر والعشائر والقبائل جنوباً صوب أكثر الأصقاع دفئاً وفى اتجاه البحر الأبيض المتوسط . وظهر الحيثيون فى أقرب مناطق الشرق الأوسط عام ٢٠٠٠ ق م . ودخل الغال إيطاليا بعد ذلك بأكثر من ألف سنة . والناس ، عندما يتحركون جملةً ، يتحركون على مهل .

وموضوع حكايتنا ، فى الوقت الحاضر ، مقصورٌ على الشرق الأوسط : توجد — بين الجزيرة العربية والأراضي الحضراء بآسيا فى عهودها البالغة .

القدم وراء بحر قزوين — توجد منطقة تحوى مجموعةً من السلاسل الجبلية ينساب منها نهر الدجلة والفرات هابطين سهول العراق إلى الخليج الفارسي . وهذا الصقع الذى يضم الجبال الخضراء وأهداب الصحارى والسهل الباسم كان كله مسرحاً لامتزاج تطاحن هاتين المجموعتين من الشعوب وهما السامية والهندية الأوربية . لقد كانت تعمُـرُ بالمدائن والناس ، والمعابد والتجارة ، والصناع والكهان ، وبجماهير من الفلاحين الكادحين والرعاة ، وبالغزاة وجحافلهم الزاحفة وبالمحاصرات الحربية وجلبتها وبحشود من الأسرى والعبيد . وكان ذلك منذ نيف وألفين من السنين ! أما الآن فهي مقبرةٌ لإمبراطورياتٍ بائدة ، كالجبانة ، تحوى نصباً تذكارية صامته واستحكامات ضخمة كلٌّ منها طائفة من الخرائب المتداعية لأحدى المدائن . وكلما تهدمت أو هدمت البيوت القديمة والأسوار التى أقيمت من الحجر أو من لبنات الطين كانت أماكنها تمهد وتقام عليها بيوت جديدة ، وبهذا تزايد الارتفاع . فإذا حدث التدمير النهائى وأصبحت المدينةُ فلاةً موحشة تعاقبت عليها الرياح والأمطار وحولتها إلى رابية عالية تصون مخلفاتها المنسية من الآثار البالغة القدم كالآوانى الفخارية والخرز والمصنوعات العاجية والحلى الذهبية والفضية وغيرها من المصوغات وعن اللوحات المكتوبة والحجارة المحفورة ، وما يزال الكشف عنها يجرى إلى اليوم .

ولدينا معلومات عن مدائن فى سهل الجزء الأسفل من الدجلة والفرات يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ٣٠٠٠ ق.م . ، مدائن استخدم أهلها الأدوات النحاسية وحرثوا حقولهم بمحاريث تجرها الثيران كما استخدموا مركبات ذوات عجلات بدائية . وكانوا يكتبون حروفاً تشبه الأوتاد أو كتابات آشورية على لوحات من الفخار . ولقد شقوا قنوات ، كقنوات مصر ، جلبت مياه الفيضانات إلى داخل أراضيهم . وكان لكل مدينة إلهها المختص بها وملئها الذى شغل فى الوقت نفسه وظيفة كاهن الإله . ولقد بنى

المعبدُ — الذى ارتفع عالياً فوق المدينة — من قوالب من الطين مربعة جسيمة مع ميل جوانبُ جدرانها قليلاً نحو الداخل وذلك من جزئها الأعلى الذى يرتكز عليه المكان المقدس المخصص للآله .

وفى الخارج كانت ترتفع بمجموعات من الدرج ، من الأرض حتى القمة . وقد احتاج بناء تلك المعابد — كما احتاجت أهرام مصر — إلى تخطيط دقيق وإلى إستخدام آلاف من الرجال ، ربما كانوا من العبيد .

ويتسنى لنا أن نرى — من الخطوط التى صورت الراحة العابسين ، المنقوشة على الأحجار — أن مدائن السهل السومرية تلك ، كان يؤقد نيران الحروب بعضها ضد البعض ، عندما ينطلق الملوك ليحاربوا ، فى ربيع السنة . وربما كانت الحدودُ سبب النزاع المتكرر . وتسجل اللوحات أسماء ملوكهم الغريبة . ولنا أن نستنبط الكثير عما كانوا يعتقدون وعما كانوا يعرفون . وقد أميط اللثام فى إحدى حفائر مدينة (أور) — موطن إبراهيم — عن سمات لطوفان ربما يكون قد أغرق السهل جميعاً ، كما كشف عن مقبرة أميرة ضحى — لدى دفنها الباهظ النفقات — ببلاط بأسره من الاتباع والحراس ووصيفات الشرف ، ليصبحوا مولاتهم إلى العالم الآخر . ولقد كان الأثاثُ والمصنوعات المعدنية الثمينة ، التى ووريت فى ذاك القبر المذهل ، من أنواع لا يُعلى عليها رسماً وصنعة . ومن الأمور التى تسترعى النظر فى تلك المدنيات الباكورة أن الصناعات ما يكادون يفقهون كيف يشتغلون على الخشب أو النحاس أو الذهب أو الحجر حتى ييئغوا من فورهم مستوى ممتازاً من البراعة . وهكذا نرى أن المدنيات تصنعها الأيدي .

ولسنا ندري من أين أتى أولئك السومريون . والذى نعلمه علم اليقين أن رجلاً من ذوى النفوذ اسمه سارجون ، وهو من زعماء الساميين ، قادر ماحيه ذوى اللحى — حول سنة ٢٥٠٠ ق.م. — جنوباً . إلى السهل

ونصب نفسه سيداً على جميع الأراضى الواقعة شرقاً وغرباً بين جبال فارس والبحر الأبيض المتوسط ، وقد صاحبت الشهرة اسمه قروناً . وتصور الأكوام الضخمة من اللوحات التى كتبت فى زمانه ، دنيا كان فيها الناس يمسكون دفاتر حسابات مضبوطة ، والعلماء يدرسون الرياضيات ، والصبيبة يمارسون الرياضة البدنية . وإنا لنقرأ الرقى والتعاوين التى كانت تتخذ لإرضاء الآلهة أو لتخويف الكثير من الشياطين والأرواح الشريرة وطردها . وهنالك حكايات عن أبطال قدامى وعن خلق الدنيا .

وحول سنة ٢٠٠٠ ق.م. دخلت سلالة جديدة من الساميين نسميها الآموريين وأصبحت سيدة الوادى وحكمت من بابل . ولدينا مسجلات عن أكبر ملوكهم ، واسمه هامورابى . ولدينا رسائله التى فيها كان يرسل الأوامر إلى ضباطه وولاته ، وكلها كتبت على الفخار وأودعت أغلفة من الفخار . ولدينا كذلك حجر نقش عليه الدستور الكبير لشرائعه ، التى يذكرنا الكثير منها بشرائع اليهود ، مثل تلك التى تنص على أخذ العين بالعين والسن بالسن ، . وتنبئنا هذه الشرائع كذلك بأسس المعاملات فى بيع العروض والبيوت وشرائعها وبالمتبع فى دفع أجور الصناع وفى اقتراض المال وتأدية الديون . فكانت تلك إذن إمبراطورية غنية عزيزة فيها الكثير من المدائن والمعابد والكهان والمسجلين ومن خدام الملك والأشراف والعمال والفلاحين والتجار ، يسرى عليهم جميعاً قانون واحد ويخضعون لسلطان ملك واحد . لقد كانت إمبراطورية مترامية الأطراف . وكانت تعتمد فى مواصلاتها على الخير ، تماماً كما كان شأن بقاع عديدة من الشرق الأدنى إلى ما قبل العصر الحديث . ولنا أن نسميها مدينة الخير كما يكون لنا أن نسميها مدينة الفخار . فلقد كانت البيوت ولوحات الكتابة من الطين والفخار . بل لقد كانت رزم بضائع التجار تمهر بصرارات من الفخار مختومة كلها ، على ما ينبغى من الضبط ، بخاتم صاحب البضاعة .

وحول ١٨٠٠ ق. م. دب في إمبراطورية بابل الضعف والانحلال وتعرضت لغزوات من الشمال والجنوب . ودخل الحيثيون أراضي آسيا الصغرى وشمال سوريا حيث بدءوا يؤسسون دولة عظيمة ، وأقامت أمة هندية أوروبية أخرى تستخدم الأفراس ، اسمها الميثاني ، ملكها على الفرات . وجلب أولئك الناس الحصان إلى الشرق القديم حيث عرف ، أول ما عرف ، على أنه « حمار آسيا » . ولم يستطع كثيراً ملك الميثاني وإن يكن قد استطال مدة كفت لعقد محالفة مع مصر ولإسقاط إمبراطورية بابل . وعلينا أن نتذكر دواماً أن ظهور شعب جديد لم يكن ليغني فناء الأهلين السابقين . نعم كانت هناك مصادمات مستمرة ولكن الأمر كان ينتهي غالباً بحدوث امتزاج تدريجي .

ومن الجنوب تجمعت شعوب تسمى الآراميون مصعدةً من الأطراف الصحراوية للجزيرة العربية وأسست ممالك في مدن عديدة أشهرها دمشق . ونحن نقرأ عن تلك المملكة في التوراة التي تصور لها حليفةً لمملكة اليهود الشمالية . ولقد نشر أولئك الآراميون لغتهم ، في الشرق الأدنى كافة ، نشرأ بلغ من القوة أن اليهود ظلوا يستعملونها في زمن عيسى عليه السلام . وأسست شعوب سامية أخرى مدائن تجارية كبيرة في صور وصيدا على الشاطئ السوري ، ونحن نعرفهم باسم الفينيقيين وهم البحارة والتجار الذين كانت سفائنهم تحمل سلعهم إلى أسبانيا وربما إلى بريطانيا . وأكثر من عرف من الشعوب السامية اليهود . وموعد دخولهم الأرض المقدسة لم يعرف بعد على وجه التحقيق ، فالكتاب المقدس والحفائر لم تتفق على تاريخ . وقد لا نبعد كثيراً إذا حسبنا أنه ١٥٠٠ ق. م. فلقد عاش الملك داوود حول سنة ١٠٠٠ ق. م. وفي عهده كانت قوة الحيثيين قد اضمحلت ، غير أن قوة بابل لم تتعرض له بأذى .

واضحلت إمبراطورية بابل ، واختفى ذكر الميثاني من السجلات .

وظل الحيثيون والمصريون يصطرون حتى توقفوا وبعد ذلك قهر الحيثيون الفريجيون وهم من سلالة هندية أوربية دخلت آسيا الصغرى . وكان هؤلاء الوافدون الجدد جزءاً من شعوب كثيرة نزحت إلى الأصقاع الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . وحول سنة ١٤٠٠ ق.م. عكر صفو المنطقة كلهم رجال مسلحون تحت إمرة زعماء ، وكان الحرب والدمار . وأبحر بعضهم بإزاء شاطئ مصر وقد سجل فرعونها : « لقد تعكر صفو الجزر ولم يتصد أحد لمقاومتهم » . وكان الوافدون الجدد من الشمال وقد طلعوا بالهلاك على أولئك الذين وجدوهم أحياء حول شرق البحر الأبيض المتوسط .

غير أن قوة جديدة كانت تنهض في بابل وهى قوة ملوك آشور . ولقد كانوا هناك دائماً . وبعد اضمحلال كثير من الدول الكبيرة عقدت لهم الزعامة وخلقوا إمبراطورية آشور الحربية .

قوة كريت البحرية وقوة آشور البرية :

والشعوب التى عكرت صفو الجزر وطردت حاميات فراعنة مصر هى أسلاف الإغريق . وأغلب الظن أنهم بدءوا يتحركون منذ حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م . عبر آسيا وإلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان . ولقد أخذت هذه الشعوب إلى البحر ودّمرت مدينةً ظللنا نجهلها تماماً إلى ما قبل ستمين عاماً ! وتلك هى مدينة مينون الكريتية .

ولقد كان مينوس ملك كريت أول من سادوا البحر . هكذا قالت الأسطورة الإغريقية . ونحن لم يتسنّ لنا فهمها حتى كشف السير آرثر إيشانز — فى سنة ١٩٠٠ — خبايا أكمة كنوسوس فى كريت ووجد أطلال قصر ، بهاؤه يفوق المعقول . وكانت مئات اللوحات التى يحويها تحمل كتابات غير معروفة ولكن كان واضحاً أن مدينة مينوس هذه قامت قبل قرون عديدة . ولقد أبرزت نقوش الحوائط — التى نقشت فى مقدرة فنية عظيمة —

فساء يرتدين أرفالاً ذوات أهداب ، ورجالا يلبسون مناطق على الخصرين وأحذية عالية ! وهناك صور بالغة الوضوح لاصطياد الثيران والزخارف البهية تتخذ من الأزهار . وهندسة البناء قوية التأثير جميلته : أبهاء فسيحة ، وطرائق للسلام نفمة ، وقبة حقيقيّة من الحجرات لحزن المؤن . ولقد لفت هذا الاستكشاف أنظارنا إلى معاقل ميسينيا وتيرينز الهائلة على برّ بلاد اليونان الأصلي الذي وجد فيه سليمان كنوزاً من المصنوعات الذهبية والفخارية الجميلة التي أتضح الآن أنها من طراز مينوس .

هنا قامت إمبراطورية نسيت كل النسيان . ولقد طابقت أسطورة مينوس الإغريقية . ولكن بقي أمامنا لغز .

لقد كانت ميسينيا معقل المدينة الشهير لأجاممنون الذي قاد الملوك الإغريقين ضدّ طروادة . وهذه هي الحكاية التي رواها (هومر) ولكن ليس في مقدورنا أن نطابق الأزمنة بعضها على البعض : ويبدو أن شخصاً ما عاش في ميسينيا وحكم قبل أجاممنون . ولقد صدق قدماء الإغريق الذين قالوا إنه كان هناك رجال عظماء قبل أجاممنون . ولغزنا هو : مَنْ كان هؤلاء ؟ ربما نستطيع — يوماً — أن نعرف ذلك من كتابات اللوحات — الموجودة في كريت وميسينيا ، التي بدأنا في قراءتها .

ويبدو أن الصورة — بصفة عامة — كما يلي . غزا كنسوس — في كريت ، حول سنة ١٤٠٠ ق . م . — أعداء مجهولون وانتهت سيطرة ساداتها على جزر البحر . وهجر القصر والتمتته النيران . ومن آثار الحريق نستطيع معرفة اتجاه الريح إذ ذاك . وحول تلك الحقبة طارد الفرعون رمسيس بعض الملاحين ، المغامرين المتهورين وردّهم عن شاطئه . وألقاب أولئك الرجال مألوقة لنا : السردينيون والصقليون والفلسطينيون . ويقال إن أولئك الآخرين — الذين نراهم جنوداً يلبسون خوذة واسعة يُزينها الريش —

وفدوا من كريت . وهبطوا الشاطئ السورى وبنوا خمس مدائن ، لساداتهم
سادات الفلسطينيين الذين حاربهم شاوول وصادقهم داود . ولقبوا البلاد
جميعاً بلقبهم : فلسطين أو أراضى الفلسطينيين .

ومدى استمرار هذه الاضطرابات لاعلم لنا به ولكنه ، على أية حال ،
امتد زماناً كفى لمحو كل ذكر لكريت من أذهان الناس ، وأجمل ثمة
فى تسلسل المدنية . وكانت تلك هى العصور المظلمة التى اختفت فيها السجلات .
ولم يزد الإغريق التاريخيون — الذين صنع أسلافهم تلك الأشياء — وهم
والآخيون الشقر ، والدوريون الذين نهبوا المدن وحرقوها — على أن
حكوا حكاية طروادة . وليتنا نعلم حقيقة ما حدث وسبب نسيان كل شئ
عن ذلك .

وعلى هذا صار فلسطينيو القصة اليهودية القديمة إلى قوم يجانسون
الإغريق . والتقت أساطير أذكى شعبين فى التاريخ القديم — وهما اليهود
والإغريق — فى تلك الحقب المبهمة .

والتقت القصة اليهودية التاريخية مع قصة الإمبراطورية الآشورية .

وفى أعلى نهر الدجلة على حافة منطقة التل الحجرى تقع مدينة آشور
التي ألفى أهلها — وهم من الساميين — أنفسهم ، قروناً ، يعيشون على الحدود
الدائمة المقاتلة لشعوب كبيرة : البابليين والميتانيين والإراميين والحيثيين . ولقد
تعلموا الشئ الكثير من كل أولئك وأصبحوا — ككثير من الشعوب التى
تقع على الحدود — يخذقون الحرب . وقويت شوكتهم بعدما أخذ البابليون
فى الضعف بوقت قصير غير أن نهوضهم كان بطيئاً أول الأمر . ولقد
وجدناهم يتاجرون فى أنحاء الشرق وقد بدوا أمة صغيرة من الزراع والتجار
وإن تكن ذات حيوية . ثم تحت إمرة سلسلة من الملوك المحاربين القساة
المقتدرين — اكتسحوا أمامهم الجميع : غروا بابل وهبطوا مصر منتصرين .

فلقد قاد سارجون — الذى تسمى باسم الفاتح الذى سبق عهده بقرون —
وتيجلاث وپایلزر وإسرحدون وميننا خريب ، قاد هؤلاء إلى كل مكان
جيوشهم المرعبة : نبألتهم وفرسانهم ومركباتهم الحربية وكباشهم الضخمة
(وهى آلات حربية لكسر الأسوار) التى بها دمروا أسوار المدن ولم يكتفوا
بالغارات السنوية التى شنها الأباطرة الأولون ، فقهروا البلاد التى استولوا
عليها ودمروها وبثوا فيها الضباط والحاميات . وأنشأوا إمبراطورية منظمة
وتوسلوا لذلك بالغزو العنيف . ولقد وصفهم نبي يهودى بقوله :

« وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة
قتلى ولا نهاية للجثث » .

وقد عاش أولئك الملوك الآشوريون القساة فى القرنين الثامن والسابع
ق . م . وكانوا — بجميع أمثالهم من الحكام الأقوياء — جدّ معنيين
بالإنشاء والتعمير . وفى الحقّ أنهم عاشوا فى نعيم وارف الظلال . وقد
اتخذوا نينوى عاصمة لمملكهم ، ونينوى مدينه تبهر العين بقصورها ومعابدها
اللامعه بقرميدها الملون ، المزينة بتماثيلها العملاقة . ولقد نقش فنانون
مجهولون على الجدران مناظر صيد بهيجه . وكانت الحدائق ، تغطى بألوان
شتى من النباتات النادر الذى ينمو فى كل البقاع التى يحكمونها ، وترتوى بمياه
قناة تمر فوق قناطر طولها ثلاثون ميلا .

ولقد كابدت الإمبراطورية الآشورية من تغير الحاكين فى سنه ٦١٢
ق . م . وذلك عندما أغتصب الحكم السكديانيون وهم شعب سامى آخر
من الجنوب . ويتصف أولئك السكديانيون بالذكاء والرحمة . وإنا لندين
لحكائهم بكثير من معلوماتنا الباكرة عن النجوم . ولقد أعاد بناء بابل ،
بختصر أعظم من حكم الإمبراطورية من السكديانيين . وهو الذى استولى
على بيت المقدس سنه ٥٩٧ وأسر اليهود ونقلهم إلى جوار مياه بابل .

وما إن انقضى على ذلك ستون عاماً حتى تسلم مقاليد الحكم شعب آخر، وكانوا — في تلك المرة — الهنود الآوريين، وهم من نسميهم بالفرس .

وإننا لندخل — مع الإمبراطورية الفارسية — تلك الحقبة التاريخية المدونة أخبارها في كتب القدماء من الإغريق والرومان . إنها الحقبة التاريخية التي عرفها أسلافنا قبل أن يبدأ علماء العاديات في التنقيب عن الماضي السحيق . إنها قصة الإمبراطوريات الكبرى الثلاث وهي الفارسية واليونانية والرومانية التي تعاقبت بهذا الترتيب . ونهاية القصة أن الرومانيين استولوا على كل تلك البقاع التي حكمها ، أول الأمر ، الآشوريون ثم الفرس ثم الإغريق . وبذلك جمعوا كل شعوب البحر الكبير تحت حكم واحد في الشرق والغرب وأدى العالم أجمع الخراج لقيصر . فنحن إذن أبناء الإمبراطورية الرومانية .

ولقد زال البابليون والحيثيون والميتاني والكريتيون والآشوريون بصفاتهم شعوباً متفرقة . ولا مزية أن سلاسلهم موجودة معنا اليوم ولكن أمجادهم وأعمالهم دخلت في زوايا النسيان أو حورت إلى أساطير .

وثمة شعبان آخران لعبا أدوراً هامة في الحكاية التي درسها أسلافنا ، وهما اليهود والقرطاجنيون . فاليهود لم يؤسسوا إمبراطورية مادية إلا أنهم ذوو حيوية . ولقد احتفظوا بتاريخهم في كتابهم المقدس : العهد القديم .

أما القرطاجنيون فقد غزاهم الرومان . ولم تصل إلى أيدينا كتابات قرطاجنية . وقرطاجنة الآن فلاة بلقع على الشاطئ الإفريقي للبحر الكبير ، ولا يعلم أحد من هم سلالة مواطنيها الأباة . والفرس واليهود والإغريق والرومان ما يزالون اليوم موجودين . غير أنه من المستحيل أن يكونوا على حالهم لم يتغيروا بعد كل هذه الأجيال وبعد كل تلك القرون المضطربة .

الفرس :

في سنة ٥٣٨ استولى كيروس (أو قورش) الفارسي على عرش الملوك السكديانيين وعلى إمبراطوريتهم .

ولقد كان زعيماً نبيلاً وحاكماً حكيماً رحيماً . وهو لم يستعبد الجماهير
يَسْتَهْمُ بالسوط أو يخرب آبار الماء كما سبق أن فعل الملوك الآشوريون
المتعطشون للدماء . وكبروس هذا هو الذى أعاد إلى بيت المقدس الأواني
الفضية والذهبية التى كان يختنصر قد استولى عليها على أنها غنائم حربية .
وهو الذى رخص لليهود — الذين كانوا يحيمون حياة الأسرى — بأن يعودوا
إلى فلسطين كي يعيدوا بناء معبد إلههم فى بيت المقدس وقد أمتدت
فتوحه غرباً حتى المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى ، غير أن أهله كانوا
يعدونه جباراً صديقاً فاتحاً صارماً .

وقاد ابنه قمبيز جيشاً عبر شمالى البقاع الصحراوية الواقعة خلف جبال
لبنان وهبط ساحل سورية وفلسطين الخصيب ثم اخترق صحراء سيناء
الجنوبية ودخل مصر وقد فتحها للفرس .

وكان الملك القوى الذى حكم بعده هو دارا الأول الذى حكم من ٥٢٢
إلى ٤٨٦ . وفى حكمه امتدت الإمبراطورية الفارسية من الهند إلى حدود
الحبشة (إثيوبيا) فى إفريقيا ، وشمالاً إلى شاطئ البحر الأسود . وإن
نظرة للخريطة فاحصة لهى أفضل من قراءة صفحات فى تصوير هذه
الإمبراطورية التى كونت كتلة ضخمة والتى كانت يوماً مهد حضارات قديمة
ثم أمست الآن وقد تناثرت فيها الأطلال .

ولقد لقب دارا الأول — بحق — « ملك الملوك » . فلقد حكم « مائة
وعشرين إقليماً » ، حسبما ورد فى الكتاب المقدس . وحوث إمبراطوريته
حشداً من شعوب تتكلم لغات عديدة . وكانت سفنه — التى يعمل فيها
ملاحون من الهند — تقوم من البحر الأحمر إلى الهند . أما سفنه التى
يعمل فيها ملاحون . من صورو صيدا فكانت تبحر إلى غرب البحر الأبيض
المتوسط . ولقد تكوّن جيشه من فرق من كل أجناس البشر ، بعضها نصف

متوحش يتخذ صنوفاً خيالية شتى من الأسلحة والملابس والعمرات (١) ،
وعلى رأسها الخالدون ، وكانوا عشرة آلاف من شباب أعرق أسر
الفرس تحت إمرة الملك ذاته .

وكان الفارسيون شعباً وسيماً قوياً وبأسلاً مقدماً منصفاً كثير التفاخر
بأسلافه . ولقد عبد رعاياهم كل ما يعبد في الأرض من آلهة وأوثان وشياطين ،
وزاد اعتقادهم في السحر . أما هم أنفسهم فقد عبدوا إله النور والحق والخلق
وأسموه أهورامزدا . ولم يكن هذا الإله ليكشف لحظة عن محاربة إله الشر
والأفك والتدمير المسمى أهريمان . وكان حقاً على كل المؤمنين أن يساعدوا
أهورامزدا في حربه السرمدية ، وذلك بأن يحيا حياة خيرة ويقسطوا في
كل أعمالهم وينطقوا بالصدق . وهذه الشريعة هي التي حدثتهم إلى إحسان
معاملة اليهود الذين دانوا كذلك بإله عادل .

ولقد توسل دارا وخلفاؤه ، في حكم إمبراطوريتهم بإنشاء الدروب
والطرق العامة الممهدة الطويلة التي تمتد مسافات عظيمة للوصول بين الشرق
والغرب والشمال والجنوب . فلقد امتدت طريق ملكية ، ١٦٧٠ ميلاً ، من
سوسة إلى مدينة إيفيسوس ، وامتدت طريق أخرى إلى داخل الأراضي
المصرية . وإلى كل ذلك أنشئت طريق عبر جبال الشرق المقفرة واستطالت
حتى دخلت وادي نهر الأندوس بالهند . وعلى طول تلك الطرق ركب خيالة
البريد الملكي ورسل الملك وقوافل التجارة وحاشية الملك نفسها كلها ارتحلت
من مدينة إلى مدينة .

ولقد اتخذ ملوك فارس مدائن وقصوراً ملكية عديدة ، وفيها عاشوا في
أبهة ونخامة عظيمتين . ولقد كان القصر الملكي يزود بعمد الرخام وخشب

(١) العمرة (بفتح العين) كل شيء يجعل على الرأس من تاج وعمامة وغيرها .

السدر (الأرز) ويحتلى بحلى من الذهب والعاج والأبنوس والفضة والحجارة
الكريمة كالعقيق الأحمر واللازورد (١) تصنع كلها وتثبت فى مواضعها على
يد صناع مهرة يستقدمون من بلاد قاصية ودانية : من مصر ، ومن المدائن
الإغريقية ، ومن صور والجبال الشرقية . وكانت الحوائط تغطى بصور ،
مطليه بالمينا ، لثيران ومباع لها أجنحة ، على النمط البابلى . ولقد زودت
تلك القصور بكثير من الطنافس والأستار النادرة . ويصف كتاب « إستر »
كيف كان الملك يولم بقصره فى ساحة حديقته حيث كانت توجد « أستار
بيضاء وخضراء وزرقاء معلقة بجبال من كتان دقيق أرجوانى إلى حلقات
من فضة وأعمدة من رخام وأسرة من ذهب وفضة على طوار (ممشى
مرتفع) من المرمر الوردى والأزرق والأبيض والأسود .

وكانت أقاليم الإمبراطورية تسمى « المرزبانيات » لأن كلاً منها يحكمه
المرزبان ، الذى يصح أن نسميه نائب الملك . وكان هؤلاء ينوبون عن الملك
فى جباية الخراج وضمان العدالة وتعبئة الجيوش . وهم لم يلجأوا إلى إزعاج
الشعوب ما أدوا الخراج وما احتفظوا بولائهم . وهم لم يكرهوهم على عبادة
هذا الإله أو ذاك . ولقد حرص دارا وخلفاؤه على مراقبة المرزبانات
ليعرفوا هل هم يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل .

ولمذن فالإمبراطورية كانت شيئاً جديداً فى التاريخ ، شيئاً قوياً
بالترحيب لأنه حل محل الإمبراطوريات السابقة التى كانت تلجأ إلى القهر
والرعب وعبادة الآلهة المتعطشة لسفك الدماء . ومن أجل ما يذكرنا
بالفرس ، العبارة التى تصف تنشئة فتيانهم : « الفروسية والرمى بالقوس
وقول الصدق » .

(١) اللازورد معدن مشهور يتولد بجبال أرمينية وفارس ، وأجوده الصافى الشفاف الأزرق
الضارب إلى حمرة وخضرة ، يتخذ للحلى ، وله منافع فى الطب .

الإغريق :

من كان الإغريق ؟ تشترك الأساطير غير الواضحة وعلم العاديات في رسم صورة لشعوب انحدرت جنوباً وأحدثت شغباً وبلاء لجميع الشعوب التي عاشت حول البحر الإيحيى (الإغريق القديم) . وقد انمحي كل ما يذكرنا بالمدينة المينوية إلى حد أن أحداً لم يعد يتذكر من هم الذين حكموا ميسينيا الذهبية وهي الحصن المنيع الذي يعلو السهل « أرچفى » (أى الإغريق) .

ولقد أنشد الشاعر الإغريقى (هومر) ملحمةً حماسية عظيمة عن حادثة في حصار طروادة الذى قام به ، طوال عشر سنوات ، أمراء إغريقيون متحالفون بزعامة أمير من ميسينيا اسمه أجاممنون كما أنشد ملحمة أخرى عن عودة الأمراء الإغريقيين إلى الوطن وعن رحلات واحد منهم اسمه أوديسيوس . وقد وقعت تلك الحوادث « بعد » تدمير كريت و « قبل » البدء فى تدوين التاريخ الإغريقى . إنها تسبح « فى الهواء » كما يقولون وإننا لنعجز عن إيجاد الدليل الذى يرفعها إلى صف الحوادث التاريخية المعروفة . إنها تماثل حكايات الملك آرثر وفرسانه التى تحدثنا عن أشياء وقعت « بعد » سقوط روما ولكن « قبل » بداية التاريخ الإنجليزى المدون .

وعلى هذا يكون قصارى ما لدينا عن مجيئ الإغريق هو مايلي : فى مكان ما حول سنة ١٨٠٠ ق.م. بدأ أسلافهم يرتحلون جنوباً عبر ممرات الجبال إلى البلقان وإلى بلاد اليونان حيث ملكت سلالاتهم الشواطىء وجزر البحر . وقد عرفهم الإغريق الذين جاءوا بعد ذلك باسم « الأخيين الشقر » والأيونيين والدوريين . وارتحل الهنود الأوربيون بعد هذا إلى ما وراء ذلك من ناحية الغرب وهبطوا إيطاليا وبلاد الغال . ثم ارتحل بعد هذا كله حشد كبير إلى الأراضى الألمانية . ولنا أن نتصور كل هذى الشعوب وقد تبعثرت فى أصقاع مثرامية ابتغاء مراع جديدة ومساكن جديدة ، العام

تلو العام . وبما أننا نحن أنفسنا نعدّ ضمن سلاّاتهم التي لا حصر لها فإن من الشائق معرفة ما ختمته العلماء في صدد منوال حياتهم في العصور البائدة قبل أن يبدأوا رحلاتهم ، قل حول سنة ٣٠٠٠ ق.م .

كانوا يغزلون وينسجون ويلبسون أحزمةً على خصورهم وأرديةً فضفاضة ويربون الأبقار والخنازير والأوز . وكانت عندهم أنيار (١) ومحاريث ومركبات لها عجلات . وقد صنعوا الخبز الفطير (أى غير المخمر) وكانوا يسكرون بعسل النحل بعد تخميره ، ويسكنون أكواخاً من الغصون لها فتحات أو نوافذ . ولقد برعوا في ركوب الخيل . ثم إن تلك العشائر التي أدركت الأمور بأحاسيسها إدراكاً مبهماً والتي رحلت في تجمعات بطيئة صوب دنيا البحر الأبيض المتوسط مستصحية مركبات وقطعانا من الماشية ساقتها معها من المراعى الآسيوية — تلك العشائر ألفت الحصان البرى وجاءت به إلى الدنيا القديمة المتمدنة . إنه ، بلا ريب ، من مشخصات ماضينا الهامة إذ أن مجيئه غير صورة الحياة . ومن سهولة قياده وقوته جاء فارس آشور وبلاد الفرس واليونان وروما . ولقد ظلّ الخيال المسلّح « أى الفارس » يسيطر على الناس حتى اخترعت المدفعية . وفي وسعنا أن نرى التأثيرات التي طبعها على عقول الناس مجيء الخيالة في كلمات النبيّ العبرى ناحوم الذى يقول « صوت السوط وصوت رعشة البقر وخيل تخبّ ومركبات تقفز » .

وكان ناحوم يتحدث عن الآشوريين . على أن الخيل والمركبات الحربية لها دورها في حكايات (هومر) عن الإغريق وأهل طروادة .

ومن نظرنا الأولى إلى إغريق الحقب المدوّس تاريخها ندرك أنهم

(١) أنيار جمع نير (بكسر النون) وهو الخشبة المعترضة بعنق الثور أو الثورين لجر المحراث .

عاشوا في مدنٍ مستقلةٍ كلٌّ منها عن الآخريات . وكانت كلٌّ مدينة مع ما يحيط بها من مزارع تكون دولةً منفصلة تسمى (پوليس) . وفي بعض الأحيان كانت إحدى المدائن ترسل زمرةً من مواطنيها لتنشئ في مكانٍ آخر ابنةً للمدينة . وتتمتع هذه الابنة باستقلالها التام وإن ربطتها وإياها بطبيعة الحال — صلات القربى وإننا لنجد ، في القرنين الثامن والسابع ق.م . ، آثار المدائن الإغريقية في أنحاء بلاد اليونان كافة : في الجزر وعلى شواطئ آسيا الصغرى والبحر الأسود وفي صقلية وعلى الساحل الإيطالي وعلى سواحل إفريقيا بل على السواحل الفرنسية ، في مرسيليا مثلاً . ومع أن كلاً منها تتمتع باستقلالها التام فإن مواطنيها جميعاً كانوا يعدون أنفسهم شعباً واحداً وينظرون إلى غير الإغريق كافةً على أنهم « بربر » ، ويحسبون كلامهم لغطاً لا معنى له . فلقد كانوا يقسمون الدنيا إلى إغريق وبربر .

وهم لم يتعلموا قط أن يعيشوا في ولايات كبيرة على شاكلة إمبراطوريات آسيا القديمة أو الأمم الحديثة . ومع هذا فإن شعباً ما لم يهتم بالتعمق في (السياسة) اهتمامهم بها . و (السياسة) كلمة معناها — كما يحتمل أن تكون قد نحتت — « شئون (الپوليس) أي المدينة » . ولقد تباينت أساليب حكمهم أنفسهم . فكانوا تارة يحكمهم ملكٌ ، كما في إسبرطة . وطوراً ينصب رجلٌ قوى نفسه حاكماً بأمره يتصرف وفق هواه ، ولقد ظهر — في بعض الأحيان — من هذا الطراز ، الحاكم الصالح . وحيناً يحكم الأشراف ، وكان هذا يسمى بـ (الارستقراطية) . وأحياناً يشترك في الحكم المواطنون جميعاً . وكان هذا ، عندئذ ، أيسر منه الآن إذ أن المدن كانت من الصغر بحيث تقسع لمن بلغوا سن الرشد قاطبة فيجتمعون لمناقشة شئونهم ، كما حدث في أثينا . وقد رأى أحكم الإغريق — أرسططاليس — أن كل نوع من أنواع الحكم يمكن أن يكون صالحاً أو أن يكون فاسداً ،

تبعاً لأساليب معاملة الناس بعضهم بعضاً . ومن الجائز أن أحداً لم يفكر قط في جلاء ولم يعبر قط عن رأيه في السياسة في دقة ، بقدر ما فعل أرسططاليس وأفلاطون .

ولقد كان في وسع كل مدينة أن تجعل تاريخ إنشائها مبتدأ لحساب أعوامها . غير أن الإغريق جميعاً أرخوا أعوامهم من بداية إقامة الألعاب الأولمبية التي كانت تُعقد مرة في كل أربع سنوات والتي اشترك فيها متبارون من أقصى البلاد وأدناها . لقد كانوا شعب الهواء الطليق ، يعيشون ويجادلون في ساحة السوق ، في تدقيق واهتمام . أما اجتماعاتهم الرياضية والدينية فقد عقدوها في ساحات الألعاب الأولمبية والمسارح المكشوفة . وكانت المسارح تُبنى من صفوفٍ مدرجة من المقاعد الحجرية المستطيلة على شكل أنصاف دوائر كبيرة تقام على المنحدرات أو سفوح الجبال وفوق تلك المقاعد يتسنى لآلاف المتفرجين أن يشاهدوا ويسمعوا الممثلين والكهان يؤدون أدوارهم في أسفل . وما كانت مسرحياتهم محضٌ هوى بل تمثيلات دينية ، تمثيلات تتحدث عن قدامى أبطال الزمان الغابر ومصائر الناس وتأثير الآلهة . وكانت قصصهم تستمد من الأساطير الإغريقية القديمة ، وأعيادهم الكبيرة تلازمها الألعاب الرياضية في أماكن شهيرة : كدلفي وكورينث وأولمبيا ، ومواكبُ المشاعل — بقيادة الكهان — تنادي معلنة عما سيحدث بما فيه مسابقات الجري ورُمى الأقراص ورشق الرماح والقفز وسباق الخيل والمركبات . وكان الفائزون يتسلون أكاليل من أغصان الزيتون أو الغار ويظفرون بالشرف لمُدُنهم ، وإذا ساعدتهم الحظ تغنى ببساتيم شاعرٍ عظيم مثل بندر .

وكذلك كان الإغريق — بسبب عيشهم في مدنٍ ساحلية — ملاحين

قديرين وتجاراً ناجحين وكانوا أيضاً جنوداً أشداء ، وقد استأجرت مصر
وبلاد فارس كثيراً من شبابهم في خدمتهما العسكرية .

وأدهش ما لدى الإغريق براعةُ معماريهم المذهلة وخزّافيتهم ومثاليتهم
وما يزال البارثينون — وهو معبد الآلهة أثين الذي يقف في الدرع ، شامخاً
فوق أثينا — يُعد واحداً من أجمل ما يحويه العالم من مَبَنٍ . وهو اليوم
لا يعدو كونه حجارةً رمادية مخضبةً بخطاب ضارب إلى حمرة حائلة . أما
في أيامه الأولى الزاهرة فكان يومض بالألوان تزيينه أروع التماثيل
والنقوش البرونزية . والخزف الإغريقي متقن إلى درجة تحسبه معها من
صنع الطبيعة لا من صنع الإنسان . ويرتفع إلى مثل تلك الروعة : الشعر
الإغريقي وحكمةُ الفلاسفة اليونانية . فتمثيلات إيسخولوس ويوريديس
وسوفوكليس ما تزال تقرأ على أنها من أروع ما كتب إطلاقاً . وفلاسفةُ
الإغريق ما يزالون محل دراسةٍ من أجل حكمهم . قال العالم الروماني
شيشرون : « الإغريق أساتذتنا في كل فروع المعرفة » . وهذا القول الذي
صدر في القرن الأول قبل الميلاد ما يزال يصدّق إلى اليوم . نعم إن علومنا
لم تُتَّحَ لهم ولكنها قائمة على تقديراتهم في صدد السكرة الأرضية . وكل
من يتعلم الإغريقية يعرف أن الإغريق امتازوا بأمرٍ عظيم وهو أن لغتهم
كانت في حد ذاتها شيئاً فائق الجمال والصفاء .

ونحن نحكم على أي شعب بمقتضى أحسن ما لديه . وأحسن ما لدى
الإغريق لا يعلو عليه شيء حتى الآن . غير أن علينا أن نتذكر أن الإغريق
كانوا وافر العدد وأن الكثيرين منهم أتصفوا بالغدر والخداع و — بوجه
أخص — بالميل إلى المخاصمة . ولكنهم ربما كانوا أغزر المعية من أي
شعب عرفه العالم على الإطلاق وهذا هو سبب اهتمامنا بالسؤال : من كان
الإغريق ؟

مجد المدن الإغريقية وانحلالها :

في سنة ٤٩٠ ق.م. أشعلت المدنُ الإغريقية بآسيا الصغرى ، على الملك الفارسي دارا ، ثورة ساعدتهم فيها جنودُ أثينيون . فأرسل دارا جيشاً بغية الاستيلاء على أثينا . ولكن عندما نزل هذا الجيش من سفائنه الكبيرة إلى وادي ماراثون هزمه الرماحةُ الأثينيون — بقيادة مليتيادى — هزيمةً حاسمةً.

وبعد عشر سنوات جمع ملكُ فارسيّ جديد — إكسركسيس — من كلِّ أملاكه جيشاً حاشداً وزحف به عبر الهلّسبوننت إلى داخل أوروبا ، فوق جسرٍ من القوارب . ثم اتجه شمالاً إلى تراقيا وهبط بعدئذٍ إلى أثينا . وأرسل ، في الوقت نفسه ، أسطولاً من ألف ومائتي سفينة كبيرة . إلى الشاطئ الإغريقي . واضطر الأثينيون إلى أن يهجروا مدينتهم التي حرقها العدو فوراً . غير أن جيشاً من إسبرطة وقف على أهبة الاستعداد لشدّ أزهم على أنه — منذ حرب دارا قبل ذلك بعشر سنوات — أنشأ الوزير الأثيني ثيميستوكليس عمارة بحرية بالغة القوة . وقد جاء دور هذه العمارة البحرية الآن . فلقد رقب إكسركسيس وحاشيته من فوق الصخور التي تعلو خليج سلاميز — رقبوا سفائن أثينا تدمر أسطولها في معركة عاتية استمرت طوال اليوم . وهذا ما حدا كسرى إلى العودة إلى بلاد الفرس تاركاً وراءه جيشاً قوياً ليقتضى الشتاء في بلاد اليونان ثم يستأنف الحرب في الربيع . غير أنه في السنة التالية دحر القائد الإسبرطي — پوزانياس — هذا الجيش في بلاتايا .

وهكذا استطاع أسطول أثينا في سلاميز وجيش إسبرطة في بلاتايا أن ينقذوا بلاد اليونان من أن تصبح جزءاً من إمبراطورية الملك العظيم . فلقد أخفق في قهر اليونانيين إكسركسيس ملكُ الملوك الذي امتدت إمبراطوريته بين الهند ومصر والذي بلغت جنودُه عدداً لا يحصى كأنها رمال ساحل

البحر . وهناك حكاية^١ من حكايات الحرب ينبغي ذكرها مراراً وتكراراً وهي حكاية ليونيداس ملك إسبرطة وفرقته التي كان قوامها ثلاثمائة من الرجال الغيورين .

كان على جيش إكسركسيس العرمرم ، في زحفه الطويل المدى على جنوب بلاد اليونان ، أن يجتاز الجبال عبر ممر^٢ ترموبيليا أي الينابيع الساخنة . وكان ذلك الممر^٣ في حوزة ليونيداس وربما حته يعاضدهم ألف محارب من تسبا .

وكانت الأرض الواقعة شمالى ترموبيليا تعجّ بجحافل الفرس المشكلة من كل^٤ محاربي آسيا والشرق : هنود يرتدون القطن ونبالة من بكتريا وعرب في أردية فضفاضة وزنوج إفريقيين في جلود النمر وجحافل من شعوب أخرى تلبس كل^٥ أنواع الثياب الغريبة وتحمل كل^٦ أنواع السلاح من الرماح المنتهية بقرون إلى الهراوات الغليظة ذوات الأزرار الحديدية . وقد حوى هذا الجيش خيالة يحاربون بالمزاريق والأقواس . وقد توسط الجميع مشاة ميديا المعروفون يلبسون معاطف وسراويل من الجلد وطواق من اللباد ويحملون حراباً ودروعاً من الغصون المضفورة . وحفّ بشخص الملك العشرة الآلاف من الخالدين وهم حرس خاص منتخب من أشراف الفرس .

وجلس إكسركسيس في حبل أرجوانية^(١) على كرسي من الذهب وشهد رجاله يهجمون ، واستطاع ليونيداس وجنوده الإسبرطيون ، ومعهم جنود تسبا ، أن يحافظوا ، في يسر ، على المضيق وأن يقنصوا المديين في ذاك الممر^٢ — البالغ عرضه ٥٠ قدماً — بحرابهم الإغريقية الثقيلة الطويلة ، وعندئذ هجم الخالدون ، وانتهى اليوم دون أن يتسنى لهم الاستيلاء على الممر^٣ ، وتكرّر الأمر في اليوم الثاني .

(١) الأرجواني رمز السلطان والرفعة .

وتبرع إغريق من تلك الأنحاء فأرشد الفرس إلى طريق سرية فوق الجبال منها يمكنهم أن يفاجئوا ليونيداس من الخلف .

وتبع الفرس دليلهم في صف مفرد هابطين الدرب الوعر عبر غابات سوداء سواد القار (الزفت) سائرين في جهات تنتثر فيها الصخور وعلى طول مجارى المياه ، درب لا يتسع لأكثر من ماعز واحدة . وسمع الإسبرطيون ، ليلاً ، ديب أقدامهم المستمرة المبهمة على ورق الشجر المتساقط وعجبوا للصوت . وعند الفجر كان جيش من جيوش العد وقد بلغ إلى خلف المضيق .

وصمد ليونيداس ورجاله ثم تحركوا إلى حيث أخذ المضيق يتسع ويتسع ، وانتظروا استئناف الحملات . وأمعنوا في المحاربة وقتلوا فئات كثيرة من البربر بينهم إخوان إكسركسيس . فلما تكسرت رماحهم عمدوا إلى سيوفهم ، ولما لم تسعف تلك حاربوا بأيديهم . ولما الشدّة الأخيرة شعها واستجمعت قواها في نهاية أضيق مكان ، وهناك سقطوا قتلى جميعاً . وإذ ذاك كان الخالدون في طريقهم إلى أثينا . ولكن ليونيداس ورجاله رعوا عهدهم الذى قطعوه . وقد نبعت هذه البسالة الخالصة من تنشئة الإغريق على الطاعة والوطنية الدافقة من أجل مدينتهم ، ووطنية لم تنشأ عليها الإمبراطوريات الآسيوية العظيمة .

وبعد أن انتصرت أثينا في سلاميز وغيرها أضحت ، بزعامة بركليس ، مركز إشعاع عظيمة اليونانيين . فقد أعادت مدنها تشييد بيوتهم ومعابدهم التي زانتها تماثيل فيدياس ، وكتب إيشخولوس وسوفوكليس ويوريديس لللهى العام تمثيلات مازال تقرأ أو تمثل حتى الآن ، ولقن أفلاطون تلاميذه الفلسفة في غيضة أسموها الأكاديمية (أى مجمع العلماء) . وكان من تلاميذه : أرسطو الذى اشتهر شهرة أستاذه . ولقد اغتر الأثينيون ، فوق

هذا كله ، بدرايتهم كيف يعيشون أطيب عيش يعيشه الأحرار . ومن أنفس الخطب على مر الزمان تلك التي ألقاها بركليز عندما تكلم عن أولئك الذين ماتوا في حرب الفرس . قال : « إن مدينتنا مفتوحة للجميع . ونحن أبداً لا نطرد أجنبياً أو نصده عن رؤية أى شيء أو عن تعلمه . ونحن نحب كل ما هو جميل ولكن أذواقنا مع ذلك بسيطة ، ونستخدم الغنى لا للظهور بل وفق حاجتنا . والفقر ليس عاراً ، أما العار الحق فهو أن تكون فقيراً ولا تصنع شيئاً لمساعدة نفسك ، وإنما لنعد كل امرئ لا تعنيه مدينتنا شخصاً لا يرجى منه ، ونفكر قبل أن نعمل . ثم نعمل فعلاً . وإني لأريدكم على أن تركزوا أبصاركم ، اليوم بعد اليوم ، على قوة أثينا حتى يدفعكم حبها وحتى يدفعكم صدى ذلك إلى الإيمان بأن قوتها إنما صنعها رجال عرفوا واجبههم وملكوا الشجاعة للقيام به . »

ولكن وأسفاه ! لأن الآثينيين الذين انتزعوا الزعامة من الفرس لم يلبثوا أن أكرهوا المدن الإغريقية التي تقل عن مدينتهم شأنًا على أداء الضرائب إلى خزانتهم بل إنهم حاربوها . وبعد ذلك قامت في سنة ٤٣١ حرب بين أثينا وحلفائها وبين إسبرطة وحلفائها ، حرب دامت نحو سبعة وعشرين عاماً وجلبت الشقاء على الآلاف : ولقد كانت حرب البولوبونيز (وهذا اسم طويل ولكنه يستأهل أن نتذكره) في واقع الأمر حرباً أهلية ذلك لأن الإغريق كانوا شعباً واحداً وتعاملوا على أنهم كذلك وإن لم يتعلموا قط أن يتعاونوا طويلاً .

وفي أثناء حرب البولوبونيز احترق آلاف من الإغريق صناعة الحرب ونزحوا عن مدنهم ليحاربوا للبصريين أو للفرس أو للقرطاجنيين وأصبحوا مرتزقة يؤجرون رماحهم وسيوفهم لقاء جعل . ولقد جاء في كتاب من المكتب القديمة أن زينوفون الآثيني خلف لنا حكاية بديعة الصياغة عن تقهقر العشرة الآلاف إغريق من بابل عبر جبال أرمينيا الموحشة إلى سواحل

البحر الأسود . وانضم أولئك العشرة الآلاف إلى جيش أمير فارس اسمه كيروس . فلما قتل ألفوا أنفسهم مهجورين بلا أصدقاء في بلاد غريبة . وأفلتوا بالطريقة الوحيدة التي وسعتهم ، وكانوا من أركاديا وأثينا وطيبة ومن مدن كثيرة غير هذى . ذلك أنهم ثابروا على السير شهوراً ، مكدودين مرهقين عبر مضائق الجبال والنجود الباردة الكثيفة وقد عضهم الجوع والقر وتعثروا في العواصف الثلجية يحارب مؤخرتهم القبائل المناجزة ، حتى ظفروا آخر الأمر بالوصول إلى أوطانهم .

ولم يتح للمدن الإغريقية قائد عبقري ولاكنهم لم يعوزهم قط رجال يتغنون المغامرة خارجها . على أن الإغريقين لم يلبثوا أن وجدوا القائد في شخص الأمير المقدوني : الإسكندر (١) .

الإسكندر :

كان المقدونيون شعباً جلياً خشناً مجانساً لإغريق المدن . ولقد حولهم ملكهم فيليب إلى أمة من جنود حسنى التدريب وسلكهم فيالق من الرماحة منظمة على شكل مثلث طويل الضلعين . فلما مات — بعد أن نصب نفسه سيداً على كل الأصقاع الشمالية باليونان — خلفه على العرش ابنه الإسكندر وكان فيليب قد أعجب بمدينة الأثينيين وجعل من فيلسوفهم الكبير، أرسطو، مؤدباً لولده . أما سؤال : هل كان لهذا تأثير في توجيه الإسكندر ليسى أعجوبة الدنيا ، فليس في وسع امرئ أن يجيب عن هذا السؤال .

وكان عمر الإسكندر عشرين سنة عندما تبوأ العرش .

(١) أنظر شكل — ٢ — (الامبراطورية الإسكندر الإغريقية ؛ الامبراطورية الفرس ثم اليونان ومقدونيا وتراقيا) .

ولقد استطاع — بجيش أبيه تحت إمرة قواده البارعين — أن يعبر الهلسينط ليدخل آسيا ويعجل فتح آسيا الصغرى والشام ومصر . ثم دخل يقاع ما بين النهرين ودحر دارا الثانى ملك الفرس فى جوجيميللا بالقرب من نينوى . ولم يكن الفرس أكفاء للقاء الإغريق ، المدججين بالأسلحة الثقيلة المتراصين فى فيالقهم ولا فرسان الإغريق الذين تقدموا من الجناحين مكتسحين . ولقد أغار كسر كيس على أوربا . قبل ذلك المقدونى بقرن واحد . ولكن كان نصيبه الاخفاق . أما الآن فإن الإغريق — بقيادة ملكهم الشاب الرياضى الوسيم — فقد ظفروا بالشرق كله .

وبقى ما صنعه بعدئذ لا يضارعه شئ على مر التاريخ . ولقد قاد جيشه شرقاً عبر هضاب فارس ودخل الافغانستان والتركستان ، وقصى الشتاء بين قبائل الافغانستان الجبلية المتوحشة . وفى الربيع اجتاح الهند . وقد انحدر فى الممرات الطويلة الكثيرة الالتواء بجبال الهملايا ودخل البنجاب التى استسلم أهيرها . وعاد بعد أن زحف زحفاً شاقاً عبر قفار بلوخستان اللاتحة وقد خلف وراءه شهرة وذكرى لشخص « إسكندر » لم تخمل على مر الاجيال ذلك أن الاسكندر لم يكن قائداً عبقرىاً وفتحاً فحسب ولكنه عرف أيضاً كيف ينظم الرجال والشئون وأبدى حكمة بعيدة النظر . ولم يظهر قط محارب مثله أو جيش بكيشه . غير أنه لم يوجد قط كذلك شعب كالإغريق . أمامسألة ماذا كان يصنعه الإسكندر أكثر من ذلك لو أن حياته استطالت إلى المدى المألوف فلا يقدر إلا تخميناً . ولكن شعبه فجع فيه إذ مات بالحمى فى بابل ، سنة ٣٢٣ ق . م .

لقد تسنى له — بعد حرب وجهد لم ينقطعاً طوال عشرين سنين — أن يغير العالم . لقد صنع إمبراطورية امتدت من الاندوس إلى النيل والبحر الادرياتي ، ولم جميع الناس تحت سلطانه ليعجبوا بالإغريق ويتمثلوا بهم . وبعد وفاته قسم قواده إمبراطوريته وأضحوا ملوكاً وشيدوا بمالك فسيلوقس أخندسوريا .

والعراق ، وبطليموس أخذ مصر ، ووأنتيجونوس تملك مقدونيا . ولئن كان الإسكندر قد أسس مدناً — ونخص بالذكر الإسكندرية في مصر — فإن قواده ، بالمثل — أسسوا مدناً إغريقية في أنحاء الشرق كافة . ولقد امتلأت مدنهم بكتاتهم بالجنود الإغريق والتجار الإغريق والعلماء الإغريق . وفي كل مكان اتخذ الناس العادات الإغريقية وتعلموا التحدث بالإغريقية لتسكون لغتهم المشتركة . وفي كل المدن الشرقية حلت هندسة البناء الإغريقية والشياب الإغريقية وألعاب المصارعة الإغريقية ومعرفة الإغريق وطبهم وعلمهم وفلسفاتهم وعاداتهم ، حلت كل هذه محل نظائرها مما كان متبعاً . وحتى بعض اليهود — وهم أكثر الشعوب عناداً — اتخذوا الأساليب الإغريقية وشاركوا في الألعاب الإغريقية بل ذهبوا إلى ترجمة كتبهم المقدسة إلى الإغريقية وقد قصدوا بذلك أن لا ينسى اليهود الذين لا يعرفون من اللغات غير الإغريقية ديانة أسلافهم . وعلى هذا بقي كل شيء على ما كان عليه حتى جاءت الكتابات الرومانية بل إنه بقي حتى اجتاحت تلك الكتابات الشرق . وعندما كتب أصحاب عيسى تاريخه كتبوه بالإغريقية ، وظل النصف الشرقي من مدينتنا إغريقياً عشرة قرون .

ولا عجب إذن أن التلاميذ الإنجليز درجوا على دراسة آثار الإغريق الأدبية وما زالوا يفعلون .

جوابو البحار ومدن غرب البحر الأبيض المتوسط :

في القرن الثامن قبل الميلاد — وقتما كان ملوك آشور يقودون فرسانهم ومركباتهم الحربية ويدكون حصون مدن الشرق بالمنجنيق — تشكلت مدينة على ضفتي التيبر في إيطاليا . وكانت تلك ، روما .

وتقول الأساطير إن روما تأسست في سنة ٧٥٣ ق.م . . والأولى أن نقول إنه في منتصف القرن الثامن عشر كانت هنالك مدينة تجارية صغيرة

على التبر لها جسر على النهر : جسر ذو أهمية كبيرة جداً إلى حد أن لقب
باني الجسور (الحبر) بقى إلى الأبد بعدئذ ، موضع تجلة عند الرومان .
ونحن حتى اليوم نلقب بابا روما بحبر الأحبار . وكانت تلك المجموعة ،
من الأكواخ والمساكن ملاذاً وسوقاً (أو مساحة) للفلاحين المتكلمين
باللاتينية الذين تيسر لهم هناك أن يقایضوا الحبوب والحيوانات بالأسلحة
والأدوات البرونزية والحديدية التي أعوزتهم .

كان هذا بداية روما ، ولدينا الكثير من مسجلات الآشوريين والشرق
في القرن الثامن ولكن ليس لدينا إلا القليل من مسجلات غرب البحر الأبيض
المتوسط الذي يفرغ تبر روما مياهه . ونحن لا نكاد نعرف شيئاً عن
القبائل التي عاشت في الأصقاع الغربية ولا نعرف إلا النذر اليسير عن
جيوابي البحار الوافدين من الشرق ومن المدن التي أسسوها لتجارهم .

لقد وجد هناك ، أول الأمر ، الفينيقيون وهم ملاحوا صور وصيدا
الأغنياء المغامرون الذين حفظوا سرهم وكتهم عن الأجانب ، بلوماتهم عن
البحار . وكانوا أهم الرواد الذين أبحروا غرباً للتجارة والكسب . فكانوا
في بلادهم ، على الساحل السوري — يصرفون تجارة آسيا ودصر . وقد
اشتهر صناعتهم بحذق الصناعات المعدنية ، وفي الخارج أنشأوا مدينة اسمها
قرطاجنة (أى البلدة الجديدة) على الساحل الإفريقي المواجه لجزيرة صقلية .
وبنوا كذلك ، على سواحل صقلية وأسبانيا ، مدناً إحداها وراء البحر
الأبيض المتوسط على مصب نهر الوادي الكبير اسمها قادس . ومن المحتمل
أن أهالي أسبانيا استغلوا مناجم النحاس الأحمر والصفیح . ومن المحتمل
أيضاً أنهم اعتادوا الإبحار في الأطلنطى إلى جزائر سكبلى وإلى كورنوبول
كما اعتادوا إرسال سفن تنحدر إلى ساحل إفريقيا الغربي . ولقد احتفظوا
لأنفسهم بكل ما استكشفوه وظل غرب البحر الأبيض بحرهم سنوات طويلة .

جداً . أما من عسى أن تحدثه نفسه من رباني السفن الإغريقية بالإقلاع إلى هناك فإنما كان يفعل ذلك وهو يعرض نفسه للخطر .

وكان ينافسهم إغريق البحر الأصلي ومجموعة جزائر البحار الإغريقية . فلقد أسس الإغريق مدائن في جنوب إيطاليا وفي صقلية وعلى شاطئه فرنسا الجنوبي كسرقوسة ومرسيليا .

وكانت سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط الممتدة ، دنيا جديدة لأولئك الملاحين . وقد تاجر الفينيقيون والآهالي طلباً للبعادن والجلود ، مقايضين عليها بالأكفشة المنسوجة والخزف وأدوات الزينة وقد اعتادوا — كلما أقبلوا وجذبوا سائرين على مرأى من اليابسة متنقلين بين معالمها — أن يلقوا مراسيهم بالبلاد التي أنشأوها حيث تنتظرهم البضائع وحيث يتفاوضون مع أهل داخلية البلاد الذين يقولون مدنية .

ولقد كان هناك شعب ذو مدنية درج هو أيضاً على جوب البحار ومبادلة السلع إلا أن هذا الشعب قد عاش في الأراضي المغربية ، في الأقليم المتعثر الواقع بين جبال الأبينين الإيطالية والبحر شمالي روما وكان هذا الشعب هو شعب الأتروورين (الاترشك) . عاشوا في مدن أو نحو ذلك وحكمهم سادة أو ملوك ، تماماً كفلسطيني العهد القديم . ولقد ترك أولئك أثراً تذكارية لهم ، إذ كانوا يدفنون موتاهم في حجرات قدت في الصخر ويضعون لهم أثاثاً وأمتعة يستعملونها في الحياة الأخرى . وقد نقشوا كتابات بالحروف الإغريقية غير أننا لا نستطيع قراءة الكلمات لأن اللغة غريبة علينا . ولقد تفوقوا في الصناعات اليدوية الدقيقة والمصنوعات المعدنية والخزفية ، ومصنوعاتهم البرونزية والذهبية تسر الناظرين ، وخزفهم يداني خزف الإغريق وإن قل عنه جمالا . وهم عرفوا كيف يبنون العقود (١) ولم يعرفها

(١) الققد — بفتح العين — ما عقد من البناء (أعلاه مقوس) .

الإغريق . ولقد استحدثوا الخيل والمركبات الحربية وتركوا صوراً لحفلات الصيد والأعياد ويبدو أنهم ولعوا بالموسيقى . ولا يعلم أحد من أين جاءوا أول الأمر ، ويحتمل أن يكونوا قد وفدوا من الشمال والشرق . وبما أنهم كانوا جيران القبائل اللاتينية الأشداء وبما أن يكونوا ملوكهم حكموهم في روما أكثر من مائتي عام فقد دخل حياة الرومان الكثير من حذقهم وعاداتهم : إنهم أعطوا الرومان أبواقهم الحربية الطويلة وأرديتهم الأرجوانية وحنيمتهم (١) التي اتخذوها رمزاً يحمل أمام حكماء الرومان . وكثير من الأسرى الرومانيين انحدر من هذا الجنس الغريب . وقد ألف بعض كتاب الرومان عنهم كتباً ضاعت لسوء الحظ .

وعلى هذا يمكن أن يعد الأترووريون بين مؤسسي أوروبا .

وتنبئنا قصص روما القديمة كيف نمت المدينة وكيف طرد الشعب ملوكهم الأترووريين (أسرة تركوين) في وقت ما حول سنة ٥٠٠ ق. م .. وتنبئنا بعد ذلك كيف استولى الغال على المدينة في سنة ٣٩٠ . ففي ذلك الوقت أخذ نور التاريخ يزداد سطوعاً ولذا بدأنا الآن نستمتع بقصة أكثر تدفقاً . كان الغال — وهم أمة همجية — يزحفون عبر أوروبا من الشرق . وكان بعضهم — قبل هذا بفترة طويلة — قد أغار واستقر في آسيا الصغرى في المنطقة التي سميت فيما بعد ، جالاتيا وحول سنة ٤٠٠ بلغوا شمال إيطاليا . وفي سنة ٣٩٠ هبط مقاتلوهم مضائق جبال الألب ودخلوا إيطاليا حيث هاجموا المدن الأتروورية ثم استولوا على روما كلها ، كلها فيما عدا الحصن . وتقول الحكاية القديمة إن الأوز المقدس المحتجز في المعبد قلق عندما سمع العدو يقترب أخلاسة وهكذا استيقظ الرومان وردوا المهاجمين . غير أن الرومان أكرهوا على دفع فدية باهظة ليستردوا مدينتهم قبل أن يرضى

(١) الحزيمة — بفتح فـ كسرة — قضبان محزومة على فأس وهي شعار روماني .

الغال بالانسحاب إلى سهول نهر الپو الخصيبة ، في شمال إيطاليا . وفي ذاك الوقت كان أقرباؤهم يرتحلون إلى أقصى الغرب في الموضع الذي يسمى الآن فرنسا والذي سمى بلاد الغال بناء على ذلك .

وحول هذا الوقت كان الرومان بسبيل العمل على ذبوع صيت مدينتهم . فلقد تعلموا الكثير من الإغريق والأثوريين : فبنوا السفن ومارسوا التجارة بحراً وتداولوا النقود واقتبسوا الحروف الهجائية الإغريقية وحوّروها تحويراً بارعاً يناسب لغتهم ، وانتقل هذا مع الوقت إلى شعوب الغرب قاطبة وعلى ذلك فهذا الكتاب الذي تقرأه الآن (الكلام هنا على النسخة الإنجليزية) مطبوع بالحروف اللاتينية أو الرومانية .

اشتبك الرومان مع جيرانهم في حروب عديدة . ويبدو في قصصهم القديمة أنهم يماثلون كل المماثلة أسلافنا الأنجلو سكسون — فهم مزارعون ومحاربون : رجال كانوا يفلحون مزارعهم ويذهبون لملاقاة عدوهم في الهيجاء ، كانوا شعباً بأسلا دؤوباً قوياً يعرف معنى الواجب حق المعرفة . والمعجز حقاً عند الرومان : أسلوبهم في حكم أنفسهم .

ولقد حكم روما — بعد طرد أسرة تركوين — سناتو (١) أو مجلس أعيان و « رجالان » يطلق عليهما اسم القنصلين . وكان هذان القنصلان يعملان معاً كما قد يعمل ملكان : يقيمان العدل ويسنان القوانين بموافقة السناتو ، مع تساويها في السلطان وكان لكل منهما — في واقع الأمر — أن ينقض أى أمر يصدره زميله . وفي الحروب درجا على أن يقودا الجيش بالتناوب يوماً بعد يوم . وهذا يبدو الآن أكثر غرابة مما بدا في تلك الأيام التي فيها كانوا يحالدون بعضهم البعض بالأيدي في مواقع قد لا تدوم غير يوم واحد . وبطبيعة الحال يسمى الأمر أكثر يسراً كلما كان القنصلان متحابين . ولكن المهم هو ما يلي : كان القنصلان يستبدل بهما غيرهما بطريق الانتخاب

(١) السناتو مجلس الشيوخ

فى كل عام . وعلى هذا المنوال فكر الرومان فى تجنيب مدينتهم أبدأ أن يتسلط عليها حاكم بأمره . وأشبه الناس عندنا بالقنصل : محافظ المدينة . وكان مجلس الأعيان هو صاحب السلطان الرئيسى . والعضويظل عضواً مدى الحياة . ولقد ضم السناتو كل من شغل وظيفة قنصل . ولم يسبق فى تاريخ العالم أن هيئة برعت فى الحكم أكثر من السناتو فى أوجهه . وحسبك ما قاله كاتب تاريخ المكابيين اليهودى فى الكتاب المقدس . إنه يتبئنا بما كان يراه — فى السناتو — رجال ألوأ كل الألام بأحوال الملوك والعظماء من وزراءهم .

قال عن أعضاء السناتو : « وفى هذه جميعاً لم يكملوا أحداً منهم إكليلاً أو يلبسوه أرجواناً ليتعظم . وصنعوا لأنفسهم ديواناً . وكل يوم كانوا يستشيرون ثلاثمائة وعشرين مؤتمرين دائماً لأجل الجماعة لى يصلحوا ذواتهم » . وهذه تحية جليلة .

كيف بسط الرومان نفوذهم على العالم:

فى سنة ٣٩٠ ق . م . عندما استولى الغال على روما ونهبوها اشتبك الرومان ، سنوات عديدة ، مع جيранهم : السمنيين والأمبريين والأثروريين . وقد نظموا مواطنيهم فىالق برئاسة نقيب لكل مائة جندى وهؤلاء الجنود المواطنون — يقودهم القنصلان فى كل عام — حكموا إيطاليا الوسطى كلها . وتتجلى وطنية الرومان الراضة الخالصة فى حكايتهم عن سندسنا توس الذى استدعوه من المزرعة لقيادتهم عندما عصرتهم الحرب ، وبعد أن قادهم فعلاً إلى النصر عاد إلى مزرعته . وفى مرة أخرى ، عندما كان الرومان يحاربون المدن الإغريقية فى جنوب إيطاليا ، خف الملك الإغريقى بيروس — من بر اليونان الأصلى — لنجدة أقربائه . وحاول بيروس أن يرشو القائد الرومانى كاسيوس فابريسيوس . ولكن هذا الرجل الأخير ، الذى

لم يكن غير فلاح فقير مثل سانسنا توس ، أبى أن يرتشى . غير أنه ، عندما عرض أحد عبيد بيروس أن يدس السم لسيدته إذا أجره فابريسيوس على ذلك ، كتب هذا الأخير من فوره إلى بيروس يطلعه على المكيدة . وتبين هاتان الحكايتان — ومثيلتهما كثيرات — السبب في أن الرومان ظفروا باحترام الناس وثقتهم : وكان أكبر ما يقدره الرومان : « الفضيلة » ، وأعنى بها كل المناقب التى تخلق الرجل الطيب والمواطن الصالح وهى : الشجاعة ، والشعور بالواجب ، والشرف ، والوفاء ، وحب الوطن والأقربين . ولهذا تجدنا اليوم ما نزال ندرس القانون الرومانى وتجد القوانين الحالية فى كثير من البلاد أساسها القانون الرومانى .

وبينما كان الرومان يبسطون سلطانهم فى كل مكان بإيطاليا كان الإسكندر الأكبر يبسط سلطان الإغريق فى كل مكان بالشرق . وكان الملك بيروس من بين أولئك الذين تقاسموا إمبراطوريته الإغريقية بعد وفاته : وكثيراً ما تساءل الناس عما كان عساه يحدث لو أن حياة الإسكندر امتدت حتى يلتقى بالرومان فى ميدان القتال . غير أن الحرب التى شبت ابتغاء السيادة على غرب البحر الأبيض المتوسط كان الخصم فيها عدواً يختلف اختلافاً كبيراً عن روما ، كان هذا الخصم قرطاجنة التى استولى أمراؤها على التجار على صقلية وسردينيا ومناطق من أسبانيا . وكما تخاصم الفرس والإغريق خصاماً مريراً للسيادة على الشرق تخاصم الرومانيون والقرطاجنيون خصاماً مريراً للسيادة على الغرب .

كان التجار القرطاجنيون جد أثرياء ، وكانوا يتكلمون لغة كالعبرية غير أن كل مسجلاتهم قد اندثرت . وجدير بالذكر أن كل مانع رفه عنهم ، على وجه التقريب ، مصدره مسجلات أعدى أعدائهم وهم الرومان . ولقد كانت مدينتهم العظيمة قرطاجنة المركز التجارى للقوافل الطويلة الوافدة من الريف الإفريقى ولزمر التجار الآتية من البحر عبر قناة ضيقة تصب

في مرفأ قرطاجنة الصناعى الكبير داخل أسوار المدينة . وعلى المرسى الكبير كانت تفرغ شحنات الفضة الأسبانية والخنزور وأقمشة الشرق وتوابله وسبائك القصدير الواردة من الجزائر التى تلى مضائق جبل طارق . ولقد حكم القرطاجنيون خليطاً من الجماهير : من مصريين وغال وإغريق وليبيين وأسبان وسردينيين ونوميديين متفاوتى السمرة . وكان إله قرطاجنة (١) ، « بعل » الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس . وفى أوقات الشدة والخطر كانوا يحرقون الأدميين أحياء حتى الأطفال الأبرار وذلك لى يحملوا بعمل على أن يحبوهم النصر . وكان جيشهم ، فيما عدا فرقة مختارة من شباب الإشراف ، جيش مرتزقة مشكلا من شعوب عديدة : من الإغريق والغال ومشاة السردنيين ومن الخيالة الليبيين الماكرين الخفاف الحركة . وقد عرف القرطاجنيون المسالك البحرية خيراً مما عرفها الرومان : وكانوا مرشدين وبحارة ممتازين ولكنهم كانوا من الثراء بحيث يستطيعون أن يؤجروا شعوباً أخرى ليحاربوا لهم على اليابسة .

كانت صقلية منذ البداية — كحال بلجيكا — ميداناً تلتقى فيه الأمم المتنافسة وتشعل حروبها التوسعية . فلقد غزا بلجيكا الألمان والفرنسيون والأسبان والبريطانيون ، كما غزا صقلية : الإغريق والقرطاجنيون والرومان . وعندما طرد من صقلية الملك الإغريقى بيروس صاح قائلاً : « ما أبهج البلد الذى أنا تارك لروما وقرطاجنة ! » ولقد آلت تلك الأرض البهجة إلى روما . ذلك أن الرومان شيدوا لأنفسهم عمارة بحرية قوية ، وتعلموا من النكبات كيف يحاربون فى البحر ، وهزموا القرطاجنيين وأجلوهم عن الجزيرة . وعندئذ أمست روما سيدة إيطاليا وصقلية جميعاً كما استولت جيوشها على سردينيا . وأصبحت إذ ذاك الدولة البحرية المظفرة فى الغرب .

(١) بعل إله السوريين والآشوريين القدماء .

وأخذ القرطاجنيون يحملون بأخذ الثأر ، وكان ذلك واجبهم إذا عزموا أن يحافظوا على تجارتهم وهي قوام حياتهم . وهكذا كان الوضع في سنة ٢٢٠ ق . م .

وبعد ما انقضى على ذلك ثلاثة وخمسون عاماً كتب مؤرخ إغريقي ألقى اسمه پوليبديوس ، وكان ضيفاً كريماً ببית أحد نبلاء روما — كتب بقول « هل يوجد امرؤ خامل الفكر أو جاهل إلى حد أنه لا يرغب في معرفة كيف استولت مدينة روما على العالم أجمع في مدى ثلاثة وخمسين عاماً ؟ » . ثم أجاب عن السؤال الذي سأل به بتاريخ طويل مشرق .

وإليك بحمل ما حدث من القواد المشهورين ومن التبديلات المذهلة في الأوضاع والمصائر .

من القرطاجنيين الذين كانوا يتحرقون شوقاً إلى الأخذ بالثأر شاب اسمه هانيبال ، وقد عقد النية على محاولة تدمير روما . فجيش جيشاً غزاً به أسبانيا وسار مخترقاً الغال وعبر نهر الرون ناقلاً فيلة الحرب على أطواف (١) صنعها بحيث تبدو كأنها جزر ، وتسلق جبال الألب وهو يقصد ضحور الممرات ويفلقها بالنار والسوائل المذيبة ، وانحدر إلى السهول الإيطالية بجنوده المرتزة وفيلته ، ودمر ثلاثة جيوش رومانية ، وأثار شعوب إيطاليا على روما . وبدلاً من مهاجمة روما نفسها نهب الريف ، وقد أقلق ذلك الرومان فاختاروا — على عادتهم — رجلاً واحداً ليكون « حاكماً مطلقاً » ، أو السيد الأعلى ، في ذاك الوقت وقت الخطر والمحنة . ولقد ذاع صيت ذلك الرجل — فابوس — بالتفادي من الحرب وبالحرص على جعل هانيبال دائماً الترقب والوبكة ، وذلك بالغارات المستمرة والتوعد بالانقضاض . غير أن القنصلين اللذين أعقبا فاييوس ، دحرم هانيبال دحراً تاماً في (كانى) حيث داس فرساناً ليبياً بسنابك خيلهم ثمانية فيالق .

(١) الطوف أخشاب مشدودة يعبرها الماء طفراً .

وكانت روما ما تزال تحتفظ بسفاتها . فاضطلع سيبيو الإفريقي بقيادة الجيش الروماني في أسبانيا فأخضع تلك البلاد ونقل الحرب إلى أبواب العدو بغزوة إفريقا وإكراه قرطاجنة على عقد الصالح . وقد ظل هانيبال في إيطاليا ستة عشر عاماً كانت مديدة مضنية بالنسبة إلى شعب روما . وعاد الآن لينقذ قرطاجنة ولكن سيبيو هزمه هزيمة ساحقة في زاما بإفريقا في ، سنة ٢٠٢ ، فأُمسّت قرطاجنة لإيالة تخضع لروما وتذعن لمشيئها .

وقد أثار هانيبال الإغريق ليحاربوا روما . ولكن فيالقها التي شدت عزمها بممارسة الحروب انتصرت على زُمر المقدونيين . قهرت جيوش ملك سوريا وآسيا الصغرى الإغريق واستولت على مصر بدون قتال . وكل هذا ذكره بوليبيوس في كتابه . أما سبب انتصار روما فكان — في نظره — إتحاد الرومانيين ووطنيتهم ، وقضية قوادهم ، والأسلوب الحكيم الذي كان السناتو يسوسهم به . ولقد كان الإغريق — كسابق عهدهم في كل حين — أرجح الناس عقولا ، غير أنهم كانوا دائمي النزاع فيما بينهم ، ولم تحاربهم روما قدراً ما حارب بعضهم البعض .

وهكذا بسطت روما نفوذها على العالم . ولكن حياتها — إذ أتت ذاك — تحولت إلى شيء يباين الأساليب القديمة البسيطة . فحلت الآن محل المساكن والمزارع المتواضعة القديمة — البيوت المترفة والسكرُمات (الفيلات) الفخمة . والآن عمد الرومانيون — الذين لم يكونوا قط فنانيين ولا صناعاً مهرة — إلى استخدام الإغريق والآسيويين في بناء ورسم وصنع أشياء جميلة . وقد جلب الجنود الرومانيون من الشرق مركبات نقل ضخمة محملة بالتأثيل والرسوم . وحولت روما إلى يدها كل تجارة العالم ، وتقاطرت الألوف من الأجانب إلى عاصمة الدنيا . وأسوأ من هذا أن الحروب الطويلة أمدت روما بحشود لا حصر لها من العبيد والرجال المحطمين وأسرى الحرب ، رجال وُلدوا أحراراً ولكنهم وقعوا في الأسر وسموا كالسائمة وبيعوا

كالهائم في سوق العبيد الكبير بديلوس . ولقد ملأ أولئك الرجال البائسون بيوت الأعيان وعملوا أفواجا في مزارعهم وفي المناجم والمحاجر . واستبدلت بمزارع الأسرة الصغيرة مزارع مترامية الأطراف يعمل فيها إمرة مراقبين في منتهى الفظاظة . ولقد كان الشغل الشاق المضني ، طوال عبيد تحت فترات التاريخ القديم ، يقوم به العبيد الذين يعملون في الحفر وجرد السفن والتنظيف وفي كل أنواع الكدح اليدوى . ولقد كانت لعنة العبودية فظيعة إلى حد حدا بستين ألفاً من العبيد إلى إضرار نار الثورة في جميع أنحاء صقلية وجنوب وإيطاليا . ولقد جرد جيش روماني سلخ أعواماً لينتجها بحرب من أفضح الحروب التي شهدتها العالم أجمع . ومن أبعدها عن الرحمة .

قيصر :

لا شك في أن الحروب الطويلة بدلت أسلوب معيشة الرومان . فلقد غصت روما نفسها الآن بحشود من السوق (١) ، من العبيد والهاربين وذوى الحرف والمعتطلين والأفاكين من كل فج . وقد أخذ التجار الأغنياء والمرابون والأعيان يثرون ثراء فاحشاً من التجارة التي ترتبت على غزو أسبانيا وإفريقيا وبلاد اليونان . أما الريفيون والمواطنون عتيقو الطراز ، ذوو الخلال الرومانية القديمة وأساليب الحياة البسيطة ، فقد بقي منهم البعض ولكنهم شعروا — بلا ريب — بأنهم إنما يعيشون في دنيا غير دنيائهم . وقد أجمل ملك أفريقي بارع غنى ، كان له في روما أصدقاء من بين أعضاء مجلس

(١) السوق الرعية من الناس للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

أنظر شكل — ٣ — (الإمبراطورية الرومانية في أوسع مدى لها)

الآعيان ، أجمل وصف الحال بقوله : إنه بالمال في روما كان يستطيع شراء أى شيء حتى العدل والشرف .

ولم يكن حكمٌ إمبراطورية كهذى في مقدور مجالس الآعيان والقناصل الرومانيين ، وهل يمكنك أن تتصور مثلاً أن محافظ لندن وأعضاء مجلسها الاستشارى يستطيعون حكم أوروبا لاشك في أنهم سيحاولون ذلك ويبدلون فيه ما يسعهم من جهد ولكن أغلب الظن أن كفايتهم في ذلك لن تتعدى كفاية ضباط المدينة . ثم إن الإمبراطورية الرومانية لم تكن مستعدة لأن يحكمها مجلسٌ آعيان في روما أو في أى مكان ، لأن السواد الأعظم من الناس في أنحاء المعمورة اعتادوا على أن يحكمهم ملوك .

والغريب بل المضحك في أمر روما هو هذا :

إنها المدينة الوحيدة التى لم يكن مواطنوها ليطيعوا الملوك ، ولكنها مع ذلك غزت العالم الذى لم تفهم جموعه إلا أن يحكمهم ملوك أحلتهم منها محل الآلهة ، كما كان شأن فراعنة مصر القديمة أو عواهل الشرق ، البابليين والآشوريين والكلدانيين والفرس والروم (أى الإغريق) .

وقد حدثت في مجلس الآعيان مخاصماتٌ بين من رغبوا في معاونة الطبقة الفقيرة من المواطنين الأحرار ومن رغبوا عن إجراء أى تغيير . وأصبح الرجال الذين قادوا الكتائب هم أصحاب السيطرة العليا لأن جيش المواطنين الرومانى القصير الخدمة القديم قد ألغى وحل محله جيشٌ من جنود نظاميين يؤدون خدمة عسكرية طويلة ، جنود اتخذوا مقر فيا القهم منازل لهم واختصوا قوادهم بكل ما لديهم من ولاء . وقد أصبح القواد ذوو المهارة الفائقة أو الشعبية هم أقوى رجال الإمبراطورية . وأول هؤلاء : ماريوس ، وكان جندياً نظامياً خشناً أنقذ إيطاليا من غزوة للغال . تزعم ماريوس الطبقة الفقيرة من المواطنين ضد الطبقة الغنية ، غير أنه لم يؤت الحكمة في

السياسة ، فقهره سُـلَا^(١) وكان أرسنقراطياً ، وندأ له في القيادة ، يتزعم أعضاء مجلس السناتو . وحكم سُـلَا^(١) ولا بيد حديدية ونصب نفسه حاكماً بأمـره (١) . ولما انتهى من إعادة تشكيل أسلوب الحكم وسن القوانين — على الوجه الأكمل في نظره — اعتزل الحكم وتقاعد في بيته ، وكان هذا المنوال متبعاً في روما .

اعتزل سُـلَا^(١) بعد أن أصبح ، بكتائبة ، سيداً لسيدة العالم . وظهر في الصورة الآن : قنصلان كالمعتاد ، وأعضاء لمجلس السناتو يعدون بالملئات ، وعالم ينبغي له أن يحكم .

فاقسم السلطان ثلاثة رجال في « حكومة الثلاثة » (٢) ، هم : پومپي وهو واحد من قواد سُـلَا^(١) الممتازين ، وكراسوس عضو مجلس السناتو وصاحب ملايين عديدة ، ويوليوس قيصر وهو من أسرة شهيرة تقلب في مناصب شتى في حكومة روما ، وكان عالماً وخطيباً .

ولقد ألقيت إلى يوليوس قيصر مقاليد القيادة في إقليم الغال على جانبي الألب . وكان المأمول أن يتسلم قيادة جيش لدى صدور الأمر بذلك . غير أن كراسوس ، صاحب الملايين ، أوفد على غرة ليقود الكتائب ضد البارثينيين في بلاد الفرس وهناك لقي مصرعه . وكان « الضبط والربط » في الجيوش يعد جزءاً من الخلال الرومانية ولكن ما رآته روما الآن ، لم تره قط من قبل : ذلك أن قيصر — الذي بلغ الأربعين قبل أن تعقد له القيادة المستقلة الأولى — قاد كتائبه وغزا « كل » بلاد الغال ووصل رأساً إلى الراين . وقد أبدى من الحنق والبصيرة الحربية وثبات العزم ما هو جدير بالإسكندر الأكبر الذي صاغ (قيصر) نفسه على غرارته أي أنه اتخذ الإسكندر مثله الأعلى . وقد وجد قيصر الوقت لتجريد حملات في قلب بريطانيا ، وما تزال قصته عن حروبه في بلاد الغال تقرأ في كل يوم بمدارسنا . إنها سفر جدير بالاعتبار . فلقد كان قيصر جديراً بالاعتبار .

(١) دكتاتور

(٢) الائتلاف الثلاثي أو الحكومة الائتلافية الأولى .

ولقد وثقت مقدرته وجاذبيته الروابط بينه وبين ضباطه وأفراد كتائبه .
والرجل الوحيد الذى يشبهه على مر التاريخ ، هو نابليون .

وبعد أن غزا بلاد الغال زحف إلى روما مع أن قانوناً قديماً نص على
أن الفرق العسكرية لا يرخص لها أن تقترب من روما بعد النهر الصغير
المسمى روبيكون الذى كان عبوره يعدّ تحدياً لمجلس سناتو روما وشعبها .
عبّره قيصر ، وعندما عارضه پومپي فى ذلك باسم مجلس السناتو طرده
من إيطاليا .

واجتاز إسبانيا كى يأسر فيها بعض جنود پومپي ، ثم اقتحم بلاد اليونان
حيث قهر پومپي فى فارسالوس . ثم لاحقه فى مصر حيث أمضى فترة ليطمئن
إلى ولائها له . وبعد ذلك طهر آسيا الصغرى وإفريقيا من معارضيّه كافة .
وبذلك يكون قد حارب فى سنوات قليلة — حول العالم : بلاد الغال
 وإيطاليا وأسبانيا وبلاد اليونان ومصر وآسيا وإفريقيا ، وحالفه النصر
فى كل مكان . وبطبيعة الحال كان كل جندى من حاربوا تحت إمرته
يخلص له بقلبه وروحه .

ومرة أخرى كان يوليوس قيصر أحد أولئك القلائل النادرين الذين
يشابهون نابليون من حيث البراعة فى السلم والحرب . وما إن عاد إلى روما
نادى بنفسه حاكماً بأمره مدى الحياة . وهنا تملك أعضاء مجلس السناتو
الانزعاج والحسد والسخط . ومع ذلك أمعن قيصر فى تنفيذ مناهجه
ومشروعاته الضخمة : إصلاح التقويم وإعادة بناء روما وإنشاء الطرق
 ووضع حد للرشوة والغش فى الحكومة ، وخطط لغزو ألمانيا إلى ما وراء
الراين الذى كان هو قد قوض أحد جسوره فى أثناء حملاته على بلاد
الغال ، كما خطط للانطلاق إلى بلاد الفرس لينتقم لكراسوس ، وأصبح
قيصر سيد العالم .

وفي منتصف مارس من سنة ٤٤ ق . م . تأمرت طائفة من أعضاء مجلس السناتو — بزعامة كاسيوس وبروتاس — وطعنوه بخنجر وأردوه قتيلاً ، لأنهم لم يطيقوا أن يروا روما تزح تحت سلطان حاكم بأمره .

وما هو إلا القليل حتى اقتُص لقيصر ، إذ أن أحد قواده (أنطونيوس) وابن أخته (أوغسطس) هزماً وقتلاً من تأمر وأمر عليه ، في فيلبي بمقدونيا . ولقد كان يستطيع هذان اقتسام سيادة العالم فيما بينهما . غير أن أنطونيوس وقع في حب كليوباترا ملكة مصر وبدد وقته . فهزم أوغسطس أسطول أنطونيوس ومصر في أكتوبر . وكان يوليوس قيصر قد هم بجعل أوغسطس خليفته . فاتخذ أوغسطس الآن لقب قيصر : العاهل أوغسطس قيصر ، إمبراطور العالم الروماني ، وأول حاكم من هذا النوع في مدى قرون عديدة جداً .

ولقب عاهل معناه « صاحب الأمر » . وكان الأباطرة هم الحاكمون وقد اتخذوا جميعهم ، لقب « أوغسطس » ، ولقب « قيصر » ، ولم يتخذوا قط لقب « ركس » ، أي ملك . ولكنهم اتخذوا لقباً موحداً مألوفاً لنا جداً وهو « برنسپس » ومعناه « الأول » ، أي المواطن الأول . ونحن نعرف هذا اللقب في صيغة أكثر رومانسية وهي پرنس (أمير) .

أهالي « مدينة غير دينية »

ترك يوليوس قيصر على العالم سمته كما لم يفعل أحد من قبل . ولقد اتخذ عشرات وعشرات من الأباطرة الرومان ، الذين خلفوه ، اسمه — قيصر — لقباً ، وأصبح كل منهم « قيصرأ » أي حاكم الناس الأعظم . واستعارت شعوب أخرى لقبه : فحوره الفرس إلى « شاه » والروس إلى « تزار » والألمان إلى « كايزر » .

ولقد كان يوليوس رجلاً ذائع الصيت حقاً . ولكن شهرته وذكره يزددان إلى حد كبير — إلى أنه روماني ، إذ أن الرومان كانوا جديرين بالاعتبار ، فلقد جمعوا الدنيا بين أيديهم . وإن الإمبراطورية لتبدو في التاريخ وكأنها الزمان والمكان اللذان فيهما انصبت كل المدينيات السابقة ومنهما نبعث كل مدينتنا اللاحقة .

ولقد جاء قبل قيصر ، رومان عظماء ، وجاء بعده كذلك رومان عظماء كان كثيرون منهم من أبناء أسبانيا وبلاد الغال وشمال إفريقيا وسوريا وأراضى الدانوب . وإن القديس بولس ، عندما وصف نفسه بأنه « من أهل مدينة غير دنيئة » ، استعمل عبارة ازدهت بها الآلاف من البشر في كل مكان من عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد صنع الرومان شيئاً لم يلحقهم فيه أحد قط ، ذلك أنهم جعلوا كل من دانوا لهم يفخرون بأنهم رومان ، وكان هذا سحراً اختصوا به .

ولقد قبسنا معرفتنا وحكمتنا من اليونان . وكذلك فعل الرومان الذين كانوا ينظرون إلى المدارس الإغريقية كما قد ننظر نحن إلى الجامعة ، والذين درجوا على أن يرسلوا أبناءهم ليتلقوا العلم في أثينا . ولقد كان الرومان محنكين في فن الحكم وفي صياغة القوانين . والألفاظ التي نستعيرها من الإغريق ألفاظ اصطلاحية مثل : قضية عليية ودراما (١) وموسيقى ورياضيات ومنطق وفلسفة . ومفرداتنا التي تتصل بفن الحكم تغلب فيها اللاتينية مثل : مدينة ومدنى (أى غير عسكري) ومجمع أو مجلس شورى وشركة تجارية وجمعية أو محفل ومحكمة أو دار قضاء وسجن ووزير وأمير وعدالة ورئيس وعضو مجلس شيوخ ، ولقد ظلت القوانين في أوروبا

(١) الدراما مسرحية أو مأساة ، شعرية كانت أوثرية .

أجيالا عديدة تكتب باللاتينية كما أن فقهاءنا القانونيين استعملوا وما يزالون يستعملون عشرات من العبارات اللاتينية ؛ وأكبر نظامين للتشريع في العالم المتمدن ، أحدهما إنجليزي والثاني روماني ، وهذا الأخير هو اليوم أساس القوانين في بلاد كثيرة . ولقد كانت هبة روما للعالم هي الهبة التي لم يعثر عليها إلا غريق قط ، وهي هبة فن الحكم وصياغة القوانين وإقامة العدل وكل ما من شأنه أن يربط الناس بعضهم ببعض ويؤدي إلى « السلام » و « النظام » (وهاتان كلمتان لا تينيتان أخريان) . وكاد عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني أن يكون عهد السلام العالمي في كل الأقطار . ولقد كتب أحد الأساقفة المسيحيين يقول : « يعم السلام العالم ، والفضل في ذلك للرومان » . وقال كاتب آخر : « لا وجود للحروب ولا لقطاع الطرق أو اللصوص ولا للقرصان » .

ولقد آمنت صفوة الرومان بشيء أسموه « الجمهورية » . وخير ما نستطيعه من ترجمة لهذه الكلمة هي « حكومة الكفاة » أو حسب التعبير الدارج : « المصلحة المشتركة » . وهم ما ينفكون يذكرون على مر الأيام معنى الفضيلة الرومانية أي كل الصفات الطيبة التي تتكامل لتكون المواطن الصالح ، مثل : الشجاعة والصدق والاحترام وشرف الأسرة والولاء . وكانت صفوة الرومانيين واسعة الإدراك تقدر الخير في ترك الشعوب ، التي تخضعها روما ، تمارس تقاليدها وتحكم نفسها بنفسها ، وبغير ذلك لم يكن ليتسنى لهم أن يظفروا بولاء مثل هذا العدد من تلك الشعوب العديدة .

وعند ما خاف القديس بولس حسد اليهود واستغاث بعدالة قيصر في روما فهو إنما صنع ذلك لأن كل الناس كانت تؤمن بأن العدالة الرومانية تمنح دون خوف أو فضل .

ويخبرنا القديس بولس أنه تعرض للهلاك أربع مرات ، وتقدم لنا كتابات الحواريين وصفا رائعا لليرة الأخيرة . ولقد كانت هنالك عقبات

قليلة تعوق التنقل في الإمبراطورية ، فلاجواز سفرو ولا تأشيرات الدخول .
ويخبرنا شاهد قبر صانع عاش في فريجيا بأنه قام باثنتين وسبعين رحلة إلى
إيطاليا . وكانت هنالك سجلات عديدة من هذا النوع .

ولقد طهر الرومان بحرهم (الذي كانوا يسمونه : بحرنا) من القرصان
وجعلوه حُر المسالك .. ولكن بعد سقوط روما - حول سنة ٤٠٠ ميلادية
كثرت جماعات القرصان وازدادت سطوتهم ، حتى القرن الثامن عشر .

وتنبئنا حكاية شائعة بأن القرصان قبضوا على يوليوس قيصر شاباً ،
وأبقوه في الأسر حتى دفع ذووه فدية لإطلاق سراحه . وفيها أنه وهو
يلعب النرد (١) مع القرصان ، قال لهم إنه سوف يعود إليهم حتماً ويشنقهم
جميعاً . ولا بد من أنهم تلهوا بذلك وقتئذ . وما هو إلا القليل حتى عاد
فعلاً وشنق منهم كل من وقع في قبضته . ورفرف سلام روما على أرجاء
البحر . أما عن ذهاب السفن ومجئها المستمرين عبر المانش إلى بريطانيا
ومنها ، فليست لدينا من المسجلات سوى دمار منارة دوفر الكبرى ونقش
(أو نقشين) كالذي يحدثنا عن ضابط اسمه أوفيدوس بانتيرا الذي شغل
منصباً كمنصب أمير البحر في البحار الضيقة . واسمه لا يبدو الآن في كتبنا
التاريخية ، إلا أنه هو وأمثاله كان لهم شأن في صون المدينة باسم روما .

وتنبئنا كتابات الحواريين كيف رحل القديس بطرس عبر مدائن
آسيا وبلاد اليونان . ويروى لنا مؤرخو الرومان كيف جالت الكتب
بأحذيتها ذوات المسامير الغليظة في نعالها — بين أقاليم الإمبراطورية .
وكان الرومان مهندسين ممتازين يعرفون قيمة الطرق الحسنة الاعداد ولذا
أنشأوا منها الكثير في كل مكان .

ولهذا السبب مهدوا طرقاً عامة ممهدة بين أخاديد المصارف كما أنشأوا
جسوراً مقنطرة فوق الأنهار ومجارى المياه ، ودقوا أعمدة في الأراضي

(١) النود زهر (الطاولة) وغيرها من الألعاب .

الغمقة لدعم الطرق المرتفعة ومن أدق ما أقاموه جسر خشبي عبر الدانوب العظيم يحمله عشرون عموداً من الحجر . ولقد أنشأوا على طول طرقهم محطات — يتسنى فيها استبدال الجياد — وحانات للراحة وتناول المأكولات والمشروبات المنعشة . وقد بقيت تلك الطرق العامة الممهدة ، قروناً ، تثير إعجاب أهل الريف — في القرون الوسطى — الذين كانوا يتخيّلونها في بعض الأحيان من عمل المردة أو الشياطين . وما يزال الكثير منها مستعملاً حتى اليوم ، بينما البعض وأجزاء من البعض قد دفنت تحت التراب المتراكم . وفي إنجلترا كانت تنتهى كلها إلى لندينيوم أوجستا تماماً كما هو شأن الطرق والسكك الحديدية الآن . وفي أوروبا — في عهد الإمبراطورية — كانت كل الطرق تؤدي إلى روما حيث توجد نصبة الأميال الذهبية التي منها يبدأ ترقيم جميع المسافات .

وإن كانت الطرق جميعها تلتقى في روما بوصفها مركزاً فإنها تربط في الخارج مئات من المدن التي تكونت منها إمبراطورية المدن المترامية . توصل هذه الطرق إلى أسواق شهيرة كآزمير وأنطاكية وطرسوس أو إلى مرسيليا وكولونيا ولندن كما توصل إلى الحواضر الريفية مثل كابريانوم في جاليلي أو كايرونت في منماوث التي يستطيع حتى اليوم رؤية أسوارها تقف مرتفعة من الحقول وبين هذه المدن بعضها البعض تدفقت تجارة لا تنقطع من كثير من الشعوب والأقاليم على طول شبكة الطرق المترامية . وكان الناس يصنعون في المدن الإغريقية أثواباً تيلية من الكتان الذي ينمو في الحقول السورية . وكانوا يرسلون الأواني الزجاجية الفاخرة من صور وصيدا إلى كل أنحاء الإمبراطورية . ولقد عمل الخزافون في بلاد الغال على تزويد الغرب بالطاس والأقداح . وكان خشب أرز جبال لبنان العالية ينقل إلى روما ومصر . وقد عثرنا على سجلات : في الراين عن صناعات السيوف ، وفي شمال إيطاليا عن صناعات الدروع . وقد استخرج الغواصون

الفرنسيون من تحت أمواج مرسيليا ، مع حطام إحدى السفن القديمة ،
دناناً لا حصر لها من النبيذ الإغريقي كما استخرجوا من البحار الضحلة المقابلة
لقرطاجنة القديمة عمداً وتمائيل من الرخام حملتها سفينة تجارية وغرقت
بها في تلك البحار قبل ألف سنة. وكان رصاص دريشاير وصفيح كورنول
يصدران إلى القارة ، كما كان قدر كبير من الجلود والأصواف والحبوب
يعد من بلاد الغال وبريتانيا وشمال إفريقيا للتجارة إلى ما وراء البحار ،
ورزم من البردى توسق من الإسكندرية .

وثمة تجارة أكثر إبداعاً وقدماً تدفقت من الأراضي الغامضة الواقعة
وراء مشرق الشمس فكانت أنواع الحرير تصل إلى الأسواق السورية من
الصين بعد مسيرة شهور عديدة معفرة مضمّنة عبر الجبال الباردة الكثيفة
والصحراء المنهكة للقوى . وكانت التوابل من بلاد العرب واليواقيت
والعقاقير من سيلان وجزائر الهند الشرقية تصل إلى موانئ البحر الأحمر .
وقد احتفظ الرومان بمحطة تجارية على سواحل الهند نفسها ، كما عرف
وكلاؤهم إيرلندة في أقصى المغرب ، وجلبوا الكهرمان من سواحل البلطيق
في الشمال .

وهذه الحركة جميعاً كانت تملأ الطرق المترامية طوال الربيع والصيف
والخريف . وكل تلك الأنواع من الناس — من كل شعب — كانت تقيم
في المدن وبخاصة في روما والعواصم الكبرى بالأقاليم . وقد نحل بعض تجار
الخمر من الإيطاليين أسماء إغريقية لكي يتجروا في الخمر الإغريقية .
وأقام السوريون واليهود بيوتات تجارية في أسبانيا وبلاد المغال ، وانتشر
أصحاب الحوانيت الإغريق في كل مكان. وكانت لغة التخاطب المشتركة
هي اللاتينية ، والغالب أنها كانت نوعاً منها أقرب إلى التكسر ينطق به
— في أكثر الأحيان — بلهجات غريبة . وفي الشرق كانت الإغريقية
هي لغة التخاطب . وكثيراً ما اتخذ غير الرومان أسماء رومانية كما فعل شاؤول

الطرسوسى عندما أسمى نفسه پاولو . وهذا هو الشأن فى الدنيا الحديثة ، إذ تجد الزوج يعطون أو يتخذون لأنفسهم أسماء إنجليزية أو فرنسية . واختلاط الشعوب واضح كل الوضوح فى سجلات الأباطرة أنفسهم . على أن أغلبهم لم يكونوا حتى من إيطاليا بل مواطنين من أسبانيا أو إفريقيا أو الليريا ، وأحدهم عربى .

ولقد بادت سجلات الإمبراطورية البردية التى لا تقع تحت حصر ، وكذلك باد أغلب الكتب العلمية ، وأصبحت معلوماتنا تعتمد على معاول علماء العاديات .

ومن حسن حظنا أن لدينا الكثير من النقوش ، ومعظمها حجارة من قبور جنود الحاميات التى وكلت إليها حماية الحدود الإمبراطورية : من الفرات إلى التاين ومن الصحراء إلى الدانوب ، وما يزال العلماء يتوفرون على شىء من البيانات المسلسلة عن الجيوش الرومانية وذلك بالتأليف — فى تمهل وعناء — بين بعضها البعض ، وإنها لمهمة خلافة . فقد يظهر حجر لجندى بريطانى فى سوريا وقد يظهر حجر لجندى سورى بجوار السور الرومانى فى نورذمبرلاند .

ولقد ضم كل فيلق فى تلك الأيام نحواً من ستة آلاف رجل ، وكان هناك نحو ثلاثين فيلقاً . وكان هنالك ، فوق هذا ، فرق صغرى أو وحدات اسمها الملحقة أى السريات الاحتياطية ، بعضها من الخيالة وبعضها من رماة السهام أو رماة القلاع ، والبعض من البربر الذين ألحقوا بالعسكرية الرومانية . وربما بلغ المجموع ، على أكبر تقدير ، ربع مليون جندى تحت السلاح ، وهذا القدر ليس بالغ الكثرة بالنسبة لحراسة العالم .

ولقد عمل الجنود النظاميون لقاء أجر ودانوا لقوادهم بولاء كبير إلى حد أنهم كانوا يحبونهم كما قد يحبون الأباطرة ، فإذا فعلوا هذا ، وكثيراً

ما فعلوه في القرن الثالث ، اقتتلت الفرق فيما بينها . وكلما أفلح قائد وأصبح إمبراطوراً ، كافأ جنده بعطايا أو نقود . وقد حدث مرة أن قائداً هولاندياً اسمه كاروسوس أقام في بريطانيا « إمبراطورية » مستقلة ، وهناك حكم وصك النقود باسمه ، حتى هبطت عليها من بلاد الغال جيوش قوية وردت الجزيرة إلى الإمبراطور الآخر المقيم بالقيادة .

وكان لكل فيلق شعاره الخاص وأعلامه المقدسة . ويقال إن تين ويلز الأحمر كان شعاراً لفيلق وتوورث طوال أجيال عديدة . ولقد عسكرت بعض الفيالق في أماكن لم تغيرها قرونًا وقرونًا مثل الفيلق الثاني أوغسطا (أو د الفيلق الملكي) الذي عسكر في كارليون على نهر الأسك . وكارليون معناها — ببساطة — مدينة الفيلق . وكان الأباطرة في بعض الأحيان يوطنون قُدامى العسكر في مستعمرات الجنود المحنكين ويحولونهم إلى زراع وكان لتلك المستعمرات أكبر النفع في المناطق الخطرة القريبة من الحدود . ولقد عسكر في روما نفسها الحرس الإمبراطوري ، وكان يتألف من رجال مختارين . وفي الأيام الأخيرة للإمبراطورية درجت الفيالق على أن تعسكر — في العادة — على مسافة ما من الحدود . أما على طول الحدود — كالسور في بريطانيا وخط الاستحكامات على الراين والدانوب — فقد عسكرت فصائل من الاحتياطي . فإذا ضُيق على تلك استطاعت الفيالق أن تخف إلى الحرب .

وكان العمود الفقري لتلك الفيالق هم النقباء ، أو ضباط المائة جندي كما كان يسميهم المترجمون الإنجليز القدامى . ولم يكونوا جميعاً متساوين في الدرجة ، إذ أنهم يتدرجون في كل فيلق من أقلهم حداثة إلى أكبرهم قدماً ، ولكنهم على كل حال كانوا يهيمنون على الجيش . وربما وصل عددهم — في أي وقت — إلى الألفين . وقد يكون خير وصف لهم أنهم رؤساء فرق . ولقد كانوا — بوصفهم ضباط القائد الأعلى ، وهو

الإمبراطور — يمثلون صولة ومهابة روما الإمبراطورية سيدة العالم .
ولقد خلدتهم الأناجيل أكبر التخليد . وكان نقيباً ذلك الذى قال لعيسى :
« أنا أيضاً إنسان مرتب تحت سلطان ، لى جند تحت يدى ، وأقول لهذا
اذهب فيذهب ولاخرات فيأتى » .

الديانات القديمة واليهود :

عبد الناس آلهة كثيرة مثل جوبيتر وأبولو (١) عند الرومان ، وأوزيريس
وليزيس عند المصريين ، والإلهة الأم الكبيرة عشتروت عند السوريان .
وكان لجميع أولئك أضرحتهم وهياكلهم وكهانهم . وكذلك كان شأن ملوخ
إله القرطاجنيين الرهيب الذى كانت الأمهات تضحين بأطفالهن قرباناً له .
وكان لكل نهر و جدول وممر فى غابة ربه المحلى ، ولكل مدينة إلهها الخاص
بها أو إلهتها ، ولقد عبد أهل أثينا (آثينة) إلهة الحكمة التى كانت تعد حامية
تلك المدينة ، وعبدوا مع ذلك أرباباً آخر ، وغالوا فى التثبت من صنعهم
ما يجدر بهم صنعه بإقامة محراب للإله « الخفى » . وعبد الناس طواعية
واختياراً — فى واقع الأمر — آلهة غيرهم من الأقوام وآلهة المناطق التى
يتصادف وجودهم فيها عندئذ . ولم تجد سوقة المدن ضيراً من آلهة غرباء ،
إلا أنهم كانوا ينفرون من لا يمارسون العبادة كما يفعلون هم . وإلى هذا كله
أحل الرومان أباطرتهم ، من حيث التجارة محل الآلهة وحرقوا البخور تلقاء
أضرحتهم ، وكانت تقام فى الأماكن العامة ، كما كان من الخيانة ترك ذلك .

ولم يكن أحكم الإغريق والرومان ينظرون إلى أى إله فى كثير
من الجدد ، إذ أن العبادة فى نظرهم لم تزد على كونها عادة عتيقة عديمة
الضرر تتبعها العامة والفلاحون . ولقد عمد البعض من الفلاسفة الملقبين
بالسكبيين (٢) إلى التندر بحكايات الآلهة ، وعمد بعض آخر ، ويسمونهم

(١) عند الرومان كان جوبيتر إله الآلهة ، وأبولو إله الجمال والرجولة والشعر والموسيقى .

(٢) السكبين ؛ الساخرين بالعالم مثل ديوجين .

بالرواقين (١) إلى الزراية بالآلهة والاستخفاف بهم وإلى القول بأن الناس ينبغي لهم ألا يلقوا بالآل إلى ما عساهم يصيبون من توفيق أو نحس وأن يعيشوا لأداء واجبهم ليس إلا بصرف النظر عن السرور أو الألم . ومع كل فقد آمن البعض الآخر من الفلاسفة ، الذي كان يطلق عليهم اسم الأبيقوريين (٢) ، بأن الناس يجب أن تكون قصاراهم التمتع بما في الحياة من متع مع عدم التفكير في المستقبل ،

ولقد كان الناس في كل مكان في حاجة إلى الأمل والإلهام ، وكانت الحياة البشرية صراعاً عنيفاً مع المرض والنحس والشر ، وكان في الفقر مافيه من سوء . ثم إن كل فقير أو كل أسير قد يصبح عبداً ، وقد وجد العبد في كل مكان . وكما قد يتطلع الجنود — في بأسهم وسط ميدان القتال — تطلع الناس إلى قائد ، إلى مخلص وإلى صيحة تلمّ شعشهم وتجمع قواهم . على أن شعباً واحداً وقف بمعزل عن غيره من الشعوب وظلّ متمسكاً مكافئاً في ظل دين قوى روحى . وكان أولئك هم اليهود .

وقد أرشدهم أنبياء كثيرون إلى الله الواحد الحق ، إله لم تصنعه يد بشر ولا يحدّه مكان ، إله روحانى يعلم السرّ وأخفى ، إله من الأزلية إلى الأبدية ، أرشدوهم إلى (يهوه) (٣) أى إله العدل والحق الذى قضى على رجاله المصطفين بأن يحموا شريعته ، شريعة الرحمة والحق . ويسعنا أن ندرك على أية صورة عرفوا الله إذا قرأنا منظوماتهم المسماة بالمزامير . لقد كان (يهوه) قبل كل شيء ، إلهاً لم يرخّص لهم تكريم أى إله غيره أو عبادته . وقد شقّ على اليهود الإذعان لهذا التوجيه الصارم عندما أحاطت بهم شعوب أخرى درجت على أن تغنى وترقص وتها حول أصنام آلهتها

(١) الرواقيون المروجون لفلسفة زينون القائلة بكبح العواطف وعدم المبالاة بعدم المؤثرات الجسدية كاللذة والألم .

(٢) الأبيقوريون ، القائلون بأن السعادة تأتي براحة البال عن طريق العيشة الفاضلة .

(٣) كلمة عبرانية معناها الله ، وكذلك كلمة . دوناي .

المرحة. ولم تكن هذه الأصنام إلا صوراً تمثل تلك الآلهة وهذا مايسهل التفكير فيها (أى الآلهة)، إذ من العسير عليك أن تفكر في شيء لايسعك تصوُّره . إلا أن الأنبياء العظماء الذين أرسلوا إلى اليهود قالوا إن الله روح غير مرئية تقدر على كل شيء .

وهكذا كان اليهود مكافحين متحدين . ولم يكن لهم من بين المعابد غير هيكل بيت المقدس . ولقد أقام الملك سليمان معبده الأول ، وقد خربه البابليون . وأقام الملك هيرود المعبد الذى عرفه عيسى . على أن اليهود عاشوا على جوانب الطريق العامة الكبيرة ، للتجارة والحرب ، تلك التى تقع بين آسيا ومصر وسط الإمبراطوريات البالغة السلطان . ولقد كانوا شعباً صغيراً استعبده البابليون وغزاهم الإغريق وغزاهم الرومان مرة أخرى فى عهد يومبي ، فنفروا خارج حدودهم فى كل مناحى الإمبراطورية الرومانية . وكان لهم فى كل مدينة كبيرة — من الإسكندرية إلى مرسيليا — دائرة كنسية أوحى خاص بهم . أما اليهود فى مصر فقد استوطنوها دهرأ طويلا فانسوا لغتهم وأصبح لزاماً أن يُترجم لهم العهد القديم من لغتهم الأصلية العبرية — إلى الإغريقية .

وأياً كان المكان الذى رحلوا إليه واستوطنوه — سواء أكان الإسكندرية — أو روما أو أثينا — فإنهم ظلوا أفراد شعبٍ منعزلٍ يلتقون ليصلوا ويقرأوا أسفارهم فى كنائسهم ويدعمون التفكير فى معبدهم المقدس ببيت المقدس . ولقد حجّوه وتبرّعوا لخزائنه بأموال طائلة إلى حدّ أن الذهب المختزن هناك كان يكفى لأن يفقدى به ملك من الملوك . ولقد كدّوا فى العمل وأثروا بسبب ولاء أفراد أسرهم لبعضهم البعض ونواميس سلوكهم الصارمة . وهم قاموا بدور هام فى تجارة العالم القديم .

وكان اليهود ، أيضاً ، يتوقعون ، فى شغف بالغ ، نزول مخلص أو مسيح يخلصهم من أعدائهم .

المسيحية :

وبشر المسيح يهود الجليل بإنجيل المحبة في وقت شملت فيه الإمبراطورية الرومانية كل الرقعة المعروفة من الدنيا وانتشر فيه اليهود انتشاراً واسعاً في المدن الكبرى جميعها . وإذا كانت الفرصة قد سنحت لدين أن ينتشر في العالم أجمع ، في ظروف ملائمة ، فهو الدين الذي جاء به عيسى .

كان عيسى وأتباعه يتكلمون اللغة القديمة ، لسوريا وفلسطين ، التي نسميها الآرامية . غير أن كتب اليهود المقدسة كتبت بالعبرية وكان في استطاعة كل أحبار اليهود قراءتها .

أما اللغة المشتركة بين كل بقاع البحر الأبيض المتوسط الشرقية فكانت الإفريقية .

ومن المفيد معرفة اسم اللغة التي كان ينطق بها عيسى كلما تحدث إلى قواد الرومانيين المماتة . ولا مريّة لدينا في أن هذا الخليط من اللغات يبدو غريباً بعض الشيء غير أن السهل اليسير ، حتى عند غير المتعلمين ، أن يتكلم الناس لغتين أو ثلاثاً إذا عاشوا بين شعوب مختلفة . وذلك أمر شائع جداً على حدود أوروبا الشرقية اليوم .

وكانت الإغريقية هي اللغة التي يتكلمها التجار والعلماء . فلا عجب إذن في أن المدونات — التي تتحدث عن حياة عيسى وتابعيه الأولين — وصلت إلينا بالإغريقية ، إغريقية العهد الجديد . ونحن نعلم أن الأسفار المختلفة تم جمعها في وقت مبكر جداً وأنها كثيراً ما كانت يحتفظ بها في شكل كتاب وليس في قراطيس البردى الملفوفة المألوفة . ومن بين تلك : ذاك الكتاب العظيم المسمى « أعمال الرسل » ، وهو الكتاب الوحيد لدينا الذي يقدم لنا صورة مفصلة للحياة في القرن الأول .

جرت محاكمة عيسى أمام حاكم رومانيّ هو ينتيوس بيلاطس، بتهمة خيانة الإمبراطورية ولم يكن بيلاطس على يقينٍ من صحة التهمة . غير أنه ، إنقاذاً لنفسه من متاعب اليهود ، أصدر أمراً بإعدامه .

على أن عيسى لم يعلم الناس أن يزدروا الدنيا ولا أن يتمتعوا بالدنيا ولا أن يسخروا من الدنيا ولكنّ علمهم أن يُحِبُّوها . وأوجب عليهم أن يحبوا بعضهم بعضاً ويساعدوا بعضهم بعضاً . وقد علم عيسى الناس أن الحب أقوى شيء في الحياة ، وتجاهل كلّ فروق المركز والتعليم ، واختلط بكل أنواع الناس ، ووعظ كلّ أنواع الناس : الغني منهم والفقير واليهوديّ منهم والوثنيّ والإغريقيّ منهم والبربريّ غير أننا ما ينبغي لنا أن ننسى أنه كان رسولا إلى بني إسرائيل بصفة خاصة .

وقد أسمى تابعوه أنفسهم بالأخوان . وكانوا يسمّون أول الأمر بـ "المسيحيين" ، في أنطاكية وهي مدينة إغريقية كبيرة جميلة على نهر أورونتيس ، بها كثيرٌ من الأساطين (أي الأعمدة) الرخامية ومن غيصات الشجر ، اشتهر أهلها بإطلاق الكنايات التهكمية .

وقد نُقل الإنجيل في سرعة إلى كلّ البقاع وفي إحدى الأساطير ان القديس توما أخذه إلى الهند . وسمّته قبائل الصحراء العربية . وبه وعظ القديس فيليب الأحباش . غير أن أكبر أعمال التبشير قام به القديس بولس .

وكان بولس مواطناً رومانياً أصيلاً من طرسوس في آسيا الصغرى وتمرّس بصناعة الخيام ، وقد اشتهرت (طرسوس) بصناعة قماش وبر الماعز وفي تلك المدينة تعلم تعليماً نظامياً بجامعتها وتلقى بعض العلوم الإغريقية

القديمة . وكان ورعاً خيّرأ شاباً يدرس على كبار أحبار بيت المقدس وكان حقاً ما قيل عنه ، كما قيل عن مؤلف كتاب المزامير القديم من أن كل متعته تركزت في شريعة (يهوه) . غير أنه انقلب مسيحياً بسبب رؤيا مذهلة رأى فيها عيسى في الطريق إلى دمشق ، وهي المدينة التي تتلاقى فيها جميع طرق الصحراء . وقام برحلات تبشيرية ثلاث في كل المناطق الغنية الآهلة بالسكان من آسيا الصغرى وبلاد اليونان . ولقد بشر بتعاليم المسيح في الكنائس اليهودية وفي السوق وحوّل كثيرين إلى المسيحية وسبّب شغباً كثيراً ، وقبض عليه وحُبس وجُلد بل لقد سيق إلى مقاتلة الوحوش في ساحة المجالدات .

وقد نقل إلينا التواتر أنه كان قصير القامة أصلع يخاله الرائي رجلاً قليل الأهمية . وهو لم يكن ليرهب أى شيء . وأخيراً ، بعد شغب في بيت المقدس قبض عليه الرومان لينقذوه من غضب الدهماء . وقد طلب أن يحاكم أمام قيصر روما بوصفه مواطناً رومانياً . وعلى هذا أحيط بحراسة قوية ونُقل في سفينة تجارية إلى روما . وقد تمكن ، بحكمته ورباطة جأشه ، من إنقاذ حياة حرسه وحياة زملائه الركاب عندما تحطمت السفينة في مالطة . وعاش في روما بضع سنوات . وتقول إحدى الأساطير إن بولس ضُرب عنقه في أثناء اضطهاد المسيحيين بأمر من الإمبراطور نيرون في الوقت الذي صُلب فيه القديس بطرس .

وقد وجد علماء العاديات في المدائن المخربة بآسيا الصغرى — وهي الأرض الخصبة التي أصبحت فلاة موحشة — آثار الرعيل الأول من المسيحيين : وجدوا شواهد أضرحة عليها نفوشٌ قصيرة حزينة . وقد أطلقت جماعات من المسيحيين على نفسها اسم : جمعيات الدفن ، أو كما قد نقول : شركات التأمين ، وذلك اتقاءً للتعقّب . وكانوا يلتقون سرّاً .

واضطهدت هذه الجماعاتُ عندما أبت أن تحرق البنخور عند ضريح الإمبراطور . وقد كرهتهم الدهماء وأذاعت عنهم الشائعات الكاذبة . أما في روما نفسها فقد درجَ المسيحيون على أن يتعبّدوا على أن يدفنوا فقيديهم الأعزّاء في مسالك وحجراتٍ ، يقدّر طولها بالأميال ، قدّدت في الصخر تحت الأرباض (أى الضواحي) . ونحن نسمّي هذه الأماكن « قباء الرموس » . وفي هذه القباء حافظت أجيالٌ كاملة من المؤمنين بالمسيحية على حياة دينها . وما تزال جدرانها تحمل النقوش المسيحية الباكّرة ، وما تزال مقابرهم تحوى المخلّفات الأثرية للرعيّل الأول من الشهداء الذين أعدموا في أثناء الاضطهاد .

وكانت قدامى آلهة المدينة والحقل في سبيلها إلى الزوال . وتقول أسطورةٌ غير ذائعة بأن كلّ الكائنات الحية ، التي كانت في البرية عند ولادة عيسى ، علمت بالخبر المؤسف وهو وفاة إلههم (پان) (١) إله البرية ذى الأظلاف المشابهة لأظلاف الماعز . وقد ضمتن هنا ، چون ملتن وهو أكثر شعرائنا موسيقيةً ، في قصيدته التي نظمها عن ميلاد المسيح والتي يقول فيها : « لقد سمعتُ الجبال البعيدة الموحشة وسمع الشاطئ المدوّى صوت بكاءٍ ونواحٍ حدّ » . ولا ريب في أن هذه الحكاية الخيالية القديمة تُنسبُنا بذيوع الإنجيل ذيوعاً مذهلاً . فلقد سرى مشرّى النار في الهشيم إلى حدّ أن نفرأ من أسرة قيصر آمنوا به . وفي وسّعنا أن نتصور الإنتاج العظيم الذى ملأ قلوب فقراء العبيد عندما سمعوا البشائر السارة بالأخوة والمحبة .

غير أن اليهود لقوا مأساتهم النهائية .

(١) (پان) إله الماشية والقطمان والرعاة عند الرومان .

سقوط بيت المقدس :

ظهر بين يهود أرض الميعاد غيورون أو وطنيون كثيرون أزمعوا على الخلاص من نير العبودية الرومانية . وهؤلاء لم يُطيقوا — وهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار — أن يدفعوا المكوس لقيصرٍ وثى . وظلوا ينتظرون مسيحاً يقودهم إلى الانتصار على الرومان . وأمّل بعضهم أن يصبح عيسى ، ذلك المسيح المنتظر . غير أنهم تحيروا واغتاظوا عندما قال لهم إن مملكته ليست في هذه الدنيا ، لأنهم أرادوا الحرب .

وفي سنة ٧٠ م . أشعلوا نار الثورة في كل مكانٍ بأرض الميعاد . ونظراً لشعورهم المرير أضرموها نضالاً قاسياً انتهى بدمار بيت المقدس والمعبد . وقد أنفذ القائد الرومانى تيتوس كتابه فأحاطت بالمدينة التى حكم عليها القدر وأرسل عُدده الجبارة التى اعتدت للحرب لترشق أسوارها وأبراجها بالحجارة . فهلك جوعاً بعض اليهود المحاصرين فى الداخل وأخذ البعض يتقهقر وهو يرد الهجمات المفاجئة أو يحاول أن ينجو بتسلُّق الأسوار ليلاً فلا يجد غير مصير واحد وهو الأسر والصلب . ولقد حاول تيتوس فعلاً أن يستبق المعبد . إلا أن الغيورين لم يشاءوا أن يستسلموا حتى لهذا الغرض وحتى بعد أن تبين لهم أن قضيتهم خاسرة لا محالة . وحاربوا إلى النهاية وكانت النتيجة تدمير المعبد وقدس أقداسه . وسبق آلاف من أسرى اليهود التاعسين لبيعوا عبيداً أو ليوزعوا على المدائن الإغريقية التى ساقتهم بدورها إلى مجالدة الوحوش فى ساحات المجالدة تسليةً للجماهير . هذا بينما ضرب جنود الفيلق العاشر خيامهم تحت ظل الأسوار المحطمة ، على تل صهيون حيث عاش داود وسليمان وصلياً لإلهما وحيث بقى المعبد حطاماً إلى الآن .

وظل اليهود يعيشون جماعات صغيرة فى مدائن أخرى . واحتفظ

الأخبار بكتب الشريعة وكتب الأنبياء . واحتفظوا حتى اليوم كذلك بأساليب الحياة الدينية القديمة رغم أن قروناً من المشقة والاضطهاد مرت بهم . وإنك لتجد في الكنائس اليهودية بلندن وباريس ونيويورك وغيرها أن أناساً من سلالات قوم عيسى ما يزالون يجتمعون في أيام السبت (وهو يومهم الديني المخصص للراحة) وما يزالون يقيمون مراسم الصيام وأعياد العهد القديم وغالبيتهم ما تزال مبعثرة في شتى أنحاء العالم .

الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية :

درج عيسى وحواريوه على أن يجتمعوا في بيوت خاصة كالبيت الموجود في بتاني الذي كانت تعيش فيه ماري ومارتا وكالغرفة العليا في بيت المقدس . وكانوا يهوداً متدينين ولم تكن بهم حاجة إلى ما نسميه « كنيس » . وكانت الاجتماعات المسيحية الباكرة تعقد في بيوت الإخوان وهم أولئك الذين اتبعوا سبيل المسيح . وعلى هذا كانت أولى الكنائس المسيحية هي « كنيسة البيت » . وكانت القداصات الأوليات تشبه إلى حد ما تلك التي تقام في أقاليم البراري بكندا حيث يركب المرسلون للتبشير من مزرعة إلى مزرعة .

وبما أن المسيحيين كانوا مكروهين لدى الجماهير أُولى الأباطرة فلم يكن من دواعي أمنهم أن يجتمعوا في مبان معينة . وعندما بنيت الكنائس الأولى لوحظ عند بنائها أن تكون مشابهة تمام المشابهة للقاعات العامة الرومانية أو « البازيليكات » . والبازيليك حجرة مفردة كبيرة يستدير أحد أطرافها وهو ذاك الذي اعتاد القضاة الرومان أن يعقدوا فيه مجلس القضاء ، وبه كان يقام المحراب المسيحي . وإذا اتسعت الحجرة اتساعاً كبيراً رُفِع السقف على صفين من الأعمدة . وهذا هو بالضبط ما نراه اليوم في الكنائس الأبروشية .

وظل خطر الاضطهاد يتسعّر تارة ويخمد أخرى طوال ثلاثمائة سنة .

وثمة لون معين من الاضطهاد يجس فيه ، أحياناً ، عشرات وعشرات من المسيحيين إلى القضاة الرومان ويغصبون على أن يحرقوا البخور للإمبراطور أو يجازون بالموت . وقد اضطهدهم نيرون ودوميشيان في القرن الأول واضطهدهم دقلديانوس في القرن الثالث كما اضطهدهم الإمبراطور الرواقى (١) ماركس أوريليوس في القرن الثانى . ولم توجد فترات ضمن فيها المسيحيون لأنفسهم الأمن التام .

« يستخر منهم ويستجنون ويرجمون بالحجارة ويعذبون ويفلقون شطرين بالمشار وينحرون بالسيف »

ولقد كانت عبارات التريمة صادقة . ولا يسع أحداً أن يحصر عدد الذين ماتوا في سبيل إيمانهم . وعلى سبيل المثال : من بين أساقفة روما ، الثلاثين لم يستشهد أقل من تسعة وعشرين . وربما كان شح سجلاتنا عن الكنائس الأولى يرد إلى أن السواد الأعظم من الشهداء كانوا من عامة الشعب المتضعين . وثمة سبب آخر هو أن المسيحيين أنفسهم كثيراً ما كانوا يبيدون سجلات الكنائس المكتوبة ليقى بعضهم البعض ، فإذا دخل الموظفون المأمورون كنيسة ليقبضوا على أعضائها خف شخص ما إلى حرق كشوف أسماء جماعة المصلين ، وعلى أية حال فإن سجلات الإمبراطورية الرومانية — التى لا تدخل تحت حصر — قد بادت جميعها . واكتنفت معلوماتنا عن القرون الخمسة الأولى ثغرات فاجعة ، ولم يعرف تاريخ نمو المسيحية وانتصارها إلا من مزق ورقع متناثرة . غير أن هذا التاريخ هو أساس ديانا الحديثة .

وإننا لنعرف ، على سبيل اليقين ، أن المسيحيين — رغم الاضطهاد — ما كانوا ينفكون يجتذبون الناس جميعاً إلى الدخول في دينهم . ولقد صدق هذا تماماً على بلاد لا تبدو ، في نظرنا ، مسيحية ، وهى الأيالات الرومانية في شمال إفريقيا .

(١) الرواقية فلسفة زينون .

فلقد كان عالم مسيحي ومشرع من شمال إفريقيا اسمه ترتوليان — وكان
إبناً لأحد قواد المائة — هو الذى أزرى بالوثنيين ، إذ كتب يقول :
« إن تماثيل آلهتكم إن هى إلا أوكار للفيران والصقور والعناكب . إنكم
تبيعون آلهة بيوتكم المقتناة بل ترهنونها لقاء بعض المال . ونحن الرجال
والنساء المسيحيين ، أبناء الأمس القريب ، ومع ذلك فقد ضاقت بنا مدائنكم
ومعاقلكم ومعسكراتكم وقصوركم ومحافلكم ومجالس أعيانكم ومحاكمكم ،
ولم يخلُ منا غير معابدكم . وإذا حدث يوماً أن حزمنا أمتعتنا ورحلنا إلى بلد
من البلاد القاصية فإن عزلة دنياكم ووحشتها سرف تفرعانكم » .

وذهب القديس بطرس إلى روما . وبشر القديس بولس فى المدائن
الإغريقية . وفى المدائن نما الإخاء المسيحي وازدهر . على أن كلتى « وثنى »
و« جاهل » معناهما « القرويون » أولئك الذين يجهلون الديانة المسيحية .

فلقد كانت المدن الكبيرة من الدنيا القديمة هى التى توجد فيها — أولاً
بأول — أكبر جمعيات المصلين ، وانتهى الأمر بأن أصبح شيوخ الكنيسة
المسيحيون أو « الأساقفة » المقيمون فى تلك المدن هم قواد الكنيسة
المسيحية . ومن الأمور التى تعلمها المسيحيون من اليهود : فائدة الوحدة ،
ولذا بقوا متواصلين . ومنها كذلك . ترتيل الترانيم وتسابيح الحمد عند
إقامة الصلاة . وكان للموسيقى دور رئيسى فى الحياة المسيحية .

ولقد سبق لنا الكلام عن مدينة أنطاكية الجميلة التى يظن أن أسقفها
أغنثيوس لم يكن غير الطفل الذى رفعه عيسى وباركه ودمر الرومان
فى سنة ٧٠ م. المدينة المقدسة بيت المقدس . وهناك أنشأ الرومان مدينة
أخرى فوق الأطلال ، وظل المكان دائماً كعبة الحجاج من اليهود
والمسيحيين على السواء . وهناك : الإسكندرية — بالأقليم المصرى —
وهى مدينة ذات مبان بيضاء متألقة درج العلماء الإغريق على أن يلتقوا
فيها للدراسة فى المكتبات وفى الجامعة . وقد ذاع صيت كنائس الإسكندرية .

ومن بين اليهود الغابرين أناس أصبحوا نساكاً (١) ورجالاً أقداً يعيشون عيشة منعزلة قاسية في جهات صحراوية يقضون أيامهم ولياليهم في الصلاة والصيام والتأمل . وكذلك فعل كثير من النصارى . فلقد خرج من الإسكندرية إلى الصحراء المصرية أسراب من النساك المسيحيين ليقضوا حياتهم بين مقابر قدامى الفراعنة المخربة . ولقد عاش أولئك الرجال والنساء من صنوع حصائر وسلال من الحلفاء . وكانوا يعذبون أنفسهم تعذيباً بالغ القسوة بالجلد وكثرة الصيام وهم يحسبون أن إيذاء أجسادهم ينقذ أرواحهم ، ويجتهدون في التفوق في الألم بعضهم على البعض — تماماً كما يفعل الرياضيون بغية التفوق في مباريات السباحة . وكان أشهرهم : القديس أنطون الذي توفي في سنة ٣٥٦ م .

وما وافت تلك السنة حتى كان اضطهاد المسيحيين قد انتهى . وقصة هذا الحدث تدرع الإمبراطورية الرومانية من أقصاها إلى أقصاها في حياة رجل ذائع الصيت ، وهى : فى القرن الرابع مات ، فى يورك ، قائد روماني ، وحمل ابنه قسطنطين على تروس جنوده ونودى به إمبراطوراً .

ولقد تعهد لهم قسطنطين . بالنصر وهبط بهم من بريطانيا عبر المانش إلى الغال ثم إلى إيطاليا حيث قهر منافسيه ودخل روما ظافراً وكان جندياً مبرزاً وتقول أسطورة قديمة إنه — قبل نصره الأكبر — رأى فى سماء العشيّة صليباً يتوهج بعبارةٍ لاتينية معناها : « بهذه الشارة تنتصر » (أى إذا اتخذت هذا دليلك فستكون لك الغلبة) وأنه منذ تلك اللحظة دفع صانعى أسلحته فى صنع صُلبان ترُشق فى أعلام الفياق ، وقد انتصرت هذه الفياق فى اليوم التالى .

تلك هى الأسطورة . والواقع أنه أنجز أمرين شهيرين غيرا تاريخ العالم . لقد جعل الإمبراطورية نصرانية بإعلانه أن المسيحية هى دين الدولة ومنذ تلك اللحظة قام أساقفة الكنيسة بدور قيادى فى حكم العالم الروحانى .

(١) النساك المنقطع للعبادة .

وصار قسطنطين وخلفاؤه رؤساء للكنيسة في مستعمراتهم المستقلة .

ثم أنشأ مدينة جد قشبية « روما جديدة » على ضفتي البوسفور حيث تلتقى أوربا بآسيا . وكان هذا موقعاً مذهشاً في إقليم جميل ذي مرفأ ممتاز سهل التحصين والحماية . وأطلق على المدينة اسم القسطنطينية أى مدينة قسطنطين . ولكي يزينها جلب لها من روما تماثيل ونصباً تذكارية تسجل النصر . وهاجرت إليها أفواج كثيرة من الأسر الرومانية .

وبذلك أصبحت هناك حاضرتان كبيرتان . وعمد الأباطرة الرومان ، الذين خلفوا قسطنطين وأقاموا في المدينة الجديدة التي بنّاها ، إلى متابعة جلائها بإنشاء القصور والكنائس . وكانت أعظم الكنائس قاطبة كنيسة الحكمة المقدسة ، ذات القباب العديدة المزخرفة بالثمين من المرمر وماء الذهب والصور المرسومة بالفسيفساء .

وكانت القسطنطينية حاضرة الشرق المسيحية تماماً كما كانت روما عاصمة الغرب المسيحية . وهيمن أساقفة القسطنطينية وبطارقتها على كنائس الشرق تماماً كما انتهى أساقفة روما إلى الهيمنة على كنائس الغرب .

وكانت لغة أهل الشرق الإغريقية . وإنا نسمى النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية — أحياناً — بالإمبراطورية الإغريقية ، كما نسمى أباطرة الشرق بالأباطرة الإغريق . غير أنهم وشعوبهم دأبوا على حسابان أنفسهم رومانين ، وفاخروا بذلك .

ولقد حل نظامان عظيمان للرهبان محل نساك مصر الذين عذبوا أنفسهم فسن القديس باسيلي نظاماً للرهبان الإغريق الذين ما تزال أديرتهم المنقطعة قائمة على قنم شواطئ الجزر القاصية . وقد وجدت فيها ، في العصور الحديثة ، نسخ خطية قديمة من الأسفار المقدسة لا تقدر بثمن ، مثال ذلك : دستور سيدنا نيكوس الكبير المحفوظ في المتحف البريطاني . ولقد عاش

هؤلاء النسك بمعزل عن العالم مقسمين وقتهم بين الصلاة والصوم ، على طريقة كليات الرهبان .

وفي الغرب سن القديس بندكت وهو مواطن من نورسيا بإيطاليا ، عاش من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٥٤٣ — سن لائحة الحياة الرهبنة سميت باسمه (بنيدكتين) . وأعدت — فيما بعد ذلك — كل أنواع التعديلات لجماعات النسك الغربيين المختلفة ، وإن بقيت لائحة القديس بندكت أساساً لنظام عيشهم . وتنهاهم تلك اللائحة عن أن يعيشوا للعزلة والنسك ولا شئ غير ذلك كما تأمرهم أن يعيشوا بوصفهم أعضاء في مجتمع متعاون ، تحت نظام صارم ، خاضع لرئيس دير . وقد فرض عليهم الطاعة ، والبقاء منفردين ، والتنازل عن كل ما يملكون للدير ؛ وكان لباسهم مجرد أعطفة غير مصقولة الغزل ، وطعامهم بسيطاً ، ومثواهم خشناً ؛ وكانوا يصلون صلوات موصولة حتى لانهم ليصبحون في جوف الليل ليؤموا مصلاهم و يقيموا دورة لا تنى عن الصلاة والحمد نهاراً وليلاً . والأمر الذى يجعل نظام القديس بندكت مغايراً كل المغايرة للنظام الشرقى هو أنه يأمر الرهبان بأن يعملوا لصالح الدير : يأمرهم بأن يعنوا بالحدائق أو يزاولوا التجارة ، ويربوا الغنم ، أو ينقلوا المخطوطات . وبهذا أصبحت الأديرة خلايا نشاط بها مصليات جميلة ، وضيعات وكومات معتنى بها ، ومجتمعات لها دور ريفية مستكملة ، وقاعات وزرائب ، وبرك للصيد ، وخانات « جمع خان » للسافرين ، وتكايا للفقراء والمعوزين . ولا معدى لرئيس أى دير مضبوط الإدارة عن أن يكون رجل أعمال وأباً روحياً لرعيته . والحياة فى دير كهذا يمكن إجمالها إجمالاً صحيحاً بالقول البندكتى اللاتينى المأثور الذى معناه « العمل عبادة . » وقد علم القديس بندكت القديس جريجورى الأكبر الذى أصبح بابا روما والذى كان واحداً من أعظم رجال عصره ، وإنما حدث هذا بعد الاضطرابات والتخريب التى رزمت بها الاقاليم الغربية . ولقد عمل القديس بندكت والقديس جريجورى بين أطلال الدنيا القديمة .

الباب الثاني

نهاية الإمبراطورية الرومانية وضياع العلوم القديمة

الإغارة على الغرب

في عهد القديس بندكت كانت الدنيا الرومانية القديمة في الغرب ، في سبيلها إلى الزوال . وكانت كل الأقاليم تغص بجماعات من بربر الغابات الشمالية .

وإذا وقفت اليوم على برج سالزبرج في بلاد الراين — ذلك البرج الذي كان يوماً مرقباً رومانياً — وإذا نظرت متجهاً إلى الشمال ، كما كان ينظر الحراس الرومانيون ، رأيت الإقليم الذي جاء منه الغزاة . وبمجيئهم ذهب سلام العالم . . . في مكانه قدم القديس بندكت سلام الدير — وهو الملاذ والحمى — وعمد إلى عيشة الصلاة والعمل المنظمة خير تنظيم .

كان الغزاة — طوال عهد مديد — أعداء الرومان . وكان بعض شبابهم قد تجند في الفياق أو في فرق الحدود العسكرية ، بل إنهم عملوا — في بعض الأحيان — تحت إمرة رؤساء قبائلهم . وكانوا على علم تام بأساليب الحرب الرومانية . وكان أغلب الفياق الرومانية — في واقع الأمر — يجنّد من البربر ، يعملون لقاء أجر ويخلصون لقوادهم .

وفي القرن الرابع ، من أوله إلى آخره ، تعددت الغارات والغزوات عبر الراين والدانوب . وقد اعتاد الإمبراطور جوليان — وهو إغريقي وعالم وجندي كفء — على أن يقضى فصول الشتاء في باريس حيث يقرأ

أعمال فلاسفة الإغريق ، وعلى أن يمضى فصول الصيف فى الزحف والحرب على رأس فيالقة ضد القبائل الألمانية فى بلاد الراين . غير أنه جاء وقت فقدت فيه الجيوش الرومانية قدرتها على حماية الحدود .

وسجلاتنا قليلة . غير أن حدثاً واحداً ظل مذكوراً بوصفه كارثة مفزعة : فى منتصف شتاء سنة ٤٠٦ عبر قوم من الألمان — القوط والألان والواندال (١) والبورجنديين — عبروا الراين المتجمد عندما ينز وتدفقوا فى الغال « ولقد عرف أولئك الناس الكثير عن أساليب الحياة الرومانية ورغبوا فى استيطان الإمبراطورية والتمتع بثروتها وأسس القوط مملكة فى جنوب فرنسا وفى أسبانيا حيث حكم ملوكهم طوال قرنين . واجتاز الواندال بلاد الغال وأسبانيا وعبروا إلى شمال إفريقيا حيث أقاموا مملكة . وغزا غوط آخرون شمال إيطاليا ونهبوه . وغزا شعب شرس من فرسان المغول — وهم الهون — إيطاليا ثم فرنسا (وهى بلاد الغال) تحت إمرة مليكهم أتيللا . وهؤلاء المحاربون البشعون ، قهرهم جيش موحد من الغوط والرومان .

وفى صدد جميع جولات الشعوب تلك ، علينا أن نتذكر على الدوام أن الخصومة لم تكن مجرد نزاع بين الرومان والبربر . فنحن نعرف أن كثيراً من جنود البربر تجندوا فى الجيوش الرومانية وحاربوا فى بسالة لإنقاذ الإمبراطورية من المغيرين وماتوا وهم يحاربون فى شجاعة . ومن أعظم حماة روما ستليخو وهو واندالى أصبح قائداً عاماً . إلا أن الفيالق تلاشت . أما كيف وأين انقضت ، فهذا مالا علم لنا به .

وتحرك الفرنجة الشقر — وهم أغلظ الألمان جميعاً وأشهرهم — تحركوا جنوباً من دلتا الراين إلى شمال بلاد الغال (التى أصبحت « بلاد الفرنجة »

(١) من قبيلة الوندال النوتونية المشهورة بتخريب الآثار والكلمة تستعمل بمعنى الحرب

أى فرنسا) . وعاش فرنجة شرقيون آخرون فى بلاد الراين نفسها وما وراءها . وطالما ودهؤلاء الفرنجة ، الرومانيين . وتجنّد الكثير منهم فى الجيوش الرومانية .

وبهذه الغزوات تغير العالم الرومانى الغربى تغييراً كلياً . ومع ذلك فقد ظلت جموع كبيرة من المواطنين الرومان فى المدن المسورة تعيش وفقاً للقوانين الرومانية القديمة غير أنهم أخذوا يدفعون المكوس إلى سادتهم الجدد من البربر . وقد روى فى بعض الجهات ، ملاك رومان يعيشون من ضيعاتهم الريفية . وثمة شىء واحد لا نستطيع حقاً تخمينه هو (عدد) الغزاة على أننا نستطيع ، على أية حال ، التثبت من قوتهم ومن الشقاء والخسران للذين جلبوهما . ولـكن علينا أن نتذكر أمرين (أ) كان الرومان والبربر متعارفين كل التعارف (ب) وأنهما انحذرا من جنسين متشابهين أو من (أرومة) واحدة وأنهما كان فى وسعهما أن يتزاوجا فيما بينهما وهذا ما حدث فعلاً ، تماماً فى مثل اليسر الذى به يستطيع الإنجليز والألمان والفرنسيون أن يتزاوجوا فيما بينهم . ولقد اختفى آخر أباطرة الرومان وهو صبي اسمه روميولاس أغسطس . ومهما يكن من أمر فإنه لم يبق أثر لآية حكومة رومانية . ذلك أن الغوط والفرنجة والبورجانديين والواندال حكموا أقاليمهم . والصورة العامة مشوشة فالريف يغص بالعبيد الهاربين والأرقاء الثائرين من دون أن تكون هناك شرائع تأتمر بأمر رؤسائها أى قطاع الطرق إنها صورة بلاد فيها يحرس كل رئيس قبيلة على أن يكون قوياً حراً ، وذلك بقوة من لدنه من إخوان السلاح . وفى المدن الواقعة خلف الأسوار كان الناس أحياناً أكثر أمناً . أما فى مدن (القارة) فقد بقى قبس من عيشة المدن . وفى سنة ٤١٠ — عندما استولى على روما نفسها جيش الملك الغوطى ألالريك — أحس الناس بأن أفدح السوء قد حل بهم . وجال جنود البربر وهم يندهشون (وينهبون) فى المدينة السرمدية التى كانت يوماً سيدة العالم المتمدن جميعه من الفرات إلى التاين . وبعد حلول هذه الكارثة

كتب أسقف عالم من شمال إفريقيا، اسمه القديس أوغسطين ، كتابه المشهور « مدينة الله » الذى قال فيه إنه وإن كانت روما — أكبر مدن العالم — قد سقطت فإن روما ، مدينة الله ، قد بقيت وظلت خالدة لا سبيل إلى قهرها لأنها إنما بنيت فى قلوب الرجال والنساء المسيحيين كافةً » ليس لنا سكن مقيم هنا (على الأرض) فإننا ننتظر سكننا العتيد (فى السماء) .

وكان لهذه الأحداث رد فعل مفزع على بريطانيا آخر الأقاليم الغربية فى الإمبراطورية .

ولقد عبر حرس الجزيرة الرومانى المانش ونزل فى بلاد دالغال ليصون الإمبراطورية ولم يعد قط . ويبدو أن « جيش بريطانيا » كان قوة محاربة ذات كفاية ، وبرحيله صارت بريطانيا حقاً إقليماً مفقوداً . ولئن كان سجل الأحداث فى القارة شحيحاً أو غير متصل فإنه ، فى هذه الجزيرة ، لا وجود له بتهّة ! ولدينا علامات تشير إلى هجرة البريطانيين إلى بلاد اسمها أرموريكا التى أصبحت — نتيجة لذلك — (بريطانيا) ، وهذا يوضح اليوم السبب فى أن أهل ويلز والبريطانيون (أى الإنجليز) يفهم كل منهم لغة البلد الآخر ، وأهل ويلز هم — بطبيعة الحال — من سلالة البريطانيين الذين صاروا رومانيين ولغتهم تضم قدراً وفيراً من الكلمات الرومانية (أى اللاتينية) . ولقد اسمهم — « الوالش » أى أهل ويلز — غزاة الجزيرة البحرين الذين كانوا يسمون الأجانب : « الوالش » .

وهؤلاء الغزاة كانوا من الإنجليز أو السكسون ، فأصبحت هذه الجزيرة أو أكبر جزء فيها : بلاد الإنجليز أو بلاد الإنجليز . على أن مجيئهم ليست له مسجلات واضحة . ولقد طردت طرداً خاسراً مجموعة واحدة على الأقل . والظاهر أن مجموعات أخرى ، حملتها سفن عديدة أنزلت إلى البر . واستوطن البحارة — تحت إمرة رؤسائهم — على الشاطئين الشرقى

والجنوبي . أما ما حدث لـ «نوتية الدجلة» ، التابعين للأساطيل الرومانية ، الذين أقيموا على مقربة من التاين ، وأما النوتية التابعين لحرس المانش فلا نعلم عنهم شيئاً على الإطلاق . وقصارى ما نعلمه أن الملوك ورؤساء القبائل الإيرلنديين كانوا إذ ذاك يغيرون على الشاطئ الغربى وأن الأمراء البريطانيين كانوا يتنازعون فيما بينهم .

ويبدو مع ذلك أنه ثبت إلى درجة كبيرة بأن الغزاة لقوا هنالك مقاومة أشد من تلك التى لقوها فى القارة ، إذ أن الإنجليز والسكسون لم يبلغوا نهر السفن إلا بعد مضى قرن على نزولهم الأخير إلى البر ، وقطع مائة وخمسين ميلاً فى مائة سنة يعدّ غزواً بطيئاً وقد يكون السبب : قلة عدد الغزاة ، وهذا ما لا علم لنا به . وفى مكان ما من ميادين الحروب التى شنت عليهم ترد حكاية الملك آرثر وموقعة كبيرة أشعلت فى مكان اسمه تل بيدون الذى نجعل الآن موقعه .

ومهما يكن من أمر فإن بريطانيا الرومانية تحولت إلى خرائب ولم يبق لها ذكر إلا فى بلاد الويلز .

وبعد أن مضت مائة وخمسون سنة ، لم تسكد حوادثها تسجل خلالها ظهرت «انجلترا» بلداً وثنياً يضم ممالك صغيرة : كنت وساسكس وأنجليا الشرقية وميرشيا ونورذمبريا ووسكس . وكان أهل ويلز مسيحيين ولكنهم لم يحاولوا أن يحملوا الإنجليز على اعتناق ديانتهم .

وهكذا تفتت وحدة الإمبراطورية الرومانية فى الغرب خلال القرنين الخامس والسادس وهناك سبعة أجيال من الناس غابت عنا أخبارهم اللهم إلا قطع وأجزاء من الوثائق المكتوبة .

وكانت تلك هى الفترة التى فيها انتهت الفياق ، بما فيها قواد المائة

والرايات ، المتشاحخة المذهبية ، إلى مصير مجهول . أجل ، كان هذا مصير كثير منها كالفيلق الثانى لأوغسطس — الذى سمعنا به ، آخر مرة ، فى رتشبورج ... كنت بعد أن بقى خمسمائة سنة . كانت هى الفترة التى فيها بليت أو احترقت سجلات روما العظيمة التى لا تقع تحت حصر ومسجلات البردى على ورق هش مصنوع من قصب الغاب (البوص) ، كانت هى الفترة التى فيها هدم الجنود البربر أسوار القلعة بمقاييع الحصار التى دربهم الرومان على استعمالها ، كانت هى الفترة التى فيها لبس القائد الحربى الأكسية العسكرية والدروع الرومانية وجعل أركان حرب أحد قواد الرومان يمثلون فى حضرته والتى فيها هبطت جماعات كثيرة من الأنجلز والسكسون شواطئنا واستوطنوها وأطلقوا على قراها الأسماء التى نعرفها بها اليوم ، كانت هى الفترة التى فيها دفن رئيس قبيلة مجهول تحت استحكام ترابى ضخيم فى جنوب انجلترا عرفه الريفيون فيما بعد بـ « قبر زعيم المخيرين » ، كانت هى الفترة التى فيها توقفت عن العمل إدارة البريد وغيرها من المرافق العامة ، والتى فيها هجرت الحمامات والمسكنات والمسارح وخربت مجالس الشورى والأنبار ؛ لقد كانت فترة عنف وموت يفاجئ وضيعات تحرق وحقول تهجر . كانت الصحاف والأقداح الفضية يهشمها مالهكوها بعضها البعض ويصهرونها أو يدفنونها ليصونوها ليعثر عليها بعد أجيال .

لقد كانت فترة لم تتلف فيها السجلات القديمة فحسب بل هلكت كلها أو القدر الأعظم منها . ولنا لنقرأ ، فى القليل الذى بقى منها ، عن الغارات والحروب والمجاعات وعن الأوبئة الشرقية التى عمت كأنها رسول جاء ليهلك العالم .

لقد ظلت منازل الحصون مشرقة ، والحمامات العامة عديدة ، ومجموعات الأبراج سامقة ، وضوضاء الناس صاخبة ، وكان هناك كثير من الخمرات يملؤه أنواع السرور والناس ، إلى أن قلبها القدر الجبار رأساً على

عقب : نفرت الأسوار العريقة المترامية ، وحلت أيام الوباء والضر ،
وحصد الموت شجاعة الناس ، وأصبحت حصونهم أماكن خاوية ، وتحولت
المدنية إلى خرائب .

كانت هذه هي الصورة التي لاحت لعازف قيثار إنجليزي غنى بعدئذ
وهو يرنو إلى خرائب المدينة الرومانية المسماة « باث » على أن الناس لم
يزوروا المدن التي منى أهلها بالطاعون إلا بعد انقضاء فترة طويلة : نبت العشب
وارتفع في الكرعات وعلى الطرقات ، ورزحت الجسور في مياه فيضانات
الشتاء ، وغصت أخاديد القنوات والمصارف ، وتعطنت السفن في المرافئ
أو غرقت ، وترك الخرافون ، وتخربت المصانع ، وكثرت الفلوات بين
مزارع الحنطة . وكان على الرجال والنساء أن يقيموا كل شيء من جديد
بالعمل الشاق المضني بالفلاحة البسيطة .

هذا هو ما حدث في بريطانيا وفرنسا وبلاد الراين وأسبانيا وإيطاليا .
وكان أعظم البوار في بريطانيا وأقله في إيطاليا .

البربر والأساقفة :

بين سنتي ٤٠٠ و ٦٠٠ ميلادية أغار البربر على البقاع الرومانية الغربية .
كان في شمال إيطاليا وأسبانيا وجنوب فرنسا أقوام من القوط ، وفي إفريقيا
أقوام من الوندال ، وفي شمال فرنسا فرنجة ، وفي شرقها بوجانديون ،
وفي بريطانيا أخذت العصابات المحاربة من الإنجليز والسكسون تستعمر
رويداً رويداً وتتحرك صوب الحرب وذلك بعد أن قاومها البريطانيون
مقاومة ضاربة .

وفي سنيّ الشغب والتلف تلك ، ثبت شيء واحد لا يتزعزع : وهو
كنيسة المسيح يتزعمها أساقفتها .

وكان الأساقفة سلطان عظيم في الشرق والغرب حتى قبل الاضطرابات .
فلقد حكم القديس باسيل منطقته في آسيا الصغرى كما أنه نبيل روماني كبير
وتحدى القديس جون كريسوستوم ، الإمبراطور ، وأمر القديس أمبروز -
وقد أقام في ميلان - تيودوسيوس ، خاتم كبار أباطرة الغرب أمره بأن
يركع ليكفر عن الانتقام الجائر الذي ذبح فيه بعض الثوار بأمره . ولئن
كان في مقدور جندي عظيم وإمبراطور أن يصنع هذا فمن اليسير أن تتبين
أى صيت يحيط بأسقف في نظر رئيس قبيلة بربرى . إنه أشاع الفرع والرعب
في صدور أشد الغزاة شكيمة وذلك لأنه أحد قساوسة دين ذائع الانتشار
يتسربل بكسوته الكهنوتية الرسمية ، « وسحر » الكنيسة المسيحية
سحر قوى .

كانت الدنيا القديمة مدنية بنيت في المدن . وكان لكل مدينة أسقف
خاص بها تمدّه معرفته وحكمته في العلوم والفنون والقانون اللاتيني
والسجلات بأسباب القوة . وكان الرجال الذين أصبحوا أساقفة - بطبيعة
الحال - على شاكلة أولئك الذين تزعموا الناس في الدنيا الوثنية القديمة ،
كانوا رجالاً ذوي شخصية ومقدرة يخذون سياسة غيرهم من الناس وحكمهم
وكانوا فوق ذلك زعماء المسيحية الناظرين إلى كنيستهم على أنها مركز
حياتهم وباعثهم الأصلي ، شأنهم في ذلك شأن اليهود الذين كانت ديانتهم
أساس المسيحية .

لقد كانت الكنيسة أو الإيمان شيئاً قد يموتون في سبيله طواعية كما
قد يموت الوطنيون الغيورون في سبيل أوطانهم . ولم يسبق قط لروماني
أو إغريقي الموت في سبيل جوبيتر (١) أو أبولو (٢) . ثم إن الغزاة الكفار
كانوا يخشون آلهة غيرهم من الأقوام ، أما المسيحيون فلم يخشوا شيئاً .

(١) جوبيتر : إله الآلهة عند قدماء الرومان .

(٢) أبولو إله الجمال والرجولة والشعر والموسيقى .

وعلى هذا فإن الغرب لم يكن مجرد مرقعة (١) من ملوك البربر ، إذ
تختلف شيء من النظام الرومانى القديم ، وكان هذا الشيء هو الكنيسة .
وكان اسم المنطقة التى يحكمها الأسقف ، أى « الأسقفية » أو الأبروشية ،
هو الاسم نفسه الذى كان يطلق على تلك المنطقة عينا أيام الحكم الرومانى
الوثنى . وكانت هنالك حقيقة بالغة الأهمية وهى أن الأساقفة جميعاً ظلوا
يتصلون بعضهم ببعض ، وهكذا تمكنوا من الإبقاء على ذكرى المدنية
القديمة وتقاليدها .

على أن شهرة باباوات روما وقوتهم تردّان إلى أنهم حكماء لتلك المدينة
السرمدية التى حكم مواطنوها العالم دهرآ . وعندما اجتاحت إيطاليا فى سنة
٤٥٢ فرسان الهون (٢) ذروا العيون المائلة والوجوه الذميمة والسيقان المعوجة
كان البابا ليو هو الذى أغرى ملكهم أتيلّا بسجنهم .

وعلى هذا أمسى مصير الغرب ، فى ذينك القرنين المظلمين — من سنة
٤٠٠ إلى سنة ٦٠٠ — بين أيدي رؤساء القبائل الغزاة والأسانفة المسيحيين .
ويجب أن لا نحسب الغزاة متوحشين بل يجب أن نعدّهم محاربين يكتسبون الزرد
ويحذقون فنون الحرب . وقد يمكننا أن نحسن الظن بهم قليلاً إذا تذكرنا
أن الجيوش الرومانية العظيمة كانت هى نفسها « تغلب عليها البربرية » وأن
الوافدين الجدد — من مواطنى جنود الفياق الرومانية — سلكوا سلوكهم
ولبسوا لبسهم وحاربوا على غرارهم .

وقد اعتنق القوط — وهم الرعيل الأول من الألمان الذى استوطن
الإمبراطورية — اعتنقوا المسيحية قبل سنة ٤٠٠ عندما كانوا ما يزالون فى
البلقان . وكان أثيريك — الذى استولى على روما — يعتنق المسيحية بطريقة

(١) المرقعة : (بتشديد القاف) ما يؤلف من أجزاء ورقع .

(٢) الهون شعب أسىوى همجى اجتاحت أوروبا فى القرن الرابع حوالى سنة ٤٥٠

قد تكون هي السبب في أن الرومان لم يرتاحوا إليه . وربما إقتصرت مسيحيته على القدر الذي يجعله يخاف إله المسيحيين ويخشى السحر المسيحي . ولسوء الحظ كان الإغريق ، الذي بشر القوط بالإنجيل ، مسيحياً من « الهرطقة (١) » ، كان من القائلين بأن عيسى لم يكن رجلاً قدسياً . وفي وسعنا أن ندرك الفزع الذي ينظر به الرومان إلى القوط الذين عدوهم أسوأ من الوثنيين ، تماماً بقدر ما يُعد الثوار أسوأ من الأعداء العاديين . وهذا النوع الهرطقي من المسيحية كان يلقيه أسقف اسمه أريوس ، وانتشر في وقت ما انتشاراً كافياً حتى نسخه الأسقف أثناسيوس (٢) ، وتجدد مذهبه الأثناسي في كتاب الصلوات الإنجليزى المستعمل الآن .

وكان القوط مسيحيين « آريوسيين » . وقد أمسى الجنس الآخر القوى من البربر — وهم الفرنجة — مسيحيين وفقاً للمذهب الأثناسيوسى ، وأوائك يصحح أن نسميهم بـ « الكاثوليك » .

على أن الفرنجة . الذين استولوا على أراضي الرومان الزراعية ومدنهم الواقعة شمالى فرنسا ، كانوا — من بين الغزاة جميعاً — أكثر الغازين ضراوة . ولقد تزوج أول زعمائهم — كلوفيس — من أميرة بورجندية مسيحية ظلت تتوسل إليه بشتى الوسائل حتى ردته مسيحياً . وقد تلقى التعميد (٣) ومعه ألفان من المحاربين المختارين ، في كنيسة ريمز أمام جميع أساقفة مدنه . ووقف في أرديته البيضاء أمام القديس ريمى — أسقف ريمز — الذى لقنه ، فى إيجاز وجلاء ، كيف يسلك سلوك المسيحيين : « أعبدوا ما كنتم تحرقون ، واحرقوا ما كنتم تعبدون » . حدث هذا فى ٤٩٦ م . وقر كلوفيس للقوط الأريوسيين الموجودين فى جنوب فرنسا . وما هو إلا القليل حتى استقبل

(١) الهرطقة الضالين المارقين ذوى البدع فى الدين .

(٢) أثناسيوس : صاحب قانون (الأمانة) المذكور فى كتاب الصلوات للكنيسة الإنجليزىة

(٣) التعميد أو التغطيس من تقاليد التنصير عند المسيحيين .

رسلاً من قبل إمبراطور القسطنطينية الذي أنعم عليه بلقب: قنصل روماني،
ولبس الأردية الأرجوانية المخصصة لذلك المنصب. وفي عهده وعهد خلفائه
صارت بلاد الغال أرض الفرنجة أي فرنسا .

وفي أسبانيا عاش الرومان والقوط جنباً إلى جنب يحكمهم ملوك
من القوط .

وفي إيطاليا حكم ملك قوطي — اسمه تيودوريك — القوط الأريوسين
والكاثوليك الرومانيين ، وقد أحسن الحكم . وكان من كبار وزرائه كثير
من الباحثين الرومانيين العلماء . وقد بذل غاية جهده ليحافظ على أساليب
الحياة الرومانية القديمة طوال حكمه الطويل الذي امتد من سنة ٤٩٣ إلى
سنة ٥٢٦، غير أن إيطاليا تعرضت لأرزاء فاجعة في أثناء الحروب القوطية،
التي بدأت بعد موته والتي نجمت عن محاولات إمبراطور النصف الشرقي
من الإمبراطورية الرومانية إسترداد إيطاليا من القوط .

الإمبراطور جستينيان :

بينما كانت الأقطار الغربية تُغتصب أو تدمر صمد نصف الإمبراطورية
الرومانية الشرقي صموداً راسخاً . وأنشأ الأباطرة — الذين كانوا يحكمون
من معقلهم بالقسطنطينية — أنشأوا جيشاً كامل العدد والتدريب يحوى
فرقاً ثقيلة التسليح من الخيالة المتسربلين بالزرد ، وعديداً من النبالة أو رماة
السهم وغيرهم من الرجال المسلحين بالأسلحة الخفيفة . وقد تدربوا على
أن يغيروا من أساليب الحرب تبعاً لما كان يظهم أعداؤهم المختلفون من
فنون الحركات الحربية . وهكذا نجت مصر وفلسطين وسوريا وآسيا
الصغرى والأصقاع والجزر الإغريقية ، من الدمار الذي حل بالغرب .

وكان الأباطرة يلبسون النعال الذهبية وأردية القياصرة الأرجوانية
الفاخرة ، كما كانوا يحافظون على قوانين الرومان القديمة ، وكان طلاب العلم

في مدارس القسطنطينية والإسكندرية يتباحثون في الفلسفة والعلوم الإغريقية . وفي ملاعب الخيل بالقسطنطينية درجت الجموع الصاخبة المستثارة على أن تقترب ركبانيّتها (١) المحبوبين وهم يقودون فرقهم إلى النصر . وقد غصت المدينة بالدهماء والمتبطلين والشحاذين والعبيد وأرباب الحرف من شعوب عديدة ، وكثرت المشاغبات بين الفرق المتنافسة — وبخاصة بين « الخضر » و « الزرق » — في مباريات السباق بملاعب الخيل . ولكن الإمبراطورية كانت غنية . وقد نخرت في البحر قوادسها (٢) وسفنها التجارية وعليها البضائع . أما عبر اليابسة فإن تجارة الشرق كانت تجيء مع كل شروق شمس . وكانت تلك هي الفترة التي فيها هرّب بعض المغامرين الجسورين دودة القز من الصين السحيقة وبدأ — تبعاً لذلك — إنشاء حقول الحرير في الإمبراطورية . لقد كانت إمبراطورية مسيحية تسهر على سلامة أقدس الأماكن التي تهم الكنائس المسيحية وهي الأماكن التي مشى فيها عيسى والتي رحل إليها حوار يوه . وقد حكم الأساقفة أملاكاً شاسعة ، وكانوا رجال قوة وسلاطان بشروا في جميع مدائن الشرق الأدنى القديمة .

وقد حافظت الإمبراطورية الشرقية ، أو إمبراطورية « بيزنطة » ، على جيشها المنظم الموفق وذلك طوال قرني الظلام والشغب في الغرب . (من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ م) . وكان أكبر أباطرتها : جستينيان الذي حكم من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ . وهو الذي أرسل جيوشاً تغزو الغرب من جديد .

فأخذت إفريقيا في تقدم خاطف ودمرت إمبراطورية الواندال التي كانت هناك . وكذلك استعادت تلك الجيوش إيطاليا . على أن ذلك لم يتم إلا بعد حرب ضروس مع القوط دامت عشرين عاماً . وقد منيت إيطاليا

(١) الركبانين : المحاربون في عجلات حربية .

(٢) القادس : الزورق الحربي الكبير .

بخسائر مفزعة من جراء الحرب ، منيت بالقحط والوباء . وإن المؤرخ القديم الذى يؤرخ لهذه الحرب القوطية الطويلة يرسم صورة بشعة للزراع التى تخربت وللفلّاحين الذين ماتوا جوعاً .

إلا أن أخص ما اشتهر به جستينيان لم تكن حروبه بل أعماله فى سبيل البناء وسن القوانين ، فلقد اصطفى خيرة المشرعين ليجمعوا كل قوانين روما ويوحدوها فى مجلد أو مجموعة صارت أساساً لكثير من دساتير القوانين المعمول بها إلى الآن . وما يزال يتعين على الطلبة فى جامعاتنا أن يدرسوا القانون الرومانى ، وهذه حقيقة تذكرنا بأننا متصلون اتصالاً وثيقاً بتلك العصور السحيقة . ومن آثار جستينيان الأخرى الباقية : كنيسة أياصوفيا البديعة — أو الحكمة المقدسة — التى ما تنفك ترفع قبابها العديدة فوق القسطنطينية ، وقد شيد الإمبراطور كثيراً من الكنائس والحصون .

ولقد احتفظ خلفاؤه بأجزاء من إيطاليا : البندقية وروما وناپولى والجنوب وصقلية . وكانت وفاة جستينيان فى سنة ٥٦٥ . وبعد وفاته بخمس سنوات غزت السهول الشمالية الإيطالية أمةٌ جرمانية هى (أهل لومبارديا) الذين جاءوا من وراء الألب والذين سارع دوقاتهم إلى المناداة بأنفسهم سادة على ميلانو ومدائن أخرى . ونحن ما زلنا نسمى السهل الشمالى ، بـ (لومبارديا) وإن يكن اللبارديون ولسانهم الجرمانى . قد ذابوا منذ زمان طويل — مع القوط والرومانين — فى شعب إيطاليا .

وساخت إيطاليا ١٣٠٠ سنة لم تسترجع فيها اتحادها ١

رأينا أن الفرنجة المسيحيين حكموا بلاد الغال وأخذوا يصيرونها إلى أرض الفرنجة أو فرنسا وأن القوط المسيحيين حكموا أسبانيا . وكانت فى بريطانيا وحدها ممالك وثنية . وفى الحق أن أهل ويلز كانوا مسيحيين

وأن الإيرلنديين تنصروا نتيجة لتبشير القديس باتريك وهو بريطاني روماني ، وأن القساوسة والناس كثيراً ما تنقلوا ذهاباً وإياباً بين إيرلندة وكورنول وويلز وبريطانيا ، غير أن الناس — في كينت وسسكس وإسكس ونوردمبريا في غرب إنجلترا وفي بلادها الداخلية — كانوا مايزالون يعبدون وودن وثور وهما من قدامى آلهة الشمال الوثنية .

تلك صورة ما كانت عليه الحال في نهاية القرن السادس . وكانت تلك حال الإمبراطورية الرومانية المتفتتة التي انتهت عندما ظهر على المسرح رجلان غيرت أعمالهما كل شيء . وهما جريجوري الكبير في روما ورجل عربي اسمه محمد .

الباب الثالث

رايات الصليب أو مملكة وحصن وكنيسة

المسيحية : البابا جريجورى الكبير :

كان البابا جريجورى الكبير — الذى رأس كنيسة القديس بطرس، بروما فى سنة ٥٩٠ — تلميذاً للقديس بندكت الذى أسس نظام الرهبان فى الغرب . وقد كرس أولئك الناس حياتهم — كما رأينا — للعبادة والعمل . ولم يلبث مسعاهم أن آتى أكله فى الأديرة المعتنى بها ، وذلك بنسخ الكتب المسيحية وبتلقين الإنجيل . وكان من الخير فى تلك الحقبة الوعرة وجود دور تكون حقاً موائيل للنور والعرفان والایمان المسيحى الحق .

وقد أسهم جريجورى الكبير — برصفه رئيس أساقفة الغرب — فى إعادة بناء مدنية مسيحية جديدة

كان حاكماً لروما وعرف كيف يسوس الرجال بحكمة وحزم . وألف كتباً عن الدين وأرسل رسائل إلى رهبانه ورؤساء أديرتهم يرشدهم فيها إلى طريقة إدارة الكنائس والأديرة . وإذا كنا اليوم نسمى أحد أنواع الموسيقى الكنسية بـ « الجريجورية » ، فلأنه كان ذلك النوع نفسه الذى أمر بعزفه . وهو — إلى هذا — أوفد مرسلين يعلنون الايمان ويردّون الناس إلى المسيحية . ولهذا السبب — وبفضل حكمته ومقدرته — أصبح زعيم مسيحي الغرب قاطبةً . ولهذا السبب أمست كنائس البلاد البربرية المختلفة جماعةً مسيحية متأخية يتبادل أساقفتها ورؤساء أديرتها الرسائل والزيارات وأضحى الغرب « نصرانية » ، أى ملةً كبيرة من المسيحيين (أو مملكة

من ممالك الله على الأرض) . وعلى الرغم من هذا أسمى جريجورى نفسه
« خادم خدام الله » وهذا لقب بديع .

وذلك يوضح السبب فى أن الراهب أوجستين ، مع أربعين آخرين ،
عبروا المانش فى سنة ٥٩٧ وهبطوا إلى البر على مقربة من ساندوتش فى
كينت الوثنية . وهناك جلس الملك على عرش فى الهواء الطلق ليستقبلهم
فأتوا إليه حاملين صليباً من الفضة ولوحاً نُقِشت عليه صورة المسيح وقد
ساروا ينشدون أوراداً لاتينية . وأصغى الملك واعتنق المسيحية . وتلقى
التعميد (أو التغطيس) مع كل رجاله البارزين . وقد هب أوجستين
كنيسة قديمة فى البلدة الرومانية القديمة : كانتريبرى . وكان فى كينت —
فى حقبة من الحقب — مسيحيون يتعبدون فى بيوتهم ، وهذا ما دلّنا عليه
حديثاً الحفائر فى بيت روماني ب . . . لو لينجستون . والآن أصبح بربر
كينت الجدد مسيحيين وأصبحت كانتريبرى — وهى ما تزال بلدة صغيرة جداً —
مقرّ رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزىة أو سدّته البابوية .

ويذكرنا ما تلا ذلك فى إنجلترا بكلمات الإنجيل : « فترى الأهم برك
وكلّ الملوك مجدك » .

وكان فى تلك الجزر ملوك وأمراء كثيرون . سمعوا الإنجيل فى مدى
قرنٍ من الزمان ، وقد تلقى أكثرهم التعميد ، . وكان أمراء ويلز مسيحيين
على طول الزمان منذ الأيام الأولى لروما . غير أنهم وشعبهم لم يبذلوا
جهداً ما لينصروا جيرانهم الإنجليز الذين طردوهم من خير بقاع الجزيرة .

وقد حدثت ، فى أثناء التحول ، حوادث مثيرة . منها أن الناس ، فى
لندن طردوا الرهبان الرومانيين الأوائل الذين اجترأوا على الخروج إلى
أولد كينت رود (طريق كينت القديمة) وفى يوركشير قاد كبير قساوسة الإله
الوثني (وودن) قاد بنفسه حشداً من الوثنيين ليحطموا ويحرقوا معبد
(وودن) ، وذلك بعد أن سمع راهب يولينوس يقص قصة الإنجيل .

وفي الوقت الذي فيه أوفد المبشرون من روما نشطت الكنيسة الأيرلندية القديمة في أعمال التبشير . وكان الأيرلنديون قد سمعوا الإنجيل ، في القرن الخامس ، من القديس باتريك ، وهو روماني مسيحي كانوا أسروه في إحدى غارات الرقيق على بريطانيا ، وبُنيت كنيسة أيرلندية على جزيرة أيونا الواقعة على مسافة من الشاطئ الإسكتلندي ، وفي الوقت الذي دخل فيه أوجستين (كينيت) جاء القديس أيدان ، من أيونا إلى نورذمبريا ليبشر بين أهلها . وأقام أيدان دير على جزيرة لينديسفارن الواقعة على مسافة من شاطئ نورذمبريا .

وقد حدثت فعلاً منازعات بين القساوسة الأيرلنديين والقساوسة الرومان في صدد بعض شئون دينهم ، غير أن المنازعات فُضت من دون أن تترك أثراً في النفوس ، وتحركت الجزيرة كلها نحو الأسرة المسيحية الكبيرة التي أسهمت في تكوينها جهود جريجوري الكبير . وقد أرسل أحد البابوات اللاحقين راهباً يونانياً عالماً وهو تيودور أحد مواطني طرسوس (وهي مدينة القديس بولس القديمة) ، أرسله ليكون رئيس أساقفة كانتربري ، وقد نجم عن ذلك ازدياد المعرفة بتعاليم الكنائس الإنجليزية . ولم تلبث بعض الأديرة — مثل جارو ، و ، يورك في الشمال ومثل ماليسبوري وكانتربري في الجنوب — أن تحولت إلى بيوت للمعرفة والثقافة المسيحية ، وقد عمل معاً الرهبان والباحثون من اليونانيين والإنجليز والإيرلنديين ووثّقوا جميعاً صلتهم بروما . وعلى هذا عادت الصلة ثانية بين أقاليم بريطانيا الضالة وبين المدينة المسيحية الآخذة في الانتشار في غرب أوروبا . وثمة فارق غريب واحد — دام قروناً — هو : في فرنسا وإيطاليا كان الأساقفة يوجدون في كل مدينة ، أما في إنجلترا فكان كل أسقف يهيم على كنائس مملكة أو قسم من مملكة ، وعلى هذا أمسى الأساقفة الإنجليز ، على قلتهم ، أغنياء أقوياء .

تلك كانت الأيام الذهبية للكنائس الإنجليزية والأيرلندية ، وكانت مبانيتها عمائر خشبية بسيطة ، ولكن أعمالها اليدوية في الكتابة وصناعة الكتب والتطريز اشتهرت في أوروبا كلها، وإلى هذا أرسلت إيرلندا وإنجلترا مُرسليها وأرسل قديسون إيرلنديون — مثل كولومبانوس وجول — إلى أوروبا وأسسوا أديرة مثل فولدا بألمانيا . وبشر قديسون من الإنجليز — مثل بونيفاس — بين السكسون الأشراس في ألمانيا واستشهد الكثيرون منهم هناك . وتلك إحدى القصص الكبرى في تاريخنا . وقد روى لنا كثيراً مما بها راهبٌ وهو « بيد » (من بلدة چارو) الذي قضى في ديرها كل حياته منذ دخله غلاماً في جوقة المرتلين إلى أن مات أميناً للكتبة . وقد ألف (بيد) كتباً كثيرة أهمها « تاريخ الكنيسة الإنجليزية » المكتوب بلغة لاتينية جيدة ، وترجمته اليوم في متناولنا جميعاً .

ومات (بيد) في سنة ٧٣٥ بعد نزول أوجستين إلى البر بمائة وثمانية وثلاثين عاماً . وكان ممكناً أن يلقي أبوه رجلاً رأوا أوجستين وأن يكلمهم . وفي تلك الفترة القصيرة تمت إعادة إنجلترا إلى المسيحية . ولكن حدث في شرق أوروبا وجنوبها — في تلك الفترة نفسها — شيء آخر مثير .

رجل من الصحراء :

درج الرعاة « الأعراب » على نهب الأقوام التي تفضلها حظاً والتي تعيش على مقربة منهم . وكانت الحياة على المراعي الصحراوية القليلة الغناء ، عسيرة . ولذا كان من دواعي رضائهم — وبخاصة في فترات الجذب — أن ينهبوا الناس الذين يفضلونهم حظاً ، أي أولئك الذين يعيشون في أرض خصبة أو في المدائن . وكانت المدائن والأراضي الخصبة — في عهد الإمبراطوريات الإغريقية والرومانية — تحرسها جيوش الإمبراطور وظلت الغارات العربية — طوال قرون عديدة — مجرد أمور مقصورة على التخوم .

وجاء محمد — وهو عربي ولد في مكة في سنة ٥٧٠هـ — وبشر بدين جديد . علم الناس أن يصلوا لإله واحد هو الله ، وأن يعيشوا عيشة رشيدة يحوطها التحفظ . وحرّم عليهم الخمر والموسيقى الماجنة . وعلمهم أن يساعدوا المعوزين والمظلومين وأن يطيعوا زعماءهم وأولى الأمر منهم . وحرّم عليهم عبادة الأصنام وصنّع تماثيل أو صور لأي مخلوق حي . وما يزال فن المعمار العربي — إلى يومنا هذا — خلواً من التماثيل والصور ، غير أنه تزينه خطوط ذوات ألوان نسميها « أرابسك » أي النسق العربي في النقش والزخرفة . وعلمهم أن الذين يؤمنون بالله حق الأيمان جميعهم إخوان سواسية وأن من لا يدخلون في دين الله يدفعون الجزية لبית مال المسلمين .

وقد آمن العرب المسلمون بالتوراة وأسموا أبناءهم أسماء مثل إبراهيم ويعقوب ويوسف وسليمان ، ونظروا إلى سليمان على أنه حكيم مقتدر ، وإلى عيسى — لا على أنه ابن الله بل — على أنه نبي . فهم يقولون بوجود إله حق واحد هو الله الرحمن الرحيم العظيم الحكيم ، ونبي حق كبير هو محمد رسول الله ، وبأن محمد يعرف ما يُرضى الله الذي نظم في عليائه كل شيء في السماء والأرض . وقد سُجلت التعاليم التي نزلت على محمد في كتاب مقدس هو القرآن .

كان العرب يخذقون ركوب الخيل والجمال وكانوا يتصفون بقوة البنية وخفة الحركة والشجاعة وعلو الهمة . ولقد شكّلوا فرقاً عسكرية تمتاز بالقوة والأقدام . ثم إن دينهم الجديد — وهو دين بسيط واضح — قد وحد القبائل وتطور إلى دين فتوح ، مذهبه مجاهدة الكفار بالأحلب والرمح والحسام . وكان زعماء العرب ، ممن تعاقبوا بعد محمد ، كانوا يوصفون بأنهم الخلفاء وأمراء المؤمنين وكانوا قادة جيش من الفاتحين . وهؤلاء السمر أبناء إسماعيل — يقودهم أمراؤهم ذوو العمام البيضاء — نقلوا الحرب إلى الأراضي المسيحية ، وكان قتالهم في سبيل الله . وكان جميلاً الانتقال من

الصحراء اللاحقة إلى المراعى الخضر والغياض . وكان الفاتحون قديرين
يؤمنون بمذهب القضاء والقدر وهو أن كل ما هوآت ترسمه مشيئة الله ثم
لا يتبدل . وقد شد أزهرهم في الحرب دافع^١ أفضل هو اعتقادهم بأنهم — إذا
ماتوا مجاهدين في الحرب — ضمنوا جنة الله بغير حساب .

وقد حدث أن إمبراطوراً إغريقياً ضعيفاً أحرق دفع الفرس إلى اجتياح
فلسطين ومصر فسهل الفتح العربى بسبب قلة الحرس والجنود الإغريق .
وقد تصدى للعرب الإمبراطور هرقل محاولاً أن يمحو أثر الأذى الذى صنعه
سلفه الأحق إلا أن العرب ردوا هرقل على أعقابهم واستولوا على دمشق
عاصمة الصحراء العظيمة (التى عمدها القديس بولس) ، كما استولوا على
أنطاكية المدينة الجميلة ، الغنية بمجموعات الأعمدة وبالحدائق ، (التى فيها
لقب أتباع المسيح بالمسيحيين ، أول مرة) . واستولى العرب أيضاً على بيت
المقدس التى كانت مدينة « مقدسة » لديهم ولدى المسيحيين ، وفتحوا مصر
أرض الفراغة العتيقة التى اشتهرت بعلمها وبأديرتها . واستولوا على
الإسكندرية ، المدينة اللامعة برخامها الأبيض .

واتجه العرب صوب الشرق وقطعوا مسافات شاسعة وحطموا قوة
خصوم اليونان وروما الأقدمين وهم الفرس . ونشروا دينهم إلى ما وراء
شاطئ إفريقيا الشرقى ، وسبحت سفائنهم مع الرياح الموسمية إلى الهند .

ذكرنا عن الشرق ما فيه الكفاية . أما عن الغرب فقد تم فتح كل شمال
إفريقيا (وكان يحوى كثيراً من المدن والقرى المسيحية) . وقاد أمراء المؤمنين
جحافلهم غرباً فى اتجاه مغرب الشمس ولم يتوقفوا إلا بعد أن خاضت منابك
مطاياهم أمواج الأطلانطى السحيق . وانخرط الأهلون من المغاربة فى جيش
الفاحين ليصبحوا من عساكر الموحدين . وعمرت المساجد بدلاً عن الكنائس
واضمحل ما شيدته روما من معابد وكرامات ومدرجات . وكان النصر ميسراً .

(حدث كل هذا قبل وفاة الراهب الإنجليزي (بيد) في دير الجيب .
يـ چارو) .

الهلال في أولى مدافعاته :

عبرت الجيوش الإسلامية ، من العرب والمغاربة ، من مراکش إلى
أسبانيا واكتسحت شبه الجزيرة ودفعت المسيحيين أمامها إلى الجبال الشمالية .
ثم أخذت تغير — العام تلو العام — على أراضى فرنسا الداخلية .

ويجب أن نتذكر أن المنطقة التي كانت يوماً إمبراطورية موحدة في العهود
الرومانية والتي شملت الشرق والغرب ، أمست الآن يحكمها كثير من الملوك
والأمراء ، كل منهم له رفاقه المحاربون وكل منهم حاكم مسيحي ، إلا أن
كلا منهم يتصرف منفرداً كما يحلو له . وقد استولى المسلمون على نصف
الرقعة المسيحية ، وفي هذا النصف خير ما أحبوا وقدسوا من البلاد العتيقة .
بل إن حصن القسطنطينية نفسه كان مهدداً . وكانت تحيط بالحدود الجنوبية
للبقاع المسيحية ولايات إسلامية شاسعة بأسلة . وبدأ البحر الأبيض المتوسط
يغص بسفائنهم ، ولم يكن من المستطاع صدّهم إلا بأعجوبة .

وكانت جيحافل الخيالة العرب تتقدم في فرنسا العام تلو العام ، الصيف
تلو الصيف . ثم حدثت الأعجوبة . التقى فرنجة فرنسا الشقر وكانوا منسيحيين
وشجعاناً ، يقودهم الأمير سارل مارتل (أى المطرقة) — التقوا بحشد من
العرب والمغاربة في (تور) في سنة ٧٣٢ وهزموهم ، واستخلص
الفرنجة فرنسا من أيدي العرب وبذلك استخلصوا الغرب .

وبقى على أسبانيا والبرتغال أن تتخلصا بعدئذ منهم . أما البلاد الأخرى .
التي فتحها المسلمون فقد لبثت تحت رايتهم الخضراء ألفاً ومائتين من السنين .

شارلمان :

إن شهرة شارل مارتل قد فاقتها شهرة حفيده شارل الأكبر أو شارلمان .

فلقد وسع رقعة ممتلكات الفرنجة إلى درجة امتد معها سلطانه من جبال
البرانس إلى نهر الألب في ألمانيا ومن الأطلنطى إلى نهر الدانوب
وإلى نهر التيبر في إيطاليا . وبعبارة أخرى حكم إمبراطورية شملت فرنسا
وبلجيكا وهولندا وغرب ألمانيا وشمال إيطاليا . ولقد قضى أغلب فصول
الصيف في محاربة مغاربة أسبانيا ، والسكسون في ألمانيا ، والدانمركيين على
تخوم بلادهم ، والسلاف على التخوم الشرقية لألمانيا . وقد اتسع له الوقت
مع ذلك فعمل على تشجيع العلوم والفنون وهندسة البناء . وشيد كشيد رائية
جميلة في آخن — حاضرة ملكه — وأستجلب لها أعمدة من المرمر من روما
وراقينا في إيطاليا . وكان يتكلم اللغات بدرجة كافية ولكنه لم يحسن الكتابة
كل الأحسان . ولقد أحب القداسات الكنسية والموسيقى الكنسية
والمساجلات الدينية والتحدث بحكايات قومه وإعادة تلك الحكايات . وكان
يدعو إلى بلاطه العلماء الأجانب ، وقد اشتهر منهم بصفة خاصة إنجليزى
اسمه ألكوين (من يورك) الذى أصلح التعاليم والمراسم الكنسية فى أراضى
الفرنجة وجعل من بلاط شارلمان مدرسة جديدة للعلم فى الغرب . وكان
ألكوين من زمرة العلماء الموفقين المشهورين والقديسين ، أولئك الذين كان
من بينهم الراهب (بيد) الذى كتب « تاريخ الكنيسة الإنجليزىة » .

وأجمل لحظة فى حياة شارلمان كانت فى الوقت نفسه أعظم ما وقع فى تاريخ
الغرب فى مدى قرون طويلة . إذ أنه فى يوم عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ فى
كنيسة القديس بطرس بروما ، توجه البابا « إمبراطوراً » . ومنذ ذلك اليوم
وجدت فى أوربا إمبراطوريتان : إحداهما فى القسطنطينية وثانيتها فى روما .

وكان خلفاء شارلمان يلقبون بـ « الأباطرة الرومان المقدسين » . غير أن
ذلك لم يكن شأنهم جميعاً ، ذلك أن إمبراطوريته — بعد أن أنقضى بضع
سنين على وفاته فى عام ٨١٤ — أنقسمت ثلاثة أقسام : غربى وأوسط
وشرقى ، يتولى كلٍّ منها واحد من أسرته . ومن القسم الغربى — حيث أخذ

الناس يتكلمون لغة تشبه الفرنسية شهاً غامضاً — تنحدر ملكة الفرنسيين وأمتهم . ومن القسم الأوسط — وكان أغنى الأقسام وأجملها — تنحدر بلاد الراين واللورين وبورجانيا وشمال إيطاليا أى كل الأصقاع والأقاليم التى ظل الألمان والفرنسيون يتحاربون من أجلها . ولم تدم هذه المملكة الوسطى دهرأ طويلاً جداً بل تفتت جزيئات وأجزاء : ولايات ومدن ودوقيات وما إلى ذلك . ومن القسم الشرقى — حيث كان الناس يتكلمون الألمانية — انحدرت أصول ألمانيا . وبفعل مصادفات متتابة أصبح لقب الإمبراطور الرومانى المقدس وقفاً على القسم الشرقى . وظل الأباطرة الرومان المقدسون — قرونأ — أعظم الملوك أو السادة الأعلون فى مئات الولايات والدوقيات الألمانية جميعاً . وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — مدة بقائها ، وقد بقيت فعلاً دفعة واحدة حتى سنة ١٨٠٦ — كانت فى واقع الأمر هى الرقعة التى تتكون منها الآن ألمانيا والنمسا مجتمعتين . وهكذا كانت الإمبراطورية التى كونها شارلمان منشأ أوروبا الغربية أى منشأ فرنسا وألمانيا والأراضى المتنازع عليها الواقعة بينهما . وقد أدعت الإمبراطورية الرومانية المقدسة السيادة على شمال إيطاليا ولكن مقياس قوتها هو دائماً : هل كان العديد من دوقات وأمراء الشعوب الألمانية والمدن الإيطالية ، موالين للإمبراطورية؟ والواقع أن الشعوب الألمانية والمدن الإيطالية لم تصبح أئماً متحدة مستقلة حتى جزء كبير من القرن التاسع عشر . وإن خرائط ألمانيا وإيطاليا تبدو فى خلال ألف سنة — وهى الواقعة بين ٨٧٠ و ١٨٧٠ — كأحجيات المنشار الدوار الكبير .

ولقد كان الفرنجة أنفسهم يتكلمون اللسان الألمانى . وكانوا الحكام وملاك الأرض . وقد ترك أوائك الذين استوطنوا منهم هذا الجانب من الراين فى الرقعة التى تسمى الآن فرنسا ، كما أسموها هم ، تركوا لغتهم القديمة واتخذوا لغة السكان الرومان الغالبين لساناً لهم . وهذا هو السبب

في أن اللسان الفرنسي الحديث هو نفسه ما نسميه بـ « اللاتيني » وأصله لسان لاتيني كان يتكلمه الغال الذين تلقنوه بدورهم عن الرومان . وما يزال الناس في بريطانيا الحديثة يتكلمون لغة سلتية (١) أو غالية قديمة تشبه لغة الولز . على أن الفرنجة ، الذين عاشوا على ضفاف الراين وما وراءها ؛ ظلوا يتكلمون لغتهم الألمانية .

وفي خلال حكم شارلمان هدد المسيحية خطر جديد همجي . كان شارلمان قد حارب الدانمركيين في « الدانمرك » (أي : على ساحل الدانمركيين) . وبدأ الدانماركيون والنرويجيون عندئذ يغزون على الشواطئ الغربية . ويعملون فيها القتل والنهب والحرق . واستولوا على بوردو في سنة ٧٧٩ ، وعلى ليندسفارنه في سنة ٧٩٣ ، وعلى أيونا حيث ذبحوا ثمانية وستين راهبا وسلبوا في سنة ٨٠٦ ما كان بالمحراب من أوان ذهبية وفضية . ونحن نعرف هؤلاء الناس باسم « القايكنجز » أي قراصنة شمال أوروبا .

رجال من الشمال :

في المدونة التاريخية الأنجلوسكسونية نستطيع أن نقرأ الاستهلال التالي : « ٧٨٧ م . في تلك السنة اتخذ بيرتريك ملك وسكس اتخذ « إدبورجا » — ابنة أوفاملك ميرسيا — زوجة له . وفي عهده جاءت ثلاث من سفن رجال الشمال ، من بلاد القرصان . فركب إليهم مأمور الأحكام وصمم على أن يسوقهم إلى مدينة الملك لأنه لم يعرف أي نوع من الرجال هم . غير أنه قتل هناك . وكانت تلك أولى سفائن الدانمرك التي جاءت إلى إنجلترا » .

وبعبارة أخرى قاد مأمور الأحكام الملكي رجاله ليقبضوا على الأجانب وقتل وهو يحارب على الساحل .

(١) السلت نسبة إلى سكان أوروبا الأقدمين .

وفي مدى ثلاثمائة عام تقريباً أغار محاربو الدانمراك والنرويج، وهم رجال «القرصان»، أو الفايكنجز — على سواحل كل الأراضي المسيحية. وقد أعملوا التدمير والنهب، أول الأمر — على أنهم بحارة السفن. ولكنهم فيما بعد ذلك، تحركوا بوصفهم جنود جيوش كبيرة يقودها قواد مشهورون، وكانوا وثنيين يسعون أن يكونوا في أقصى ما تكون الغلظة. ولكنهم أخذوا مع ذلك، إلى سن القوانين وتسوية خلافاتهم بالمفاوضة فيما بينهم. وكانوا يعدون البسالة، الفضيلة التي لا يعلى عليها. وهم لم يتقيدوا بقيادة فرد واحد إذ أن كلاً منهم كان يتصرف تلقائياً عند الضرورة.

أما دياناتهم فيمكننا أن نقرأ عنها في أشعارهم القديمة. كان حصن أسجارد السماوي المنيع — الذي لا يستطيع بلوغه إلا بعبور جسر قوس قزح — موئل الآلهة: أودين وامراته فريجا وولديه ثور وبولدر وكذلك لوكي روح الشر. وكان أودين ما ينفك يهيم ابتغاء الحكمة، وثور بمطرقته الكبيرة — مجولنير — يصنع الرعد وما يفتأ يحارب مردة الشمال المنجمد، وبولدر — إله النهار الوسيم — يحتمى بصفة خاصة برقية سحرية حياه بها أودين. غير أن لوكي الشرير تسبب في قتله بسهم من الدابوق (١). إلا أن بولدر ردت عليه حياته بناء على طلب الآلهة. هذا بينما شدد لوكي بسلسلة إلى الصنخور حتى يظهر «شفق الآلهة»، ويتحول كل دنيا الإلهة والرجال إلى خرائب. وعبر «ساحات السماوات»، ركب المطايا عذارى النار — وهن الفلككيرات (٢) لابسات الخوذ اللائي تختزن المذبوحين، واللائي سئقن القرصان إلى فالهالا أي إلى قاعة المذبوحين التي فيها كان كل يوم يقضى في

(١) الدابوق أو الدبق غراء أخضر اللون ينشر على قنبان توضع في الأشجار فينخدع الطير بها ويحشم عليها فتلصق به ويصطاد .
(٢) الفلككيرات حوريات من أساطير الشمال .

الحرب استعداداً للمعركة الأخيرة الكبرى التي تتحتم أن تقع عند انتهاء العالم . وكان هذا العالم والعالم الذي يليه — فيما يرى القراصنة القايكنج ساحتي كفاح لا يأمن فيهما ويسعد غير الأقوياء . وهكذا كان كل اعتزازهم منصّباً على البسالة والقوة ليس غير . ومع هذا كان هناك شيء غير انصرافهم للحرب ، إذا نجد — في أشعارهم القديمة نفسها — أقوالاً مأثورة تنطوي على الحكمة والأدب :

— ينبغي للمرء أن يكون عاقلاً ولكن لا إلى أبعد حدود العقل ،
إذ أن قلب العاقل قلباً يتهيج .

— تموت الثروة ويموت الأقربون ويموت المرء نفسه آخر الأمر ،
أما المجد والشهرة فلا يموتان أبداً .

ولقد كان أناس كأولئك لهم مثل هذه المعتقدات يكونون تبايناً مروعاً مع الشعوب المسيحية التي حاولت عندئذ أن تعيد بناء المدينة الأوربية .

ولقد جاء أولئك القرصان جنوباً في سفن طويلة مكشوفة ترتفع جدرانها عند المقدمة والمؤخرة يدفع كل منها في الماء الهاديء مجاذيف يتراوح عددها بين الأربعة والعشرين والستين . وكانت تصنع من البلوط المصلصل أى من ألواح خشبية طويلة متراكبة . وكانت قليلة الغور إلى درجة يسهل معها دفعها إلى الساحل ، ويتوسط كلا منها سارية تحمل الشراع ، وكانت مصفحة الحواشي بستور خشبية . ولقد ظلت تلك من أنسب السفن للملاحة في العالم الغربي حتى اخترعت السفن البخارية في القرن التاسع عشر .

على أن القراصنة (القايكنج) ولدوا بحارة ، وقد أوصلتهم غاراتهم ورحلاتهم إلى القسطنطينية بل إلى أمريكا ، واستقروا في أيسلندة . ومن

هناك زار بعضهم شواطئ نيو إنجلاند الأمريكية التي أسموها وابنلاندا (أى أرض الصهباء) .

واستقروا فى روسيا وفرنسا واسكتلندا وإيرلندا وإنجلترا . وفى هذه البلاد جميعاً تعيش سلالاتهم إلى اليوم .

ورحلوا برآ ، عبر روسيا ، هابطين إلى البحر الأسود يجرّون سفائنهم من نهر إلى نهر . وكانت لهم فى روسيا مستعمرات تجارية ثقايش الفرو والدقيق والخشب بالذهب والحرير والسلاح المجلوب من القسطنطينية التي كانوا يسمونها السد المنيع أو المدينة العظمى .

وتوصلوا فى سنة ٩٠٧ إلى محاصرتها بألفى سفينة ، غير أنهم ارتدّوا عندما تقدم الإمبراطور قدراً كبيراً من المال . ضم الإمبراطور ، فيما بعد ، طائفة منهم إلى حملة الفؤوس من الحرس الإمبراطورى وذلك لحمايته وحراسة كنوزه .

وفى الغرب جلب القراصنة (الثايبكنج) على المدينة الأيرلندية والسكنيسة الأيرلندية الدمار متوسلين بالقتل والنهب . وقد عاشت سلالاتهم — فى دبلن وليبيريك وكسفورد ووترفورد — بمعزل عن سائر السكان ، وقد عرفوا — حتى سنة ١١٠٠ — بالمشاركة أى الشعوب التي وفدت من الشرق : حتى أواخر القرن الحادى عشر . والسبب فى تسمية أقصى شمال اسكتلندة إلى اليوم بـ . . سذرلاند ، يرجع إن أنه فى القرن التاسع كان اسمه « سذرلاند » أى الأرض الجنوبية . وذلك من وجهة نظر القراصنة النرويجيين الذين أغاروا عليها واستوطنوها .

ولقد تجمع القراصنة (الثايبكنج) فى أساطيل كبيرة تحت إمرة بعض أمراء البحر الذائعى الصيت وأبحروا مصعّدين فى الأنهار الفرنسية والإنجليزية . ودمروا روان ونانت وأغاروا على هامبورج بأسطول قوامه

ستائة سفينة . وداروا بحراً حول أسبانيا واستولوا على لشبونة وأشبيلية .

وكانت تلك حقبة تاعسة للنصرانية التي فقدت شمال إفريقيا وأسبانيا والشرق لمصلحة العرب . ثم أغارت أساطيل الوثنيين المخربين على طول الشواطئ الغربية .

ولا معدى هنا عن أن نسجل ، بوجه أخص ، أثراً من آثار القراصنة (إلفايكنج) . في ٩١٢ تجمعت بعض عصابات القرصان — إلفايكنج بقيادة زعيم قدير اسمه رولو — وجاءوا إلى شمال فرنسا قبالة شاطئ سكس واستقروا هنالك ، وأصبحوا مسيحيين وتلقوا التعميد . وعكفوا على التحادث باللسان الفرنسي وعلى اتباع المدنية الفرنسية . وكان هذا بداية بلاد أهل الشمال ، أو نورمانديا كما نسميها . أما ما تغنيه نورمانديا والنورمانديون بالنسبة لإنجلترا وغيرها فسيرد ذكره فيما بعد (١) .

ألفرد وسكس :

كان الأمر من أوله إلى آخره مفزعاً فقد جلب الشقاء والدمار إلى المدائن والضياح المسيحية ، وأنهى — في إنجلترا — الأيام الذهبية للقديسين والعلماء الذين عرفهم (بيد) وأحبهم .

كانت الغارات أول الأمر مناوشات بسيطة كبعض المعارك على السواحل وكمشادات يعمد إليها بحارة نفر قليل من السفن ضد ضابط الأمن والمزارعين المحليين . ثم ظهرت بعد ذلك — حول سنة ٨٥٠ — أساطيل القراصنة (إلفايكنج) يقودها زعماء جبابة : سخبوا صنادلهم إلى البر وأقاموا معسكراً ونهبوا المنطقة واغتصبوا أخيراً وركبوا إلى داخل البلاد واستولوا

(١) انظر شكل رقم — ٥ — (مناعب أوروبا الغربية — القرن التاسع)

على لندن ونهبوها ، . ولم يمض ثلاثون عاماً حتى كان القرصان الدانمركيون قد احتلوا شرق إنجلترا على نحو ما كتب المؤرخ الإنجليزي المكتتب الذي قال : « شتوا هناك » . وقد استولوا على يورك وأقاموا مملكة يورك . وحرقوا الأديرة الجميلة في البطحاء ، كرويلاند — و — بيتربارا ، وقتلوا القديس إدموند ملك إنجلترا الشرقية في الحرب . واستولوا على كل بقاع أواسط إنجلترا وشمالها ، وأطلق على تلك المنطقة اسم (دينلو) «الشرعية الدانمركية» أي المنطقة التي فيها سرت على الجميع شرعية الدانمركيين .

ولم يبق حراً إلا وسكس ، مملكة السكسونيين الغربيين .

وفي منتصف شتاء سنة ٨٧٨ غزوا وسكس راكبين في سرعة فائقة إلى داخلية البلاد من جلوستر . وقد سقطت وسكس وهي غير متأهبة في أسوأ فترة في السنة ، فترة كان فيها فيض من الحصاد مخزنناً لمن ينهب ، إلا أن الطرق كانت غزيرة الوحل . ولذا الملك ألفرد بالغرب في مستنقعات سمرست . . . أتاني ، وعندما حل الربيع تحرك أهل ديشون وأبادوا أسطولا من أساطيل القراصنة (الثايبكنج) كان قد ظهر عند الشاطئ . ثم انطلق ألفرد وانضم إلى جيوش ولتشاير — و — دورسيت — و — هامبشاير واشتبك في معركة مع جوثروم رئيس القراصنة في إيشانديون حيث شق طريقه بعد ساعات من القتال بين حملة الفؤوس من جنودهم ، وساقهم إلى معسكرهم . وأكره جوثروم على قبول الصلح والتعميد والارتداد إلى شرق إنجلترا .

وعندما غزا وسكس ، فيما بعد ، دانمركيون آخرون كان ألفرد ورجاله قد استعدوا ، وقهرهم هو وابنه الصنديد إدوارد ، ثم عاش هو وشعبه في سلام طوال الأربعة الأعوام الأخيرة من حياته .

ولم تكن ثمرة انتصاراته كسباً لوسكس فحسب بل كانت كذلك كسباً للمسيحية جمعاء . وكان سر وسكس سره . ولقد أوتى وحده ، من بين كل الملوك الأنجليز في تلك الحقبة ، قوة الزعامة التي بدونها تصبح الشجاعة عديمة الجدوى . وإن زعامته المسيحية الصادقة لترى في سائر ماصنع لشعبه ، لأنه لم يكن ملكاً محارباً فحسب بل كان أيضاً أباً لذلك الشعب .

يتبع الملك المسيح ، ونحن نتبع الملك الذي تفح الله العلي فيه سرأ .

وهذا يطابق قول الفرد نفسه : « ليس في وسع المرء أن يصنع أى خير ، كائناً ما كان ، ما لم يُعنه الله » .

ولقد قسم دخله الملك بين صيانة جيشه ، ومكافأة الصناع المهرة كالحدادين والبنائين والجوهرين ، وبين رعاية الكنائس والأديرة بوصفها بيوتاً لله والعلم . وكان يرحب في بلاطه بالعلماء والسياح الأجانب من أمثال أوثير النورماندى الذى ساح في أقصى الشمال حتى البحر الأبيض . ولقد درس القانون وحمل أبناء الأشراف في بلاده على أن يتعلموا بالإنجليزية واللاتينية ، وقد ظل ذلك شيئاً تجهله إنجلترا حتى ظهرت الكتب المطبوعة بعد ذلك بستة قرون : وجمع طائفة من المخطوطات وأمر بنقلها وترجمة بعضها وقد ترجم بعضها بنفسه كأمر الرهبان أن يعدوا مدونة للحوادث . والمدونة الانجلوسكسونية — التى ظلت تكتب عاماً بعد عام ، فترة طويلة بعد وفاته — واحدة من أتمن مدخراتنا .

صمد الفرد لجيوش القراصنة (القاي-كنج) عندما تملك العجز سائر الشواطئ الغربية ، وتضى عمره كله في محاولات بطولية لينقذ المدينة المسيحية . وإن أسماء (أودا — و — إثيلنوث — و — ويليجموند — و — ويرنيرث) العجيبة لا تعنى اليوم كثيراً بالنسبة لنا . ولكنها مع ذلك كانت أسماء جماعة قليلة من رفقاء الفرد الصالحين المؤمنين الذين — بدونهم —

لم يكن ليقدّر على صنع ما صنع . إنها جماعة من الرجال الراسخين الحازمين الذين لن تقسنى لنا أبداً معرفة صورهم وأشكالهم ، غير أن أعمالهم ما زالت باقية .

أنقذ ألفرد ، وسكس وأما ابنه إدوارد الكبير وحفيده آثلستان وابن حفيده إدجار — في القرن التالي (العاشر) — فقد أعادوا فتح إنجلترا جميعها التي أصبحت عندئذ مملكة واحدة ، وكانت تلك أول مرة حدث لها ذلك منذ تركها الرومان . وإذ ذاك كانت الطرق الرومانية المديدة على حال أفضل مما كانت عليه في أيام نلسون — و — ولنجتون ، وعلينا أن نتصور أسلافنا الأنجلو سكسونيين وهم يستخدمونها في الحرب والتجارة .

على أن موقعة كبيرة كان لها شأن عظيم . التقى الملك آثلستان بجماعات من الدانمركيين والبقط (١) والأسكتلنديين الذين تضافروا عليه وهزمهم بعد موقعة احتدمت من شروق الشمس إلى غروبها . حدث هذا في «برونايبورة» وهذا اسم نجهله في الوقت الحاضر يغلب على الظن أنه اسم «بيرنز» الواقعة على السور الروماني بالقرب من مصب سولوى . ولقد كان الفنانون الإنجليز الذين يعزفون على القيثارة يتغنون بتلك الموقعة ، «أغنية برونايبورة» :

لقد فلقوا السور السميك التحصين . حرقوا تروس خشب الزيفون
بنصال مطروقة . إن أبناء إدوارد — بسجية شعبهم النبيل الذي يهرع إلى القتال — قد حاربوا أعداءهم جميعاً من أجل أوطانهم ومدفعاتهم وبيوتهم .
فسقط الأعداء . سقط المحاربون الأسكتلنديون وجوابو البحار سقطتهم
المختومة . واشتد السكسون الغربيون في حملتهم طوال اليوم يطاردون ،
في ضراوة ، أعداءهم المقيتين زرافات زرافات .

(١) البقط أو البسكت : قبيلة استوطنت بريطانيا قديماً .

وكما كان جوا ابو البحار الإغريق يتغنون بطروادة ، تغنّى الإنجليز الطروبون بالمواقع التي حاربها ملوكهم . لقد كانوا يغنون في البهو بعد الوليمة بينما أميرهم ورجاله يصغون إلى صنائع أسلافهم . وقد غاب عنا أغلب الأغنيات . وكان القديس دانستان قد جمع الكثير منها ليستمتع بها لشخصه ولكن تلك أيضاً قد ذهبت مع غبار الدهور .

مدنية عربية :

بعد ما استقر القراصنة (القايكنج) وأخذوا إلى الزراعة والتجارة وبعد ما اعتنقوا المسيحية ، تضاءلت همجيتهم وأصبحوا شعب سلام كجيرانهم . وكان كانيوت واحداً من أعظم قوادهم ، وهو الذي أمسى ملكاً على النرويج وانجلترا . كان مسيحياً وأحسن الحكم واكتسب طاعة الإنجليز وولاهم . وأخذ أوائل المغيرون من القرصان الذين استوطنوا نورمانديا يضعون أنفسهم في مقدمة فرسان الغرب المسيحيين .

وكان تحول القراصنة (القايكنج) عن دينهم ميسوراً على خلاف شأن المسلمين . ولقد استمرت الحرب بين أوائل المسلمين في الشرق وفي أسبانيا . وتصدى جنود الإمبراطور الإغريقي المقيم في القسطنطينية ونبلاء أسبانيا المسيحيون لحماية جناحي النصرانية . وتكررت التوقيفات والمهادنات والمصالحات ، بل جرى في بعض الأحيان تبادل التجارة والصداقة بين الطرفين ، ذلك أن خيار العرب كانوا متمدين مهذبين . ودرج عديد من المسلمين والمسيحيين على احترام بعضهم بعضاً وعلى أن يتعلم كل منهم من الآخرين ، وطالما صنع الخصوم ذلك ، غير أن الخصومة الدينية كانت تسكن دائماً وهي على استعداد للظهور في حرب علنية .

وقد نجم عن فتوحات العرب المذهلة أن المدنية الإغريقية والرومانية في الشرق قد دانت لهم وباتت بين أيديهم . ووجد من خيارهم علماء نجباء

وحكام حكام لم يترددوا في اتخاذ بعض علماء اليهود والنصارى مستشارين لهم . وكان أحد هؤلاء : هارون الرشيد الذي حكم بغداد والذي نعرفه على أنه خليفة ألف ليلة وليلة ، وكذلك كان منهم الخليفة عبد الرحمن (الناصر) الذي حكم في الأندلس .

ولقد قامت — في وادي النهر الكبير الجميل ، بأسبانيا المغربية — مدينة قرطبة عاصمة ملك عبد الرحمن وهي مدينة الأحلام التي تمتاز بالقصور المرمرية والمساجد المتألقة . وقد حوت حمامات عامة (تماماً كما حوت المدن الرومانية) ومكتبات ومدارس . وكانت شوارعها تضاء ليلاً وتبردها نافورات وقنوات يجري فيها الماء ويسرى أريج حدائق الفاكهة والزهر ، وكان المغاربة يحذقون زراعتها وزراعة الحبوب فزرعوا الكروم والأرز والقطن وقصب السكر وأدخلوا زراعة الزنجبيل والبصل والموز والتوت والمشمش .

كان العرب علماء ، إذ درسوا الكيمياء والطب ، ونقلوا كل الكتب التي عثروا عليها وترجموا الكثير منها عن الإغريقية القديمة . ويقال إن مكتبة الخليفة حوت ستمائة ألف مجلد . وقد وضع العلماء العرب كتباً في الملاحة والجغرافيا ، ودرسوا الرياضيات . وآية ذلك أننا ما زلنا نطلق على قسم من العلوم الرياضية اسماً عربياً هو « الجبر » . وقد استعملوا الأرقام العربية (الهندية الأصل ؟) بدلا عن الأرقام الرومانية القديمة ، كما أنهم برعوا في علم الفلك . ونحن ما نزال حتى اليوم نسمى النجوم بالاسماء التي أطلقها العرب عليها مثل . بيت الجوز (أصلة بيت الجوزاء) و — أكبران (ويسمى أحياناً : نير الثور) . وتعاليم القرآن الشديدة التحفظ لا تقر الموسيقى الخليعة ، غير أن الخليفة والمغاربة كان يتهجون بها وبالشعر ومنهم تعلم مسيحيو أسبانيا قرص القصص الشعرية وقصائد الحب وإنشادها تلك التي اقتبسها فيما بعد منشدو الغناء المتجولون في جنوب فرنسا .

هذا أسلوب حياة وتعلم محبب إلى أقصى حد . حدث ذلك في القرن العاشر وقتما كانت إنجلترا ميدان قتال للدانمركيين والسكسون ووقتها كانت مدارس أوكسفورد وباريس بعيدة الورود حتى على الأذهان . أما قرطبة في عهد عبد الرحمن (الناصر) فقد وفد عليها علماء مسيحيون ليغتنمو الحكمة عند أقدام أساتذة مسلمين . وفي الحق أن القسطنطينية كانت هي المدينة المسيحية الوحيدة التي قد تقارن بقرطبة . بل إن روما القيصرية العظيمة نفسها كانت ما تزال مكاناً نصف مخرب تعشش الطيور في أبنيته العتيقة المتفتنة .

ومع موركتلك ورغم فترات السلام والألفة فإن المسلمين والمسيحيين لم يستطيعوا أن يتعايشوا زمناً طويلاً من دون أن يضطربوا . واشتعلت حرب الصليب والهلال ، الموسم تلو الموسم ، أجيالاً ، على التخوم . والجبال الوسطى في أسبانيا ما تزال تحمل اسم كستيل (قشتالة) ، ومعناها أرض « القصور » المحصنة أي المعقل ، وذلك بسبب تلك الحرب الطويلة الأمد .

واحتجبت في الأيالات الإسلامية — التي امتدت من أسبانيا عبر إفريقيا الشمالية إلى سوريا وبلاد الفرس — احتجبت جماعات دينية مسيحية كان الخليفة يتركها وشأنها ما دامت تدفع الجزية ، وكانت المهادنة الحربية الطويلة المدى في حيز الإمكان . ولكن من دواعي الأسف الشديد لدى المسيحيين أن الأماكن المقدسة التي قضى فيها المسيح حياته الدنيوية دخلت في حكم العرب وإن رخصوا للحجاج المسيحيين زيارة بيت المقدس ، وكان أولئك الحجاج المسيحيون يعدون بالمئات .

النورمانيون والحروب الصليبية الكبرى :

في خلال القرن العاشر وقتما أخذ ملوك وسكس يستردون المناطق.

الداخلية ونوردمبريا من الدانمركيين الوثنيين كان ملوك بواسل آخر
ينقذون المسيحية من أعدائهم الوثنيين في البقاع الألمانية . فلقد رد الملك
السكسوني — هنري صياد الطيور — الدانمركيين في الشمال كارد النبالة
الهنجاريين أي (المجرين) المفترسين في الشرق . وأباد حفيده أوتوالكبير
جيشاً مجرياً كبيراً سنة ٩٥٥ . وقد شارك أولئك الرجال ، وسكس ، في
شرف إنقاذ أوروبا المسيحية ، كما تحول الوثنيون المقهورون إلى المسيحية .

وربما تسنى لنا — من تلك العصور المعتمدة المحفوفة بالمخاطر التي خيم عليها
الرعب الهمجي والضييق والعذاب — أن نتبع بداية بعض الدول الحديثة :
وطن الملوك الألمان جنوداً في التخوم أو الحدود، لحاية ممالكهم . وكانت
واحدة من مستعمرات الحدود وهي : (حدود الدانمركيين) أي الدانمرك
وثانية — وهي الحد الشرقي منشأ النمسا ، وثالثة — وهي الحدود السلافية —
البداية الباكورة لبروسيا .

وقد رأينا أن شارلمان — ملك الفرنجة — قد لقب : « الإمبراطور
الروماني المقدس » ، لأنه كان حامى حمى المسيحية وأنه لهذا كان ، على صورة
ما ، خليفة الأباطرة الرومانيين . ثم إن أوتوالكبير لقب نفسه بمثل ذاك
اللقب وتوج بروما — في أبهة — إمبراطوراً رومانياً مقدساً ، في سنة ٩٦٢ .
ومنذ تلك السنة جرت العادة دائماً على ألا يحمل اللقب إلا أمير ألماني .
وكانت الأصقاع الألمانية ، بالإضافة إلى شمال إيطاليا ، هي التي تكونت منها
الأمالك المستقلة التي أطلق عليها اسم : الإمبراطورية الرومانية المقدسة .
وظل هذا النظام قائماً إلى سنة ١٨٠٦ في عهد نابليون . وعلى هذا تكون
الإمبراطورية المقدسة قد دامت نحواً من ٩٠٠ عام . وبذلك يكون ما حدث
في القرن العاشر قد ظل ذا بال قروناً طويلة بعد .

وفي القرن الحادي عشر تبدلت إنجلترا تبديلاً كبيراً غير مصير الجزيرة

ومضاير العالم . وبدأ سليلو رجال الشمال مغامراتهم المفزعة . واعتنقت المسيحية تلك العصابات من الذين سبق لهم استيطان سواحل فرنسا (أرض الفرنجة) في سنة ٩١٢ والتي أسمت المسكان باسمها — نورمانديا — وحدثت المعجزة وأضحوا أقدر الحكام والجنود ، وفتحوا أكبر جزيرتين في أوربا .

أما كيف عبر الدوق ولیم النورمندي المضيق في سنة ١٠٦٦ وكيف هزم الملك هارولد جودونسون في معركة عن كشب من « شجرة التفاح الشدياء الرمادية » بالقرب من هيستنجز ، فهذه قصة كثيراً ما تتردد على الأسماع . ولم يقتصر ولیم على فتح إنجلترا بل عمد إلى توزيعها كلها على أمرائه (باروناته) بل وضع لها دليلاً إحصائياً وصف فيه أرضها وثروتها تماماً كما قد يفعل امرؤ حاز ضيعة جديدة . وما يزال بين أيدينا ذلك الدليل الإحصائي المسمى « كتاب يوم الحساب » . وقد جعل ولیم الفاتح هذا وخلفاؤه ، من إنجلترا ، حكومة ملكية هي أقوى مما عرفت أوربا كلها منذ الأيام العظيمة التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية . وقد نجم عن هذا الفتح إن سكان إنجلترا ظلوا — مدة تُربى على الثلاثمائة عام — يتكلمون لغتين « فالملك والحاشية والأمراء ورجال الكنيسة يتكلمون اللغة الفرنسية النورماندية ، وأرباب المهن والفلاحون يتكلمون الانجليزية . ومن ائتلاف هذين اللسانين تولدت لغة الكلام الحالية في إنجلترا وفي الدنيوين الجديدتين أمريكا وأستراليا .

أما الجزم بأن غير هؤلاء من النورمنديين قد فتحوا صقلية فقلها يتردد على الألسن . تملككت حفنة من مغامري النورمنديين — بزعامه روجر دي ثفيل — كل جنوب إيطاليا وصقلية وجعلوا منها مملكة نورمندية قوية (١٠٥٠ — ١٠٩٠) . وقد سكن جزيرة الخصومات القديمة تلك ، سلاطات

شعوب عديدة : من القرطاجنيين والإغريق والرومان والعرب . وأمسست صقلية — تحت حكم النورمنديين — بقعة من أكثر بقاع العالم الغربي تمدناً وتهذيباً وباتت ملتقى التجار ، وكان ذلك أجل مزاياها .

وفي هذا القرن الحادى عشر نفسه ارتفع شأن شعب آخر وقويت شوكته . فلقد جعل الأتراك السلجوقيون الوافدين من آسيا الوسطى أنفسهم سادة على بلاد الفرس ، واعتنقوا الدين الإسلامى وتزعموا المسلمين في الشرق . وما هو إلا القليل حتى بدءوا يهددون أملاك الإمبراطور الإغريقى المسيحى الموجود فى القسطنطينية . وهم لم يوهبوا فن الحسك ولاكنهم كانوا أشداء شجعاناً بارعين فى فنون الحرب . وقد جاءوا تماماً وقتما كان المسلمون والمسيحيون فى سبيل الاستقرار والسلام . ثم لأنهم جاءوا وقتما كانت جموع من المسيحيين الغربيين يحجون أرضهم المقدسة ليعبدوا فى أماكنهم المقدسة .

وقد أهاب الإمبراطور الإغريقى فى القسطنطينية بمسيحي الغرب أن يخفوا إلى مظاهرتة على الأتراك . واستصرخهم البابا أن يتطوعوا لينقذوا بيت المقدس من أسماهم هو بالكفار . فانطلق فى الحال إلى بيت المقدس ، أول فوج من المتطوعين يقودهم فارس لقبه وولتر المفلس . وكان أكثرهم من الفقراء ، ولم يكونوا على أهبة الاستعداد . وفى سنة ١٠٩٥ هلك — بعد أن كابد العنت والضنك — من استطاع منهم أن يصلوا إلى آسيا الصغرى ، وكانوا بقية قليلة العدد .

وفى السنة التالية النقت فى القسطنطينية ، أربعة من جيوش الفرسان الآتية من الغرب بقيادة أمراء فرنسيين بينهم جودفروا دى بويون — و — ريمون دى تولوز — و — روبير دى نورماندى وكذلك نورماندىو آل هوتفيل الجوحون — و — بوثمون — و — تانسكريد . عبر أولئك — تحت الرايات الصليبية ، وفى أهبة دروع الزرد — عبروا البوسفور إلى آسيا الصغرى .

ومن ثم ساروا محاربين شرقاً وجنوباً . وهم يكابدون الجوع والعطش والمرض والجراح والموت . واستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة شهور . وبعد قرابة أربعة أعوام من بداية الحرب شق من بقى منهم طريقة عبر جسر خشبي أرُخى من برج حصار عال فوق معقل بيت المقدس وبعد أن استولوا على المدينة أعملوا الذبح لا تأخذهم فيه رحمة ولم يستحيوا الشيوخ أو النساء . ثم عرضوا الملك على جودفروا فأبى قائلاً : « لن ألبس تاجاً من الذهب حيث لبس مخلصنا تاجاً من الشوك » . ولقب نفسه بلقب « حامى اللحد المقدس » ، غير أن أخاه بودوان الذى خلفه توج ملكاً . وهكذا تأتى لهذه الحرب الصليبية الأولى والكبيرة أن تقيم مملكة مسيحية فى بيت المقدس وفى دوقيات وولايات مسيحية أخرى فى فلسطين . وماتزال أنقاض المعقل الجسيمة التى بنوها قائمة ، فى عظمة شاحبة مقفرة ، على الشاطئ . أو على التلال المتاخمة للصحراء القائظة . ولقد كانت أبهاؤها الخاوية التى فقدت سقوفها ، كانت مقر الولايم والمثاقفات (أى المبارزات والمنازلات بالعصى أو السيوف) فى المناسبات التى فيها كان الأمراء يجيئون الجيوش من عامة الناس ويخرجون للقاء الأتراك المغيرين من الحدود الصحراوية . وقد فنى كثير من الصليبيين فى تلك المعارك التخومية المستوفية العتاد تحت أشعة الشمس الحارقة ، كما أن المرض أهلكهم . وكان عليهم أن يواصلوا الإمدادات والتعزيزات لى يحتفظوا بقوتهم .

وكان أخص مصادر العون جماعتان صليبيتان شهيرتان من « الرهبان المحاربين » : الداوية أو فرسان معبد سليمان وفرسان القديس حنا ، بيت المقدس ، الذين نذروا حياتهم للمسيح متوسلين إلى ذلك بمحاربة العرب . إلا أن الولايات الفلسطينية المسيحية أعوزها مجندون من الغرب .

وفى سنة ١١٤٧ أخفقت حرب صليبية أخرى بقيادة الملك الفرنسى لويس السابع والإمبراطور كونراد ، وذلك نظراً للنزاع بين قواد الحملة .

ووجد الأتراك جندياً محنكاً وحاكماً عبقرياً في شخص صلاح الدين الذي أباد جيش فرسان المسيحيين في معركة عند قرني حطين. ونكسب المسيحيون نكبة فادحة إلى حد أن صلاح الدين استعاد مدينة بيت المقدس ذاتها .

وقد جر هذا إلى حرب صليبية ثالثة وكانت مغامرة ملكية كبيرة بقيادة إمبراطور وملوك فرنسا وإنجلترا . وقاد الإمبراطور المسن فردريك بارباروسا - وهو في السادسة والستين من عمره - أمراهه الألمان بطريق البر إلى القسطنطينية ، ولكنه غرق في حادثة وقعت له في نهر صغير في آسيا الصغرى . وقام فيليب أوغسطس ملك فرنسا ورثارد قلب الأسد ملك إنجلترا ونورمانديا ، بطريق البحر . واستهدف رثارد الاستيلاء على عكا الواقعة على شاطئ فلسطين غير أن النزاع الذي فشا أحبط أي تقدم جديد .

أما الحرب الصليبية الرابعة فكانت فضيحة . استأجر قوادها في سنة ١٢٠٤ سفائن من البندقية لكي تنقلهم إلى القسطنطينية . ولم يكسب الصليبيون يبلغون تلك المدينة حتى استولوا عليها فعلا وأحكموا السيطرة على أصقاعها واستقروا هنالك على أنهم حكام ، أمراء في الإمبراطورية اليونانية المسيحية . ويبين ذلك الهجوم - الذي شنه المسيحيون اللاتين على المسيحيين اليونانيين - يبين إلى أي حد قسم المسيحية الخلاف بين الكنائس الرومانية واليونانية ومدى الحب القليل الذي ضاع بين مسيحي الشرق ومسيحي الغرب ، كما يبين إلى أي درك هبط التحمس للحرب (١) .

باءت الجيوش الصليبية بالخسران المبين وضاع هباءً كل ما بذلته من عناء وجهد شديدين . ولم تعد إلى المسيحيين قط المناطق التي استخلصها المسلمون منهم في القرن الثامن فهي ما تزال لهم حتى اليوم . غير أن شعوب الغرب انتفعت أيما انتفاع من التجارة التي انتعشت ، إذ أن الحرب والتجارة كانا يسيران جنباً إلى جنب . وكان أكثر المنتفعين تجار البندقية الذين رفر

(١) انظر شكل رقم — ٦ — (الدول اللاتينية التي شاركت في الحملة الصليبية) .

الغنى والترف والتوفيق على جمهوريتهم البحرية التي « زفت إلى البحر » .
فلقد كانت التوابل وأقمشة الشرق المنسوجة تمر بمستودعات البضائع
في البندقية التي هي المعبر إلى المسيحية الغربية . وكانت البندقية - في مدى
قرون - دولة عظيمة وذلك حتى قبل أن يتجه التفكير إلى ملكة إيطاليا ..
وإن مواطن البندقية اليوم ليجد من الأسباب ما يجعله يفاخر بأنه كذلك أكثر
ما يفاخر بأنه مواطن إيطالي . نعم إن جميع مدائن إيطاليا انتفعت من انتعاش
التجارة مع الشرق الإسلامي غير أن أغرب نتائج صلة الشرق بالغرب ترى
في صقلية .

ففي هذه الجزيرة - التي هي ملتقى شعوب كثيرة - استقر إمبراطور
روماني مقدس وأقام بلاطه ، وكان هذا الإمبراطور فردريك الثاني وهو
أحد أحفاد بارباروسا وابن أميرة نورماندية في صقلية . ترك هذا الإمبراطور
موطنه الألماني الأصلي يحكمه أمراؤه وأساقفته واختار لنفسه عيشة بالغة
الغراية تحت شمس الجنوب . ولقد وجد لدى أهل عصره إذ ذاك من
الأسباب القوية ما يحملهم على أن يلقبوه بـ « أعجوبة الدنيا » .

فقد احتفظ بحريم حسب العادة التركية القديمة . وكان يحف به حراس
مسلمون . وقد أنشأ حديقة حيوان ، ودرج على أن يحمل أمتعته نجائب
(أي هجن) . وكان هو نفسه عالماً خبيراً يتسكلم ست لغات بينها العربية ،
ويحشد في بلاطه علماء الرياضة والفلك والطبيعة ، من المسيحيين واليهود
والمسلمين . وهو الذي أسس جامعة نابولي . ولقد عرف من أحوال الطير
أكثر مما عرفه أي رجل في عصره وكثيرون ممن جاءوا بعد عصره . ودون
كل ما يعرف في كتاب لاتيني عن الباز (أي الصقر) وطالما تهكم على الدين
المسيحي وخصم البابا ولكنه مع ذلك حارب حرباً صليبية ! وهو إلى ذلك
كله قد استولى على البقاع المقدسة وذلك بعقد معاهدة مع المسلمين الذين
سمحوا له بأن يتوج في بيت المقدس !

على أن نتيجة حرب فردريك الصليبية لم تدم طويلاً . وقاد صهره —
الذى تشبهه بالقديسين ، وهو لويس التاسع ملك فرنسا — جيشاً إلى مصر
وحاول أن يغزو فلسطين من هناك ، ولكن حملته أخفقت . وكذلك
أخفقت حملة شنمها فيما بعد على تونس في شمال إفريقيا ، القديس لويس .

جرت هذه الحوادث في القرن الثالث عشر ، وهو الذروة السامية
لما نسميه القرون الوسطى ، جرت في السنوات التي وقعت بين نهاية
الإمبراطورية الرومانية واستكشاف أمريكا . وقد ظل الناس يتحدثون
عن الحروب الصليبية ويخططون لها طوال ثلاثة قرون أخرى في حمية غير
أنهم كانوا يفتقرون إلى زعماء . فلقد كان ملوك الغرب جد منهمكين في
محاربة بعضهم البعض كما كانت الحال بين ملوك فرنسا وإنجلترا . وكذلك كان
النزاع بين الباباوات والباطرة دائم الوقوع . ومع ذلك فإن حرب الصليب
استمرت فعلاً . ففي أسبانيا حارب المسيحيون بحجة استرداد أراضيهم من
المغاربة . فلقد كانت السفن المسيحية دائماً الرعب من قرصان الأتراك
والعرب . وكان أكثر الجنود ولاءً للصليب فرسان القديس يوحنا
المقيمون في بيت المقدس . وعندما طردوا من بر آسيا حملوا جزيرة
رودس . وعندما أكرهتهم قوة الترك البحرية ، الآخذة في الإزدياد ، على
الجلاء عن رودس ذهبوا إلى جزيرة مالطة وحصنوها . وأخذوا —
بوصفهم فرسان مالطة — يثابرون على الإغارة على السفن التركية مع صمودهم
لكل الغارات . وكانوا جماعة دينية متحدة من فرسان الدول جميعها
وكونوا — على صورة ما — ساقية (أى مؤخرة) المسيحية في تقهرها
من الشرق والجنوب .

شئون الحرب والعبادة : الحصن والكنيسة :

تطرقنا بنا حكايتنا عن الحروب الصليبية إلى ذرى القرون الوسطى

وهي الأعوام الألف الواقعة بين سنتي ٥٠٠ و ١٥٠٠ م . . وإنما سميت كذلك لوقوعها بين مدينة البحر الأبيض المتوسط القديمة والدنيا الجديدة .

وقد ظلت أصقاع الإمبراطورية الرومانية — طوال القرون الوسطى — مقسمة إلى ثلاثة أقسام : كانت هناك إمبراطورية البلقان الإغريقية الشرقية وبلاد اليونان وآسيا الصغرى ، يحكمها جميعاً الإمبراطور الإغريقي المسيحي المقيم في القسطنطينية . وكانت هناك الأراضي الغربية وهي فرنسا وإيطاليا وبريطانيا واسكانديناوة وألمانيا وأجزاء من أسبانيا ، وكلها دول مسيحية كاثوليكية تنظر إلى بابا روما على أنه رئيس كنيستهم ، غير أنها جميعاً يحكمها نفر عديد من الملوك والأمراء والنبلاء والأساقفة . ثم كانت هناك أراضى الجنوب والشرق المفقودة : جزء من أسبانيا وشمال إفريقيا كله وفلسطين وسوريا والعراق ، يحكمها سلاطين مسلمون .

وهذا التقسيم الثلاثي يظل قائماً في تاريخ أوروبا من أوله إلى آخره .

ولم يسترد المسيحيون قط الأراضي المفقودة ، فيما عدا أسبانيا . وهذا هو ما نعنيه اليوم عندما نقول إن الحروب الصليبية أخفقت . وكان مرد إخفاقها إلى انهماك الملوك والأمراء الغربيين في محاربة بعضهم البعض .

وطالما زحف القياصرة الألمان — أو الأباطرة الرومان المقدسون ، الذين حكموا جماعة وفيرة العدد من الأمراء والنبلاء الألمان — طالما زحف أولئك القياصرة على إيطاليا مطالبين بسيادتهم على المدائن الإيطالية الموجودة في تلك المناطق . وطالما حاربت المدن الإيطالية والنبلاء الإيطاليون بعضهم البعض . لقد كانوا يجنون المعركة ويحاربون ابتغاء الأرض أو الثأر . وكثيراً ما اشتبكت إنجلترا وفرنسا في حرب . وأكثر ما وقع ذلك ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، هذا إلى درجة أن حملات إدوارد الثالث وابنه وحملات هنري الخامس وإخوته يسميها المؤرخون « حرب

المائة عام ، (وقد وقعت على وجه التقريب بين سنتي ١٣٥٠ و ١٤٥٠) .
وكانت تلك هي الحملات التي فيها قهر إدوارد الثالث جيشاً فرنسياً في
كريسي وقهر هنري الخامس جيشاً آخر في آجيكور . غير أن الجنود
الإنجليز ظلوا سنوات طويلة ينهبون ويدمرون الريف الفرنسي ، في جماعات
من الرماحة والنبالة يقردهم رؤساء مستقلون أي غير تابعين لأحد .
وانتشرت أمثال تلك الجماعات المستقلة في إيطاليا بل في أسبانيا مغتصبين كل
ما أعجبهم أو مؤجرين أنفسهم للنبلاء والمدائن . وفي ذلك الوقت احتفظ
ملوك الإنجليز ببلدة كاليه على أنها مركز حربيٍّ أماميٍّ محصن عبر المضيق .
وأنتهت الحرب الطويلة . . . بقهر الجيوش الإنجليزية الملكية التي طردت
من فرنسا . ويرجع أكبر الفضل في ذلك إلى الأتهام المذهل الذي أوحى
به إلى الفرنسيين عذراء أورليان ، جان دارك .

ومن بين الحروب الغربية كلها ، أخلفت حرب المائة عام تلك ، على أهل
الريف التعساء الذين كابدوا أشدَّ المكابدة من النهب والقتل ، هذا إلى درجة
أن عصابات من الفلاحين ثاروا ثورة شعشاء فقمعوا في أشد قسوة حتى على
يد ساداتهم . ذلك أن الحروب في القرون الوسطى لم تكن حرب أمة
على أمة ولكن حرب إقطاعي على جيش إقطاعي .

والحكومة الإقطاعية كانت شيئاً في غاية البساطة . كان الملك أو الأمير
يخضع الأرضين على أمرائه وفرسانه مقابل حلفانهم بيمين الولاء له وخدمتهم
إياه في الحرب — إذا استدعاهم — لمدة أربعين يوماً في كل عام على نفقتهم .
ويتوقف عدد المجندين الذين يستجلبونهم معهم على مقدار الأرض التي
تكون في حوزتهم . وعلى ذلك يتكون الجيش من رجال فرق مجندة عديدة ،
كل فرقة تستظل براية سيدها . ومثل تلك الأنظمة يتوقف على الوفاء
بالعهد ، وكان القسَم الإقطاعي يعد إرتباطاً مهيباً . وإذا حدث أن قيصرأ
ألمانياً خاصم البابا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا فإنه يستدعي تحت رايته

كل أمرائه ونبلائه الألمان الذين يركبون ويدخلون معسكره مع تابعيهم. وإذا أعلن ملك إنجليزي — مثل إدوارد الأول — الحرب على ويلز فإن أمراء المملكة من نورذمبرلند إلى ديفون يدخلون تشستر أو شروزبرى راكبين مع مجنديهم الإقطاعيين من الرماحة والرقباء (قواد العشرة) وحاملي التروس والنبالة، ينظمهم المشير العسكري للملك شخصياً الذي يختار من كبار الأمراء. وإذا أعد إدوارد الثالث أو هنري الخامس العدة لغزو فرنسا فإن الأمراء ورجالهم كانوا يحتشدون في ساندوتش أو في سودا مبتون ليستقلوا السفن مستظليين راياتهم الكثيرة ليعبروا المسافة القصيرة في البحر. وكان يحدث أحياناً أن أسقفاً — كأسقف ديرهام العظيم — يستدعى رجاله لمحاربة الغزاة الاسكتلنديين. كما كان يحدث أحياناً أن بلدة غنية، كلندن أو بريستول، تجند جماعة قوية من رماة الأقواس الطويلة في خدمة الملك من بين صناعاتهم وتلاميذ صناعاتهم. على أن الأقواس الطويلة لم يكن يصلح لحملها غير أولى القوة والعضل المفتول والحدق وكانوا يؤجرون أجراً عالياً لقاء خدمتهم.

وهكذا أمسى الفرسان ورجالهم قوام الحروب. وكانت الدروع الحديدية أول الأمر — على نحو ما حدث في الحرب الصليبية الأولى — تصنع من سلاسل من الزرد اللدن (أى المرن) تلتصق بالجسم التصاقاً. ولبس الفرسان بعد ذلك دروعاً ثقيلة مصفحة أى بذلات يصنعها صناع السلاح — في حدق — من صفائح معدنية لتسبك في حدق على مفاصل الكتف والمرفق والركبة. ولم يحل القرن الخامس عشر حتى كان الفرسان يغلفون بالمعدن تغليفاً كاملاً من قمة الرأس إلى إصبع القدم. بل إن خيلهم نفسها كانت تلبس دروعاً. وكانت خيلهم هذه في واقع أمرها أقرب إلى حيل الأقاليم منها إلى مطايا الفرسان في العصر الحديث. وكان تقدم الفرسان الثقيل التسليح عملاً خطيراً. ويمكن تمثيل التغير بصورتين متباينتين: الأولى لفرسان الصليبيين في دروعهم الزردية يتسلقون برج المعقل ليصعدوا

في جدران بيت المقدس ، والثانية لفرسان القرن الخامس عشر في حرب الورد الأهلية الإنجليزية ، غير متطين جيداً ، في صدام المعركة ، مثقلين بدروعهم المصفحة ، متعثرين تعثراً غريباً عاجزاً يجعل منهم صيد أسهل القنص .

وهذا الدرع الثقيل المربك — الذي جعل السرعة مستحيلة — أمسى معوقاً إلى درجة جعلته ، بعدئذ ، مقصوراً على الخوذة وقطعتين لحماية الظهر والصدر ، وأحياناً لحماية الفخذين . وكل تلك — خلا الأخيرة — ظلت تستخدم أجزاء من لباس الدراغون (وهي كتيبة خاصة من فرسان الجيش الإنجليزي والجنود الفرنسيين المدربين في ووترلو عام ١٨١٤) .

وساعد استخدام المدافع ، في القرون الوسطى ، على جعل الدروع تفقد بعض قيمها . وأصبحت كلمة « المدفعية » معناها الأسلحة التي تقذف بعد أن كان معناها ، في وقت من الاوقات ، القوس والنشاب . وكان معناها ، في الدنيا القديمة ، : المنجنيقات التي تطوح أحجاراً جسيمة على أسوار المدن . وفي حرب المائة عام استعمل البارود لقذف أكر مستديرة من الحجر من مدافع صنعت من الزهر المسبوك ، أكر قد تصيب وقد تخطئ . وقد ورد في المسجلات ذكر الجونيس الملكية (وهي طلائع المدفعية الملكية) . ولما أن نستوثق من أن الجونيس كانت تخيف بضوضائها ودخانها بقدر ما تخيف بماتحدثه من ضرر . وكانت أقوى آثارها الناطقه تحدث لدى محاصرة القلاع والمدائن ، إذ أن القذائف المدفعية كانت تحدث بالأسوار ثغرات أو ثلمات . وكانت المدافع يعظم أثرها بوصفها مدفعية حصار بنسبة ما كانت تصيب من تحسين تدريجي .

وفي زمان الإمبراطورية الرومانية كانت المدن تسور ، وعندئذ كانت المعاقل تبنى على طول التخوم . وفي القرون الوسطى كانت المعاقل تتكاثر في كل مكان . وكانت أسوارها الجسيمة تبنى بحيث تصمد لمحاصرات طويلة ، كما كانت القلاع والأسوار ذوات الزوايا تشرف على المداخل والمشارف .

وهذا يتسنى لرماة السهام والنبال أن يصيبوا مقتلاً من المغيرين . وكانت
السلام الحلزونية — التي يسهل الدفاع عنها أكثر مما يتيسر الهجوم منها —
توصل إلى الطبقات العليا وإلى السطوح . وكان خندق الماء يجعل الهجوم
المباشر بالغ الصعوبة . ومن وسائل الهجوم إذ ذاك قذف حزم من الأماليد (١)
أو الاندفاع بها إلى أن يمتلئ الخندق . وتكون تلك عملية كريهة عندما
تصوب النواظر الحادة، نشاباً يناهز المتر طولاً، إليك من السكوات الطويلة
الضنيقة المفتوحة في الأسوار السامقة . وكان الاستيلاء على المعقل يقتضى
وجود سلام متنقلة وأبراج للحصار ومنجنيقات للقذف ومدافع . والمعقل
آمنة في الأغلب مالم تباغت . وقد روعى احتواؤها على مخازن وإسطبلات
ومعسكرات للحرس كما روعى احتواء المبنى الرئيسى على مطابخ ومخازن
لحفظ الأطعمة ومستودعات للبعثات الحربية وغرف للنوم وهو كبير
وكنيسة صغيرة . وكذلك، فى مكان ما من الساحة ، يقوم مصنع للحدادة وفى
مكان آخر يوجد بئر يحميه ، غالباً ، برج يرفع من فوقه . وكثيراً ما كانت
تبنى الأبراج بحيث يتسنى لكل منها أن يحمى نفسه محلياً أياً كان مصير سائر
الأبراج . وهكذا يكون الاستيلاء على المعقل الواحد سلسلة من المحاصرات .
وما يكاد الجسر المتحرك يرفع والعدو يظهر حتى تصبح الحياة فى المعقل
خشنة حذرة . ولسكن فى أيام السلام لاشك فى أن الحياة كانت مرضية إلى
حد كاف . وفى المعقل رفاق عديدون ، إذ أن المعقل كان أكثر من مشوى
محصن للأمرأه أو للفرسان ، فلقد كان يأوى مجتمعاً كبيراً من الناس
يحميهم ويطعمهم .

وقبل غزو النورمندين لإنجلترا كانت المعقل تقام من الخشب كما تبنى
الخوازيق المحصنة فى إفريقيا وأمريكا . وفى الإمبراطورية الإغريقية توارث
الناس خبرة التحصين بالحجر عن عهد روما . وعندما ذهب الصليبيون .

(١) الأملود أو السلوج شجر من الأغصان يشبه الصفصاف .

شرقاً تعلموا الكثير عن بناء المعاقل . وبنوا في سوريا معاقل عظيمة كمعاقل أسكيلون وكراك دى شيفالييه على حافة الصحراء . وعندما عادوا ارتفعت معاقل مماثلة في جميع أنحاء الغرب . وعلى طول الراين فوق رموس الجبال ، وعلى مزارع الكروم ارتفعت حصون الأمراء الألمان القوية ، حصون الراينلاند التى تقدم خرائطها المزيد من المتعة للسياح . ولقد كانت الأراضي الأسبانية غاصة بالمعاقل التى شيدت خلال حرب التنحوم ، غير المتناهية ، ضد المغاربة . وعلى الحد الشرقى لألمانيا وعلى الحد بين ويلز وبريطانيا قامت معاقل التنحوم الأمراء الذين درجوا على أن يعيشوا دائماً فى حذر من أعدائهم القدامى والذين كان رجالهم المحاربون يدرّبون فى مدرسة شاقة المنهج . وهذا هو السبب فى أن أمراء ويلز المهاجمين ونبلاء الحدود البروسية لعبوا دوراً ذا بال فى تاريخ بلادهم . ولقد غصت الحدود الشمالية لبريطانيا بالمعاقل مثل أولنويك — و — بيرويلك — و — نورهام . على أن المعقل كان من مميزات الأصقاع الريفية فى القرون الوسطى وكثير من مدائن تلك الفترة . وكان للنـدن قلعتها الشهيرة التى تحمل اسمها (لندن تاور) ولباريس باستيلها .

وحكاية الحرب بين بعض الناس والبعض حكاية ينقبض لها الصدر . غير أنها ، مع الأسف ، حكاية الجنس البشرى . وهى ككل الحكايات الإنسانية لها قصص تتحدث عن الفضيلة والتضحية بالنفس كما تتحدث عن آلام لم تُروَ قصتها . حكاية القرون الوسطى تتركز فى معاقلها ، ولم يكن أى ملك أو أى أمير ليستطيع ، بطبيعة الحال ، أن يكسب حرباً على الإطلاق بمجرد القعود فى معقله . أجل ، كان عليه أن ينطلق ويبحث عن عدوه ويشعل حربه فى العراء . غير أن من المعـاقل كان الملوك والأمراء يحكمون ممالكهم .

فى القرون الوسطى كانت الكنائس — كالمعاقل — جزءاً من المنظر

الخلوى العام . فلقد وجدت في كل قرية كنيسة . أما البلدان الكبيرة فكانت تحوى كنائس عدة . مثال ذلك نورويك ولندن اللتان تحويان كنيسة في كل قسم من أقسامهما . فكانت أجراسها كلها دقت ، تحدث طينياً من الانغام على البيوت الصغيرة التى تأتلف تحت أبراجها . وكانت هنالك — إلى جانب الكنائس والأبروشيات — أديرة في المدن وفي الريف ، بعضها بنى منذ عهد بالغ القدم كما هى حال : فولدا في ألمانيا ، وكلوني في فرنسا ، ومونت كاسينو في إيطاليا . وقد أقيمت في كل منها مصلاها وكنيستها التى تستطيع العامة أن تتعبد فيها . وهى تشبه المعازل فى أنها استخدمت مراكز للعمل والتسويق . وكانت تنشأ حولها أحياناً بلدان صغيرة كما هو الشأن فى بوري سنت إدموند — و — بيرتربورا . وكثير من الأسماء فى مدينة لندن تذكرنا بالكنائس والبيوت الدينية ، مثل ذلك : سنت جيمس ، سنت مارتين ، ذى تمبل (أى المعبد) ، أوستن فرايارز (أى الرهبان) ، وستمنستر ومالى ذلك . وينطبق مثل هذا على مدن أخرى فيها استعارت الأبروشيات أسماءها من الكنائس . مثال ذلك : سنت أنطوان وسان جرمان فى باريس .

وتاريخ القرون الوسطى هو ، إلى حد كبير ، تاريخ الكنائس . فقد ذكرنا برجال من رجالات تلك المملكة الأخرى التى ينتمى إليها الناس وهى مملكة الله على الأرض .

ففى مملكتى إنجلترا وفرنسا العلمانيّتين (الدنيويّتين) وفى بلاد أخرى كان الحكام الدنيويون الذين يحكمون الناس هم أرباب الضيعة وأمراء الأقليم وأخيراً الملك : هارى او فيليب أو غيره من الشخصيات أياً كان اسمها . أما فى المملكة الروحانية فكان الناس يحكمهم قسيس الأبروشية والأسقف وأخيراً البابا المقيم فى روما .

واندمجت المملكتان كل منهما فى الأخرى ، لأن الأساقفة كانوا فى

الوقت نفسه سادة الأقاليم . وذلك لأنهم اقتنوا مزارع على غرار الفرسان والأمراء . ولقد كان بعض الاساقفة — أمثال أساقفة كولونيا وماينز ودرهام — كان هؤلاء حقاً هم الحكام يحف بهم أبهة الأمراء وسلطانهم . وما هو إلا أمر يصدر عنهم حتى يهرع الناس إلى التجند وحتى تحتشد الجيوش . ولقد كانت بيوتهم قصوراً تغص بالاتباع وجماعات الخدم . وكان الاساقفة في كل مكان هم مشيرى الملك ، نظراً لما امتازوا به من العلم والتجربة والمقدرة . وكان بعضهم من القديسين والبعض من العلماء الاعلام الذين يؤلفون الكتب باللاتينية في الفلسفة والدين والقانون . وكان على كل منهم أن يدبر شئون ضيعات شاسعة تحوى كنوزاً وتضم الأشراف ووكلاء الخراج .

وكذلك كانت حال رؤساء الأديرة . وقد داوم الرهبان البينديكتيون على إتباع شرائع مؤسس ملتهم ، ونقلت جماعات أخرى ، معاصرة أو تالية ، شريعة هذه الملة مع كثير من التزمت . فكانوا يمارسون المزيد من الصيام أو التأمل أو الصلاة أو الصمت أو ساعات العزلة في صوامعهم . ومن بين أولئك الرهبان اللاحقين بنى السسترشيون بيوتهم في الفلوات . ولذا نجد خرائب أديرتهم في شمال إنجلترا التي كانت إذ ذاك مشتتة السكان والتي حدثهم إلى أن يصبحوا مزارعين يربون الاغنام ويتجرون في أصوافها . وخلف الرهبان الكارثوسيون — الذين اشتهروا بورعهم العميق — اسمهم في بيت الرخص والبراءات اللندني القريب من سميثفيلد . وذلك لفظ يشبهه ، بعض الشبه ، اسم المكان الذي بدموا منه : شارترين (بفرنسا) .

وكان الرهبان يلزمون أديرتهم يتعبدون بمعزل عن دنيا الناس الشديدة الحركة . وقد عاشت جماعة الرهبان — التي أسسها ، حوال سنة ١٢٠٠ ، الأسباني سان دومينيك والإيطالي سان فرانسيس مواطن بلدة أسبسي — عاشت هذه الجماعة في الدنيا الشديدة الحركة تبشر الناس وتعمل بينهم . وجعلوا شأنهم شأن الرهبان في قطع العهد على أنفسهم بأن يكونوا فقراء

وأن لا يتزوجوا وأن يطيعوا رؤسائهم . وقد حث سان دومنيك أتباعه على أن يبشروا بالإنجيل ويذودوا عن الحق ضد أولئك الذين قد يضلون الناس بتعاليمهم المبطلّة الأفاكة . وكانوا يلبسون أردية سوداء . ولقد عرف بيتهم ، القريب من النهر في لندن ، باسم ذى بلاك فرايرز (أى الرهبان السود) . وكثيراً ما أضحى الدومينيكانيون رعاة الملاك الشخصيين أو كهان الاعتراف الأخصاء . وأطلق على بيت آخر في لندن اسم ذى جراى فرايرز (أى الرهبان الرماديين) ، نظراً إلى أن الرهبان الفرنسيين كانوا يلبسون أردية رمادية .

وكان سان فرانسيس يذهب إلى أن الغنى ، بل أى شيء يقتنى . يعرض روح الإنسان للخطر . وكان من حوارى الفاقة . فقد هجر ذات يوم ، بغته متجر القماش الذى يملكه والده وتسول شحاذاً يلبس جلباباً رمادياً خشناً ويسأل الناس الصدقات ليرمم بها كنيسة قديمة خربة فى الغابة . وقد خاله الجيران مجنوناً . إلا أن إخلاصه وطيبة قلبه أقتنعهم بأنه ليس رجلاً عادياً . ولم يلبث أن جمع فرقة من الاتباع الغيورين أطلق عليهم اسم « الإخوة الصغار » ، وبث فيهم روح المسيحية التى تنكر النفس وتفيض بالحب . ولم يحدث أن شخصاً — غير من ذكروا فى الإنجيل — قاض حياً أكثر من حبه ولقد تحدث فى مرح عن « الأخت النوم » ، و « الأخ الموت » ، وأوصى بما أوصى به المسيح : « لا تفتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية » .

وكان حواريوه يمشون حفاة الأقدام يرتلون فى مسيرهم ويقيمون على كسر الخبز وثمانلات الشراب . لقد كانوا أصحاب العالم أجمع وجوالين يتغنون بحب الله للناس . وطالما فتشوا عن أعفن الأحياء القذرة ومذابح الماشية ليسكنوا فيها ويقيموا أكوأخهم المتواضعة . غير أنهم — على غرار الفرق المنتقاة من أى جيش — اجتذبوا أقدر المجندين وأشدهم خيرة . وانضم إليهم

رجال المعيون نالوا بعدئذ الشهرة والثراء . وكانوا يعملون في الجامعات ، وما هو إلا القليل حتى أفسحت أكوأخهم المتواضعة المجال لأبنية جميلة من الحجر .

ولقد ألفنا اليوم رؤية مبان عامة من أنواع مختلفة تعقد فيها المجالس والمؤتمرات ليست مع ذلك حصوناً ولا كنائس . أما في القرون الوسطى فقد كانت الحصون والكنائس والأديرة ، كانت المباني « العامة » الوحيدة ، وفيها فقط كان يستطيع الملك أن يستقبل مستشاريه أو يجمع كبار أمراء مملكته وكان بهو قلعته الكبير أو بيت إصحاح الكنيسة أو ردهة الدير ، هو المخصص لشئون الحكم في مملكته . وكان مستشاوره — كلهم تقريباً من رجال الكنيسة كما كان أغلب أعضاء مجالس اللوردات من الأساقفة أو رؤساء الأديرة .

ومجالس الملك شئ " أنشى " من زمن بعيد . ويرجع تاريخه في إنجلترا إلى أيام السكسون . وكان يضم كل من يسرُ الملك اختياره . وفي القرن الثالث ولد نوع جديد من المجالس ، الفكرة الأساسية فيه أن امرأ واحداً يستطيع أن يمثل رفاقه ، أولئك الذين يماثلونه في المرتبة أو المهنة .

وبما أن كل فرسان البلاد لم يكن من السهل جمعهم ، ولا جمع كل مواطني البلدان وكذلك جميع رجال الدين ، فقد اقتصر الملك على استدعاء مثلهم إلى اجتماعات (برلمانات أو مساجلات) في وستمنستر أو أكسفورد أو جلوستر أو أى مكان آخر يتصادف وجوده فيه . وهناك كانوا يجتمعون ويجمع كبار أمراءهم .

ويكون الفرسان والمواطنون « العموم » أى الشعب ، ويكون الآخرون « اللوردات » ، وهذان اسمان ما يزالان يستعملان إلى اليوم .

وقد درج فرسان كل مقاطعة على أن ينيبوا عنهم فارسين كما درج مواطنو كل مدينة على أن ينيبوا عنهم مواطنين كذلك .

وقد درجوا على أن يحملوا معهم شكاوى مقاطعاتهم وبلدانهم التي تتصل بالمظالم . وهذه الشكاوى أو الملتزمات كان يقرؤها رجال الدين الذين يتكون منهم مجلس كهنة الملك . وبهذا يسهل على الملك أن يأمر بسن قوانين تعالج بها الأخطاء والمظالم ، وبعد ذلك يطلب إلى البرلمان الترخيص بفرض ضرائب تساعد — في أغلب الأمر — على الإنفاق على حروبه .

وكان هذا النوع من البرلمانات ينعقد في الشهور الصيفية ، ولم يحدث قط أن امتد انعقاده فترةً بالغة الطول . على أنهم لم يستدعوا إلا في الفترات التي كان الملك يحسبها مناسبة . وكان الفرسان والمواطنون يقومون بنفقاتهم الخاصة ، وكثيراً ما وجدوا في الحضور مشقة . ومن النقط التي تجب علينا ملاحظتها : أن الكنائس كانت لها برلماناتها الخاصة التي تسمى بـ « الجامع الأكليروسية » ، والتي ترخص للملك فرض الضرائب . وفي كل الأعمال البرلمانية كان الأساقفة ورؤساء الأديرة يقومون بأدوار قيادية ، في كنائسهم أو أديرتهم أحياناً .

وكانت برلمانات كهذي ، مختلفة الأشكال ، تستدعى كذلك في فرنسا وأسبانيا للانعقاد .

وفي الكنيسة كانت هنالك مناسبات عديدة يجتمع فيها المندوبون للمشاورة في بعض الشؤون . أما إنجلترا فهي وحدها التي فيها ظلت البرلمانات النيابية تستدعى للانعقاد حتى يومنا هذا . ولقد نطق إدوارد الأول بالعبارة الآتية : « الشؤون التي تخص الجميع يجب أن يتشاور فيها الجميع » . وقد تعود اللوردات الإنجليز ووزراء الملك على هذا ، وأسهمت أشياء أخرى في بقاء البرلمانات بصفة مستمرة . ولقد أطلق على البرلمان الإنجليزي — في أيامنا —

و أم البرلمانات ، وذلك لأن أمماً أخرى نقلت عنه . وكان من حسن حظ الإنجليز أن يعيشوا في جزيرة ويفلتوا من الغزو . كان من حسن حظهم أن تكون لهم حكومة ملكية موحدة قوية على رأسها ملوك يؤمنون بالحكومة العادلة القوية . كان من حسن حظهم الظفر بميثاق عظيم للحريات من الملك چون (هو الماينا كارتا) مع تمتعهم بروح الإخلاق إلى القانون .

وقد تصادمت ، مراراً ، المملكتان الدنيوية والروحية :

كان الباباوات يمتلكون أراضي في إيطاليا وكانوا يحاطون ببلاط كالملوك ، وكان للكنيسة نظامها القضائي . وفي بعض الأحيان كان الباباوات والملوك يتنازعون نزاعاً شديداً . وعندما يحرم البابا من عضوية الكنيسة أحد الحاكين أى عندما يحكم بأنه خارج على ملة الكنيسة المسيحية ، عندئذ يكون رعايا هذا الحاكم في حل من الخروج عن طاعته ويكون في وسعهم أن يشوروا برضاء من الكنيسة ، وهذا ما يسبب له أشد الحرج والضيق . وعندما قضى البابا جريجورى السابع على الإمبراطور الرومانى المقدس هنرى الرابع بالحرمان من عضوية الكنيسة اضطر هذا الأخير إلى أن يستجدى عفو البابا ، ولم يحظ به إلا بعد أن عبر جبال الألب وانتظر ثلاثة أيام خارج حصن كانوسا حيث أقام جريجورى . وليس في وسعنا أن نتصور أن أى حاكم عظيم ، بل أى رئيس وزارة ، يقبل أن يصنع اليوم مثل ذلك .

وقد وقعت أسوأ نتائج مثل تلك المنازعات في القرن الرابع عشر عندما قبض بعض الفرسان الفرنسيين على البابا بسبب نزاع احتدم بينه وبين الملك الفرنسى . ونتيجة لهذا انتقل البابوات إلى أفنيون بفرنسا حيث أقاموا أعواماً طويلة . ثم حدث أن بعض الكرادلة في روما انتخبوا هناك بابا آخر . وكان من دواعى الخزي والفضيحة لكل المسيحيين المخلصين أن وجد

بابوان يدعى كل منهما أنه البابا الحقيقي ويتهم كل منهما الآخر . وانتهت هذه الحالة المحزنة آخر الأمر ولكن بعد أن أضعفت احترام الناس للكنيسة . ورغم كل تلك المنازعات التي يرثي لها شعر المسيحيون فعلاً أنهم جميعاً أعضاء كنيسة واحدة ومدنية واحدة .

ويرى ذلك بمزيد من الوضوح إذا تذكرنا أنه في القرون الوسطى كان يسوع قسيساً إيطالياً أن يسمى أسقفاً في إنجلترا وكان يسوع إنجليزياً أن يصبح مدرساً من علماء جامعة باريس . فلقد كانت جامعات الغرب إذ ذاك دولية حقاً . . تضم كل منها طلاباً من جميع الشعوب . وكانت الكنيسة دولة لغتها اللاتينية التي يتكلمها جميع المثقفين .

وكان أحد أسباب التنازع الكثيرة الوقوع : من الذين ينبغي الاستغفار طاعته ، أهو الملك بوصفه من ملاك الأرض أم هو البابا بوصفه من خدام كنيسة الله ؟ ؟ ولقد ترددت أصدااء نزاع كهذا في كل مكان بسبب الفاجعة التي أدى إليها : عندما حدث أن هنرى الثانى الإنجليزى — وهو ملك سريع الانفعال — خاصم أسقف كانتربرى توماس بيكيت ، تولى أربعة من الفرسان قتل الأسقف داخل الكنيسة بكانتربرى بفكرة أن هذا (العمل) يسر هنرى ، عندما حدث هذا أذل هنرى نفسه بل ترك رهبان الكنيسة يجلدونه . ثم أمسى مزار بيكيت حرماً هاماً يحج إليه .

لقد سيطر المعقل والكنيسة على القرون الوسطى . ومهما يكن فقد كان اعتماد الفارس والقسيس والكاهن والراهب على كد الآلاف من المزارعين والصناع المتضعين الذين أقيمت بيوتهم من الخشب والطين . غير أن جميع الناس كانوا عاجزين إزاء القحط والأمراض التي كانت تقضى عليهم قضاء غامضاً . فلقد يصبح المرء مجزوماً ويتبعد عنه رفاقه . وكانت الحياة قصيرة والموت كثير الحدوث . وكان أخوف المصائب

التي يخافها الناس : الطاعون أو الوباء الذي لم يتخلف قط فترة طويلة
والذي طغى في ١٣٨٤ على كل أوروبا بـ « موت أسود » مبيداً قرى بأكملها
وقاضياً على شخص من كل ثلاثة أشخاص .

وكانت حماية المعتقل وسلوى الكنيسة من الأمور الحقيقية التي تهتم
أسلافنا . وسنعرف الآن شيئاً من حياتهم ، وذلك بالذهاب مع طائفة
منهم إلى ذلك المزار نفسه — مزار بيكيت في كانتربري — في رفقة جوفري
تشوسر أول شعراء الإنجليز .

حجاج من كانتربري

قضى جوفري تشوسري — أحد خدام الملك الإنجليزي ريتشارد الثاني —
أيامه في جمع الرسوم الجمركية أو ضرائب الصوف المقدس فوق مراسي
السفن على نهر التيمز وإلا في الإشراف على إصلاحات مباني القصور الملكية
وأثاثها . أما الأمسيات فكان يقضيها في إعادة سرد الحكايات القديمة ونظمها
شعراً ، وهذا الشعر ما تزال قراءته في متناول أيدينا وإن تكن لغته قديمة
الأسلوب إلى حد ما .

وإنا لنقرأ في كتابه « حكايات كانتربري » ، — الذي كتب حول عام
١٤٠٠ — صورة لرجال عصره ونسائه الذين كانوا يسيرون مزار سنت توماس
بيكيت في كانتربري ، وكانوا حشداً أكثر تنوعاً مما قد نجده الآن إذا ما قمنا
برحلة جماعية . غير أن الحج يسوى بين الناس كافة .

كان على الناحية الجنوبية من جسر لندن في سوٲوارك (خان) تابارد .
وقد انطلق الحجاج من فناءه — في صباح يوم من أبريل مطير بهي —
انطلقوا جميعاً على ظهور الخيل . ورافقهم هاري بيلي مدير (الخان) . ذلك
أن صاحب (الخان) في تلك الأيام كان حقاً مضيفاً يرحب بنزلائه كأنما هم

ضيوفه ويجلس وإياهم إلى المائدة. وكان يبلى رجلاً بالغ المرح جسوراً متزن الكلام . وهو الذى اقترح أن كل حاج عليه أن يقص حكاية لتسلية الجماعة وتهوين الرحلة . ووقع الاقتراح منهم جميعاً موقع القبول ، وهكذا ظفرنا بالكتاب .

قاد الركب صاحب الطاحونة وما زال يوقع لهم على مزار القرية حتى زابلوا المدينة . وكان رجلاً جسيماً غليظ البنية قصير المنكبين عريضاً مكتنز البدن يسعه أن ينفذ من الباب إذا نطحه برأسه . وكان يلبس سترة بيضاء لها قلنسوة زرقاء . وتبعه آخرون وهناك فارس د بالغ الوداعة كامل الصفات ، وكانت صدرته الوقورة الألوان يلطخها الصداً حيث ضغطت عليها السترة الزردية . الوصيف ، ابن الفارس ، وهو أعزب ممتلىء الصحة أجعد الشعر يرتدى ملابس مبهجة الوشى ، ثم فلاح من الملاك أسمر الوجه يرتدى ثياباً خضراء ويحمل فى حزامه حزمة من نشاب الطاووس وفى يده قوس كبير . وبعده دكتور — فى الطبيعة أو الطب — عيائه مصنوعة من قماش أحمر وأزرق سماوى ومبطنة بالحرير ، وكان يعرف مسببات جميع الأمراض سواء أكانت «حارة أو باردة أو رطبة أو جافة» . وضابط قضائى عالم ذو وجه وقور يلبس أبسط الملابس . وتاجر له لحية متفرعة يلبس قبعة من السمور الفلمنكى وحذاءين أنيقين . وفرنجى صغير خفيف الروح أحمر الوجه أبيض اللحية أو قل إنه فلاح ، بيته د يطر لهما وخراً ، . وطباخ يعرف كيف يقدم د خواناً مباحاً ، طبيباً . وكاهن من أكسفورد — أو طالب — حصانه الصغير نحيل كالجاروف يصرف قروش الزهيدة على الكتب ثم يحتفظ بها فى فراشه . ومراكبى من سفينة البضائع د موديلين ، وهى من سفن دار تموث ، وهو بحار سفحته الشمس يعرف الشواطئ جميعاً من هول إلى البحر

الأبيض المتوسط . وقد ركب الآن — بملابسه الخشنة الغزل — ركب حصانه ركوباً غريباً كما قد يركب البحار .

وتبع أولئك بائع غفران أصفر الشعر تملأ جرابه صكوك الغفران المجلوبة من روما : ثم محضر وهو موظف بالكنيسة عمله استدعاء الناس إلى المحاكم الكنسية ، وكان مبقع الوجه مبثوره رغم الأدهان التي درج على استعمالها وربما كان مرد ذلك إلى إخلاده إلى الشراب في أغلب الأحيان . وتلاه متعهد عمله توريد الأغذية لإحدى كليات الحقوق . ثم قفاه عمدة ذو ستر زرقاء وسيف صديء إلى جانبه ، ثم سيدة هي رئيسة دير أنيقة مهندبة اسمها مدام إجلنتين ، وكانت رقيقة الشعور حتى إنها لتبكي إذا رأت فأراً في مصيدة . وجاءت بعدها سيدة أخرى هي « زوجة صاحب حمام عام » وكانت مرحة جريئة غنية كثيرة الترحال . وقد تزوجت خمسة رجال ، الواحد تلو الآخر . وعمرت بعدهم جميعاً ، وكان يسعها أن تغزل كما قد يغزل أي غزال فلبنكي .

ثم جاء ناسك يحب الصيد أكثر مما يحب الترتيل في المصلى ، وراهب درج على الغناء في الخانات يستجدي روادها نقوداً . ثم جاء — على النقيض من هذا — خورى (أى راهب كنيسة) كان يحب جمهوره حقاً ويرشدهم إلى دنيا الله خير إرشاد . وقد صحبه أخوه وهو حراث .

وفي آخر الموكب جاءت جماعة من صناع المدن : بائع سلع صغيرة (خردوات) ونجار وصباغ ونساج وصانع سجاد ، يلبس كل منهم زيه أى البذلة التي يلبسها أرباب حرفته .

ويقدم لنا جوفرى تشوسر أغلب أنواع الشخصيات التي يلقاها المرء في القرون الوسطى ، بين رجال نساء . وكان الأمراء الكبار والأساقفة يسافرون ترافقهم — بطبيعة الحال — مجموعاتهم الخاصة من خدام منازلهم . فمثلاً عندما ركب إيرل أكسفورد إلى لندن ليسكن بيته الواقع في واريك

لين (حارة) كان يركب أمامه ثمانون سيداً في حبل ويدنج العفراء ومن خلفه
مائة من ملاك الفلاحين يلبسون شارة أكسفورد وهي خنزير أزرق مطرز
على ستراتهم . وعندما ركب أسقف هيرفورد إلى لندن احتاجت بطانته إلى
واحد وخمسين فرساً .

أما الملك فكان موكبه الملكي يشمل منادين وسعاة ومجموعات من
المركبات الطويلة وكل حاشيته . وكان منظر سير هذه المواكب خلافاً .

ولنترك الآن حجاج تشوسر المرحلين يحجلون فرحين ، هابطين درب
كينت القديم في طريقهم إلى كانتربيري ولنتحول إلى الكلام عن حياة بعضهم .

الفرسان والشهامة :

دأب الفارس المسيحي على أن يحمي الكنيسة ويساعد الفقير والضعيف
وأن يظهر الشجاعة في الحرب والولاء لسيد المتبوع ويقاوم كل أذى أو
ظلم وأن يكون نبيل السلوك فيتحلى بفضائل الفروسية . والفارس المسيحي
يبدأ ، أول الأمر ، وصيفاً صغيراً يخدم سيده عند تناول طعامه ويسوس
خيله ويرعاها ويحمل أسلحته . فإذا أضحي فارساً طوق بسيف ، وجر
بمنخاسين مذهبين بدلاً عن منخاسية الفضيين القديمين ، وتناول لكمة أو
ضربة على كتفه بسيف عارٍ عن قرابه . وفي بعض الأحيان كان يضع أسلحته
فوق محراب في كنيسة ويسهر في حراستها طوال الليل . وكان درعه ومعطفه -
الذي يغطي وشاح الدرع - يحمل شعاره أو شارته وكان يتخذ لنفسه عنواناً
أو لعله يرثه . وعندئذ يستعد ليثبت أنه فارس صنديد في الحرب أو في ألعاب
الخيل الممتازة (البرجاس) . وكان يتخذ لنفسه مثلاً أعلى : كبار الأبطال
الغابرين من أمثال الإسكندر ويوليوس قيصر وشارلمان وآرثر وجود
فراو دي بويون -

ولقد كان ، قبل كل شيء ، فارساً مسيحياً . فكان في أيام الحروب الصليبية الكبرى ، « يأخذ الصليب » أى يذهب إلى الحروب الصليبية مع رتشارد قلب الأسد أو سنت لويس . ومع أن أيام الحروب الصليبية قد انتهت فإنه كان يسعه مع ذلك ، إذا أراد أن يحارب الترك ، الالتحاق بفرسان سنت جون ومركزهم بيت المقدس ، أو يستطيع أن يحارب البروسيين الوثنيين ، وذلك بالالتحاق بفرسان السيف في ألمانيا الشرقية . وكانت هناك تشكيلات أخرى من الفرسان أو هيئات من النبلاء أسسها فرسان أو أمراء . فإدوارد الثالث ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام ربطة الساق ، وهنرى الرابع ملك إنجلترا أسس طائفة تحمل وسام الحمام ، وفيليب الطيب دوق بورجاندى أسس طائفة تحمل وسام الفروة الذهبية . وكانت تلك كلها جماعات زمالة أو إخاء للفرسان ، لها قواعدها وجلساتها النظامية ومُصَلَّاهَا أو كنيستها الخاصة للعبادة الجماعية .

وكان أهل القرون الوسطى يهتمون كثيراً بتشكيل جماعات إخوان أو زمالة .

أرباب الحرف بالمدن :

وكان هناك نوع آخر من الزمالة ، أكثر تواضعاً هو نقابة الصنّاع . وتضم النقابة كل مواطنى المدينة الواحدة الذين يحترفون حرفة واحدة تكون فيما بينهم « السرالدفين » . مثال ذلك نقابات صنع الخبز والبيرة والشمع والمصنوعات الخشبية (النجارة) . وكانت من أغنى نقابات لندن . نقابة صائغى الذهب الذين درجوا على الاشتغال بأعمال البنوك ، ونقابة صنّاع القماش الذين جمعوا ثروات طائلة من الاتجار بالصوف . وكثيراً ما كانت نقابات المهن تلك — فى لندن وغيرها — يخاصم بعضها بعضاً بسبب نصيب كل نقابة فى حكم المدينة .

وقد قامت خصومات — في أيام تشوسر — بين البقالين والسماكين.
وبين تجار الأقمشة والحريير والسلع الصغيرة (الخردوات) .

وكثيراً ما أدى هذا النوع من المنازعات إلى شغب بين الصناع
وتلاميذهم (أى صبيانهم) ، شغب ينتهى بتهديم الرؤوس أو بالعقوبات
يوقعها عليهم القضاة .

وكان رئيس كل نقابة حرفة ينظم نوع الشغل وساعات العمل . وكانوا
يعاقبون أعضاء النقابة إذا قدموا عملاً غير متقن أو طفقوا وزن
البضاعة . وكانوا يكرهون صانعى الأحذية — إذا أساءوا صناعتها —
على أن يعلقوها حول رقابهم أمام الناس فى الأماكن العامة .

وكانت النقابات تحدد أسعار البضائع ، وتقوم مقام شركات التأمين
وتقدم مساعدات مالية للأرامل واليتامى وأهل المهنة . وكان لكل مهنة
زىّ خاصّ بها ، وبهو يجتمع فيه أهلها ، كما كانوا يتعبدون جميعاً
فى إحدى الكنائس القريبة . وكانت بعض النقابات تختار لنفسها قديساً
حارساً ، مثل سنت هيو لصانعى الأحذية . وكانت كل نقابة تشرف على
قبول التلاميذ الصبيان الذين كانوا يعيشون فى بيوت رؤسائهم سبع سنوات
كى يتعلموا أسرار المهنة . وكان الرؤساء يفحصون عن مصنوعات تلاميذهم
فحصاً ينتهى ، آخر الأمر ، بجعلهم رؤساء فى أعمال المهنة . نعم ، لقد
كانوا يصبحون ، مثلاً ، رؤساء فى صناعة الخبز أو الجلد ، تماماً كما قد يصبح
بعض المتعلمين « أساتذة فى الفنون » . وإذا صادف تلميذاً حظ كبير كالذى
صادف ديك ويتنجتون فإنه هو أيضاً يتزوج ابنة رئيسه ويصبح محافظاً
للمدينة . وكانت فى كل مدن أوربا نقاباتها المهنية .

وكانت فى أكثر المدن أسواقها العادية ، وفى أقلها أسواقها الموسمية ،
وتلك أسواق تقام فى كل عام من « الأكشاك » أو الظلال الخشبية تنصب

لمثل ذلك الغرض . ولقد كانت السوق الموسمية استوربرذج (بالقرب من كبرذج) تقام سنوياً وتستمر ثلاثة أسابيع ويؤمها التجار من كل مناحى أوربا . وكانت توتنجهام تقيم سوقاً موسمية للإوز ، وكانت لندن سوقها الموسمية الشهيرة بسوق سنت بارثولوميو ، وتقام تحت الأسوار الكبيرة لكنيسة سنت بارثولوميو . وكان يفتتحها — رسمياً في كل عام — محافظ المدينة نفسه . وكانت تلك الأسواق تجذب الجماهير كما تجذب ، بطبيعة الحال ، النصابين والمشعوذين والمنجمين وذلك النوع من الدجالين الذين يقدمون حبوباً وأدوية تشفى جميع الأمراض . وكانت المشاجرات والمجادلات العنيفة ، التي تنشب في تلك الأسواق ، تفصل فيها محاكم خاصة تقام على أرض السوق التي كان يطلق عليها اسم مناسب (وهو : دقيق الفطير) ويقصد به : محاكم الأقدام المعفورة . وليس ما نسميه اليوم (سوقاً) غير الجزء المختص بالتسليية في تلك الأسواق السنوية القديمة .

وبدافع حب الأبهة القديم ، تستعد النقابات استعداداً طيباً : فتقسم كل نقابة في لندن بنصيحتها في الرقابة والحراسة داخل الأبواب الكبيرة ، إذ لم يكن هناك عندئذ نظام الشرطة ، مع ضرورة حراسة الشوارع خوف اللصوص وحراسة المنازل خوف الحريق . وكان من أنخم ما يرى في منتصف ليلة صيفية « موكب الحرس ، لشركات نقابات الحرف يقوم باستعراض عبر الشوارع التي كانت تضيئها المصابيح وتبهجها الأعلام والأزهار ، مع إعداد موائد في كل مكان عليها الفطائر وخبز الزنجبيل ، وذلك استعداداً لأولية التي تلى الاستعراض .

وكانت النقابات المهنية تقدم ، في كل صيف ، من فوق منصات على عربات نقل كبيرة متحركة تقف في أماكن معينة معروفة — كانت تقدم مسرحيات يستطيع فيها المتفرجون أن يشهدوا تمثيليات متعاقبة . وكانت المشاهد تقتبس من الكتاب المقدس . فكان صانعو السفن يمثلون سفينة

نوح ، والصاغة يمثلون «سجود الملوك المجوس الثلاثة للطفل في بيت لحم» . وكانت الملابس نفسها تستعمل في كل عام . ولقد درجوا في يورك على أن يُلبسوا يهوذا الأسخريوطى ، في كل مرة ، أردية صفراء ، والمسيح فروة غنم بيضاء وخفين أحمرين . وكانوا يظهرون هيرودوس (وهو ملك اليهودية عند ميلاد المسيح) متبجحاً وضحاكاً كبيراً . وكان مشهد نوح وزوجته يمثل بأسلوب فكاهي . وكانت تمثيلات أرباب المهن أو التمثيلات الدينية تلك ، تبرز حكايات الكتاب المقدس أمام عيون الناس الذين لا كتب . عندهم تماماً كما كانت تبرزها الصور والتماثيل المحفوظة بالكنائس . ولقد كان أسلافنا يحبون الملابس المسرحية والتمثيلات بقدر ما نحبها نحن .

رجال القانون ورجال الدين :

كان المشرع الذي تكلم عنه تشوسر ينتسب إلى أحد دور العدالة الموجودة في لندن . وكان رجال القانون — كغيرهم من الناس — يعيشون مع زملائهم في المهنة . وكانت دور العدالة كأنها كليات يسكنونها ويطعمون بها ويدرسون فيها معاً في رعاية أنظمة صارمة . وكانوا يدرسون ، بوجه أخص ، القانون الإنجليزي . أما في جامعة باريس فكان طلبة الحقوق يدرسون ، بصفة خاصة ، القانون الروماني . ومن أهم ما تفردت به إنجلترا أن أهلها احتفظوا بنوع من القانون خاص بهم . وكان القانون المدني الروماني يدرس في القارة ، وهو أساس كثير من القوانين الأوروبية المعمول بها الآن . وإلى جانب هذين النظاميين القضائيين كان هناك نظام قضائي ثالث وهو شريعة الكنيسة التي كانت سائدة في المحاكم الكنسية .

ولا يذكر تشوسر القضاة ولا مستشاري البلاط الملكي ضمن حجاجه إذ أن الشخصية العظيمة المهيبة التي هذا شأنها كانت أعلى وأعظم من أن تفسر راكبة على ذاك النحو ، وإنما كانت لها حاشيتها الخاصة . فقد يرى الأئمة هذه الشخصية جالسة ، وحدها أو مع زميل أو اثنين من القضاة ،

على منصة القضاء يلبسون أردية قرمزية وشعراً أبيض مستعاراً ولفائف تدثر بها رؤوسهم الحافلة بالعلم . وقد يترافع دكتور القانون في قضيةٍ أمامهم في وستمنستر أو في بلدة ريفية مثل واريك أو نورتش . وعند ما يفد المستشارون المملكيون إلى بلدة ريفية ، ليحاكموا كل من أذنبوا منذ زيارتهم الأخيرة ، يملك الفرع كثيراً من سكانها إذ أن المستشارين المملكيين كانوا متجهمين شديدي التقصّي .

وإلى جانب دكتور القانون كان هناك كاهن من أكسفورد ضمن موكب الحجاج . وهو ما قد نسميه طالباً لم يتخرج بعد .

ولم تقم دور القضاء اللندنية مقام الجامعة قط . نعم كان رجال القانون في الخارج يتمرنون في مدارس الحقوق التي تضمها الجامعات كما في باريس ، أو بولونيا وساليرنو في إيطاليا . ولم يكن في إنجلترا غير جامعتين هما أكسفورد وكمبردج . أما في أوربا فكانت فيها جامعات كثيرة ، اشتهر بعضها بالتخصص في بعض الدراسات : ففي بادوا مثلاً كانت هناك مدرسة طب قصد إليها كثير من الإنجليز للدراسة فيها . ولم تكن الجامعة إذ ذاك مبنىً أو مكاناً ولكن كانت هيئة من المدرسين والطلاب . وكان من المؤلف بين الطلاب أن يتنقلوا من جامعة إلى جامعة للدراسة على أساتذة ذوي شهرة . وكان أولئك الطلاب الجوابون ، من الشباب الذين يتدفقون حيوية وأغلبهم من الفقراء الخليين من الهوم .

وكانوا يحصلون على ترخيص من أحد الأساقفة ليتلمسوا طريقهم . وما يزال بين أيدينا كثير من الأناشيد اللاتينية التي كانوا ينشدونها وهم يدبّون في الطرقات أو يجلسون في الحانات المترامية على جانبي الطريق .

والأصل أن يكونوا من الكهنة أو خدام الدين ثم يتدرجون حتى يصبحوا من القساوسة . وبما أنهم كانوا الوحيدين الذين يعرفون كيف يقرأون ويكتبون (اللاتينية وهي أهم ما كان يستعمل في الكتابة من لغات) فقد كان كل من يستطيع أن يقرأ أو يكتب يسمى كاتباً . وعلى ذلك بقي لفظ « الكاتب » إلى يومنا هذا يطلق على كل من يكسب عيشه من الكتابة ، وكان أغلب قراءاتهم وكتاباتهم يتصل بالدين . وكان أسمى ألوان الدراسة : علم « اللاهوت » أو دراسة كل ما يتصل بالله . وكانت هناك — إلى جانب الكتاب المقدس ، وهو الكتاب الذي ترجمه سنت جيروم قبل القرن الرابع بوقت طويل والذي سمي بالـ « فلجيت » أي النسخة اللاتينية للكتاب المقدس — كانت هنالك كتب كثيرة كتبها أساقفة المسيحية الأولون مثل سنت كلينت وسنت أوجستين . وكان أولئك يلقبون بأباء الكنيسة . ثم كانت هنالك الكتب اللاتينية التي وضعها عظماء مدرسي الجامعات ، وأعظمهم جميعاً سنت توماس أكيناس . كما ترجمت إلى اللاتينية كتب أرسطو الإغريقية القديمة . غير أن الترجمة لم تكن على خير وجه . ومع هذا فقد أحلت تعاليم أرسطو محل الاعتبار الكبير لأنها حكمة كبير فلاسفة الدنيا القديمة . وقد وصلت إلى المسيحيين بعض المعلومات عن مؤلفاته عن طريق الترجمة العربية التي قام بها علماء من المسلمين .

وكان بعض العلماء يدرسون الفلك الذي كانوا يزعمون أنه ينبيء بالمستقبل من واقع حركات الكواكب والأبراج . وقد حاول البعض أن يوجد « حيز الفلاسفة » (أو حيز الكيمياء) الذي يحول المعادن الرخيصة إلى ذهب . وقد درس نفر قليل جداً من العلماء — مثل الكاهن روجر بيكون الذي تخرج في أكسفورد — درس البصريات والعلوم الرياضية دراسة جدية . وكان كثير من العلماء العرب يجيدون العلوم الرياضية . وكان أشد ما يعوق الدراسة — بطبيعة الحال — صعوبة الحصول على الكتب لأن كل كتاب كانت تنبغي كتابته باليد من أوله إلى آخره .

وكان أحد معوقات التقدم العلمى ذبوع اللاتينية فى كل الأغراض ، وكانت لغة أهل العلم جميعاً ، وكانت القداسات الكنيسية ينطق بها ويتغنى بها باللاتينية . وكذلك كانت تعلن بها البلاغات الملكية . وكانت البرامات (الرخص) والقوانين تكتب بها . وقد استعملها أهل العلم فى مجادلاتهم ، كما كتب بها بعض الكتب النفيسة مثل « محاكاة المسيح » لمؤلفه توماس كمپيس . غير أنه عندما يستخدم أهل العلم جميعاً لغة غير لغتهم الأصلية فليس لنا أن نأمل ظهور كثير من الكتب العظيمة .

ولسكن حول سنة ١٤٠٠ وجدت طائفة آخذة فى الإزدياد من الكتب التى تتصل بالعبادة والقصص والشهامة ومن الشعر ، مكتوبة باللغات التى كان يالفها ويتحدث بها غرب أوربا . وكانت هنالك دائماً قصص شعرية وأغان . وما يزال بين أيدينا قليل مما خلفه لنا هذا النوع . غير أنه لم يكن بد من فقدان مجموعة كبيرة منه . ولسكن حول نهاية القرن الرابع عشر وجدت كتب باللغات الإيطالية والفرنسية والإنجليزية . فهناك ، بالإيطالية ، ملحمة دانتي « الملهمة (١) الإلهية » التى تحوى مشاهد من الجحيم والمطهر (٢) والجنة . وهناك ، بالفرنسية « الحوليات » التى كتبها جان فرواسار عن فرسان فرنسا وإنجلترا فى حرب المائة عام . وهناك ، بالإنجليزية « قصص كاتربرى » تلك التى وضعها جيو فرى تشوسر والتى سبق الكلام عنها .

وقد طويت فى مكتبات بعض الأديرة كتب قديمة كتبت باللغتين الأنجلوسكسونية وبالفرنسية القديمة اللتين لم يقرأهما أحد . وهناك برامات (رخص) وقوانين أنجلوسكسونية قديمة كانت مخبأة فى علب وصناديق من الخشب البوط (القرو) . ونحن نعرف تلك الأشياء الآن . أما هل

(١) الكوميديا .

(٢) المطهر (بفتح وسكون) مكان تطهر فيه أنفس الأبرار بعد موتهم قبل دخولهم الجنة .

استطاع أى راهب أو كاهن محب للاستطلاع أن يقرأها أو هل اهتم بها أى امرئ على الإطلاق فى ذلك الوقت ، فهذا ما لا علم لنا به .

المزارعون :

ومن سائر حجاج تشوسرى يمكننا أن نكون ثلاث مجموعات : (١) الفلاح والطحان والعمدة (٢) راعى الكنيسة والناسك والراهب وبائع الغفران ومحضر المحكمة الكنيسية (٣) النوتى .

لقد كفل الفلاح للعالم أجمع البقاء . عاش فى كوخ ذى إطار من خشب مرقع بالأغصان المفصورة والطين مسقوف بالقش أو البوص . كان يطعم على الخبز الخشن ولحم الخنزير المقدد والزبد والجبن والعسل الأبيض والمذر (وهو شراب يشبه الجعة أو البيرة) والفاكهة والمكسرات ، وكلها من إنتاج أسرته أو مجاوريه . وكان لباسه من صوف ينسجه النساء فى البيت ، ومداسه من صوف أو جلد يصنع فى البيت . كان يلبس المشلح (ويشبه ثياب السيدات) . والقدر من الضوء الذى كان يحتاج إليه مبعثه سمار الحصر تحشر فى مصباح . أما قناديل الزيت وأما الشمع فكان ترفاً . وكان مسكنه ذو الغرفة المفردة يؤوى بهائمهم وغنمهم فى أيام الشتاء القارسة الموحجة ، هذا بعد تثبيت عارضةٍ عبر الكوخ . وكان سريره صندوقاً خشبياً يمتلىء بالقش . وكان دخان نار الخشب الدائم الاحتراق — المنبعث من المدفأة التى تتوسط كل بيت — يتسرب من ثقب فى السقف .

وكان التعاون بين أهل القرية بالغاً مداه سواء فى الفلاحة وتبادل السلع والعمل . فكان أمراً محتوماً أن يوجد فى القرية الواحدة أو فى القرية التى يجاورها : الحداد والنجار والحذاء والنساج والطحان . وكل أولئك يدين بالطاعة لسيد الضيعة . وكان هذا يعيش فى إيوانه الخشبي المكون من حجرتين أو ثلاث تتبعه عن كشب منه : الأنبار ومباني الـ (دوار) .

وإذا كان سيد الضيعة غنياً جاز — بطبيعة الحال — أن يعيش في حصن أو في بيت ضيعة محصنة ومبنى بالحجر والقرميد. وكان كل الفرويين يدفعون الأتاوات بالعمل له أو بتقديم الغلال والبيض والسملك والشهد وما إلى ذلك أو بالأمرين معاً. ومن الجائز قطعاً أن يكون سيد الضيعة رئيس دير. وفي تلك الحالة يسلم العمل والمدفوعات إلى وكيله المكلف بإدارة أراضى الدير.

وكان من دواعى راحة الجميع أن يقسم العمل تقسيماً ائده حسن الإدراك، فواحد يعنى بالخنازير فى الغابات، وثان يلتفت إلى الماشية، وثالث يرعى الغنم. وكان لكل فلاح أن يرسل سائمته وشياته ترتع فى الأرض العامة وخنازيره فى الغابات وأن يحتطب حتى يستكفى. وكان خير أصدقائه — الثيران — يحملون أثقاله، وهى صغيرة وبطيئة وصابرة. وقد درجوا — عند الحرث — على أن يستخدموا ثمانية منها تُشد معاً إلى أنيار (جمع نير) كل بهيمتين تساق بمنخس يستحشها.

وكان الحصان ينقل الناس إلى الحرب والحج، وإليه لحىوان نفيل. وأمسى من يجيد ركوبه سيد أقرانه، لأنه يعد فارساً. ولقد كست الغنم الناس وقدمت عملاً دائماً للنساجين وأمدت تجار البوف بالثراء. أما الثور الصغير الأعجف البادى العظام فكان واسطة كسب العيش، إذ أنه لم يكد ينقطع عن العمل تحت النير عبر الفدادين وصاحبه يرشده ويستحشه. وهو خير أصدقاء الفلاح يجر له المحراث ويجرف له بالزحافة منذ قرون ويساعد فى تشكيل الأرض. « وماذا يجنى من كل تلك المدرات الطينية التى يقلبها بسكين محراثه رأساً على عقب؟ ». كتبت تلك الكلمات فى القرن الأول قبل الميلاد بيد الشاعر الرومانى فيرجيل وفى وسعنا أن نجيب عن السؤال بتسميته « أخانا الثور » وبذكره مع عرفان فضله.

كان لأهل القرية ثوران أو ثلاثة تعمل معاً فى الحرث. وكانت أراضيهـمـ

مقسمة إلى رقع مفردة ، كل منها (إيكير) عرضه ٢٢ ياردة وطوله ٢٢٠ ، وقد دأبوا على نظام « الأرض المراحة » . فكانت تلك الرقع تقسم إلى ثلاثة « حقول » . ولم يكن الحقل في تلك الأيام رقعة صغيرة مسورة بل كان رقعة عريضة من الأرض العراء فكانوا ، في كل عام ، يتركون منها حقلاً يستريح ويستخدم لرعى السائمة ويستعيد خصبة . وربما ملك كل فلاح نحو آ من ثلاثين رقعة مبعثرة بين رقع رفاقه ، وبذلك يأخذ كل منهم نصيبه من الأراضي الطيبة والضعيفة .

وفي الصيف كانت الحياة بهيجة بقدر كاف أما في الشتاء فنظراً إلى قلة الطعام الطازج وإلى شح أنواع الخضرة الكثيرة التي نزرعها اليوم كانت الحياة يكتنفها الضيق ، إذ كانت الماشية عرضة للموت بنسبة كبيرة بسبب قلة العلف . وكذلك كان إنتشار المرض كثير الاحتمال كما أن شبوب الحرائق كان كثير الاحتمال أيضاً . وإذا تصادف أن ساء الجو في أى فصل من فصول السنة وأن شح المحصول ، تعرضت البلاد للجوع .

أما عن الآنية فكان القرويون يستعملون صحافاً (أى قصاعاً) خشبية ونخاراً خشناً وهُدَى وقروناً للشرب . وأما عن الأثاث فقد استخدموا الكراسى غير المسندة والمناضد الخشنة . وكانت المهارة الزراعية تظهر في الحرث والبذر وتمهيد الأرض وتكسير مزارعها بالمطارق وفي ضم المحصول ودق الحنطة وغربلتها وتخزينها وطحنها لتحويلها إلى دقيق . وكانت المهارة تبدو كذلك في تسقيف البيوت بالغاب وإقامة السياجات وفلق القصب والخشب لصنع الحواجز المشابكة والحصد بالمنجل وجز الغنم وتقطيع الأشجار وتشذيبها بالمقشرة (أى القدوم) . وكان في الأديرة والمدائن رجال يصنعون الدروع المزرودة ويصوغون الجواهر والميناء (وهو طلاء خزفي ثمين) والخواتم والمحابك (البوكلات) ومشابك الصدر (بروش) ومقابض السيوف وينقشون على الخشب والحجر . وكان صنع الخبز والبيرة ودبغ

الجلود والطحن والنسج والحدادة من المهن الشائعة ، وكان بعضهم يصنع السلال ويجدل الثمار حيث يكسو شجر الصفصاف مجارى الماء أو حيث ينمو في المروج التي تغزر المياه فوق أراضيها . وكان سكان الأباطح يقضون أوقاتهم في تربية الدواجن ، كما أنهم تعلموا كيف يكندسون البيط (المكون من المواد النباتية القديمة المتحجرة) ليتخذوه وقوداً . وقد استخرج بعضهم الحديد من غابة (دين) ومرج سسكس ، والرصاص من دير بي شير وتلال منديب ، والصفائح من كورنول . وكان العمال يجمعون الملح من آبار الماء الأجاج في تشيشير وينقلونه عبر الريف فوق ظهور الخيل على طول الدروب التي أطلق عليها اسم « دروب الملح » . وفي الغابات المنبثة بكثرة كان حذاقو الفحم الحشبي يقومون بمباشرة فنههم الفذالعجيب وذلك بتسكديس أكوام لا حصر لها من الغصون ويغطونها بمدر من الطين ويمضون أياماً كثيرة في تحويلها — على مهل — إلى فحم بحيث يمتنع خطر أى انبجاس للهب . وقد درجوا على أن يقيموا لأنفسهم من الغصون أكواماً صغيرة تكاد تماثل تلك التي كانت تقام في العصور الحجرية .

ولقد كانت الأديرة الكبيرة — لدى البسطاء من الناس في كل الكفور تقريباً — بيوتاً للمحبة والعون . أما لدى غيرهم في سائر البقاع فكان الشاهد الوحيد على الديانة المسيحية هو كنيسة الأبروشية ، وفيها كان القسيس يبارك الخبز والنيذ في القداس ، ويتزوج الباس ويعمدون أطفالهم في حوض المعمودية ، وإلى جوارها يرقد أبائهم وأمهاتهم في مقبرة الكنيسة « أرض الله » . ولقد بقي — بعد الوثنية — بعض مخلفاتها الأثرية كالتعاويد والرقى والتائم السحرية التي يبيعها الباعة المتجولون ، وكأيقاد مشاعل الزينة في عشية سنت جون ، وكالا اعتقاد في الساحرات والعقارب . أما الكنائس فكانت مراكز الحياة الريفية . ففيها كان يحتفل بالأعياد تقدم فيها — بوفرة — الفطائر واللحمة . وكان الغلمان المجدون يتلقون العلوم والآداب جالسين في

السقيفة إلى جوار القسيس الطيب — مثل قسيس تشوسر —
زعيم قومه ومطمئن قلوبهم .

ولقد كانت أولئك الفلاحون أميين لا يعرفون شيئاً عن التاريخ
والجغرافيا ، ويعيشون حياة خشنة . فكان القسيس يقص عليهم قصة عيسى
الذى ولدته مريم فى الناصرة ، وهى قصة طفل فقير ولد فى مذود (أى
طواله) وأضحى واعظاً طواوآ يحكى حكايات رمزية عن بعض الزراع وعن
أناس وقعوا بين اللصوص وعن مزارع الكروم وحفلات الزواج وعن
وكلاء خراج ظالمة وعن الخبز والخيرة والحصاد والرعاة وعن أبناء ضالين
وبعض زارعى الكروم . فإذا أصغوا إليه فهموا تلك المسائل على طريقتهم ،
تبعاً للحوادث اليومية البسيطة التى تقع فى حياتهم الخاصة .

الكنيسة :

كانت الكنيسة مركز حياة الكافة ، وكانوا يدفعون لها الضرائب
أود العشور ، غلالاً فى بعض الأحيان . وما زلنا نرى ، إلى الآن ،
الأنبار الفسيحة الأرجاء التى كانت الغلال تخزن فيها . وكانت هالك محاكم
كنسية تنظر فى أمر غرق السفن أو تحيطمها وفى النزاع على الوصايا
والزواج . وقد درجت الكنيسة على استخدام بعض ذوى المقدرة من
القانونيين والكمنة لياشروا اختصاصات الملك ، كما أن الغالبية العظمى من
وزراء الملوك فى القرون الوسطى كانت من الأساقفة . ودرج الناس على أن
يحجوا روما وبيت المقدس ومزارات : سنت جيمس فى كوه پوستلا
بإسبانيا ، وسنت توماس بيلت فى كانتربرى ، والعذراء فى والسنجهام
بنورفولك . وكانت الكنيسة — بالنسبة لحياة الناس الخاصة — مرشدهم
وسكينة قلوبهم . وربما تغالبهم قوى الشر ، فينصت القديسون لصلواتهم
وتصير نفوس الصالحين بين يدى الله . وكان كل أمرىء — إذا جاء أجله —
يطمع فى أن يسمع صوت القسيس يقيم صلاة السر المقدس . فكان القادرون

منهم يتركون للقساوسة مالا ليقيموا قداساً لإسعاد أرواحهم . على أن تلك القداسات كان يقوم بها يومياً ، في الأبروشيات والكنائس ، قساوسة خاصون بالصلاة على أرواح الموتى .

وبسبب حياة الدين المسيحي تلك ، أقيمت الأبروشيات والمباني الكبيرة للأديرة .

وقد حل عقد الرومانيين المقوس مشكلة تسقيف الفتحة الواسعة في أعلى البناء . ونال هذا الحل تقدماً في قبة أو في قبر كنائس الإمبراطور جستينيان وبخاصة في كنيسة المدهشة ، كنيسة الحكمة المقدسة . وبعد هذا أخذت كنائس الغرب الكبرى تبنى على الطراز الرومانى أى أنها أقيمت من صفوف طويلة من العقود المستديرة تحمل سقفاً مقبوا مستديراً . وقد بنى كثير من أديرة إيطاليا وبلاد الراين على هذا الطراز ، الذى استخدمه النورمانديون ، وأهم ما يميزه العظمة والضخامة .

وإن تأثير ما نسميه بـ « الطراز القوطى » ليعتدله في العظمة ولكن مع مزيد من الروعة . وقد استخدم هذا الطراز — أول ما استخدم — في كنيسة سان دينى بباريس عام ١١٤٠ . وتمسكنا رؤيته اليوم — على سبيل المثال لا الحصر — في سنت شابل أى (المصلى المقدسة) بباريس وفي أبروشيات أورفييتو وشارتر ووستمنستر أبى وسولسبورى ، وقد أكثر البانون من العقود المدببة التى ترتفع من كل عمود على هيئة تحاكي العناقيد وتنتشر وتتقاطع على شكل صليب لتشكل هيكلًا من الأضلاع الحجرية ترتكز عليها تربيعات السقف الحجرية . وكانت جوانب الأقبية الضخمة ، المكونة من المنقوشات الحجرية الرشيقة ، تثقب فيها نوافذ من الزجاج الملون . فأهست في جملتها تشبه قفصاً حجرياً ذا أشرطة من الزجاج الملون معلقة في الفضاء كالمصباح المدهش المرصع ، . وبدلاً عن الركائز أو الدعامات الراسخة القديمة المقامة خارج جدرانها أخذت المباني القوطية الطراز تستخدم

الدعامات الطائرة (أى : الخالصة الحرة) ولقد كان مجموع العمل ، الذى أنجزه البنّاءون المجدون ورجالهم ، بالغ الضخامة . ذلك أن كل حجر ، على حده ، كان يلزم قياسه وتشذيبه ودفعه إلى مكانه ، فوجب رفع مئات الأطنان إلى علو كبير وموازنته فى مهارة فوق تلك الاعمدة الرشيقة والجدران ، كما تحتم تشغيل عدد كبير من الصناع المهرة الآخر قبل أن يبلغ العمل نهايته ، كما اقتضت الحال ايضا استدعاء الفنيين على اختلاف فنونهم لزخرفته .

ونقشت قصة المسيح على الحجر ورسمت على الجدران ووضحت فى الشبائيك الملونة . وقد نقش البنّاءون نقوشاً أنيقة - كرموس ووجوه ودواب وملائكة وشياطين - وذلك فى أطراف الحجارة التى تصادف بروزها من الجدران . وكانوا يغطون السقائف الغربية بتماثيل الأنبياء والقديسين والملوك والملكات والقديسين والبطارقة بل بمشهد كامل ليوم الحشر . بل إن الدعام كانت تحمل قباباً مستطيلة مرتفعة مزينة بنقوش ، وكانت بها فجوات لتماثيل القديسين . ولقد قدم النجارون وقاطعو الزجاج والحدادون والنقاشون والنساجون وصائغو الذهب وصائغو الفضة ، قدم كل أولئك خير ما فى مقدورهم من عمل ، إذ كان أهم هدف لآية مهنة هو زخرفة الأبنية . وكانت الحجب الخشبية المنقوشة وكراسى المرتلين غير المسندة ، والظلال والحجرية المحلاة كما قد تحلى الـ (دنتلة) ، والقضبان والبوابات المصنوعة من الحديد المشغول ، والطنافس المزركشة بالزاهى من الألوان الذهبية والأرجوانية والخضراء والزرقاء ، والأوانى الفضية والمذهبة ، والصور والنماذج الملونة المائلة فوق الجدران - ينير عليها جميعاً الضوء السهل المستمد من مجموعة كبيرة من الشمع - كان كل هذا يوحى للناس بمعنى لديهم غامض رهيب . وكثيراً ما كان وقع أقدامهم يطلب إسكاته ليحل محله الخفيف الصادر عن العصائب الجافة - من خضراء ورمادية - التى تنتثر على الحجارة .

وكان القداس يقام فى كل يوم ويحضره الملوك والأمراء ، وقد تطور

معنى كلمة « القُداس » حتى أصبح معناه توقيتاً يومياً معيناً ، كما يعنى
السر المقدس .

وكان الغناء — الذى يصاحبه الأرغن — غناء بسيطاً تتبع إيقاعاته
اتزان الألفاظ اللاتينية . وكان يبدأ بفواصل غنائى يشترك فيه مغنيان أو
أكثر ولكن ليس على (نوتات) موحدة . وقد ابتدع إنجليزى — اسمه
جون دانستابل — فن كتابة طبقات لأصوات مختلفة تغنى على (نوتات)
مختلفة وتحرك بحيث يستقل كل منها عن ما عداه ، ويتطور هذا ، نشأت
موسيقانا الحديثة وفى أواخر القرون الوسطى تطورت الموسيقى فى سرعة
بالغة . والواقع أن هولاندياً كتب نشيداً بـ ٣٦ طبقة من الأصوات .

البجارة والرحالة

ليس هناك أدنى شك فى أن البجارة كان لهم — على ظهر القمالة المائية
موديلين — أساليب فى الغناء يختلف كل الاختلاف عن أساليب غيرهم .
فلقد كان البجارة دواماً من الناس الذين يجيدون الغناء ، ولم يخالفهم فى ذلك
بجارة دارتموث فى عهد تشوسر وكان بجارة الأقاليم الغربية من أكثر البجارة
جسارة . فلقد كان بحار تشوسر فى شجاعاً كأهل بلده . وذلك الفقى هو هارى
باى الذى ذهب بوازع من نفسه ليحارب ملك أسبانيا .

وهناك مجموعة من البلدان تستحق أن ينوه بها فى صدد السفن والبجارة
هى الموانئ الخمس ، وكانت تلك : دوفر ، دومنى ، ساندوتش ، هيبستنجس ،
هيث . وقد أضيفت إليها فيما بعد . وتشلسى ، راي . وكان على تلك البلدان
أن تعدّ سفناً تحمل كل منها طاقم بجارة كامل لبحرية الملك . وكانت الموانئ
الخمس بالغة الأهمية إلى حد أن أقيم لها محاكم خاصة تقتص من اللصوص
وسفاكى الدماء وتفرض ضرائب لتقام بها حواجز الماء . فإذا بذلت جهدها
على أكمل وجه وسعها أن تبنى ٥٧ سفينة قوامها ١٣٠٠ بحار . وكانت السفن

تصنع من شجر البلوط (الأرو) وهى من نوع المقالة المائة ذات السارية (الصارى) الواحدة والشرع الواحد . فإذا قامت حرب جهزت بهرج أمامى وبرج خلفى وبمقرب حربى فى أعلى ساريتها . وكانت مساحتها تخصى بالدنان (البراميل) أى بعدد دنان نبيذ يوردو إلى يسعها حملة . وكانت تلك هى السفن التى طليت وخفقت فوقها رايات الشعار المثلثة وحملت الملكين الإنجليزين ، إدوارد الثالث وهنرى الخامس ومن لاذ بهما من فرسان ونبالة ، وعبرت بهما إلى نورمنديا .

وكان أولئك جميعاً من أهل الجزر . وكانت أعظم الدول البحرية فى القرون الوسطى ، البندقية والتجار الألمان فى العصابة الهندسية (مجمع دولى للتجار) .

ولقد حارب تجار البندقية الأتراك كما بادلوهم التجارة . فاشترى الفراء والقنب (نبات الخيش) والسجاجيد والحرير والجواهر والمعادن الثمينة والبن والسكر والتوابل والعقاقير من تجار البحر الأسود اليونانيين ومن التجار العرب فى مصر وسوريا . وفى الناحية الغربية أبحرت غلايينهم — ذوات الساريات العالية — إلى مياه سوداميتن والتميز لتقايض على بضائعها بأصواف إنجليزية وإهاب (جلود حيوانية غير مدبوغة) وصفيح وقد وصلت شبكة تجارتهم الغنية من البندقية — بالبر ، عبر ممرات الألب — إلى مدائن جنوب ألمانيا . وإلى بلاد الراين وفى الطريق كان على الأفويه (أى التوابل) الغالية أن تدفع ضرائب لكثيرين من البارونات اللصوص الذين كانت معاقلمهم تعبس منحدره من قمة تل إلى ارتفاع هو قاب قوس فوق الطريق العامة التى يمر على طولها رتل من الخيل المحملة . ولا عجب إذا ارتقت أثمان التوابل الشرقية ارتفاعاً كبيراً فى أسواق أنتورب (أنفرس) أو كولونيا أو باريس أو لندن .

وفي الناحية الشرقية كانت تجارة البندقية تصل عبر البحر — بحر الدنيا القديمة الكبير — إلى أراضى الشرق القديم الفسيحة وإلى البحر الأحمر عبر وادى مصر . وكانت قوافل الجمال والحمر والخيل تسافر عبر جبال آسيا وسهولها ، وكانت السفن العربية تسبح بسرعة أمام رياح البحر الأحمر الموسمية ، وبذلك استطاعت أن تبلغ الهند وجزائر الهند الشرقية بل موافى البلاد الصينية التى تشبه الخرافة . ولا شك فى أن نفراً قليلاً من المسيحيين المجازفين قد ارتحلوا إلى تلك البلاد الغريبة الشاذة .

ولقد وصلت إلى علمنا معلومات عن رهبان ذهبوا إلى التتار فى مهمة تبشيرية . ذهب أولهم فى سنة ١٢٥٠ بعد أن أسس سنت فرانسيس جمعيته «صغار الأخوة» بوقت غير طويل جداً . وبين ١٢٥٠ و ١٣٥٠ شق أولئك المجازفون الجسورون طريقهم ، باسم المسيح ، عبر السهل الموحش — الذى يغطيه الثلج — ليعيشوا مع فرسان التتر ورعاتهم . وكثيراً ما ركبوا ثلاثة أيام متتابة دون أن يروا إنساناً واحداً . وكانوا ينامون فى العراء أو فى أكواخ حقيره ، ويعيشون على الضأن المسلوق ومرق الضأن ، ويشربون لبن الحـيـجر (أى أنثى الخيل) المختمر . وقد وصل أحدهم — بعد أن ركب ٥٠٠٠ ميل — إلى بلاط الخان (الأمير) الأكبر فى كاراكورام حيث يسكر كل امرئ ، فى وقت بالغ القصر ، من خمر مصنوع من الأرز وحيث وجد ، لشدة دهشته ، صائغ فضة من باريس وهو ماستر ولیم الذى سبق أسره فى حملة تتارية والذى كان يشتغل عندئذ بصياغة الفضة للخان الأكبر ! وبعد ذلك بوقت ما وصل إلى الصين نفسها عن طريق الخليج الفارسى رهبان من نعرف أخبار رحلاتهم ، ووجدوا رهباناً فى الشرق الأقصى بل فى بكين ، فى بلاط قبلاى خان .

وخير حكاية عرفت هى تلك التى تحدثنا عن رحلات تاجرین من البندقية لقبهما : آل پولو : بدأ نيقولا وأخوه مافيو رحلاتهما عام ١٢٦٠ ،

وقد تعلمنا كيف يتكلمان لغة التتار ويتوددان إلى قبلاى خان الذى أرجعهما
لكى يعودا بمائة من القساوسة المسيحيين ، وهذا لم يعد بطائل ولكنهما
رجعا إلى الصين بالابن الصغير لنيقولا : ماركو بولو ، وقد تساق ثلاثتهم
إلى « سقف الدنيا » (هضبات پامير وهضاب التبت العالية) وبلغوا بلاط
قبلاى خان بعد رحلة دامت ثلاثة أعوام ونصف .

حدث هذا فى سنة ١٢٧٥ ، وحظى ماركو وأبوه وعمه برعاية التتار
وقاموا برحلات فى أنحاء الشرق كافة بوصفهم سفراء الخان . وعادوا إلى
وطنهم يحملون رقاعاً ذهبية ، أى جوازات سفر ، تيسر أمور رحلاتهم عبر
آسيا ، ووصلوا إلى البندقية فى سنة ١٢٨٥ بطريق البحر إلى جاوه ثم إلى
الخليج الفارسى . ولم يصدق أحد حكايتهم حتى شقوا جلود ضأنهم النترية
وسقطت منها ، متناثرة ، يواقيت حمراء وزرقاء . وأخيراً أنبأهم ماركو
بحكايته التى أصبحت واحداً من أروع كتب الرحلات فى كل العصور .

ونحن أسعد حظاً من الناس الذين عاشوا فى عصر ماركو بولو أو عصر
تشوسر إذ أننا جميعاً نستطيع أن نقرأ كتابه . وما الناس الذين استطاعوا
قراءته عندئذ غير أولئك الذين أسعدهم الحظ إلى درجة استطاعوا معها أن
يحصلوا على نسخة خطية منه .

ولنعد إلى البندقية مدينة الفصور الرخامية ، تلك المدينة التى اجتاز دوحها
أو دوقها الاحتفال بتزويج مدينته إلى البحر وذلك بألقاء خاتم فيه . ولقد
كانت البندقية تحصى سفنها بالمئات ، وفيها الجروم (أى الزوارق الكبيرة)
والجالصات (وهى ضرب من السفن الكبيرة) والغلايين وبيأس تلك
السفن كانت (البندقية) سيدة البحر الأبيض المتوسط المزهوة . وكان
يحكمها تجارها . وقد حكمت أكثر من عشر مدن فى شمال إيطاليا ، هذا إلى
احتفاظها بمستعمرات فى الجزر اليونانية . وكان أبناؤها أغنياء أسخياء يلبسون

أنخر الملابس ، ومبانيها مزخرفة بالتماثيل البرونزية وبالفسيفساء وأنواع
الرخام الزاهية الألوان وبالحجر السماقي (البورفيرى) . لقد كانت (البندقية)
مدينة قنوات وبحيرات ضحلة « بولخ فى تجميلها وسط البحر ، كمدينة صور
القديمة . وتقارير سفرائها — الذين مثلوها لدى جميع الأمراء والملوك
الأجانب — ماثلة بين أحسن مسجلاتنا التاريخية .

وقد عرف البحار الذى وصفه تشوسر سفائنهم كما عرف جيداً البحارة
الشمالين للبلاد الهندسية ، وكانوا زملاء من التجار يعيشون فى بلاد الراين
ومدائن بحر البلطيق . وكان أولئك الناس يتاجرون فى الأخشاب والفراء
المجلوبة من بلاد الشتاء الشمالية وفى السمك المملح والمقدد (البكلاه) وفى
النحاس السويدي والمصنوعات الصوفية ، وكانوا — كأهل فينيقيا — يشتغلون
بأعمال البنوك ويقرضون ملوكاً ، مثل إدوارد الثالث فى إنجلترا ، مالا كان
يعوزهم ليغزو فرنسا . وكانوا يحتفظون بهوكالات تجارية ، أو فروع محصنة
فى المدائن الأجنبية حيث كان ممثلوهم يعيشون عيشة تقرب من عيشة الرهبان
ذات النظم المتزمتة التى تقفل الأبواب فى وجوه جميع الأغراب . وفى
لندن — حيث كانت وكالتهم التجارية تسمى بالميزان الرومانى (أى القبائى)
— كانوا يعرفون بأهل المشرق .

ومثلما كان أهل البندقية يعرفون خصوم النصرانية فى شرق البحر
الأبيض المتوسط كان البحارة والتجار الهنسيون يعرفون أهل سهول البحر
البلطيق الوثنيين حيث حاربت جماعات الصليبيين الألمانية — فرسان التيوتون
أو فرسان السيف — الروسين المتوحشين ، واستولوا على أراضيهم .

وقد غيرت الحروب الصليبية ومخاطر رجال البحر مصائر المسيحية
الغربية فى خلال القرن الذى تلا عهد تشوسر وهو أكبر قرن للغامرات
والاستكشافات ولرجال الحروب الصليبية والبحر ، ألا وهو القرن الخامس .

حروب الصليبي :

شبت حروب الصليب في كل من طرفي البحر الأبيض المتوسط : في أسبانيا وفي أقطار الإمبراطورية اليونانية . ولم يفلح صليبيو الغرب قط في استرداد شبر واحد من فلسطين بعد إخفاق الحرب الصليبية الثالثة التي شارك فيها رتشارد قلب الأسد . فلقد أخذت قوة المسلمين تزداد في نموها وفي تهديدها للإمبراطورية اليونانية . وانتهى كل بأس الملوك والفرسان المسيحيين وكل جراحهم وآلامهم إلى لا شيء . لأنهم تنازعوا فيما بينهم ولأنهم أعوزهم المدد من بلادهم . وتعب رجال الممالك الغربية وانصرفوا عن الاهتمام إذ كان لديهم ما يشغلهم عن الحرب ، ولم يكن الخطر يهدد تخومهم .

وعلى خلاف ذلك : في كل وقت الخطر ذاك ، من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر ، لم يكن للأسبان حاجة بالرحيل إلى الخارج ليشاركوا في الحروب الصليبية ، إذ أن الحرب — في ذلك الوقت جميعاً — كانت على أبوابهم . ذلك أنهم كانوا يحاربون المسلمين بغية استرداد أراضيهم .

وفي القرن الخامس عشر كان الخطر قاب قوسين من قلب الأملاك المستقلة للإمبراطور اليوناني في القسطنطينية .

وانتهى الأمر إلى أن المسلمين فتحوا كل آسيا الصغرى ، وعندئذ اعتنق أهل آسيا الصغرى الإسلام ، وهكذا ظلوا إلى وقتنا هذا .

وعبر الأتراك إلى أوربا وركبوا عبر البلقان وبلغوا نهر الدانوب العظيم . وانضوت الشعوب المسيحية ، من رعاة وفلاحين وجبليين ، تحت إمرة أمراءهم ليحاربوا للصليب . فكافح السرييون والألبانيون والهنجاريون (المجرىون) والبولنديون ليصدوا الفاتحين ولكنهم أخفقوا . وحاول الكثيرون من الغرب أن يؤلبوا الملوك والأمراء ورجال الكنيسة لبذلوا جهداً جديداً في حرب صليبية ختامية ، ولكن أحداً لم يتحرك لأن الملوك والأمراء كانوا منصرفين كل الانصراف إلى محاربة بعضهم البعض .

نهاية القسطنطينية :

أرسي چون چستينياني — وهو نبيل من چنوا وجندى ذائع الصيت — سفينتيه فى ميناء القسطنطينية فى يناير من سنة ١٤٥٣ . والتحق — ومعه رجاله السبعمائة الحسنو التسليح المدججون بدروع نحاسية على صدورهم — التحقوا بحمايتهم الذين كانوا يدافعون عن أسوارها ضد الأتراك . وقد سبقهم إلى هناك بعض نبلاء البندقية وجنودها . واتخذ إمبراطور الإغريق ، اتخذ هذا ، چون چستينياني قائداً عاماً له .

وكان الرجال المتعبون — الذين وقفوا بأسلحتهم على طول أسوار المدينة — يحسبون هذا الوضع جزءاً من حرب لانهاية . فلقد استمرت منذ قرون وبدا كأنها سوف تعمر أبداً . وكان أولئك تسعة الآلاف من الجنود المسيحيين — من أهل اليونان وچنوا والبندقية — يقاومون جيشاً ضخماً قوامه سبعون ألفاً من الأتراك . ومن ورائهم فى تلك المدينة الغنية الواقعة على البوسفور قامت هناك خزائن فنية وعلمية تجمعت فى ألف عام : صروح ريفية ، كنائس ، قصور ، مكاتب ، تماثيل ، نقوش ، فسيفساء . وكانت الكنائس تغص بالناس يصلون للخلاص من الغزاة بمعجزة سماوية .

وكانت الأسوار ضخمة ولكنها قديمة . فلما أطلق المدفع التركى الضخم « قاهر المدن » اهتزت الأرض وملاً هدير الغلبة الجو وأرسل قنطار من الأكر الحجرية التى أطلقتها المدافع فهشم الدير العتيق الذى خر من وقع الصدمة الكبرى . وقد غص السهل الأمامى بحشود من آسيا . ولم يكن أولئك فلاحين خشنين وخيالة فطريين ، ليس غير ، بل لقد كانوا أيضاً جنوداً مهرة شجعاناً حسنى التنظيم . وصد المسيحيون الهجمة تلو الهجمة ، وقاوموا غزوات خيالة الباشبوزوق الآسيويين الأشداء وفرق الانكشارية المنتخبة التى أرسلت تحت بصر سلطانها وأمرت أن تتساق الجدران أو تهلك دون ذلك .

وكان الأتراك قد أخذوا يهددون المدينة في خريف ١٤٥٢ ، وقد حل مايو . ومع ذلك بدأت أيام القلق تمر ، وترقبت جنود جستينيانى وانتظرت وحاربت . ولم يبدُ أن أمم الغرب المسيحية ترسل مدداً . وحارب أولئك اليونانيون وحلفاؤهم القليلون ، حاربوا وحدهم في ذلك الربيع المخيف ربيع عام ١٤٥٣ .

وقد وقفت المدينة كأنها جزيرة في بحر من الأعداء وقفت المدينة الإغريقية المسيحية . . ووقف للدفاع عنها تسعمائة رجل أغلبهم من اليونان تساعدهم حفنة من أهل البندقية وچنوا . وقفوا مسلحين في هذا التنازع الذى اشتدت وطأته على العالم المسيحى والذى سبق أن شطره قبل ذلك بسبعمائة عام .

وهكذا فتحت المدافع التركية نيرانها ، وهزت العصفه الأسوار ، وهجم جنود السلطان مغيرين ، وطار جزء من البناء فانفتحت فتحة إلى جوار أحد المداخل . ومع هذا صمد اليونانيون والبندقيون . ثم سرب بعض الأتراك خفيةً من المداخل الخلفية ودلفوا وراء المدافعين . وما هو إلا قليل حتى رؤيت على الحوائط قواويق (مفردها : قاووق) الانكشارية الطويلة المصنوعة من اللباد وتسلفت جماعات كبيرة من الجنود الأتراك جشت موتى رفقاتهم وتدفعوا إلى مشارف المدينة وجرح جستينيانى وبرّح به الألم فاعتزل في إحدى سفائنه حيث مات متأثراً بجراحه .

وركب آخر الأباطرة — قسطنطين باليولوجاس مدججاً بسلاحه ، ومعه شرذمة من رفاقه المتحاربين — ودخل من الفجوة التى فتحت في المدخل وهناك مات وهو يحارب شرذمة من الأتراك وكانت النهاية الحزينة التى تليق بالقصة الطويلة لقياصرة روما وأباطرتها أن آخرهم لم يعيش بعد زوال الإمبراطورية .

واحتشد سكان المدينة — بين اللجب والجلبة — على طول الجهة المائية
ليهربوا بطريق البحر . ولكن قليلين هم الذين استقلوا الزوارق الإيطالية
الكبيرة ، وكان الأسرى كثيرى العدد .

وركب محمد الفاتح — أمير المؤمنين — يجتاز الشوارع حتى بلغ كنيسة
الحكمة المقدسة ، البديعة (أيا صوفيا) وهناك أمر بخطيب المسجد فصعد
على المنبر — الذى ظل أسقف القسطنطينية يعظ منه مئات السنين —
ونادى المؤمنين للصلاة . وكان المؤمنون عندئذ هم الأتراك الذين حاربوا
وانتصروا ثم استحثوا الخطى ليستمعوا ، بلغة أخرى ، إلى الشهادتين
« أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

ولقد كان السلطان نفسه رجلاً عالى التهذيب ، وقد تأثر بعد فتح تلك
المدينة الذائعة الصيت . وعندما رأى قصر الإمبراطور المتوفى ، وقد أصابه
ما أصابه ، توقف هنيهة ثم استشهد ببيت شعر فحواه : « لقد نسج العنكبوت
نسيجه فى القصر الإمبراطورى ، ونعقت البومة على أبراجه بأغنيتها الساهرة . »

وهكذا سقطت القسطنطينية وصار اسمها الآن « استنبول » وأصبحت
فى حوزة الأتراك غير أن الحرب استمرت . فقد احتفظ أهل البندقية
بأجرامهم الحربية فى البحر ، واستولى فرسان سنت چون — ومقرهم بيت
المقدس — على جزيرة رودس لتصبح حصناً بحرياً . وأبقى الخيالة الهنجارىون
والبولنديون والسرييون الجلبليون ، أبقوا الأتراك جنوبى الدانوب .

ورفرت راية الإسلام على الأراضى القديمة — مصر ، فلسطين ،
آسيا الصغرى ، بلاد اليونان الحالية — رفرت عليها راية الإسلام الخضراء
وبقيت — بعد ذلك ، على هذه الحال — طوال الأربعمئة من الأعوام
التي تلت .

سقوط غرناطة في أسبانيا :

غير أن المسيحيين انتصروا في أسبانيا . فقد استولى ملوك قشتالة وأراجون على إشبيلية وقرطبة في القرن الثالث عشر . وفي وقت سقوط القسطنطينية في يد المسلمين لم يكن في يد المغاربة غير مملكة غرناطة الصغيرة وهذه هاجمها واستولى عليها في ١٤٩٢ الجيش المسيحي الكبير الذي ضم فرساناً من إنجلترا وفرنسا . وعندما فتحت أبواب غرناطة — لفردينايد ملك أرجوان وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة — رفعت راية الصليب فوق أعلى برج في قصر الحمراء ورتلت تسبيحة الشكر « الحمد لك يا الله » .

ومن هذه الأحداث القديمة نبتت أشياء كثيرة تركت أثرها اليوم على العالم . ففي أسبانيا والبرتغال الآن أناس يجرى في عروقهم الدم المغربي . ولغتهم تحوى ألفاظاً كثيرة أصلها عربي . وأهم من هذه أن جنود شبه الجزيرة المسيحيين تملكهم رغبة جامحة لنصرة الصليب وألهمتهم الحروب الصليبية الطويلة الأمد ، فرفعوا راية الصليب على مسجد غرناطة . ولم يمض وقت طويل حتى رفعوها في بلاد غير شبه الجزيرة ، تحت آفاق غريبة ، بعضها يبعد آلافاً من الأميال بطريق البحر .

الاتجاه صوب الجنوب :

عندما نظر سماركو البرتغال إلى الغرب والجنوب فوق أمواج الأطلنسى الطويلة كانوا واقفين على طرف من أطراف المعمورة . وهكذا كان صيادوا السمك الإيرلنديون الذين يسكنون شاطئ إيرلندا الغربي الموحش . وثمة طرف ثان من أطراف المعمورة في كورنول وثالث في بريتاني ورابع في أسبانيا . غير أنه كانت هنالك جزائر وراء مغرب الشمس ، أو هكذا قالت القصص بل كانت لها أسماء : أنتيلة . برازيل ، جزيرة سنت برندان ، جزيرة المدائن السبع ، جزائر شديپ (الغنم) وتلك كلها بعيدة في الغرب

الأقصى عبر المياه . على أن الرجال الذين أبحروا بحثاً عنها جاءوا ولم يكن عندهم ما يتصورونه أو ربما يكون قد أخذهم المحيط إلى الأبد . وكان كل شاطئ . الأطلنطي ، يقيناً ، آخر الدنيا المروفة من جهة الغرب ، ووراء ذلك لم يوجد غير البحر الأجاج .

غير أن الجنوب كان له شأن آخر . فقد جاءت قصص غريبة مثيرة من الجنوب إلى صليبي البرتغال الذين انتزعوا سبتة (أى «سرتة» في مراکش) من المراكشيين في سنة ١٤١٥ .

وأنبأهم المغاربة عن أرض خضراء خصيبة في غانا على مسافة بعيدة عبر الصحراء الكبرى حيث يسكن كثير من الناس على شاطئ «مهر كبير» (هو السنغال) . وكان ذلك النهر — حسبما قيل — فرعاً من نيل مصر المعروف . وكان في وسع أولئك الذين يبلنونه أن يركبوا الشراع ويصلوا إلى الإمبراطورية المسيحية الغامضة التي كان يحكمها پرسترچونس (حنا القس) . الذي كان قسيساً وملكاً والذي عاش في الشرق خلف البقاع الإسلامية .

واستشارت تلك الأخبار أميراً غنياً قوياً . وكان هذا الأمير : هنرى . البرتغالى أخا الملك ورئيس جماعة الصليبيين البرتغالية . وقر قرار الأمير هنرى على أن يستولى على غانا وأن يدخل أهلها في دين المسيح وأن يحكمها بفرسان جماعته . وكان عنده مال يكفي ليستخدم رسامين للخرائط وفلكيين وعلماء من اليهود وليبنى سفناً ويقوم بنفقات الرحلات . وأرسل سفناً شراعية كبيرة تبخر على طول الشواطئ الإفريقية . وتحسس رجاله طريقهم جنوباً ، رحلة فرحلة ، إلى ما وراء الشواطئ الرملية القاحلة والصخور . وكانت كل مخاطرة تضيف النزر اليسير من المعلومات ينتفع بها في المحاولة التالية . وكان التقدم بطيئاً .

وبعد سنوات من الجهد الشاق وصل رئيس تجارته إلى (نهر) ،

ريودي أورو الذى كان يبعد عن بلاده أكثر من ألف ميل . ولم تكن النتيجة سيئة بالقياس إلى صغر السفن المسقفة تسقيفاً نصفياً والتي يسمع كل منها ثلاثين رجلاً روع أغلبهم الخوف من الحرارة القاتلة ومن أهوال البحر . ولا بد أن ليالى البحر كانت تملأ راكبيه رعباً .

وإلى هنا كانت الشواطىء عقيمة مجذبة ، صحراوية أو نصف صحراوية . ومع هذا أفلاح البورتغاليون فى أن ينزلوا إلى البر ويقبضوا على بعض الزوج ايرسلوهم إلى بلادهم ويبيعوهم عبيداً للعمل أو للفلاحة فى المزارع البرتغالية . ولقد أخذوا ، فى إحدى الرحلات فقط ، أكثر من مائتين من العبيد التاسعين .

وأخيراً ، فى سنة ١٤٤٥ ، وصل إلى نهر السنغال أسطول من ست سفن شراعية كبيرة تحمل راية الصليب ورأى غابة غانا الخضراء أو غينيا ، ينطق أهل البر تغال . وقد جاءوا ببعض العبيد وبنبأ أنهم استكشفوا الطريق إلى پرسترجونس (القس حنا) وحمل أسطول آخر مستعمرين إلى جزائر الأزورس (أو « الصقر ») . وما هو إلا القليل حتى أخذ رجال الأمير هنرى يرسلون إلى بلادهم العاج الإفريقى والتبر الغينى .

وعرف الأمير قبل وفاته فى سنة ١٤٦٠ ، أن أحلامه قد تحققت .

وعندئذ بدأ التجار يقومون بالعمل الذى كان يقوم به لأنه كان رابحاً . وسارت السفن أبعد وأبعد إلى الجنوب ، ومرت بشاطىء العاج ، ومرت بساحل الذهب ، ومرت بنهر النيجر ثم وصلت تحت آفاق جديدة إلى نهر الكنگو العظيم . وأسست موانئ فى غينيا لتصبح مراكز لتجارة الذهب والعاج والرقيق . وبقيت تلك الرحلات جميعاً سرّاً دفيناً ، وبذل أمض الجهد للحرص على ألا تقع الخرائط فى أيدي أمم أخرى .

وفي سنة ١٤٨٦ أقلع بارثولوميو دياز ماراً بالكنغو . ثم توقف ليتطلع صوب الجنوب ، أى أنه أقلع فى عرض الأطلنطى . وأدركته الرياح الغربية وردته إلى وراء . فلما عاد إلى البر مرة أخرى كان الشاطئ شماليه .

ودار — دون أن يدري — حول رأس الرجاء الصالح ووصل عندئذ وراء جنوب القارة الإفريقية . وكان يود أن يتابع الرحلة ولكن رجاله لم يشاءوا أن يتعرضوا للخطر . وهكذا عاد صوب وطنه .

وفي هذه المرة رأى الرأس الذى أسماه (كاپو تورمنتوزو) . وكان ملك البرتغال هو الذى أطلق عليه اسم « الرجاء الصالح » وهذا من أعظم الاسماء التى أطلقت أبداً على رأس من الرؤوس .

وراء رأس الرجاء الصالح :

وكانت الرحلة الثانية مغامرة عظيمة . وقد أطلق على السفينتين اسمى « جبريل » و « روفائيل » تيمنا باسم هذين الملاكين ، وكانا قد بنيا بنياناً متيناً وجهزا بشراع مربعة وثلاث ساريات لسكل ، وعلا طرفاهما عن الماء علواً كبيراً .

وجهزتا بأبراج حربية من أمام ومن خلف ، مع إمداد كل من السفينتين بعشرين مدفعاً . وكانت حمولة كل منهما مائة طن . وقد خطط لبنائهما — من واقع تجاربه — بارثولوميو دياز ، وعقدت قيادتهما على فاسكو دى جاما وهو نبيل من بلاط الملك .

وتحركتا — تصحبهما سفينة شراعية صغيرة وأخرى لحزن المؤن — إلى منحدرات فى (نهر) التاجه وهو نهر لشبونة . وقد نفخت الريح أشراعهما المرسوم عليها علامة الصليب . وقد اختزن مؤن تكفى ثلاث سنوات .

وقبل أن يستقل البحارة السفن شهد البحارة قداس بركة ووداع في أبروشية لشبونة . وفيما كان حشد من الأقرباء وأهل المدينة يرقبون من الشاطئ — وكثير منهم في ثياب الحداد — انساب الأسطول الصغير إلى المحيط مغامراً . ورفرف علم الملك على رأس سارية « جبريل » . ثم نفخ في الأبواق وعزف بالنايات وضرب على الطبول . واصطف الضباط على ظهر السفينة متسربلين بالنرد والدروع . وظهر بينهم القائد البحري فاسكودى جاما وهو رجل حارب أسلافه المغاربة وتربى في البحر وامتلاً رأسه بقصصه ومهر في المعرفة وصهرته تجارب الرحلات البحرية ، رجل ذو شخصية قوى البنية شديد العزم أحمر الوجه شجاع معتز برأيه ، عنيد ، يقسو على أعدائه .

وتحركت السفن رويداً رويداً إلى أقصى مرقى البصر ثم اختفت تحت الأفق الغربى في ذلك اليوم القائن من يوليو سنة ١٤٩٧ .

وكان أول جزء من رحلتهم هو الاندفاع المعروف إلى الرأس الأخضر وشاطئ سيرااليون . وتبع ذلك عبور بعيد المدى عن طريق جنوب الأطلنطى قادم إلى جنوب إفريقيا ، حيث أسروا رجلاً من سكان الغابات الأصليين وكسوه واشترك بعد ذلك في الرقص مع بعض المتوحشين من قبائل الهوتنتوت . ثم ألقوا مراسيمهم في مكان أسموه « ناتال » (أى الميلادى) إذ أنهم بلغوه في عيد ميلاد المسيح ، وهناك نزلوا إلى الساحل ودفعوا سفنهم حتى احتسكت بالقاع القريب من الشاطئ . وهناك أيضاً ظهرت على بعضهم أعراض مرض البحارة الويل المسمى بداء الأسقربوط . (وهو ضرب من الجرب) .

وبعد ثلاثة أشهر ، بعد أن ثابروا على الصعود بسفائنهم مصعدين مع

الشاطيء صوب الشمال ، بلغوا موزامبيق حيث تحدث مترجمو دى جاما مع العرب ، وهنا رأوا السمك الطائر وشجر جوز الهند . وبعد مضى شهر تركوا ثغر مومباسا الجميل . ووصلوا بعد ذلك إلى مالندى حيث رأوا السفن العربية التى تتاجر مع الهند وحيث استخدموا مرشداً عربياً سار بهم ، فى رياح موسمية ، عبر المحيط الهندى إلى شاطيء مالابار فى الهند .

وألقوا مراسيمهم وراء كالكوتّا فى مايو سنة ١٤٩٨ وذلك بعد أن أقلعوا من لشبونة بأربعة عشر شهراً . فرحب بهم الحاكم الهندى . وسألهم أحد العرب عن علة مجيئهم فأجاب أحد البرتغاليين بقوله : « بحثاً عن المسيحيين وانتوا بل » .

ولبشوا على مسافة من كالكوتّا ثلاثة أشهر رأوا فى خلالها جميع ما فى مدينة هندية تجارية من غنى وتنوع : رأوا شجر جوز الهند وتعريشات الفلفل والمنجة والموز والليمون ورأوا الطواويس والنوس (جمع نمس) والدر (وهو ضرب من الببغاوات الصغيرة) والقروود والفيلة ، رأوا هذه وهى تُستخدم فى بعض الأعمال ورأوا فى الأسواق سلع النحاس الأحمر والأصفر والسيوف والمدى والمنسوجات الحريرية والقطنية وعمار السلحفاة (البرية) والعاج والزمرد والياقوت والكافور والقرفة (أو الدارصينى) وخشب الصندل وجوز الطيب ولباب جوز الهند المجفف . واختلطوا بالجماهير المبرقشة الأكسيه ، من الهنود والصينيين والزنوج والملونين والفرس والعرب . وحمل فاسكو دى جاما فى محفّة (وهى نوع من الهودج أو التختروان) . وقايض بحارتّه على ما كان معهم من سلع محلية نافعة ، قايضوا بهدايا تذكارية اشتروها من الأسواق . وأخيراً رفع دى جاما مراسيمه واستدار مُيمّماً وطنه موقناً من أمرين : الأول أن من المستطاع القيام بتجارة وفيرة الربح مع الأمراء الهنود ، والثانى أن العرب الذين سيطروا على الشواطىء التجارية كانوا يتبرمون بإرسالية التبشير المسيحية .

واستغرقت العودةُ عاماً . وحدث أن عاصفةً أعطبت السفينةَ (روفائيل) بحيث اضطرروا إلى سحبها إلى الشاطئ وإحراقها . أما (جبريل) فقد استدارت حول رأس الرجاء الصالح مع ريح مؤانية وقامت برحلةٍ إلى غينيا ونهر التاجية ، وفي هذا النهر أُلقت مراسيمها — آخر الأمر — في أغسطس من سنة ١٤٩٩ .

وكانت الرحلة مذهلة ، كانت أكبر رحلةٍ جَرت حتى ذاك الوقت . واستكشفت البرتغال طريقاً خاصة إلى مستقر كنز الشرق العظيم . ولا عجب إذن إذا كان سفير البندقية في لشبونة قد أرسل الأخبار ، بكل ماوسعه من سرعة ، إلى ساداته في البندقية ، إذ أن البندقيين كانوا يعيشون من الأرباح الطائلة التي درستها تجارة التوابل مع عرب مصر .

وكان قوام المغامرة البرتغالية التالية عام ١٥٠٠ ثلاث عشرة سفينة ، وقوامُ الرحلة الثالثة — عام ١٥٠٢ — عشرين سفينة مرة أخرى تحت إمرة دى جاما الذي قَتَلَ كلَّ عربيٍّ وقع في قبضته والذي أطلق النار من مدافعه على كالكوتّا . وذبح ألبوكيرك — القائد البرتغالي الذي جاء بعد ذلك — ذبح ٦٠٠ مسلم في جُسواً . وهكذا انتقم جنود الصليب من خصومهم متجاهلين الرحمة التي يأمر بها (الصليب) . وبهذا الأسلوب العنيف القاسي أقرَّ البرتغاليون سلطانهم في الشرق ، وما هو إلا القليل حتى ترامت حصونهم ومراكزهم التجارية بعيداً بعيداً حتى الصين .

وقد ظلَّ البرتغاليون ، أكثر من مائة سنة ، أصحاب الشرق وسادة المحيط الهندي وبحار الصين .

جزائر غروب الشمس (سَنَسِيت) وإمبراطوريات عجبية :

عاش رجال البرتغال أولئك ، وكذا منافسوهم تجار البندقية ، في عصرٍ مليءٍ بالأعاجيب . وكان الجنود الأسبان يتقاطرون صوب الغرب على

أمواج الأطلنطى الطويلة حتى قبل أن يصل فاسكو دى جاما إلى الهند .

وسارت الأمور على النحو الآتى : كان مرشد من جنوا — اسمه كريستوفر كولومبوس — يعمل فى خدمة البرتغاليين فى التجارة الغنيمة . وكان بحاراً عظيم الخبرة سبق له الإبحار شمالاً حتى أيسلندة . وقد أنعش فى فؤاده طموحاً نهسياً : وهو أن يبحر غرباً ، لا بحثاً عن أية جزيرة فى البحر ولكن ليصل إلى (كاثاي) الصين وإلى (جيبانجو) اليابان وإلى جزر التوابل ، رغبة فى نشر الدين المسيحى . وقد أيقن أن ذلك ممكن ولذا سأل ملوك أوربا مساعدته بالسفن والرجال . وكان ملك البرتغال شديد الانشغال برحلاته البحرية الشرقية . وظل الملك الإنجليزي — هنرى السابع — يفكر فى الأمر . أما العاهل الذى ساعده فعلاً فكانت الملكة إيزابلا ملكة قشتالة ، وكانت هى وزوجها — فرديناند ملك الأراجون — حاكمى أسبانيا .

وهكذا أبحر كولومبوس — فى الثالث من أغسطس من سنة ١٤٩٢ — من پالوس ، فى أسبانيا على السفينة سانتا ماريا (القديسة مريم) ومعهما سفينتان تصغرانها كثيراً . وكان بين البحارة بعض معتادى الإجرام الذين أجبروا على ركوب المغامرة التى أرعبت معظم البحارة . وفى التاسع من سبتمبر زایل كولومبوس جزر كانارى (العصفور) واندفع إلى الغرب المجهول . ولم يحلّ اليوم الواحد والعشرون من ذلك الشهر حتى تملكهم الخوف . وهبت الريح ، مثابةً ، من الشمال الشرقى وانقطع كل أمل فى عودتهم . ولم تقع أبصارهم — من كل هذه الدنيا — على غير البحر والسماء ، ولم يترق آذانهم غير جرس أصواتهم وضوضاء حبال السفينة وبكراتها . وعمد رئيس بحارتهم إلى تهديدهم ومجادلتهم وإلى مخافتهم فى صدد المدى الذى قطعوه فعلاً .

وعندما حلّ اليوم الحادى عشر من أكتوبر كانوا قد استعدوا لقتله .

(م ١٢ — تاريخ العالم الغربى)

وبعد أن انقضى أكثر النهار رأوا أرضاً . وفي اليوم التالي نزلوا إلى البر .
وقد دار بخلد كولومبوس أنه — على أقل تقدير — وجد طريقاً غربية إلى
آسيا بل إنه يقف الآن على إحدى جزر جيبانجو (اليابان) . والحقيقة أنه
كان في إحدى جزر السيام . وقد قدم له الهنود الذهب والحلي وسجدوا
أمامه وأمام رجائه كما لو كانوا آلهة . وكان أولئك الهنود من هنود البحر
الكاريبى . وبعد أن ارتاد كولومبوس ما بين جزائر الهند الغربية عاد إلى
وطنه وواصل السير حتى پالوس فى الخامس عشر من مارس من سنة ١٤٩٣ .
وكانت رحلته الثانية التى قام بها بعد ذلك بستة شهور بعثة مسلحة قوامها
١٥٠٠ رجل وسبع عشرة سفينة . وكانت تلك حرباً صليبية إذ أن الجنود
الذين أجلوا ، لتوهم ، المسلمين من أسبانيا تأهبوا من فورهم لينخضعوا
الدنيا الجديدة ويدخلوها فى دين المسيح . استعمروا جزيرتى پورتوريكو
وكوبا وأكرهوا أهاليهما اثنا عشرين على العمل فى مناجم الذهب ، وعمدوهم ،
وصادوهم بالكلاب كلها فروا ، وضربوهم بالسياط حتى الموت .

ولم يفتن كولومبوس قط إلى أنه وقع على عتبة دنيا جديدة . وحدث
أن مرشداً إيطالياً آخر — اسمه أميريجو فسپوتشى كان أول من كتب
عن الدنيا الجديدة ، التى رآها . واعناد الناس على استعمال كلمة « أمريكا »
وهم يقصدون الأرض التى وصفها أميريجو .

فما الذى حدث إذن فى صدد كاثاى (الصين) وجزر التوابل ؟ لقد أجيب
عن السؤال فوراً . رأى بعض الأسبان — من فوق قمة جبل فى پاناما —
محيطاً جديداً يفيض وراء الدنيا الجديدة .

وعلى أية حال فقد استكشف البرتغاليون ، حتى الآن ، أمريكا انطلقوا
أمام الرياح التجارية الشمالية الشرقية ثم انثنوا عبر الرياح الجنوبية . ورأى
مرشدوهم شاطئ البرازيل فى سنة ١٥٠٠ . وحدث أن مرشداً كان يعمل فى خدمة

البرتغاليين — وقد سبقت له زيارة جزر التوابل بالإبحار حول رأس الرجاء الصالح — ذهب ليعمل في خدمة ملك أسبانيا وملكتها . وكان هذا المرشد : فرديناند ماجلان . وفي سنة ١٥١٩ عبر الأطلنطي إلى البرازيل واتجه جنوباً (١) ومر عبر المضائق الطويلة التي تحمل اسمه الآن ودخل ذلك المحيط الجديد : المحيط الهادى . وقتله بعض الأهلين فى جزائر الفلبين ولكن سفينته « فكتوريا » (أى المنتصرة) دوامت السير إلى بورنيو وجزائر الهند الشرقية ثم استدارت حول رأس الرجاء الصالح ووصلت إلى وطنها عام ١٥٢٢ . ولم ينبج من كانوا عليها — الذين أقلعوا قبل ذلك بثلاث سنين وعددهم ٢٧٢ — غير ثمانية عشر رجلاً . ولقد فاقَت مآثرة ماجيلان — وهى السباحة بالبحر حول الأرض — فاقَت مآثرة ماجلان تلك ، أحلام كولومبوس . ذلك أنه لم يكتف بكشف الطريق البحرية الغربية إلى آسيا بل طاف بالبحر حول الكرة الأرضية العظيمة .

وجد جنود أسبانيا وقسوسها دنيا جديدة شاسعة المساحة يفرز فيها الذهب والفضة . وأبحروا من جزائر الهند الغربية إلى داخلية البلاد ، وهناك عملوا أعمالاً هى أعظم من أن تصدق . فلقد ناضلوا فى المستنقعات المميتة الموبوءة بالحصى وعبر جبال دارين التى تسكث فيها الغابات . وفى عام ١٥١٩ سيطر فرديناند كورتيز على إمبراطورية المكسيكيين العتيقة : نزل إلى البر وأحرق سفنه وتقدم فى داخلية البلاد يصحبه ٦٠٠ رجل ، وبهم هزم قبائل الأزتك الذين حكموا البلاد واستولى على عاصمتها وثبت صليب المسيح على أعلى مكان من المعبد الذى كان قسوس قبائل الأزتك يضحون فيه بقرايين آدمية . وقد استولى على كنوز الذهب الذى كدسته قبائل الأزتك فى مدى نصف وسبعائة عام . ومآثرة السلاح هذه بزتها مآثرة فرانسيسكو پزارو الذى قوض الإمبراطورية الغامضة التى كانت تقيمها قبائل الأنكاس فى بيرو . صنع ذلك فى سنة ١٥٣١ بمساعدة رفاق لا يزيدون على المائة والستين .

(١) انظر شكل رقم — ٧ — (مخارج جنوبية من الأطلنطي) .

وقد عرفت تلك الشعوب (الأنكاس) كيف تقيم قصوراً هائلة الحجم وكيف تنشئ طرقاً طويلة من دون آلات حديدية ، بل من دون أن يعرفوا العجلة ، كما أنهم استخدموا المعادن الثمينة في صنع الأواني العادية على نحو ما نستخدم نحن الحديد أو الفخار . وكان حكامهم يخططون لكل كبيرة وصغيرة في حياتهم . وكانت أراضيتهم تعاد تسويتها في كل عام ، وطعامهم يقسم بينهم في عناية ، بل أن زيجاتهم كانت تحدد لها أيام تعيين من قبل . ولم يكن العوز معروفاً لديهم ، ولم يعرفوا الانفعال إلا بعد مجيء الأسبان . وقد ملأوا حجرة بقضبان ذهبية ليفتدوا ملبسكم من يزارو .

على أن مئات من جنود الأسبان هلكوا في المستنقعات والغابات ، بفلوريدا . ففي إحدى المرات أرسلت بعثة قوامها ألف رجل لم يعد منهم غير ٣٠٠ بعد أن قضوا أربع سنين في رحلة ، بمركبات النقل ، إلى المكسيك وفي مرة أخرى لم يبلغ شاطئ المحيط الهادى ، غير رجل واحد من فرقة قوامها ٦٠٠ وكانت سبيلهم إلى النجاح : انضمامه إلى قبيلة من قبائل الهنود . وفي الحق أن الجنود الأسبان نقبوا في أحياء تلك القارة الضخمة عن مدائن الذهب وعن الينابيع التى تسفل مياهها للناس شباباً مقيماً . وقد يبدو لنا الآن أن بساطتهم تشبه بساطة الأطفال غير أن صلابتهم كانت بطولية .

ولم يكن عمل رجال الكنيسة من الأسبان أقل بطولة . فقد صنع الكثير منهم كل ما وسعه ليساعد الأهلين البائسين . وعملاً باقتراحهم استدعى زوج من إفريقيا ليعملوا في مزارع قصب السكر ، إذ أن الزوج قوم أكثر صلابة . وعمل رجال الكنيسة ما يزال ماثلاً في خرائطنا بخط كبير واضح ولئن نظرت إليها لتجدن أسماء مثل : فيراكروز (الصليب الحقيقي) — ترينيداد (الثالوث) — سان سلفادور (المخلص المقدس) وعشرات أخرى على هذه الشاكلة . ولقد كانت الدنيا — في نظر كثير من القانتين من القسيسين

والرهبان والراهبات — حقل تبشير كبير . وإنا لنجد — إلى جانب قسوة الجنود وشرهم — برأ ورافة مسيحيين . وتجيئنا التقارير والإحصاءات — عن أهل جزائر الهند وعن اليابسة — منقولة عن دراسات الرهبان الأسبان .

توسع المعمورة :

كانت هذه تغيرات عظيمة ، أعظم بالتأكيد — في تلك الفترة التي قد يعيشها امرؤ ، وهي الفترة التي وقعت بين سنتي ١٤٥٣ و ١٥٣٠ — كانت أعظم من التغيرات التي يسعنا التعرف عليها في أية ثمانين سنة غيرها .

فالإمبراطورية الإغريقية المسيحية — بكنوزها التي تجمعت في ألف من السنين — جرفها تيار المسلمين الجارف . فالتركي وفد على أوروبا وسبق بها في واحدة من أروع مدائنها جمالا ، وإلى هذا فإن جيوشه تعسكر على ضفتي الدانوب .

ثم إن البرتغاليين شقوا طريقهم — بحراً — إلى آسيا . وأثرت الشبونة بتجارة التوابل ، ووجد بحارتها شاطئ البرازيل . وأقلع الأسبان عبر الأطلنطي وأخذ مستكشفو الطرق ، الذين أوفدوهم ، أخذ هؤلاء طريقهم إلى نيومكسيكو وكاليفورنيا ، وطافت سفائنهم حول الأرض . وأصبحت أعلام الصليب ترفوف على بيرو والمكسيك والحصون البرتغالية في غرب إفريقيا وفي الهند وفي جزائر الهند الشرقية . والذهب يتدفق على أوروبا : ذهب غينيا والذهب الأسباني . والتوابل والموسلين (الشاش) والأصباغ وأنواع الحرير ترد إلى أوروبا بحراً .

وتجارة رقيق زنج إفريقيا — الفظيعة — بدأت في الغرب .

والإغريق والترك والبندقيون والمغاربة والبرتغاليون والأسبانيون ... أولئك جميعاً قاموا بأدوار قيادية في أثناء تلك الأعوام الثمانين ، ترتبت

عليها نتائج بقي أثرها طويلاً . ووقعت حوادث أخرى ، بقي أثرها طويلاً . كذلك في المداين الإيطالية وفي ألمانيا ، وسننتقل إليها في الفصل الثاني . وفي تلك الفترة ذاتها عاش في إنجلترا — في مدينة بريستول — تاجر من البندقية اسمه جون كابوت وكان يتاجر مع بلاد العرب في التوابل . جهز هذا التاجر سفينة في بريستول . عليها بحارة من ذلك الشجر ، وأقلع غرباً . وكان يعمل في خلده كثير من أفكار كولومبوس ، واستكشف — مثله — أرضاً غريبة . حدث هذا في عام ١٤٩٧ وهو العام الذي فيه قام دي جاما برحلته ولم يستطع أسلافنا أن يطلقوا عليها اسماً خاصاً فأسموها نيوفاوندلاند (أى الأرض المستكشفة حديثاً) وهي ما زالت تحتفظ بهذا الاسم .

ومن ثم بدأ السهاكون الجسورون — من إنجلترا وويلز وبسكاي وبريتانيا — يستقلون قواربهم في كل عام إلى شواطئ نيوفاوندلاند ليعودوا بسمك القد المملح (البكلاه) لأوروبا . ولقد كان أولئك السهاكون المجهولون أمهر رجال البحر في العالم ، يعملون نهراً وليلاً ، في الضباب وفي الرياح القارسة وفي البحار المضطربة . لقد طيف بالبحر حرل إفريقيا . . . وكشف الشرق الآسيوى . . . وفُتحت الدنيا الأمريكية الجديدة . . . كل هذا حدث في مدى لا يتجاوز مدى حياة فرد واحد ! وإذا لم نقرأ قصص الرحالة القدماء فلن نستطيع مشاركة الرواد الأوائل دهشتهم عندما رأوا براكين جزائر الهند وغابات جبال الأبالاش ، ومستنقعات إفريقيا المنجروفية (أى الخاصة بالأشجار التي تخرج كثيراً من الجذور الهوائية) ، وغابات الهند ومعابدها ، ومعابد بورما (المسماة پاچورا) ، والبلدان الصينية المزدهجة الصاخبة ، ورحاب المحيط الصامتة . وإن آلافاً جديدة من أنواع الصخور والحيوان والحشرات والأسماك والطيور والنبات تنتظر علماء طبقات الأرض والحيوان والنبات ليدرسموها . ومن يدري ! فلقد وردت في ثرثرة تافهة بأحدى الحانات ، أو في خريطة مصورة مفقودة ، أو بين

أسرار ديوان ملك من الملوك — وردت أنباء قارة ظلت غير مستكشفة فلنسماها (كما أسماها البرتغاليون) « أرض الروح القدس الجنوبية » أو ترّا أوستراليس . ولقد وصلت سفينة برتغالية — واحدة على الأقل — إلى أخيرة القارات . وقد تُعزز هذا الرأي المدافعُ النحاسية الطويلة التي تركتها على شاطئها الشمالى .

وهكذا نجد أن أودية القرون الوسطى قد فقدت حدودها . فإن صحراوات الجنوب والشرق قد دار حولها البحارة كما أن المحيط الواقع فى الغرب قد عرف البحارة طريقه

المسالك البحرية :

فى كل جزء من أجزاء القصة، التى تلت ذلك ، معلومات عن تجارة جديدة تنشط ، تجارة يزاوها الرجال الذين ينحدرون فى سفائنهم إلى المحيطات . فى النهار والليل ، سنة بعد سنة ، تعبر السفن والرجال الذين يعملون ويغنون بها ، يعبرون المحيطات إلى أمريكا وإفريقيا والهند والصين وأخيراً إلى أستراليا وجزائر المحيط الهادى . إنهم يحملون — يوماً بعد يوم — الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة ويحرصون على بقاء أبواب التجارة الغنية مفتوحة بينهم وبين الشرق الأقصى . والمدنية — كما نعرفها — لا يمكن لها أن تدوم بغير هذا العمل المتصل وبغير تعرض البحارة للخطر والموت ومثل هذا الكد — ككد الفلاحين سواء بسواء — يظل غالباً ، غير مرعى لأن السواد الأعظم من سكان المدن الكبرى لا يراه رأى العين . ومن سوء حظ الكثيرين أنهم ينطبق عليهم قول الشاعر :

قوارب خشبية قديمة مفردة الشراع غرقت بحطامها المتقطر ،

لأنها سفن لم يقُدّها أحد قط إلى الميناء ولم تعد إطلاقاً .

ومع ذلك فالسفن والرجال — الذين يعلق عليهم المحافظة على بقاء الطرق البحرية مفتوحة — لم ينضب معينها قط .

والاستكشاف الأول عبر المحيطات يسهره اختراع البوصلة البحرية وكذلك الجهاز الذى ينظم أشعة السفن الذى اخترعه أحد صانعى السفن بين سنتى ١٤٠٠ و ١٥٠٠ . ويتركب ذلك الجهاز من ثلاث ساريات تحمل نحواً من ستة أشعة يستطيع مهرة البحارة تسويتها بحيث تقوى على مقاومة الرياح ، وبهذا لم يعد البحارة خاضعين لرحمة تلك الرياح . أما البوصلة فإبرة ممغنطة تترجح على قطب فوق ورق مقوى به علامات . وأصل البوصلة مجهول ، كأصل اختراعات القرون الوسطى الأخرى مثل الورق والبارود والأرقام العربية والبرلمانات والطباعة . وبإضافة الأسطرلاب — وهو آلة تعرف بها خطوط الطول عن طريق قياس ارتفاع الشمس والنجوم — بإضافة الأسطرلاب تُيسر البوصلة للمرشد السير فى مجراه المطلوب فى البحار المفتوحة ، فى دقة معقولة . أما طريقة معرفة خطوط الطول فقد كان على المرشدين أن يعملوا إحصاء تقريدياً وذلك بحساب سرعتهم بمساعدة الساعة الرملية . ولقد كانت هذه الإحصاءات — فى القرن الثامن عشر — تجرى فى مزيد من الدقة وذلك باستخدام كرونومتر السفينة (وهى ساعة بالغة الدقة) وكذلك بالرجوع إلى جداول المواعيد والأماكن الملاحية التى وضعها الفلكيون .

وبسبب هذه الاختراعات ومغامرة أولئك الذين استخدموها مرت التجارة من البحر الأبيض إلى الأطلنطى ، وإلى المحيط الهادى بعد ذلك ، ونشرت الأمم الأوروبية أقوامها وأساليب حياتها وقوانينها وعاداتها وديانها وحروبها فى كل مكان من العالم .

الباب الرابع

إعادة استكشاف العلوم القديمة

ثلاث مدنيات :

الفترة التي نسميها د القرون الوسطى ، هي الفترة الواقعة بين القرنين الخامس ، والخامس عشر أى بين سنتي ٥٠٠ و ١٥٠٠ الميلاديتين . وتلك هي القرون التي تقع بين المدنيات القديمة وبين زماننا هذا . وقد بدأت هذه الفترة بتضعضع الإمبراطورية الرومانية في الغرب وقتما اختفى القيصرية وفيالقهم وتخربت المدائن ونسيت المعرفة والحرف الدقيقة . حدث هذا عندما دخل الفرنجة والغوط والبرجانديون والسكسون نصف الإمبراطورية الرومانية الغربي واستقروا فيه يحكمهم ملوكهم وأمرائهم .

أما نصف الإمبراطورية الرومانية الشرقي فقد ظل يحكمه الأباطرة المتكلمون باللغة الإغريقية وذلك في القسطنطينية : الحصن القوي والمدينة الجميلة التي أنشأها قسطنطين على مدخل البحر الأسود حيث تتقارب آسيا وأوروبا على أقصر مدى .

ودخل في دين المسيح الفرنجة والغوط والبورجانديون والسكسون وامن إليهم من شعوب غابات الشمال العظمى ، وبذلوا أكبر ما وسعهم من جهد لتقليد مدنيات روما القديمة . وما هو إلا وقت قصير بل بالغ القصر حتى استولى خصومهم أقوياء مهرة على كل بقاع آسيا الصغرى والعراق وسوريا وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا . وكان هؤلاء الخصوم هم المسلمون العرب .

وقد أشعلت الحروب الصليبية بقصد العود إلى الاستيلاء على الأصقاع التي خرجت عن النفوذ المسيحي والتي لم تكن خصبة جيدة فحسب بل كانت كذلك موطن المعرفة القديمة والجمعيات المسيحية الباكورة . ورفرفت راية الإسلام فوق البقاع التي مشى المسيح فوق أرضها والتي فيها بشر حوار يوه بالإنجيل .

وعاد المسيحيون — كما رأينا — فاستولوا على أسبانيا بعد قرون طويلة من الحروب التخومية . وقد أنزلوا فعلاً — أعواماً قليلة — جيوش فرسانهم في سوريا وفلسطين ولكن الحروب الصليبية أخفقت في رد المسلمين عنها . وفي القرن الخامس عشر أضاع المسيحيون القسطنطينية ، وبفقدتها تلاشت الإمبراطورية الرومانية في الشرق .

وإذن فقد كانت هنالك — على مدى القرون الوسطى — ثلاث مدنيات : المدنية الإغريقية المسيحية ومركزها القسطنطينية .

والمدنية اللاتينية — أو الغربية — في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وألمانيا والجزر البريطانية .

والمدنية العربية أو الإسلامية الممتدة حول جنوب تلك الأصقاع من قرطبة في أسبانيا إلى بغداد على الفرات .

وترقد تحت المدنيات الثلاث خرائب الدنيا العتيقة التي ضمت بلاد الإغريق الوثنية وروما الوثنية ، ترقد منسية بعد أن تفتت وضاعت هباء . فلقد اختفت مدائن برمتها مثل قورين (سيرين) في إفريقيا الرومانية بعد أن نسفها زلزال ولم يبق منها غير خرائب عمد رخامية مكسرة مهشمة وجدران محطمة . وكانت بلاد أخرى في إفريقيا مطمورة تحت رمال الصحراء السافية . وفي إنجلترا تستطيع الأرائب والخلد (١) ، وحدها ليس غير ، أن تزور

(١) الخلد (بفتح اللام) أو الطوبين حيوان ، صغير ذوعينين بالغتي الصغر وفروة ناعمة ، يحدث حفراً في الأرض ويقذف بأكوام صغيرة من الطين أو التراب .

أساس جدران سياتشستر مدينة الأبهاء والردهات الكبيرة التي تركت موحشة ثم دفنت تحت الزراب السافى والحشائش المتعفنة . ولم يبق منها إلا بعض الجسور وإلا الطرق الطويلة المستقيمة التي أصابها البلى والتي أغرقها وطمسها فيضانات الشتاء . وهناك كانت المخلفات العجيبة لمساقى المياه الضخمة التي تجرى فوق قناطر . مثال ذلك : بون دى جار فى فرنسا التي تمتد عبر الريف ، وبعض مدرجات مهجورة تغطيها الحشائش البرية ، وأقواس نصر نحتت الصور على جدرانها ، وقلاع وقصور حصينة تمتد على تخوم غابات بلاد الراين أو على طول سور هادريان الكبير القائم على أجم نورذمبريا العالى . أما بوابات مدينتى يورك وليندكوان وأسوار لندن ، « والبوابات السوداء » ذوات الطبقات الثلاث فى (تراير) حيث عاش ذات مرة حاكم بريطانيا الرومانى ، أما هذى ومئات غيرها من الآثار فقد تذكر الناس بتفوق الرومان فى الهندسة ، ولو بفرض أنها لم تكن تستخدم إلا محاجر الحجر البناء وإلا لصنع الكلس (الجير) . وكثيراً ما تفرس الفلاحون فى جدران ريشبورو أو كايستر بعيون تملكها الدهشة وخالوها من عمل المردق أو الشياطين ! وكثيراً ما وجد الفلاح وهو يحرق ، مشبكاً (دبوساً) من البرونز أو قدراً مليئاً بالنقود ، أو كثيراً ما كشف اللحداد (حفار القبور) طواراً (رصيفاً) من الحجارة الملونة ، وأخذها صغاره كي يلعبوا بها !

ولإلى هذه الآثار والخرائب البالية كانت هناك مخلفات تفوق تلك كثيراً فى أهميتها ولكنها أهملت كذلك . فى مكتبات وخزانات وأقبية الكنائس والأديرة تنكس كتب قديمة ومخطوطات تسمى نهياً للبلى . وقد بادت تماماً وثائق البردى كما قد يبيد الورق . وأسدل النسيان على الوثائق المكتوبة على جلود الرق . وكانت تلك الكتب : مكتوبات ومسجلات الإغريق والرومان : تواريخ وأشعار وتمثيلات ورسائل وخطب وكتب رحلات وعلوم ورياضيات وهندسة وزراعة .

والكتب الوحيدة التي غنى بأمرها علماء المسيحيين الغربيون لم تعد
الكتاب المقدس والكتابات الدينية التي كتبها آباء الكنيسة الغربيون مثل
سنت أوجستين والتي كتبها مدرسو الجامعات مثل القديس توما الأكويني،
إذ فيم يكلف أى رجل خاطره الاهتمام بأمر كتب الإغريق والرومان
الوثنيين ؟ قال أوجستين الذى عاش عندما كانت كتب الوثنيين القديمة
موفورة ، قال إن الكتاب الوحيد الذى يحتاج إليه المسيحيون هو
الكتاب المقدس .

ولم يكن العرب — بطبيعة الحال — يستخدمون اللغة اللاتينية
أو الإغريقية أو يوجهون اهتمامهم إلى كتب أخرى أكثر مما يوجهونه إلى
كتابهم المقدس : القرآن الذى جمع تعاليم دينهم . ومع هذا ظهر من بينهم
علماء يدققون فى البحث والاستقصاء ويبحثون فى الفلك والطب والرياضيات،
علماء عرفوا بعض ما كتبه الإغريق ونقلوا إلى الغرب ثمانية حكمة مجوس (١)
الشرق ومعرفة فلكي السكندانيين وفن الأرقام ، نقلوها عن حكماء الهند
القديمة . ومن أمثال أولئك من علماء العرب المجتهدين عرف رجال الغرب
شيئاً عن تعاليم أرسطو وهو الإغريقى الذى ربه الإسكندر الأكبر قبل
المسيح بثلاثمائة عام . وقد جمعت كتب أرسطو العديدة خلاصة الكثير
من معارف الدنيا القديمة . ولكن عالماً مسيحياً قرأ ترجمة لاتينية لترجمة
عربية لكتابات أرسطو الإغريقية وقرر أن الترجمة ينقصها شيء من الدقة !
أما تاريخ الدنيا القديمة — فى نظر أهل القرون الوسطى — فكان
خليطاً عظيماً ، مشوشاً من قصص الأبطال والباطرة وكلها عن الأحداث
العجيبة المثيرة أو عن السحر .

(١) المجوس قوم كانوا يعبدون الشمس أو النار .

وهكذا كانت الأمور تجري في الغرب ، في خلال العصور الوسطى .

كان الفلاحون في كل مكان يستعينون بشيرانهم على فاح رقع أراضيهم المستطيلة . وكان أرباب الحرف في المدن يجتمعون — في نقابات طوائفهم — للعمل والعبادة والتصدق بعضهم على البعض . وكان ملاك الأرض أو الفرسان هم الخيالة الذين يحلفون لملوكتهم وأمرائهم يمين الولاء ويتبعونهم إلى الحرب ويتطوعون في الحروب الصليبية أو يتنازعون فيما بينهم . وكان النجار يغادرون في البر والبحر يشتررون ويبيعون أصوافهم وأقمشتهم المنسوجة ونبذهم وما لديهم من جلود الحيوان غير المدبوغة . وكانت دنياتهم صغيرة . فقد حبسهم البحر غرباً والغابة السوداء شمالاً . ولم يكن يعرف ما ينضم عليه جوف صحارى الجنوب غير العرب . ولم ينتقل إلى آسيا القديمة على طرق تجارة التوابل أو الحرير غير رحالة قليلي العدد .

وفوق كل المسيحيين وبينهم جميعاً كانت : الكنيسة المسيحية بأبروشياتها العجيبة وأديرتها العظيمة ورجال دينها ورهبانها ونساكها العلماء والجهال ومحكمها الدينية وضرائبها وجامعاتها الكثيرة التي أسست لدرس كل ما له علاقة بالله وبعلة الخلق .

ولم يكده الغرب يعرف أى شيء عن الحكمة والعلوم والصناعات الدقيقة التي كان لها شأن في دنيا الإغريق القديمة . وكان الناس في القسطنطينية يتكلمون اللغة الإغريقية لا كما تكلمها الأقدمون بل مع بعض التغيير في النطق وفي الألفاظ . ولم يكن في القسطنطينية من العلماء من يعرف اللغة ويبحث فيها إلا القليلون ، تلك اللغة التي كان يتكلمها كذلك سيدات البلاط الإمبراطورى اللائى ولدت نبيلات . وكان في القسطنطينية مجموعة كبيرة جداً من الكتب القديمة . وعلى أية حال فإن نصارى الكنيسة الإغريقية هناك كانوا — كنصارى الكنيسة اللاتينية أو الغربية تماماً — لا يأبهون

أصلاً بالكتابات القديمة . ولم يكن هنالك كثير من الحب المفقود بين هاتين الطائفتين من المسيحيين . وبهذا الخيط الواهن تتعلق فرصة الحفاظ على مسجلات الأقدمين .

هكذا كانت الحال في القرن الخامس عشر وقتما كان البرتغاليون يقلعون في نصف الكرة الجنوبي على طول سواحل إفريقيا الغامضة ، ووقتما اقتحم الأتراك المسلمون القسطنطينية تحت إمرة محمد الفاتح ، ووقتما قاد كولومبوس بحارته المذعورين إلى البحر الكاريبي .

بدء التنقيب :

وفي النهاية عندما أخذت البلدان تثرى من التجارة ، وعندما تعلم الناس كيف يبنون بالحجر ويصنعون عروضا جميلة من الحديد والخشب ، وينسجون البديع من أقمشة المفارش الثينة ، ويبنون سفناً كبيرة ، وعندما أصبحت الحياة أكثر أمناً وأقل عناء وكداً ويقظة خشية الأعداء المتوحشين وعندما زادت الحياة مراعاة للقانون ، تزدئد بدأ بعض العلماء يهتمون بالقديم من الكتب والعملية وآليات الزهر والزينة ومن التماثيل التي خلفها الأقدمون .

حدث هذا في إيطاليا حيث انتعشت المدينة القديمة أيما انتعاش ، وحيث يتسنى رؤية المخلفات في مزيد من الجلاء . ولقد كانت مدن إيطاليا أول المدن التي صارت جميلة وأثرت تجارتها . مثال ذلك : فلورانس . وبولونيا . . بادوا . . البندقية . . بيروجيا . . ميلانو . . وروما الكبيرة ذاتها . وكان الصانع الإيطاليون معروفين بالمهارة المذهلة في كل صنعة (وما يزالون كذلك) ، يكدر كل منهم ليز أترابه في الاتقان . وفي القرن الخامس عشر كادوا يبلغون أجمل ما صنعه الأقدمون من الإغريق والرومان ، ولهذا كان طبيعياً أن يبدؤوا في الإعجاب بمخلفات الماضي بما لدى الصانع الماهرة من غبطة .

وكان من أسبق مَنْ بدأ البحث والتنقيب عن الكنوز القديمة : بترارك الذى عاش فى القرن الرابع عشر (من ١٣٠٧ إلى ١٣٧٤) . كتب شعراً بالإيطالية وبذا زاد اهتمامه بالألفاظ وكيفية استعمالها . وحاول أن يكتب باللاتينية ، على غرار شيشرون ، السياسى الرومانى الكبير . وهذا حدها إلى دراسة اللغة الإغريقية القديمة . وكان شيشرون نفسه قد صرح بقوله : « الإغريق أساتذتنا فى المعرفة وفى كل فرع من فروع الأدب » ، وكان شيشرون — كمثل الرومان المثقفين — يعرف اليونانية . وهكذا تجد أن رغبة بترارك فى تقليد شيشرون قادتة إلى دراسة اللغة اليونانية . وجال فى إيطاليا وفرنسا وبلاد اليونان بل فى شمال إفريقيا ابتغاء الكتب والعملية والنقوش والمدونات . وكان همه أن يستكشف الدنيا المفقودة ، دنيا الجمال والمعرفة ، تلك التى اختبأت منذ قرون . ومن آخر كنوزه كتاب لم يستطع قراءته وهو الشعر الإغريقى الذى نظمته هومر عن سقوط طروادة وعن رحلات بوليسيز (عولس) « إن ذكرى الأعمال المجيدة بل إن أسماء الأقدمين من الإغريق والرومان وحدها لتملأنى حبوراً » . قال هذا القول وهو يصدق على أولئك الذين جاءوا بعده .

ولقد كانوا كثيرين : رهباناً ، علماء ، قساوسة ، أساقفة ، باباوات ، فنانيين ، تجاراً ، رجال مصارف مالية ، أمراء . . . فى كل مدن إيطاليا .

وعندما استقر فى فلورانس إغريقى من القسطنطينية — اسمه مانيويل كريسولوراس — وبدأ فى تدريس الأغريقية ، تراجمت حشود من الناس لتستمع إلى محاضراته . ولقد اعتذر طالب حقوق — من بين من واطبوا على الاستماع إليها — اعتذر انفسه عن إهماله دراساته القانونية بقوله ، محدثاً نفسه : « أتأبى أن يلقنوك دراسات عن هومر وأفلاطون وديموسطين وعن كل أولئك الكتاب الذين يروى عنهم كل هذه الأعاجيب ؟ » . ولقد نحا نحو كريسولوراس علماء إغريقون آخرون زابل كثير منهم

القسطنطينية جاءوا يحملون كتبهم ، كتبهم الإغريقية ، وقد أحضر واحد منهم ٢٣٨ مجلداً ، وأرسل بعض الأغنياء من تجار فلورنسا والبندقية إلى القسطنطينية وكلاء ليلبتاعوا منها كتباً إغريقية . وبدأ البابا نيقولا الخامس جمع المكتبة الكبيرة التي ما تزال تحتل مكانها في الفاتيكان حيث يعيش البابا ، قد جمع فعلاً ما لا يقل عن ٥٠٠٠ مجلد .

وقد هربت إلى إيطاليا أفواج كثيرة من الإغريق وذلك قبل فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ مباشرة . وقد بقيت في مكتبتها — حتى بعد فتحها — مجموعات كبيرة من الكتب . بل لقد فاخر سفير ألماني لدى سلطان تركيا — بعد ما افقَصَتْ مائة سنة على فتحها — بأنه استجدى واشترى كتباً ومخطوطات على الرق إغريقية ، ملأت مركبات نقل كاملة وأعدّها لتبحر إلى البندقية .

واستمر البحث ، إذ ذاك ، في كل مكان استمراراً حثيثاً . ووجدت — في نسخ مفردة — مخلفات كثيرة من قُدامى المؤلفين وحُملت إلى بعض الأمراء أو الأساقفة أو التجار الذين دفعوا لقاءها أثماناً عالية جداً

عصر النهضة العلمية :

كان الأغريق أحكم الأقدمين قاطبة . فلا عجب إذا افتتن بهم أهل القرن الخامس عشر . وبما أن أفلاطون — وهو الفيلسوف الإغريقي الذي كتب عن سقراط ، أعقل أهل أئتنا — درج على التدريس لتلاميذه في حديقة باسم الأكاديمي (أي الدوة العلمية) فقد أسست في المدن الإيطالية « ندوات علمية ، اختلف إليها محبو المعرفة . وكانت كتابات أفلاطون تُبجَّل تبجيل الكتب المقدسة ، إلى حد إن يسكو دلاَميراندولا أوقد مصباحاً أمام مزار وقفه على تمجيد أفلاطون . بل أن إيراسموس —

وهو العالم الهولندى وأحد المبرزين الأفذاذ — تضرّع إلى « القديس سقراط » أن يصلى من أجله . وأهاب أحد كرادلة الكنيسة بأصحابه ألا يقرءوا ترجمة الكتاب المقدس اللاتينية وذلك لرداءة أسلوبها بالمقارنة إلى اللاتينية السامية التي استخدمها شيشرون . وقال كرينال آخر إن أحداً لا يستطيع أن يفهم الكتاب المقدس ما لم يقرأ كتب أرسطو الإغريق .

ولم تكن تلك المعارف « الجديدة » — في واقع أمرها — غير معارف الإغريق القديمة أعيدَ استكشافها ، لقد كانت بعثاً أى ميلاداً جديداً .

و « عصر النهضة العلمية » هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على تلك الحقبة من الزمان . وقد بلغت النهضة أوجها في مدينة فلورنسا في عهد لورنزو دي ميديتشي من ١٤٦٩ إلى ١٤٩٢ ، وفي روما في عهد ولده البابا ليو العاشر من ١٥١٣ إلى ١٥٢١ . غير أن الأساقفة والنبلاء والتجار ظاهروها في كلّ المدائن طوال نصف قرن من الزمان .

ولم يكن قوام النهضة — من أول عصرها إلى آخرها — الكتب وحدها بعد أن نُقِبَ في خرائب روما عن النقوش والتماثيل . وقد استخفي دونا تيللو النحات استخفاء في ثياب عامل وجال في كل مكان بمخوٍ له ومجرّفته ليستخرج دفائنها من التحف والفرائد فلم يظفر بطائل ، ولم يلبث أن أكره على السعي إلى رزقه من مهنة صياغة الذهب . وعندما وجد تمثالاً لاؤكوئين مطمورا بالقرب من روما نقب عنه الفنان الكبير ميكلاًنجيلو شخصياً ونقل (التمثال) عبر المدينة في موكب كواكب الغزاة الفاتحين : ازدانت الشوارع بالأعلام ودُقت الأجراس وأطلقت المدافع بينما كان الشعب يهمل وينثر لأزهار ونقلت النقود المعدنية والأوسمة (المداليات) والنفائس والقوارير البرونزية وأواني الزينة ونماذج الوجوه المصغرة ، نقلت أحمالاً في السفن من الجزائر الإغريقية إلى البندقية حيث دفع هواة جمع التحف لقاءها أثماناً عالية . ولم يدر في خلد

الفنانين الذين زخرفوا جدران الكنائس والمنازل أن يدخلوا في تصاويرهم، للمناظر التي وردت في الكتاب المقدس، شيئاً من صور آلهة الوثنيين وتمائمهم ! وبما أن القوم الإيطاليون فقد اعتزوا بأنفسهم لأنهم من سلالة الرومان الأقدمين، وقد لبس بعضهم الشَّمْلَة (١) تقليداً لأعضاء مجلس السناتو الروماني. وادعى أحد الباباوات مزهواً، أنه من سلالة الإمبراطور نيرون. وبصرف النظر عن كل ما صدر عن البعض من الانفعال والسلوك الغريب، ظهر كثير من نتائج العمل المضني إلى حين الوجود. فقد قضى كثير من العلماء حياة مديدة في دراسة النحو والصرف الإغريقين وفي تفهم الأشعار والتثيليات والروايات والسير الإغريقية. ولنا لندين بالكثير لكدهم الطويل الأناة الذي سهل جميع ما أتى ذلك من دراسات. وإلى هذا النبوغ والتعمق في العلم، وجدت بإيطاليا، في عصر النهضة، مجموعة مذهلة من عظماء الفنانين.

فقد كان ميكلاً نجحوا يقدر على نحت كتل ضخمة من المرمر، في سرعة ودقة فائقتين، في أعجب موئل للتماثيل رآته الدنيا في كل العصور. وكان ليوناردو دافينتشى يحوب الشوارع ساعات طويلة بحثاً عن « وجوه » تصلح موضوعاً يرسمه بريشته، وكان يصور صوراً، جمالها منقطع النظير وكان نبوغ هذين الفتيانين متعدد النواحي... كان ميكلاً نجحوا أيضاً شاعراً مهندساً. ودرس ليوناردو الموسيقى والرياضيات وخطط لآلات تطير والمدافع سريعة الطلقات، وإن حياته لتذكرنا بقول أفلاطون: « ما ينبغي لرجل يتبع الحكمة أن يهوى نوعاً واحداً من العمل بل عليه بجميع الأعمال، ولقد شحذ عصر النهضة اهتمام الناس بكل ما صنعه الإنسان وبكل ما يسعه صنعه. لقد كان « الإنسان » موضوع دراساتهم ولذا أسموهم « الباحثون في علم الطبيعة البشرية أو علم الإيمان بالإنسان ».

(١) الشَّمْلَة كساء واسع كان الرومانيون (واليونانيون) يشتملون به .

بدأت الفترة العظيمة الأولى — من عصر النهضة العلمية — في إيطاليا . غير أن تلك العظيمة امتدت إلى بقاع أوروبا الغربية . وفي غير إيطاليا تأسى العلماء «إغريقين» ، ومؤمنين بالإنسان : في فرنسا وفي هولاندا وفي ألمانيا . وكثيراً ما وطأت أقدام الإنجليز الطرق الطويلة الممتدة إلى فلورنسا وبولونيا وبادوا ، نعم حدث ذلك في القرون الماضية عندما كانوا يطوفون — بوصفهم طلبة — منشدين أغانيهم اللاتينية . ولقد كانوا يرتحلون إذ ذاك ، بوصفهم حملة مشاعل للمعرفة الجديدة ، ويزورون إيطاليا لينقلوا إلى وطنهم (إنجلترا) حكمة قدامى الإغريق التي بعثت . وكان من بين أولئك : توماس لينناكر مؤسس كلية الأطباء الملكية ، وچرن كولينيت الذي أسس في لندن مدرسة سنت پول . وما هو إلا القليل حتى أخذت اللغة الإغريقية تدرس في أكسفورد وكمبريدج .

وازداد عدد الكتب أضماً فاضاعفة . فقد استأجر الأغنياء من هواة جمع الكتب ، استأجروا النساخين لنقل كتب أفلاطون وأرسطو ومن إليهما . ولم يكن في حساب المؤمنين بالإنسان ، الذين استكشفوا هذا القدر الكبير من المعرفة المنسية ، أن هذه المعرفة قد تضيع مرة أخرى . وكان المفروض أننا سوف نظل ننقل كل كتبنا بأيدينا لولا أن ظهر رجل اسمه بيوهان جوتنبرج كان يعيش في مدينة ماينز الألمانية .

الطباعة :

اخترع جوتنبرج مطبعته حول سنة ١٤٥٠ . وقد عرف الناس ، قبل عهده بزمان طويل ، كيف يطبعون أو كيف يصنعون وسمّاً أو انطباعاتاً ... على الشمع أو على الصلصال ، بخاتم محفور . وكانوا قد بدءوا ينقشون صوراً وحروفاً على كتل من خشب وبدوّن الكتل بالحبر ويخرجون صوراً بسيطة مطبوعة ، وذلك بضغطها على فروخ من الورق ، من نوع الورق الذي نعرفه ، لا من البردى .

وكانت صناعة الورق قائمة منذ بعض الوقت ، تعلمها أسلافنا من العرب الذين يكونون قد نقلوها عن الشرق الأقصى . ثم قفزت صناعته من فورها إلى عمل عادى بسطته الخبرة العالية . وكانت خرق الأقمشة القطنية تمزق وتندف حتى تنسل ثم تحول إلى عجين سائل كاللبن السميك ، وتبييض ، وتسكب على أحواض لتجف وتصير أشرطة من الورق رقيقة بيضاء . وقد كان جوتنبرج يطبع كتبه على الورق .

وأهم ما في اختراعه أنه صنع حروفاً هجائية معدنية تتحرك بحيث يمكن أن تتركب منها كلمات وسطور وصحائف أشد في إطار شداً محكماً ثم تطل بالحرر بحيث يمكن أن يضغظ عليها فرخ الورق بعد الفرخ .

ولقد تعودنا على الكتب المطبوعة إلى حد أننا لا نستطيع أن نتصور الدنيا من دونها ومن دون الورق . فعندما شرع كوسيمودي ميداشي الفلورنسى في إنشاء مكتبته طالب كتباً من مورّد كتبه ، فاستخدم هذا ٤٥٠ نساخاً لينقلوا بخط اليد ٢٠٠ كتاب مختلف ، وقد أنجزوا هذا العمل في ٣٢ شهراً . وكان السيرجون باستون الإنجليزي ينقد نساخة بنسين (أى قرشاً مصرياً على وجه التقريب) لقاء نقل كل صفحة من الصفحات المخطوطة على الرق . على أن أحسن الخطوط المكتوبة بالحرر الأسود الحالك على رق من العاج لتفوق كثيراً في منظرها كل ما كان مطبوعاً آنذاك . وفي الواقع أن كثيراً من الكتب المطبوعة كانت قبيحة إلى حد أن نبيلاً إيطالياً أبى أن يقتنى في مكتبته كتاباً مطبوعاً واحداً ولذا استمر في أن يؤجر طائفة كبيرة من النساخين لينسخوا له الكتب التي يبتغى اقتناؤها .

ولقد واثت الطابعين الأولين فرص فريدة ، إذ أن كتب العالم جميعاً كانت تنتظرهم . واستقرت الطباعة ، بعد بدء اختراعها ، في مدى خمسين عاماً في كل البلاد الغربية ، وعندئذ أضحت الكتب متقنة الصنع . فاستعملت

حروف جديدة واضحة حسنة الرسم . وطبع جو تذربج الكتاب المقدس باللاتينية : وفي إيطاليا طبع ألدوس في البندقية سلسلة عظيمة من الكتب الإغريقية واللاطينية القديمة . وكان الرعيل الأول من الطابعين يختار من بين الكتاب والعلماء .

وقد حدث أن وايم كاستون — وهو تاجر أصواف إنجليزي كان يقيم في بروج — تعلم الطباعة هناك وجاء بمطبعة إلى إنجلترا . وقد أقامها عند ساين أوف ذي ردييل (أى دليل السور الأحمر) القريب من وستمنستر حيث اشتغل بتلك الصناعة المدهشة . وفي الإمكان الوقوف على وصف أول الكتب التى طبعها من «تقفييلته» أى من العبارة التى يختم الكتاب بها .

وهنا ينتهى الكتاب — المسمى : أمالى وأقوال الفلاسفة — الذى طبعته أنا ، وايم كاستون ، فى وستمنستر فى السنة الميلادية ١٤٧٧ . ولقد ترجم هذا الكتاب أخيراً ، من الفرنسية إلى الإنجليزية ، اللورد النبيل القدير : لورد أنتونى إيرل ريفرز .

وكان من بين الكتب العديدة التى طبعها كاستون «أسطورة القديسين الذهبية» ، و «قصص كانتربرى» لـ . تشوسر .

وقد نمت الكتب المطبوعة الرغبة فى دراسة الكتب وبعثت فى الناس الحمية لاغتنام المعرفة التى يمكن أن تصدر عن الكتب ، ويسرت المطبعة لكثير من العلماء قراءة مؤلفات الإغريق والرومان ، وبغير ذلك لم يكن التعرف عليهم ممكناً . والطباعة فى الواقع هى الاختراع الذى حفظ الكتب القديمة والذى يستر كذلك المعرفة الحديدة ونشرها بمجرد ظهورها فى أية بقعة من بقاع العالم .

ولقد جاء الورق والطباعة فى الوقت المناسب لإنقاذ ما بقى من حكمة

الإغريق . ومنذ أن طبع الطابعون الأولون كثيراً من الكتب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية بدأ الناس يدرسون لغتهم الأصلية وإلى جانبها اللاتينية والإغريقية . وقد بدءوا بؤلفون المزيد من الكتب بلغاتهم وإن استمر العلماء في استعمال اللاتينية بوصفها نوعاً من لغة دولية .

الأرض والسماء :

كان السواد الأعظم من الناس يعتقد أن الأرض مسطحة . على أن العلماء كانوا يعتقدون أن الدنيا كرة تدور الشمس حولها . وقد صور الشاعر الإيطالي دانتي ، في قصيدته العجيبة « الملهمة الإلهية » ، صور الجحيم حفرة ذات تسع طبقات تحت الأرض . وصور الأعراف (أو المطهر) على أنها جبل وعرة الانحدار يطلع من البحار الجنوبية . وصور الفردوس على أنه مكان أعلى من منازل السماء التسعة . وكانت تلك المنازل تحاكي كرات ضخمة شفافة يلف كل منها في قلب الأخرى .

وقد زعم كل العلماء تقريباً أن الشمس تدور حول الأرض . غير أنه كانت هناك قلة تعتقد أنه الأرض تدور حول الشمس . وهذا ما زعمه واحد من فلاسفة الإغريق القدماء . وزعم ليوناردودا فنيمنتشي أن الأرض إن هي إلا كوكب كالسواكب الأخرى . وكان الرجل الذي أثبت أن الأرض تدور حول الشمس ، وتلف حول نفسها وهي تسير سيرها ، هو : نيقولا كوبرنيكوس ، وهو بولندي وقسيس كاثوليكي سابق درس في جامعات كراكاو — و — بولونيا — و — بادوا . ولقد كتب عنها بعد أن درس الرياضيات والفلك .

وذاعت أفكاره ذيوماً بطيئاً . واستأنف آخرون عمله وبرهنوا على صحة ما ذهب إليه وبدءوا يرسمون عالم السواكب والنجوم .

ويصح أن يقال بحق إن رحالة النهضة العلمية وباحثيها وفنانيها وعلماءها قدموا للناس دنيا جديدة ومعرفة جديدة ومعنى جديداً للجمال وسماء جديدة

الباب الخامس ممالك الغرب الكبرى والدنيا الأمريكية الجديدة

الإمارات والدول :

« شخصيات هذا الجزء من الحكاية : ممالك ودول . وكانت ممالك الغرب الكبرى هي أسبانيا وفرنسا ، وإنجلترا ... التي أصبحت بريطانيا العظمى في عام ١٦٠٣ و قتما ورث الملك جيمس الأسكتلندي عرش إليزابيث الأولى الإنجليزية . وكانت لهذه الممالك الثلاث شواطئ طويلة على المحيط ، وقد كاثت ضد بعضها البعض من أجل التجارة وأملاك ما وراء البحار ، وكانت هي الممالك التي حققت أكبر الثراء من استكشاف أمريكا ومن فتح باب التجارة مع إفريقيا والهند والشرق الأقصى .

وكذلك اشتغلت دولتان ، أصغر شأناً ، بالتجارة والمستعمرات ، وهما مملكة البرتغال وجمهورية هولاندا ، وتقعان على شواطئ أوروبا . وكانت في داخل أوروبا ، بلا شواطئ ، دولتا النمساويين والأتراك القويّات وحوت كل منهما شعوباً متعددة .

وكان حكام النساء — البالغة الصغر في حـد ذاتها — يلبسون تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ذلك أنهم ورثوا الأبهة والصولة والجلال عن أباطرة القرون الوسطى الذين زعموا أنهم الخلفاء المسيحيون لأباطرة الدنيا القديمة « الرومان » .

وكان أباطرة الرومان النمساويون المقدسون هم السادة الأعلى لمجموعة الممالك الألمانية وإماراتها ولولاياتها ومدنها ، غير أنه تعذر عليهم إقرار

النظام فيها : إذ أن ولايات ألمانية قوية — مثل بافاريا وسكسونيا وفوتمبرج — كانت تنصرف على هواها إلى حد كبير . ومع ذلك كان للإمبراطور الروماني المقدس سلطان شرعى عليها . وكان الأباطرة — إلى أنهم حكام ألمانيا التقليديون — كانوا كذلك ملوكاً على هنجاريا حيث عاش المجريون . وتحتّم عليهم — نتيجة لذلك — حماية أوروبا من الأتراك المسلمين . ولقد تملّسوا كذلك على البوهيميين الذين نعرفهم الآن باسم التشيك .

وقد حاول سلاطين تركيا أن يهيمنوا على إمبراطورية ضخمة كانت تمتد من نهر الدانوب إلى الفرات وإلى النيل ، إمبراطورية أسست على الانقراض المتعددة الأشكال لمدنات قديمة أخذت الآن تتحطم وتتعفن وتصبح فلاة أو هباء .

وفي الناحية الشرقية كان ينتشر — على السهول الأوروبية الكبرى — البروسيون وهم شعب تخومى من الفرسان الشجعان ومن ملاك الأرض نشئوا على حب الحرب ، على غرار أمراء ويلز العسكريين لهذه الجزيرة في القرون الوسطى . وكان من خلف البروسيين : البولنديون الكاثوليك الشجعان يحكمهم ملك خاص بهم . وعلى مبعدة منهم ، على مسافة جد طويلة ، وجدت حول موسكو ، ملكة الموسكوف التى كانت بداية روسيا الحديثة . وقد أخذ تجارنا يتاجرون مع الموسكوف ، وذلك عقب مغامرتين . فلقد أبحر ويلوبى وتشانسيلور إلى البحر الأبيض ومنه رحل تشانسيلور براً إلى قصر إيثان الرهيب الفخم .

وظلت إيطاليا بلاداً ، تسعى كل مدينة فيها إلى حظها من الثراء . بلاداً لا يحسب أهلها أنفسهم إيطاليين بل رومانيين أو بندقيين أو فلورنسيين أو جنوئين . وكان يحكم قلب شبه الجزيرة مندوبون من قبل البابا .

وقد أسمينا هذه الأمم والممالك « شخصيات »، وكأننا نسكتب تمثيلية . وقد نستطرد إلى القول بأن للتمثيلية مشهدين أساسيين : المشهد الأول ، أوربا حيث كان الملوك يحاربون ابتغاء السلطان والبقاع : النمسا ضد تركيا ، والنمسا ضد فرنسا ، وفرنسا ضد أسبانيا ، وبريطانيا ضد فرنسا الخ . والمشهد الثانى ، المحيطات والدنيا الجديدة حيث تسابقت أسبانيا وفرنسا وبريطانيا فى مضمار التجارة والمستعمرات .

وكانت المملكة التى عقد لها التفوق فى كلا المضمارين هى فرنسا . ذلك أنها كانت كأنها محور تدور حوله ثروات الدول الغربية . وكان الفرنسيون يقودون الدول المسيحية ضد المسلمين فى الحروب الصليبية حتى إن العرب والترك كانوا يعدون كل غزى « فرنجيا » أو فرنسياً . وظل الفرنسيون يتزعمون المدنية الغربية فى العصور الحديثة . وفى القرن السابع عشر كانت آداب السلوك الفرنسية والأزياء الفرنسية والآداب الفرنسية والعلوم الفرنسية ، كانت كلها نماذج تحتذيها أوربا بأسرها . وكانت اللغة الفرنسية هى لغة التخاطب بين الأمم المختلفة ، لغة السفراء ومعاهدات الصلح ، وقد استمر ذلك معمولاً به حتى القرن العشرين ، بل إنها كانت اللسان المذهب المثمن حتى لدى البلاط الألمانى والنبلاء الروسين . وكان احتذاء الملايس وآداب السلوك الفرنسية سمة ... المرء تربي وتذهب .

مذاهب كنسية متعددة بدلاً من مذهب واحد :

وقتما أبحر كولومبوس إلى أمريكا — أول مرة — على ظهر سفينة أسبانية كان يحكم أسبانيا : فرديناند حاكم أراجون وإيزابيلا حاکمة قشتالة . وبزواجهما أصبحت أسبانيا مملكة موحدة وقوية ، وأثرت بالذهب الأمريكى . وبفضل التوفيق فى زيجات أخرى لم يرث حفيدهما — شارل الخامس — أسبانيا والممتلكات الأسبانية فى أمريكا فحسب به ورث أيضاً تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فحكم النمسا والمجر والدويلات الألمانية

(بما فيها ما نسميه الآن : بلجيكا وهولاندا) وأسبانيا وأمريكا الأسبانية . ولم يسبق للملك قط أن ظفر بمركز قوى كهذا أو تعرض لمتاعب شديدة كتلك . ذلك أن محاولة حكم أسبانيا والإمبراطورية جميعاً ، دفعة واحدة ، لم يكن بالأمر السهل إطلاقاً حتى في الآونة العادية . ومن سوء حظ شارل الخامس — الذى كان واسع الأفق — أن قامت ، فى حكمه وفى أملاكه ، ثورة على تعاليم الكنيسة . وبما أنه كان إمبراطوراً فقد أصبح — بطبيعة الحال — حامى الكنيسة .

و « الشقاق الدينى » — حسب مدلول التعبير الإغريق يفيد الخروج أو الانشقاق على الشريعة المتبعة . ولقد كان الشقاق الدينى — الذى حدث فى القرن السادس عشر والذى عرف باسم : الإصلاح الدينى — كان ، بصفة أخص ، من عمل رجلين شهيرين هما مارتين لوثر وجون كالفن .

وكانت حال الكنيسة سيئة . فلقد كثر ، بين الرهبان ، المستهينون والمتوانون ، كثرة فاحشة . ووجدت بين كبار رجال الكنيسة أغلبية ضئيلة تهالك على اقتناء الأرض والأموال لأنفسهم ولذويهم . وتاق الناس الطيبون فى كل مكان إلى أن يروا تحسناً فى أمور الكنيسة ، وأجريت إصلاحات صغيرة هنا وهناك . ففى أسبانيا كان الكهان يحكمون حكماً شديداً التحفظ . وفى إيطاليا ضربت جماعات من الناس الصالحين مثلاً طيباً للحياة المسيحية وذلك بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة المعوزين والمرضى .

وفى إنجلترا حوّل قليل من الأديرة التالفة إلى مدارس . ولكن أكبر الاضطراب كان فى روما نفسها . فالباباوات لم يكونوا دائماً على ما ينبغى . لهم أن يكونوا . فلقد حاكى بعضهم ، كل المحاكاة ، الأمراء العاديين ، يكسسون الثروات لأنفسهم ولبنى إخوانهم ، ولأولاد أولئك فى بعض الأحيان .

ولربما كان بعضهم علماء صالحين ، ولكن كنسيين طالحين . وبطبيعة الحال : إذا لم يبلغ البابا ورجال الكنيسة مستوى الصلاح الذي وجب أن يكونوا عليه فإن أمراء أوروبا ونبلاءها كانوا مثلهم فاسدين . وأمسى الكثيرون من الناس مهملين أو قل : دنيويين . وكان هناك فعلاً — قبل عهد شارل الخامس بوقت طويل نوعاً — باباوان متنافسان : واحد في فرنسا وواحد في روما . وكان ختام هذه الحالة المؤسفة عقد مجالس كنسية . وتحسنت أحوال الكنيسة تحسناً يسيراً ، إذا كانت قد تحسنت أصلاً . ولكنها ظلت مع ذلك سيئة إلى حد قلق معه الناس الطيبون من أمثال سير توماس مور كبير قضاة إنجلترا وصديقه إيراسموس ، ذلك الهولاندي الذي كان واحداً من العلماء الأعلام في زمانه .

وكانت الكنيسة ، منذ وقت سحيق ، قد عملت على أن يشعر جميع الشعوب ، التي استقرت في بقاع الإمبراطورية الرومانية القديمة ، بأنها أعضاء في مجتمع مسيحي كبير واحد على الرغم من اختلاف لغاتهم وتعدد ملوكهم . أما الآن فقد بدأ الناس يشعرون بغير ذلك . قال رجل من البندقية يوماً « دعونا نكون بندقيين أولاً ثم مسيحيين بعد ذلك » . ولقد أذن الوقت بأن نقول عما قليل « دعونا نكون فرنسيين أو ألماناً أو إنجليزاً أولاً ثم مسيحيين بعد ذلك » . فلقد كانوا يفكرون في أن يكونوا وطنيين . أكثر مما كانوا يفكرون في أن يكونوا مسيحيين .

وبفرض أن الحال لم تكن على هذا المنوال بل بفرض أن الكنيسة كانت على حال طيبة فإنه لم يكن بد من حدوث مجادلات ومشاحنات في شؤون الدين . ذلك أن اختراع الطباعة قدم الكتاب المقدس إلى كل الناس ليقرأوه وما فهم الكتاب المقدس بالأمر اليسير ، وإن الناس المختلفين ليفسرون تعاليمه تفاسير مختلفة .

هكذا ، إذن كانت الحال وقتما كان شارل الخامس يبذل ماوسعه من جهد
في حكم نصف أوربا .

ولد مارتن لوثر — وهو ولد معدن ألماني — في أيزلين عام ١٤٨٣ .
وكان مجتهداً فتلقى دروساً في النحو والصرف مصحوبة بكثير من الضرب
بالسوط كي يكتب على كتبه . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره دخل جامعة
إيرفورت حيث نال ، في سنة ١٥٠٥ ، درجة الأستاذية في الآداب وأمسى
قسيساً . ثم عين مدرساً في جامعة فيتنبرج الجديدة حيث لفت الأنظار
بغيرته وتفوقه في اللغة . وكان قانناً غيوراً على الكنيسة .

وحدث أن أمرين غيرا حياته وغيرا — تبعاً لذلك — حياة ملايين غيره :

الأمر الأول أنه رحل إلى روما عام ١٥١١ وأفرغته قلة الصلاح
والاحتشام بين أسراب رجال الكنيسة .

والأمر الثاني أنه خاصم راهباً اسمه جون تيتزل . (١)

كان تيتزل يجوب البلاد لبيع الغفران ويحصل من ذلك على أموال
للأببا . . . تماماً كما صنع بائع الغفران الذي تحدث عنه تشوسر . نعم
إن الرجل الذي يندم حقاً على ذنوب ارتكبتها لا يضايقه أبداً تقديم أموال
للكنيسة . ولكن صكوك الغفران تلك كانت تطرح للبيع أمام الناس جميعاً
بشتى أنواعها كالأدوية الرخيصة أو الفطائر المحشوة . ولم يكن عليك إلا أن
تقدم نقودك وتسلم غفران سيئاتك .

لقد كانت الفكرة حسنة ولكن طريقة تنفيذها كانت سيئة .

كان تيتزل يدق طبلة ليستجمع الناس حوله . فقال لوثر : سأحدث ثقباً

(١) يوحنا تيتزل .

في طلبته بإذن الله ، وعمد إلى كتابة خمسة وتسعين من التقارير أو البحوث ضد المتاجرة بصكوك الغفران وإلى تعليق الرقوق على باب الكنيسة ، وهي المكان المعتاد لإعلان الإشعارات ، كما هي الحال الآن ، في أغلب الأحيان . وقد ترتبت على هذا مجادلات عنيفة . وانحاز الكثيرون إلى رأى لوثر .

وكان لوثر ماهراً أميناً . وظل زماناً طويلاً تساوره الشكوك والخاوف . حتى تنبه إلى النص الوارد « أما البار فبالإيمان يحيى » ، وكان هذا كالنور بالإنجيل العظيم بدد ظلام حيرته . وفكر : أية حاجة بنا إلى هذه الغفرانات ومخلفات القديسين الأثرية والحج والآبئة والمظاهر ولثراء رجال الكنيسة الفاحش ؟ وفي سنة ١٥٢٠ وجه نداء إلى نبلاء ألمانيا حمل فيه على ادعاء البابا رياسة الكنيسة ، قال فيه : « في وسع كل مسيحي أن يعرف دينه وأن يقدره قدره » . وعلى هذا فلا محل لأن يقف القساوسة بين الله والناس إذ أن الناس يسعون أن يسترشدوا بكتبهم المقدس وبضمايرهم .

وكان هذا تحدياً للبابا والإمبراطور تبعاً لذلك . وفي سنة ١٥٢١ استدعى لوثر لحضور « مجمع عام » أو اجتماع للجلس الإمبراطوري في ورمس ليخيب عن سلوكه . فلما مثل أمام شارل الخامس والنبلاء وأساقفة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في كامل أبهتهم وجلالهم ، أبى أن يسحب كلمة واحدة مما سبق له قوله ، فقد أوتى شجاعة فائقة . وتوقع السجن والموت : الموت حرقاً . وعلى أية حال فقد قضوا بخروجه على القانون وحرمانه من حمايته إياه ، أى أن دمه أهدر لدى من يريد قتله . إلا أنه وجد ملاذاً بحصن حاكم سكسونيا ، وكان من النبلاء الذين أحبوه كما كان قوياً إلى حد لا يخشى معه شارل الخامس . وفي هذا الحصن بدأ لوثر ، ترجمته العظيمة للكتاب المقدس عن النسخة اللاتينية إلى اللغة الألمانية ، تلك الترجمة التي أصبحت الآن أحد كنوز الأدب الألماني .

وكان لوثر شاعراً ومتفقاً في اللغة ، وقد حداً كتابه المقدس بمئات من الناس إلى الأخذ بتعاليمه .

واستمرت أفكار لوثر تنتشر في ألمانيا وهولاندا وفي إنجلترا . غير أنه لم يكن زعيماً يستطيع أن يؤسس كنيسة جديدة . وإلى أن جاء ذلك الوقت وجد كثيرون يبشرون ضد روما والباباوات . وكان من بينهم واحد بزهم جميعاً وهو جون كلثن .

كان كلثن أصغر من لوثر بكثير . ولد في ١٥٠٩ . وهو ابن محام فرنسي وقد تمرن ليصبح محامياً مثله . ودراسة القانون تشجذ الفطنة وتزيدها مضاء . وكان كلثن ما يزال شاباً عندما طبع ، في سنة ١٥٣٦ « مجامع الدين المسيحي » وهو كتاب ممتاز أرسى أسس مشروع مكتمل لحكم الكنيسة وللمعتقداتها . وأصبح هذا هو الأساس القوي لكنيسة كاثوليكية جديدة ، كنيسة يحكمها رعاتها وشيوخها ، كنيسة صارمة دقيقة ، أدق بكثير من كنيسة روما القديمة . وقد زعمت المجامع الكاثوليكية أن رجالها هم رجال الله المختارون . وعندما اضطهدهم « الكاثوليك » — حسب الاسم الذي كان يطلق إذ ذاك على رجال الكنيسة القديمة — عمدوا هم إلى اضطهاد الكاثوليك . وكان كل هذا ، في الواقع ، عنيفاً فظيماً غير أن الناس عندما يبدأون في الانحياز إلى هذا أو ذاك يكره بعضهم البعض — في أغلب الأحوال — دون مبرر .

وقضى جون كلثن سنين عديدة في حكم كنيسة في جنيف إلى حيث انتقل عشرات وعشرات من الرعاة ثم انطلقوا يبشرون بتعاليمه . وكانوا — في فرنسا — يعرفون باسم « الهوجنوت » وفي إنجلترا باسم « البرزبيت » أي المشيخيين .

ولربما كان الباباوات ورجال كنيستهم قد تطلّعوا إلى أن يردوا ، يوماً ما ،

بعض اللوثريين إلى الدين القديم . غير أن الكالفينيين قوبلوا في كل مكان بالسيف والبارود ، وكانوا هم كذلك ، يحسنون استعمالهما ، وقد خسر الكاثوليك ذلك .

وكان باباوات روما وكالفينيون حنيف خصوماً ألداء .

وكانت نتيجة هذا كله أن جزءاً كبيراً من الشعبين الألمان والهلواندي أصبح لوثيرياً ، وما يزال كذلك . وأصبح جمهور كبير من الفرنسيين كاثوليكاً أو هوجنوتياً . وحدثت في ألمانيا وفرنسا حروب ضاربة بين الكاثوليك والبروتستانت ، حروب لم تزد على أن أججت مرارة كل فريق ضد خصمه .

ومن أسف أنه كان في كل من الفريقين أناس طيرون صالحون مخلصون وأن مذاهب المسيحية المختلفة تأثرت بأوطان الناس . ففي اللحظة التي خرج فيها الأوروبيون — أول مرة — ليلاقوا الشعوب الأصلية في أمريكا وإفريقيا وآسيا، عندئذ ذهبوا شيعاً مسيحية مختلفة بدلاً من أن يذهبوا على أنهم إخوان في المسيحية .

الملك هال المخادع :

انتشل هنري السابع الإنجليزي — وهو د الملك الحزين الوقور ذو الأفكار الجياشة ، الذي كان يحكم عندما استكشف كولومبوس أمريكا — انتشل هنري السابع ملكته من شغب الأمراء ومن معارك حروب الورد ووصل بها إلى بر السلام والرخاء . واستمتع الإنجليز ، في مدى أربعة وعشرين عاماً ، بحكمه الحازم الرحيم . فلقد كبح قوة الأمراء ونشط التجارة الخارجية . وبما أوتي من الاقتصاد والتدبير ترك الخزانة الملكية عامرة بعد وفاته ، على غير عادة الملوك بصفة عامة . وعند وفاة ذلك الملك الرمادي العينين المتحفظ الحذر ورث عرشه ولده في سنة ١٥٠٩ م باسم هنري الثامن .

كان الملك الجديد في الثامنة عشرة من عمره ، وكان مرحاً وسياً مغرمًا بالتنس وصيد الصقور ورمى السهام شغفاً بالموسيقى ميالاً إلى العلم . وكان محباً للمسرة والعشرة الطيبة ودوداً طيب السجية ، كل ذلك مالم يعترضه معترض . وظل بلاطه ثمانية عشر عاماً في فرح بالأعياد وألعاب الفروسية (البرجاس) والولائم والرقص التنكري وإضاءة المشاعل والشموع في رتشموند وجرينتش . وكان هنري — في كبير مستشاريه الكاردينال وولزي — خادماً أميناً حكيماً . ولقد كان وولزي حقاً واحداً من الأمراء العظام الآخرين في الكنيسة الكاثوليكية الإنجليزية . كان يأوى في بيته خمسمائة : من السادة واللوردات ومن الخاصة والخدم . وإذا نطق — مشمولاً بالرعاية الملكية — فإن صوته هو صوت إنجلترا . وبوصفه كبيراً للمستشارين كان تلقائياً « الحفيظ على الضمير الملكي » . وبوصفه كاردنياً كان يتطلع إلى أن يكون يوماً هو البابا . ومع هذا فقد بدأ حياته ابناً لتاجر في لبسوتش . ولم يتأت لأحد من أي ملك رعايا إنجليزى مثل أبيته وترفه ، كما لم يحدث لأحد منهم أن عمل لسيدته يمثل هذا الكدح والعناء .

كان هنري شديد التعلق بالكنيسة ، وقد كتب كتاباً ينسكرك فيه مارتن لوثر وتعاليمه ، ولم يتقبل مشاركة الشوار من أي نوع في أي عمل . ومع هذا لم يمض القليل حتى أخذ يشهر بالبابا .

وكانت زوجته الملكة ، أديرة أسبانية ، هي كاترين من أراجون . ولم ينجبا غير طفلة وحيدة هي ماري التي كانت قرّة عينيه . ولكنه ناق إلى أن ينجب مولوداً ذكرًا يرث عرشه . وأغرم غراماً عنيفاً ب... آن بولين من سيدات البلاط . وسأل البابا أن يمنحه الطلاق فأبى ، فما كان من هنري إلا أن

أنكر سلطان البابا. ذلك أنه لم يكن يسمح لشأن من شؤون الضمير أو السياسة أن يعترض أمراً متى صحت عزمته على تنفيذه . فانقلب من فوره ، من رفيق حسن السريرة إلى طاغية عنيد . ونادى بنفسه رئيساً للكنيسة ، وهياً بنفسه ظروف طلاقه، وتزوج (آن) وطرده كاترين ومارى التعسيتين لتعيشا في الريف عيشة العوز .

وولدت الملكة الجديدة بنتاً (إليزابيث) ولم يلبث أن أمر بضرب عنق الملكة بتهمة أنها أحبت رجلاً آخر .

وقد جمعت تلك الحوادث الحزى والموت لكثير من الرجال .

وعزل وولزي (مستشاره) وقبض عليه ومات حزناً وكداً . ثم إن رهبان جرينتش الورعين ونسك (دار الميثاق) الكرتوزيين بلندن — الذين اعترضوا على الطلاق — ألقى بهم في غياهب برج لندن حيث ماتوا وتعفنوا . وقطعت رأس سير توماس مور — أحكم مستشاري عهد — وأنبل رجاله — لأنه لم يغير من ولائه للكنيسة الذي لازمه طوال حياته . وحكم بالإعدام كذلك على فيشر أسقف روشستر البار . وألقيت مقاليد الحكم إلى توماس كرمويل وهو مغامر كان يوماً في خدمة وولزي وخوّل سلطنة وضع اليد على الأديرة وعلى أموالها وكنوزها وأراضيها . وقد فعل هذا وباع ممتلكات الأديرة لحساب الملك . وشنق بعض رؤساء الأديرة . وقد عوملت غالبية الرهبان معاملة معقولة . غير أن رجال البلاد الشمالية — عندما ثاروا على القضاء ، في نزق وتهور ، على بيوتهم الدينية القديمة — أبادهم هنري في قوة لا تعرف الرحمة . فلقد كانت رغبات الملك قانوناً . ومن يعترض على الإرادة الملكية فهو ثائر . والثوار يستأهلون الموت . لقد كان الأمر ، من أوله إلى آخره ، بسيطاً إلى ذلك الحد .

وكان مصدر كل هذا العنت والاضطراب رغبة الملك في الطلاق وطبيعته

الفاسدة العاتية التي — على حد قول وولزى — لم تكن لتسمح لأى شيء أن يعترض رغباته . وفى الحق أن هنرى كان سىء الحظ إلى حد منقطع النظير ، وذلك فى مغامراته الزوجية بعد أن طرد كاترين لتعيش فى الريف عيشة الخزى وبعد أن أطاح برأس آن بولين . ولقد تزوج بعد ذلك أربع مرات . ماتت زوجته الثالثة وهى تضع غلاماً ضعيفاً هو إدوارد : الابن والوارث الذى طال إنتظاره . والزوجة الرابعة — وهى أميرة ألمانية پروتستانتية — ظهر أنها ساذجة بلهاء وأحيلت على المعاش تواء . والخامسة — التى عرف سائر الناس أنها فتاة نزقة هوائية والتى أسرت هنرى بشبابها وفتنتها — لم تلبث أن قطع رأسها لأنها أحبت رجلاً آخر . والسادسة أرملة تعهدته بعنايتها وعاشت بعده . وهنرى — زوجاً — يبدو عديم الهيبة والحكمة . ولقد ترك بعدموته أسرة غريبة التنوع ، ثلاثة أطفال لأمهات مختلفات : الأميرة مارى الكاثوليكية ، والأميرة إليزابيث والأمير إدوارد اللذين ربيا تربية پروتستانتية . على أن هنرى لم يكن پروتستانتياً فى شيء . وظل يكره لوثر وأعماله . لم يكن يهمه غير شخص هنرى ولذا كان يقدر ما يراه هو فى شأن دينه . لقد عاقب البروتستانت لأنكارهم حقيقة العقيدة الكاثوليكية ، وعاقب الكاثوليك لأنكارهم رياسته للكنيسة . هنرى وحده على حق . ولا سبيل إلى معرفة رأى السواد الأعظم من الشعب الإنجليزى إذ ذاك ، إذ الزم أغلبه الصمت الحكيم . وأغرب ما فى منازعات هنرى للبابا هو توقيته . فلقد حدثت وقتما كانت تعاليم لوثر البروتستانتية تكسب أنصاراً من بين الكاثوليك فى كمبردج وغيرها ، وهذا ما زاد صعوبة التفاهم بين طريقتى العبادة : القديمة والجديدة .

وفى المدى القصير الذى فيه جلس على العرش الصبى ، الملك إدوارد السادس ، بتوجيه بعض النبلاء البروتستانت ، انتشرت تعاليم لوثر انتشاراً

واسعاً وحدث مزيد من نهب الكنائس ، ومن تمزيق الأستار المنقوشة عليها صور المسيح مصلوباً ، واغتصاب الأواني الثمينة والملابس الفاخرة ، وحرق الكتب القديمة ، والاتلاف الشامل للأشغال اليدوية الدقيقة التي تحلى الخشب والمرمر. وقد أثرى بعض الناس، وأسست مدارس قليلة العدد، ولم تعطى الثروة المنهوبة إلى الكنائس البروتستانتية الجديدة . وعلى الجملة كابد الفقراء مثلما ما كابدوا عندما جرد أولئك السادة أنفسهم صغار الفلاحين من أراضيهم ، وذلك لينشئوا حظائر الماشية . إنهم سادة أوجز وصفهم أحد النبلاء بقوله « رجال طلعوا من تحت كوم سباح » .

وعندما ورثت الأميرة ماري تيودور — الكاثوليكية المخلصة — عرش إدوارد عام ١٥٥٣ هتف لها الشعب وفرح بها مستبشراً . فلقد تربت في الكنيسة القديمة (وقد يكون ذلك عيباً بسيطاً في نظر البعض) . لقد كانت أميرة ملكية أصيلة وابنة كاترين ملكة أراجون المحبوبة . غير أن شبابها الغض عصفت به قسوة أيها . وكان يصح أن تصبح ملكة سعيدة خيرة ولكنها امتنعت ودفعت إلى العوز بل هددت أكثر من عشرين عاماً . ثم لأنها لم تزد شعبية عندما تزوجت فيليب الأسباني في أبروشية ونشستر . وعندما أمرت باضطهاد عشرات وعشرات من البروتستانت أحرقت حول الخازوق . لقد كانت حقاً امرأة دمثة طيبة القلب في كل أعمالها اللهم إلا في حرق البروتستانت . ولا مرأى في أن الاضطهاد الذي أمرت به كان له تأثير كبير في تعريض قضية الكاثوليكية لمقت الكثيرين . ولما ماتت ، دون عقب ، في سنة ١٥٥٨ ورث عرشها أختها إليزابيث .

وإليزابيث الأولى هي ابنة آن بولين تلك التي تخاصم الملك هنري ، بسبب حبه لها . مع البابا . وقد اتخذت مكان أبيها في رئاسة كنيسة إنجلترا ، وأعادت إصدار

كتاب الصلوات الذي وضعه أخوها إدوارد لينتفع به رعاياها . كانت إنجلترا في عهدها — من الناحية الرسمية — بلاداً پروتستانتية ولكنها كانت أكثر من ملكة پروتستانتية . ولقد ثبت أنها — بجدها هنري السابع — « أعجوبة في نظر العقلاء » ، لقد حكمت ٥٠ عاماً وسط مخاوف ومؤامرات ، وساعدتها شخصيتها على جعل حكمها بالغ الغرابة كالأقاصيص .

كتب مقدسة للفلاحين :

كتابان من أجل الكتب التي كتبت باللغة الإنجليزية في أي زمن من الأزمان الماضية خرجاً من بين كل مظاهر الشعب عندما كان ذوو العقول الخشبية يحطمون النقوش الحجرية والخشبية وينهبون المزارات ويتلفون ما إن تسعف قرائحهم يوماً في صنع مثله .

ويرجع أكبر الفضل في وضع كتاب الصلوات إلى توماس كرانمار الذي نصبه هنري الثامن أسقفاً لـ . . . كاتدربري . وكثير من تلك الصلوات تُرجم عن الصلوات الكاثوليكية القديمة في سلسبري . غير أن هذه العبارات الجديرة بالذكر لا تصدر إلا من مـلك أعنة الألفاظ :

« يا رب ، يا من عندك كل إرادة طاهرة ومشورة حسنة وعمل صالح ، لمنح عبيدك السلام الذي من قبلك وإيس من الأرضيات . ولتأصل فينا وحدانية القلب لنطيع أوامرك . وبحبة ظك نجنا من قيام الأعداء لكي نكمل أيماننا بكل طمأنينة وسلامة ، .

ولقد أحرق كرانمار المسكين عند الخازوق بـ . . . أكسفورد بأمر من ماري تيودور ليس فقط لأنه پروتستانتي بل كذلك لأنه طلق أمها امتثالاً لأمر هنري . ولقد ملك كرانمار هبة البلاغة وهي هبة جعلت صلواته يتردد صداها منذ ذلك الوقت في كل مكان يتكلم فيه باللغة الإنجليزية .

وفي كل مكان يتكلم فيه باللغة الإنجليزية يدخر الناس الكتاب المقدس الإنجليزي .

وقد تمت الترجمة النهائية عام ١٦١١ على يد جماعة من العلماء الذين يتقنون اللغتين الإغريقية والعبرية وطُبعت على أنها الكتاب المقدس الذي صدر تحت إشراف الملك جيمس وكان أغلب أولئك العلماء من الشيوخ الذين درجوا على الاستماع إلى لاتينية الكتاب المقدس القديم والذين نشئوا على البساطة السامية التي كانت عليها اللغة في مستهل عهد أسرة تيودور وقد استندت ترجمتهم إلى حد كبير على أعمال وليم تيندال الذي كلف نفسه — في عهد هنري الثامن — عناء القيام بترجمة تسمى في متناول فهم كل فلاح . وإليك ترجمته ليشوع في الفقرة الخامسة والثلاثين :

« تنشرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القصر ويزهو كالزنابق .
يظلم إظهاراً ويبتهج ابتهاجاً ويرنم . يرفع إليه مجد لبنان وبهاء كرم
لبنان . هم يرون مجد الأب وبهاء آلهتنا . شددوا الأيادي
المسترخية والركب المرتعشة ثبتوها .

قولوا لخائفى القلوب تشددوا . لا تخافوا هوذا إلهكم . الانتقام
يأتى جزاء الله . هو يأتى ويخلصكم . حينئذ تنفتح عيون العمى ،
وآذان الصم تنفتح . حينئذ يقفز الأعرج كالآيل ويترنم لسان
الأخرس . »

هذا هو تيندال . وترجمة ١٦١١ هي اليوم بين أيدينا جميعاً . وفي
الإمكان مقارنتها بتلك . وقد اضطر تيندال إلى أن يهر سراً إلى البلاد
الواطئة ليستأنف عمله دون أن تزججه الشرطة الملكية . هذا وإن يكن هنري
الثامن قد أصدر ، فيما بعد ، كتاباً مقدساً إنجليزياً ينتفع به رعاياه . وقد لقي
تيندال حتفه بسبب عقيدته البروتستانتية ، فقد خنق وأحرق عام ١٥٣٦
بأمر من الإمبراطور شارل الخامس .

أما تأثير الكتاب المقدس على اللغة الإنجليزية فيجمل عن الوصف ذلك .
أن ألفاظه وعباراته أصبحت جزءاً من اللغة التي نتكلمها . وأن السجية
التصويرية الواضحة في العبرية وبساطة الإغريقية ووضوحها لم تنتقلا بمثل
البراعة التي نقلتا بها إلى الإنجليزية . ولقد كان — في نظر جماهير غفيرة —
الكتاب الوحيد الذي يستحق أن يقرأ . وقد وجد فيه الكثيرون تاريخهم
وجغرافيتهم كما وجدوا فيه دينهم . وقد تشربوا تاريخ اليهود كأنه سجل
أسلافهم الوثنيين .

مائة السنة الأسبانية :

في القرن السادس عشر كانت أقوى دولة في العالم هي أسبانيا . وكان
تاريخها مغيراً كل المغيرة للبقاع الغربية الأخرى . نعم لأنها تمالهم في أنها
كانت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية . غير أنه قبل ذلك بزمان طويل
كانت مناجمها ومزارعها وموانئها يديرها القرطاجنيون من إفريقيا . وبعد
تدهور روما فتحها العرب المسلمون والمغاربة من إفريقيا . وظل معظم تلك
البلاد تحت حكمهم — بعيداً عن تيار المسيحية العام — حتى تجمع ملوك
النصارى وفرسانهم ، من الشمال والشمال الغربي ، وحاربوا حروباً طويلة
انتهت بمعركة غرناطة التي انتصروا فيها .

وفي ذلك الوقت أخذت أسبانيا تزيد ثراء فوق ثراء بذهب أمريكا
وفضتها . ومردت هذا إلى رحلة كولومبوس البطولية . وبينما كانت القادسيات
(وهي السفائن الأسبانية الكبيرة) الفخمة تندفع ، في كل عام ، بشراعتها
عائدة إلى وطنها مع الرياح التجارية عبر الأطلنطي ، كان نواب ملوكها
يحكمون الأراضي الواطئة بمساعدة المشاة الأسبان المشهورين الحسنى
التدريب ، إذ أنه بفضل الزيجات الملكية السعيدة أمسى فيليب الثاني
الأسباني يحكم كذلك الأراضي الواطئة . وكان فرسان أسبانيا وجندها
يقومون بالحراسة على مصبات الراين وعلى طول شواطئ البحر الكاريبي .

وفي كل فترة من فترات القرن السادس عشر كان النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت الجدد يزيد في مرارته . لقد كان الأسبان من الكاثوليك ، ولكن رعاياهم الهولانديين كان معظمهم من البروتستانت ، تماماً كحال شعبي إنجلترا واسكتلندا . أما الأيرلنديون فقد ظلوا من الكاثوليك .

وفي ١٥٨٨ أرسل فيليب الثاني — الذي كانت جنوده تعسكر في الأراضي الواطئة — أسطولاً ضخماً أو « أرمادا » ليغزوا إنجلترا ويحتلها . وكانت هذه الحملة خاتمة دراما وقعت فصولها الباكورة في إسكتلندا وفي الأراضي الواطئة وفي الدنيا الأمريكية الجديدة .

ماري ملكة الأسكتلنديين :

يتصل ملوك آل ستيورات الأسكتلنديون — عن طريق المصاهرة — بآل تيودور الإنجليزي . وكانت إليزابيث — آخر أسرة تيودور — بلا عقب وعند ما توفي جيمس الخامس ، فجأة في سنة ١٥٤٢ — ترك طفلة هي ماري التي نقلتها ، عندئذ ، أمها الفرنسية إلى فرنسا . وهناك ، عندما بلغت السابعة عشرة ، زوّجوها من الملك الفرنسي . فلما مات بعد سنتين من ذلك ، أي في ١٥٦٠ عادت إلى إدنبره وهي أرملة كاثوليكية في التاسعة عشرة ، وكانت ابنة خالتها — إليزابيث الأولى — البروتستانتية الإنجليزية قد أمست ملكة قبل ذلك بسنتين . على أن قطراً إنجلترا واسكتلندا الشقيقتين كانتا — في واقع أمرهما — « مملكتين تحكمهما مملكتان » .

ولقد كانت ماري — ملكة الأسكتلنديين — إحدى الملكات البئيسات في التاريخ . ولم تكن علاقاتها بلورداتها البروتستانت على ما يرام إذ كان يعنّزها المستشارون القديرون الحسّو التصرف . وتزوجت مرة أخرى . وكان زوجها ، هذه المرة ، نبيلاً شاباً طائشاً اسمه دارنلي ، ولقد ملكت لورد دارنلي غيرّةً جنونية من (سكرتير) ماري وهو إيطالي اسمه

دافيد ريزيو ، فأرسل جماعةً من السفاكين الأوشاب فقتلوا ريزيو في حضرتها . وفيما كان دارنلي قد أرّقه المرض — بعد ذلك بعام — في بيتٍ بالقرب من إدنبره اسمه كيرك أو فيلد قائم على مقربة من إدنبره ، نسف بالديناميت ومات . وقد اتجهت شبهة القتل إلى إيرل بوزويل : فلما تزوجته ماري اتجهت الشبهة إليها هي الأخرى وثار عليها اللوردات . فهربت إلى إنجلترا تنشد حماية إليزابيث فحمتها فعلاً بوضعها في قلعةٍ تحت حراسةٍ مشددة .

وإذ ذاك كانت ماري في الخامسة والعشرين من عمرها وقد أصبح جمالها أسطورةً تدور على ألسنة الجميع . وكانت كاثوليكيةً ، وفي الوقت نفسه واثقة إليزابيث وفي الإمكان أن تصبح ملكة إنجلترا ، ولم تدّر إليزابيث ماذا تصنع بها . وظلت ماري عشرين عاماً تحت الحراسة تنقل من حصنٍ إلى حصن على أنها سجين ، وفي الوقت نفسه كان اللوردات الاسكتلنديون البروتستانت ينشئون طفلَ ماري الذكر — جيمس السادس ملك الاسكتلنديين — تنشئةً بروتستانتية .

وانسعت الانقسامات والخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت وزادت عمقاً ، ونتيجةً لأن البروتستانت بجميع طوائفهم كانوا يبشرون بالتعاليم على جميع أشكالها ، عقد الأساقفة الإيطاليون والأسبان — وكلهم من الكاثوليك — في ترنت بالنمسا عقدوا مؤتمراً ليصدروا لوائح في صدد العقيدة الكاثوليكية والعبادة الكاثوليكية . وأسست في أسبانيا محكمة التحقيق والاستقصاء الكنسية المسماة « محكمة التفتيش » للتحقيق مع الرجال والنساء الذين يعرف عنهم أنهم هرطقة (ضالون) أو يشك في كونهم يؤمنون بتعاليم غير كاثوليكية . فإذا أبدى أولئك الناس العناد يساءون إلى مندوبي الملك ليحرقوا ، ولقد حرق فعلاً عند الخازوق آلاف من اليهود والبروتستانت ، وكان أعضاء محكمة التفتيش لا ينون عن العمل حينما سيطر الأسبان .

وقد أسس جندي أسباني — اسمه إيجناتيوس لويولا — جماعة عيسى وهى الجزويت (أى العيسويون) بقصد حماية الدين المسيحى من أعدائه . وكان الجزويت هيئة من الناس جدية بالاعتبار يدرسون وينظمون فى أشد تزمّت ويتعلمون أن يطيعوا ، دون تردد ، أوامر رؤسائهم . وقد خالف نظامهم أنظمة كل الجماعات الدينية القائمة إذ ذاك . فكانوا يعيشون فى الدنيا لا فى دير مقفل ، ولا يتقيدون بلبس خاص يميزهم ، على أن يسمح لهم أن يحترفوا المهن العادية فى الحرف والتجارة . وقد درجوا على أن يجتذبوا إليهم أناساً من الطراز الأول فى الكفاية ، شأنهم فى ذلك شأن كل جماعات الرهبان . وكان بعضهم يلجأ إلى الغش والدسائس ليبلغوا مبتغاهم . غير أن من بينهم القديسين والأبطال كما أن من بينهم المتآمرين والسياسيين . وقد حرم عليهم دخول إنجلترا وإلا تعرضوا لعقوبة الأعدام ، وقد أعدم بعضهم فعلاً . « كان الجزويت يوجدون فى كل بلد وينبشون — مستخفين — بين صفوف كل مهنة : علماء ، أطباء ، تجار ، خدمة ، فى البلاط السويدى المناجز ، فى البيوت القديمة بضيعات شيشير ، فى حظائر الماشية . . . كونوت ، يجادلون ويعلمون ويستولون على قلوب الشباب ويشجعون شجاعة الجناء ويحملون الصليب أمام عبود الموتى . . . لقد انبثوا فى أعماق مناجم بيرو وفى أسواق قوافل الرقيق بإفريقيا وعلى شواطئ جزائر البهار وفى مراصد الصين . . . ولقد كانوا يبشرون ويجادلون بلغات لم تكن أية أمة غربية تفهم منها كلمة واحدة » .

وكان مجمع ترنت ومحكمة التفتيش وجماعة عيسى هى الوسائل التى توسلت بها الكنيسة الكاثوليكية لرد البروتستانت إلى ملتها . ولقد قامت حروب دينية ، فيها اقتتل المسيحيون البروتستانت والمسيحيون الكاثوليك ، وقتل بعضهم بعضاً . بدأت تلك الحروب فى ألمانيا . وقبل عام ١٥٧٠ تحارب الكاثوليك والهو جنوت ، الموجودون بفرنسا ثلاثة حروب أهلية .

انقسمت المسيحية على نفسها ولم يكن هنالك ما يبشر بالسلام .
غير أنها بقي لها ، مع ذلك ، أعداؤها القدامى . ففي الجنوب كانت أساطيل
الأتراك العثمانيين تهدد بتطهير البحر الأبيض المتوسط من السفن المسيحية .
ولقد غضب سلطان تركيا الكبير — سليمان العظيم — من هجمات فرسان
القديس حنا بعد أن نهبت سفائنهم الكبرى التجار المسلمين فضرب حصاراً
على جزيرة مالطة في سنة ١٥٦٥ . وقد كابد الفرسان — أكثر من ثلاثة
أشهر — الهجمات المتلاحقة غير أنهم احتفظوا بقلاعهم وأنقذوا مالطة
عام ١٥٧١ . ودمر دون جون النمساوي — الذي عقدت له قيادة سفن أسبانيا
والبنديقية — الأسطول التركي في نصر مدوّ بالقرب بين ليبانتو ، وفقد
سرقانتس — وهو الأسباني الذي ألف رواية دون كيشوت — فقد يده
في تلك الموقعة الضارية . على أن الأمم المسيحية الأخرى كانت أكثر
انشغالاً بشئونها الخاصة من أن تشارك في محاربة تركيا .

وما كان عسى أن تصنع الملكة اليزابيث الإنجليزية بماري ملكة
الأسكتلنديين التي كان من أمرها ما قد يحمل السادة الكاثوليك على أن
يتآمروا عليها ويثوروا ضدها ؟ وكانت محكمة التفتيش والجزويت يدبرون
هجوماً مضاداً على البروتستانت ، وكانت ماري هي الوريثة الكاثوليكية
للعرش الإنجليزي .

وعلم البحارة الإنجليز الموجودون في البحار الضيقة بكل شيء عن ذلك
الهجوم الكاثوليكي المضاد . وعلى بعد أميال قليلة من مصب التيمز كان
نواب الملك فيليب الثاني الأسباني يبذلون قصارى جهدهم لتحطيم پروتستانتسي
البلاد الواطئة .

الهولنديون :

استعمر الأراضى الواطئة الواقعة بالقرب من نهر الراين العظيم ومن
نهر الد . . . ماس الذي يصاحبه ، استعمرها ، في القرون الوسطى ،

الهولنديون الذين — على حد تعبير أحد المؤرخين — واقتلعوا، أرضهم من البحر . ولقد استطاعوا — بالمصارف والسدود والقنوات — أن يتعلموا كيف يسيطرون على مسيل الماء العذب وماء البحر بين الملاحات وجزر شواطئها . ولقد كانوا رعايا الإمبراطور الروماني المقدس شارل الخامس ، وبتنازله انتقلوا إلى تبعية فيليب الثاني الأسباني . وقد نجحت التعاليم البروتستانتية في اجتذاب كثير من الكاثوليك السابقين .

ولقد كانت تلك الفترة عصبية، بسبب الخصومات الدينية والاضطرابات . ففي فرنسا قام الكاثوليك — تشد أزهرهم الملكة الوالدة كاترين دي مدتشى — بمذبحة مفاجئة غادرة بين الهولجنوت الفرنسيين، عشية عيد سنت بارثولوميو من سنة ١٥٧٢ . وفي إنجلترا خشيت اليزابيث الأولى أن يغتالها السادة الكاثوليك الذين رغبوا فى إجلاس ماري — ملكة الاسكتلنديين — على العرش . وفى أسبانيا كانت محكمة التفتيش تفتش عن البروتستانت اليهود وتعدمهم ، وأزمع فيليب الثاني على أن يمحى الدين الجديد من كل ممتلكاته .

فأرسل فرق مشاته المشهورة إلى الأراضى الواطئة لتقمع نواب المقاطعات البروتستانتيين فى المدن الهولندية المتجمعة حول مجارى الماء . وقد خربوا المدن ولكنهم ، مع ذلك ، لم يستطيعوا أن يقضوا على البروتستانت . وفى سنة ١٥٧٢ — عندما استولى بعض البحارة (من الملقبين بمتسولى البحار) على بريل ، وهى مدينة ساحلية صغيرة — عندئذ انفجرت الثورة انفجاراً ضارباً . وأصبح صيادو السمك وأصحاب الحوانيت وأرباب المهن والفلاحون والبحار ، أصبحوا أبطالاً يحاربون — فى وقت معاً — جيشاً كاثوليكياً وأجنبياً كذلك . وعندما حوصرت بلدة ليدن

كسر حمايتها السدود فردوا إلى البحر حقولهم التي كسبوها بكدم . ونهب
الأسبانيون أنتورب (أنفرس) وذبحوا من أهلها ثمانية آلاف .

وإلى أن حلت سنة ١٥٧٩ كان دوق پارما — وهو القائد العام لفيليب —
قد تمكن ، بإشاعة الرعب ، من استرداد العشرين مقاطعة الجنوبية . واستغاث
أهل الشمال بالفرنسيين لينجدوهم غير أن الفرنسيين كانوا مكروهين
كالأسبان ، وكابدت أنتورب (أنفرس) هذه المرة من الغضب الفرنسي
المحطم . وتبددت آمال الهولانديين مرة أخرى في سنة ١٥٨٤ عندما أقدم
مجنون على اغتيال ولیم أمير أورانج الذي كان يقود المقاومة ضد فيليب .

وكان مصدر النجدة الوحيد المرتقب ، هو إنجلترا حيث كانت إليزابيث
الأولى ووزيرها الحذران سمييل ووالسنجهم يرقبون في اهتمام وينتظرون
الحوادث . وكان مما كشفه جواسيس والسنجهم : مؤامرة ترمي إلى استخدام
الجيش الأسباني في إجلاس ماری ، ملكة الاسكتلنديين ، على العرش .
بل إن دون جون النمساوي — الذي انتصر في ابينانتو — عني بفكرة
إنقاذ ملكة الاسكتلنديين النعسة .

ولما كان شعب الملكة إليزابيث شعباً جزيرياً كانت الحوادث متوقفة
على ما يفعله البحارة الإنجليز .

رواد البحر الإنجليز — و — دريك :

كان لاستكشافات ما وراء البحار — على إنجلترا — أثر عميق . فلقد
أصبح المحيط الغربي — الذي كان يوماً سداً من مياه لا تتحد — طريقاً
عامة للغامرة توميء إلى أبناء إنجلترا بالانطلاق . وأخذت السفن
والبحارة ، منذ ذلك الوقت ، تملأ صدر صورة نشاطها ، واعتلت البحر
المجازفة والبطولة .

« النازلون إلى البحر في السفن العاملون عملاً في المياه الكثيرة هم رؤوا أعمال الرب وعجائبه في العمق . أمر فأهاج ريحاً عاصفة فرفعت أمواجه وبععدون إلى السموات ويهبطون إلى الأعماق ، .

وردت تلك التلميذات — المذكورة في المزمور ١٠٧ — عن البحر الأبيض المتوسط . ووجد ملاح عصر اليزايث أنها تصدق على بحار أوسع مدى وأشد تعرضاً للعاصفة ، بحار فيها :

... صفارة الملاح كأنها همسة في أذن الموت لا يسمعون أحد . . .

وقد يمكن تقدير استجابة الملاحين من الوصف الذي قدمه سير همفري جلبرت في قوله : ما استحق أن يعيش على الإطلاق من يخاف خدمة بلاده أو شرفه خوف الخطر أو الموت ، إذ أن الموت محتوم وذكر الفضيلة خالداً .

أبحر جلبرت — في ١٥٨٣ — على اليكسكويريل (السنجاب) ، التي تزن عشرة أطنان ، في عاصفة على مبعده من جزائر الأزورز (وهي الجزر « الخالدات » في شمال الأطلسي) . وقد أخذ يصبح صيحة الفرع عندما غاصت سفينته في الماء المصطخب بين الأمواج ، قائلاً : نحن قريبون من السماء في البحر والبحر سواء بسواء ، . وبعد أن انقضى على ذلك سبع سنوات قاتل سير رتشارد جرينفل بسفينته ريفنج (أي الثور) — عند فلورز في الجزائر الخالدات — ثلاثاً وخمسين سفينة أسبانية كبيرة مدة خمس عشرة ساعة ، ثم استسلم ومات على ظهر سفينة العدو ، وهذه أعجوبة أدهشت أمراء الأسبان ذوى الوقار والتؤده .

هذا أنموذج من ملاحى عصر اليزايث . وأعظمهم قاطبة: سيرفرانسيس دريك الذي أصبح اسمه لدى الأسبان أسطورة . وهذا الاسم « إل دراكي » كلمة فخواها الرعب . ولقد رأى — في إحدى زيارته للسفينة الأسبانية .

«مين» (ومعناها عرض البحر) رأى المحيط الهادى ونذر الإقلاع على ظهره ، وأقلاع - فى سنة ١٥٧٧ - من بليموث على الـ .. «بليكان» (أى البجعة) ترافقها أربع قرينات . سائرت الشاطئ البرازيلى وسلكت مضائق ماجلان ، وكانت قد تركت قبل ذلك سفينتين صغيرتين على شاطئ أمريكا الجنوبية ، وعندئذ غرقت «مارى جولد» بكل من عليها فى عاصفة هوجاء من الريح والمطر . وانفجعت «إليزابيث» أدراجها صوب الوطن ، وأقلاع دريك وحده مغيراً على المدينتين الأمريكيتين التابعتين لأسبانيا وهما فالباريزو - و - ليما ، واستولى على «كافويوجو» وهى سفينة كبيرة تحمل البقائس ، ومنها استخرج ملاحو ديفونشير الشبان - والبشر يملأ نفوسهم - « ١٣ صندوقاً مملوئاً بحفاف زيتها ٨٠ رطلاً من الذهب و ٢٦ طناً من الفضة » وصعد شمالاً حتى أقر رجاله على شاطئ كاليفورنيا الذى أسماه نيو ألبيون . وعاد فأبحر غرباً إلى الـ (جزائر) ملقا (أى جزائر البهر) ثم استدار حول رأس الرجاء الصالح ، وبعد رحيله بثلاث سنوات رأى أهل بليموث سفائنه تأتى لتلقى مراسيها ، وفى تلك الليلة ذاعت قصص عديدة فى ميناء الإقليم الغربى .

وفى ١٥٨٥ جهز أسطولاً من ٢٥ سفينة وذهب به إلى أسبانيا ، والمياه الأسبانية على فيجو - و - سان دومينجو وقرطاجنة ، وأصبح دريك يحارب أسبانيا لحسابه الخاص .

الآرمادا الأسبانية (١) :

شارفت المأساة الطويلة على نهايتها ، اتهمت مارى ملسكة الإسكتلنديين ، فى سنة ١٥٨٦ ، بالتآمر على إليزابيث ، وربما كانت بريئة ، وحكم عليها

(١) انظر شكل رقم ٨ - (محاولة أسبانية لغزو إنجلترا فى سنة ١٥٨٨)

بالإعدام ، ونفذ الحكم في حصن فوردزينجاي عام ١٥٨٧ . وبهذا ضاع الأمل في أن يرث العرش الإنجليزي كاثوليكي ، إذ أن ابن ماري — جيمس السادس الاسكتلندي — كان بروتستانياً .

وفي ١٥٨٧ أيضاً رخصت اليزابيث لصفيتها — إيرل ليستر — في أن يقود قوة من المتطوعين الإنجليز ليخفّ إلى نجدة الهولانديين .

وقر قرار فيليب الأسباني على أن يغزو إنجلترا ويخضعها ثم يصفى حساباته مع ثوار البلاد الواطئة . وظل سنة يجمع السفائن والمؤن والمعدات من موانئ أسبانيا والبرتغال وإيطاليا ويبدل ذهب الدنيا الجديدة وفضتها في اسراف لا حد له . وقد عمد دريك — الذي لم ينقطع عن النظر إلى شواطئ الأعداء على أنها حدود إنجلترا — عمد إلى تحطيم ٣٧ سفينة أسبانية في ميناء قادس . على الرغم من هذه المحنة ظل فيليب يشغل ماعنده من أحواض السفن ودور الحدادة ومصانع الأسلحة ويشاير على الاستعداد لما كان يعدّه حرباً مقدسة . وكان رجاله من السادة تتحرق قلوبهم بحماسة محاربي الصليبيين ، وقد أطلقت على سفن فيليب أسماء مريم والحواريين والقديسين . وأعد في دنكرك جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً من المشاة : الإيطاليين والألمان والفلمنك والأسبان وجيز له سفائن مفرطة القاع تسهل نقلهم بمجرد وصول الأرمادا من أسبانيا .

أما إنجلترا واليزابيث فقد عمدتا إلى المراقبة والانتظار . وعسكر في تلبوري الجيش الملكي بأمرة رئيس الحرس الملكي سير وولتر رالي . واتخذ الملاحون مرا كزهم : ونتر — و — سيمور على مبعدة من كنت ، وهو وارد — و — دريك — و — هوكنز في بليموث .

وفي التاسع عشر من يوليو من سنة ١٥٨٨ رؤيت أرمادة فيليب على مبعدة من ليزارد — وكان قوامها ١٣٠ سفينة — مبحرة ، على شكل نصف

قمر واسع المدى ، تسبح في ريح عاصفة . وأفلت أسطول بايهوث وأصبح
بأمن من السفن الأسبانية ، واستولى على اثنتين منها . وفي الثالث والعشرين
والخامس والعشرين من يوليو حدثت اشتباكات على مبعدة من پورتلند ،
وجزيرة وايت نجم عنها هروب السفن الكبيرة واحتماؤها بالشاطئ
الفرنسي . وبعد رسوها على هذا النحو طاردها السفن الإنجليزية المقاتلة
وأرعبتها . واستدارت شمالاً — وهي بعد أسطول كبير ولكنه غير منظم —
فتعقبها الأسطول الإنجليزي فوراً . وقاتل الأسبان في شجاعة — وقد أقل
ذاك الأسطول كل فرسان أسبانيا ونبلائها — ولكن الجو والتقابل الملاحية
لم تسعفهم . وشئت ذخيرة الإنجليز فكفوا عن الملاحقة بعد شاطئ
نورفولك .

فأين يا ترى يذهب الأسبان الآن ؟ لقد تجادلوا فيما بينهم . لقد أجابت
البحار عن هذا السؤال بالعاصفة العظيمة التي هبت . وبعد أن كابد الأسطول
كرب العواصف والأمراض والعطش أخذ أقل من نصف الأسطول يناضل
حول آخر الصخور المخيفة : من بعد جنوب إيرلندا الغربي إلى أسبانيا .
وقد غرقت — أو أسرت — خمس سفائن . وغرق ما بقى من السفن في البحار
الشمالية أو طرح على الشواطئ الموحشة في أسكتلندا وإيرلندا . ومات من
العطش بجارتها — الذين برّح بهم التعب — أو خاضوا إلى الشاطئ حيث
ذبحهم الأيرلنديون . وتكومت الحطام ، على شواطئ سليجو ،
أكداً أكداً .

« أرسل الله رياحة ففرقتهم ، بهذه العبارة أبدت إليزابيث شكرها .
وكانت لفيليب الثاني الأسباني شجاعته ، فقد قبل الهزيمة ولكنه أزمع في
الحال على أن يحاول من جديد . والواقع أنه جهز أسطولين آخرين حطمتهما
الأنواء قبل أن يبلغا البوغاز .

إنجلترا في عصر إليزابيث

ظلت إليزابيث الأولى تحكم إنجلترا ١٥ سنة أخرى بعد تخطيط الأرمادا، وهي ملكة فذة حقاً، عاتية، عالمة، ألمعية، غضوب، مختالة، نزقة، مدبرة، لم تزف إلى أي أمير بل تزوجت إنجلترا، وقد أضفت اسمها على عصرها. لقد كان عصر ملاحين عادوا إلى وطنهم بقصص عن: كهوف شاسعة، وصحارى متوحشة، ومحاجر وعرة، وصخور وتلال تطاول هاماتها السماء، والتمنمين (أكلة لحوم البشر) الذين يأكل بعضهم بعضاً، والناس الذين تنمو رؤوسهم تحت أكنافهم.

وقد جمع القس رتشارد هاكلويت حكايات ومذكرات عن كل ما أمكنه جمعه من رحلات، وطبعها في سنة ١٦٠٠ في كتاب ينبض بالحياة عن المغامرات البحرية اسمه «الرحلات البحرية والبرية والاستكشافات التي قام بها البحارة الإنجليز». وأقلع أحد أقرباء الملكة — إيرل كمبرلاند — بسفينته «ماليس سكوراج» مرات عديدة لينهب الشاطئ الأسباني. وذهب وليام آدامز — وهو مرشد بحري من لايمهاوس — مع السفن الهولندية إلى اليابان حيث عاش بقية حياته مستشاراً بحرياً لليكاو.

وأصبحت مناطق من العالم كانت مجهولة، أصبحت مواضيع مألوفة على ضفتي التاميز. فكنت ترى في أية حانة من حانات لندن خليطاً من جوازي البحار: ترى الرجل ذا المنديل المزخرف حول عنقه الذي عاد من الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط بعد أن احتكت سفينته بقرصان مغربي بعد جبل طارق. وترى الرجل الذي لوحته الشمس صاحب العميون المتغضنة وقد قضى سنة على سفينة نحاس بين غينيا وجزائر الهند الغربية. وترى آخر يعمل لحساب الشركة المسكوفية العتية، ترقد سفينته في النهر وعليها زيوت وأخشاب. وهذا في استطاعته أن ينيء عن انعكاس الأنوار الشمالية على

الثلوج الروسية وعن الأراضي المدرجة الخشنة المكشوفة كأنها حزم من الفراء . وترى الرجلين الأصفرين يتكلمان بلمجات الاصقاع الغربية الناعمة — تلك اللامجات التي يستعملها سير وولتر رالى فى البلاط — تراهما وقد جاءا من سفينة أوماس كاثنديش ، بعد رحلة حول العالم ، تحمل غنائم كانت على ظهر سفينة أسبانية كبيرة . ويشغل الباقيون بالتجارة الساحلية ، وربما يكون بعضهم قد أفلت أحياناً وعبر إلى هولاندا ليسعف الهولانديين . وما من شك فى أن البحر كان يهيب بأهل الجزيرة أن يشدوا رحالهم . وقد شهد عصر اليزايث محاولاتهم الأولى للمغامرات العظيمة التجارية منها والإمبراطورية .

وكذلك كان هذا العصر عصر كبار الشعراء ومؤلفى الروايات التمثيلية . كتب إدموند سبنسر قصيدته المشهورة « الملكة الحورية » . غير أن كل رجل من رجال البلاط يسعه أن ينظم شعراً جيداً . وفى ملهى جلوب بـ . سوٲورك تيسر لأهل المدينة واصغار الصناع ولطالبة الحقوق أن يشهدوا تمثيليات ولیم شيكسبير . لقد تيسر لهم أن يرقبوا شايوك الهودى يطالب أنطونيو « تاجر البندقية » برطل اللحم . أو بٲوتوم النساج الاثينى — الذى يحوله السحر رأس حمار — ينتحب إلى تيتيانا ملكة الجن . أو فالستاف — الفارس البدين — يستخفى فى سلة من كتان قدر ليفلت من غضب أزواج « زوجات وندسور الطروبات » أو يستمتع بالتمثيليات التى تظهر الابهة والفخفة الملكيتين اللتين سادتا حروب الورد . وحدث — مرات — أن مثل الممثلون رواية فى بلاط الملكة كما صنعوا بتمثيلية « الليلة الثانية عشرة » . وكثيراً ما طوفوا بالبلاد يشتغلون فى دور كبيرة مثل ويلتون فى سمرست .

وكانت لندن مكاناً صغيراً . كان هناك بجمع فى التاميز ، وحدائق ورد فى ستراند ، وبساتين كرز فى بيرمندسى ، وكان ما نسميه إيست إند (أى الطرف الشرقى) خلاء تنمو فيه أشجار البلوط (القرو) والمزارع . وكانت

مركبات الدريس تتكس يومياً في السوق والسائمة تساق إلى المجازر (السلخانات) . وكانت القرى الريفية — أمثال إسانجتون — و — كامبرويل — تعد أنها على مسيرة قصيرة من المدينة . ولم يكن أهل المدن قط بعيدين عن أهل الريف : الحراثين والحصادين والدراسين ومسقفي البيوت بالقش . وفي الصيف كانت تقام في القرى مرقص على المزمار والدف وملاعب في دور الرقص المغربي الذي يقوم به تسعة رجال . وكانت تقام هنا وهناك حلقات للبصارعة ولسباق الأرانب : وكان هناك نوع من « كرة القدم المطاردة » تلعب طوال النهار عتبر رقع واسعة من الخلاء . وفيها يستطيع الناس أن يستعملوا الهراوات بل أن يتباروا على ظهور الخيل ! والبيعة المتجولون — مثل أوتوليكوس في تمثيلية شيكسبير — يحولون بعروضهم . ولا مرأ في أنهم كانوا يمرون على البيوت الجديدة في الضيعات ، تلك البيوت المبنية بالآجر الأحمر والخشب والمزودة بمدخن ملتوية عالية تقوم في حدائق زخرفية ذوات شرفات وسياجات مقلبة وممرجات ناعمة ومأشٍ مغطاة ومقاعد مظلمة . ولا بد للسادة والسيدات أن يهيموا وسائل تسليتهم كما قد يصنع القرويون : وبعد العشاء تدار كتب الموسيقى على الجميع ، لغناء الأراجيز والأنشودات الغزلية ، بحيث تغنيها أصوات كثيرة في أجزاء كثيرة مختلفة . ويحق لإنجلترا في عصر اليزابيث أن تفاخر بموسيقياها العديدين من أمثال جون ولي — و — ولیم يرد اللذين كانت أغانيهما تغنى بمصاحبة المزهر (أى الطنبور) .

وبعد أن تنتهى الفرقة من الغناء تطفأ الشموع وينصرف الجميع تواء إلى النوم ويسود البيت السكون . وفي بيت من هذا القبيل يدخل الملك أو يرون والملكة تيتيانا ، تتبعهم حاشيتهم من الجنيات ، في « حلم ليلة من ليالى منتصف الصيف » لشيكسبير ، لتحرسه وتمنمه .

ومن خلال هذا البيت يظهر بصيص من الضوء :

من النار الهامدة الوسبانة .

لقد غنى الناس أغانيهم وذهبوا ليصيدوا قسماً من الراحة . والجذوات
في المصطلي الكبير تنبض وتموت لتصبح رماداً .

وفي عام ١٦٠٣ كانت السيدة الموجودة في هذا البيت الكبير — وهو
إنجلترا — تقترب من نهايتها . لقد كانت ملكة ٤٥ عاماً وكانت آخر أفراد
أسرتها . ولقد عمرت بعد أحبابها وأعدائها . وقد توفي وزيرها وولزنجهام
— و — بيرجلى . ومات فيليب الأسباني . وفي الرابع والعشرين من مارس
ماتت الملكة في رتشموند . ولم يكسّر روبرت كيتسبي يسمع الخبر في ستاتلى
حتى امتطى صهوة جواده وخبّ حتى وصل إدنبرة ليحيي الملك جيمس .
السادس ملك الأسكتلنديين بوصفه جيمس الأول ملك إنجلترا .

وانتهى عهد .

قرن جديد :

أصبحت إسكتلندة وإنجلترا — أول مرة في تاريخهما — مملكة متحدة
تحت حكم ملك واحد من أسرة ستيوارت . غير أن جيمس الأول — الذى
جاء راكباً صوب الجنوب عام ١٦٠٣ — لم يكن الملك الوحيد على المسرح ...
في فرنسا انتهت الحروب الدينية بانتصارات زعيم الهوجنوت هنرى الناغارى .
وعندما أصبح — فى ١٥٩٤ — الملك هنرى الرابع وتحول كاثوليكياً ترك
للهموجنوت حرية العبادة . وفى أسبانيا جلس على العرش — مكان فيليب
الثانى المتحمس المجتهد — فيليب الثالث اللين العريكة . وظل — هو وعظماء
الدولة — يحكمون إمبراطوريتهم الأمريكية ويجنون منها أحمالاً من الذهب
والفضة ، كما ظلوا يحكمون الأراضى الواطئة الجنوبية (« الأراضى الواطئة
الأسبانية ») . وكان هولانديو الأراضى الواطئة الشمالية قد ظفروا من
أسبانيا بحريتهم ولم يلبثوا أن أبدوا مهارة وشجاعة وإقداماً .

ولامراء في أن بداية القرن السابع عشر كانت بداية عصر جديد من التجارة في المحيطات والحروب الدينية .

وقد برهن الهولنديون — وقد هُدمَ البحر الذي منه استخلصوا وحملوا أراضيهم الشاطئية الخصبة — على أنهم أمة بحارة وتجار . طردوا البرتغاليين من جزائر البهار وأنشأوا مصانعهم ومستعمراتهم في جزائر الهند الشرقية حيث بقيت إمبراطوريتهم حتى ١٩٤٦ . وقد استحقوا لقب «ناقلي بضائع العالم» ، لأنهم حملوا البضائع إلى كل الشعوب ، وأصبحت أمستردام ميناء لأوروبا . ونقلوا الرقيق من غرب إفريقيا إلى جزائر الهند الغربية كما نقلوا السكر من جزائر الهند الغربية . وأقاموا مستعمرة في نيويورك (التي كانت قبل ذلك تسمى : أمستردام الجديدة) واشتغلوا بتجارة الفراء الأمريكية . ونقلوا جالية صغيرة إلى رأس الرجاء الصالح كانت بداية لمستعمرة البوير في جنوب إفريقيا . وقتل مرشدوهم البحار الجنوبية واستكشفوا تسامانياً ولحقوا أستراليا ، كل هذا فعلوه في خمسين عاماً . ونتيجة لتجاريتهم ، أيسرت مدائنهم وبنى نواب أقاليمهم لأنفسهم بيوتاً أنيقة . وازدهرت هولاندا . وكان هذا هو العصر العظيم للفن الهولندي . وُلد الفنان الشهير رامبرانت سنة ١٦٠٧ . ومع أن صغر هولاندا منع الهولنديين عن أن يصبحوا شعباً من أقوى شعوب الغرب فقد قاموا بدور قيادي في مصائر الغرب .

وقد ملأ الهولنديون البحار بأرجوزاتهم (أي بسفنهم الشراعية التي تحمل بضائع ثمينة) غير أن الإنجليز لم يتسكأوا وراهم على مدى بعيد . ففي عام ١٦٠٠ أرسلت جماعة من تجار لندن ، إلى الشرق ، قافلة من السفن عادت في ١٦٠٤ بحمولة عظيمة من الفلفل . ونتيجة لهذه المغامرة نمت شركة الهند الشرقية الإنجليزية ذات النفوذ العريض والسيطرة البريطانية على الهند . وغامر تجار إنجليز آخرون بالسفر إلى إفريقيا وجزائر الهند الغربية

وإلى تركيا وشرق البحر الأبيض المتوسط وشمال روسيا . وقد تاجر الهولنديون والإنجليز — كلاهما — في البلطيق .

ولم يلبث الشعبان أن أصبحا في التجارة متنافسين غيورين . وفي القرن نفسه — فيما بعد — اشتبك أسطولاها في ثلاثة حروب ، في البحار الضيقة ، شكسة مروعة . ومن حسن الحظ أن ذلك لم يولد أية مرارة مستمرة أو كراهة ، إذ أن الدنيا كانت تتسع لهما كليهما .

وفي الحروب الدينية لم تقف المرارة والكراهية عند حد . والحادث الذي بدأ في ١٦١٨ — في الأراضي الألمانية — ظل قائماً حتى ١٦٤٨ : حرب دامت ثلاثين عاماً فيها أتلّف الكاثوليك والبروتستانت الريف ونهبوا البلدان وحطموا ودمروا . ولم يكن لكل هذا من مبرر لأن النزاع انتهى في ١٦٣٨ بمأزق ممضٍ . فإن كل حاكم — كبيراً كان أو صغيراً ، ملكاً كان أو دوقاً أو باروناً — قدر خص له في أن يبت في أمور إقليمية دينية . وقد نجم عن استمرار الحرب الضارية ثلاثين عاماً تعويق تقدم المدنية في كل أنحاء ألمانيا التي ظلت بلاداً تتألف من مئات الدويلات الخاضعة لسلطانٍ غير محدد المعالم من أباطرة آل هابسبورج في فيينا ، أولئك الذين حكموا النمسا والمجر . وقد بحت إيطاليا من الحروب الدينية ولكنها ظلت منقسمة إلى دويلات . وكان البندقيون ما يزالون يهيمنون على تجارة شرق البحر الأبيض المتوسط . غير أن تلك التجارة نقصت حجماً بعد فتح طريق رأس الرجاء الصالح ، فأخذت جمهورية البندقية تفقد ، تدريجياً ، القوة والثراء اللذين كانت تتمتع بهما في يوم من الأيام .

وكذلك كابدت مملكة بريطانيا العظمى المتحدة من حرب دينية . غير أن الخصومات الدينية في بريطانيا كانت دائماً التشابك بالخصومات السياسية التي كانت تنشب في صدد سلطات الملك والبرلمان . ومرت مملكة فرنسا أيضاً بمغامرة سياسية جديدة .

ومن يفهم الفرق بين هاتين المملكتين يفهم تاريخ الغرب في القرنين التاليين.

المقارنة : بريطانيا :

درج ملوك إنجلترا — منذ القرن الثالث عشر — على أن يعقدوا البرلمان، بين الفينة والفينة ، ليمدهم بمشورته وليرخص لهم فرض الضرائب ، وبذلك يتسنى لحكومة الملك أن تستمر في تسيير دفة الأمور . وكانت التغييرات في القوانين تسن بمقتضى قرارات برلمانية يقرها الملك واللوردات والأساقفة وفرسان المقاطعات والمنتخبون في المدن . وكان مقر اللوردات والأساقفة مجلس اللوردات . وكان مقر الفرسان والمنتخبون — الذين يختارون ليمثلوا أعيان الريف — ونواب النقابات المهنية بالمدن ، مجلس العموم .

ولقد كانت الخصومات التي تنشأ بين آل ستيوارت — جيمس الأول وابنه شارل الأول — وبين برلماناتهم ، خصومات بين ملوك آمنوا بحقوقهم المقدس في أن يتصرفوا وفق هواهم ، وبين رعاياهم الذين آمنوا بأن الملوك ينبغي لهم أن يوفوا بعهودهم وأن يحافظوا على قوانين البلاد . وعندما عارض القانوني سير إدوارد كوك ، جيمس الأول في بعض الشؤون صرخ جيمس قائلاً : « وإذن فأنا (تحت) القانون ، وتقرير هذا المبدأ خيانة وطنية » . فأجاب كوك الشجاع : « نعم يا سيدي ، أنت خاضع لله والقانون » ، وكان جيمس وشارل ينازعان برلماناتهما في صدد المال . هل الملك أن يفرض الضرائب على رعاياه بغير رضاهم؟ وكان ملكا آل ستيوارت هذان سيئ الحظ لأن قيمة النقد كانت — في عهديهما — في هبوط ، وكانا يطلبان منها المزيد ، ولم يكن أى منهما لبقاً في معاملة الناس أو أريباً في اختيار مستشاريه . على أن النزاع الديني الذي أدى إلى الحرب الأهلية كان أكثر مرارة وعمقاً .

ولم يتسجد البروتستانت اتحاد السكاثوليك . نعم كان يرضى أغلب الناس أن يُخلدوا إلى لوائح الأساقفة وأن يقرأوا كتاب الصلاة الذي وضعته

الكنيسة الإنجليزية غير أن أقلية — شديدة النشاط والقوة — لقبّت بـ « المتطهرين » كانت تنكر الأساقفة وكتاب الصلاة كما كانت تنكر وسائل معينة من التسلية مثل : سارية مايو (١) والرقص المغربي والألعاب الرياضية والمسارح . وربما كان البعض — على حد قول لورد ماكولي — قد كره لعبة استدراج الدببة بالطعم أو الشرك لا على أنها تؤلم الدببة ولكن لأنها تسر المتفرجين . كان أولئك الناس « أحرار الفكر » . كان كل منهم حراً في أن يفسر أسفار الكتاب المقدس على ضوء معلوماته وضميره . ولم يتيسر لهم هجر الكنيسة إلا بالهجرة إلى أمريكا ، وهذا ما صنعه كثير منهم في ١٦٢٠ وفيما بعد . إلا أنهم لم يكن في مكنتهم أن يعيدوا تشكيل الكنيسة على هواهم ما لم يلغوا الأساقفة .

على أن الأساقفة لم يكونوا رعاة رعاياهم فحسب بل كانوا أيضاً خدام الملك وموظفين في الكنيسة التي كان يرأسها . لقد كانوا رجالاً ذوي نفوذ . كان في سلطتهم أن يقبضوا على الناس ويحاكموهم في محاكمهم الخاصة وأن يغرموهم ويسجنوهم في سجونهم الخاصة . لقد قطعت أذاناً أحد المتطهرين لأنه ألف كتاباً ضد الأساقفة . ووقع على آخر مثل هذا الجراء لأنه أنكر التمثيل على المسارح . وكذلك أنكر هذا الرجل غير العادي — وكان من رجال القانون — الوثيقة الكبرى لا شيء إلا لأن أسقفاً شارك في حمل الملك يوحنا على إمضاءها . ولقد وجد بين المتطهرين بعض الشواذ كما أن الأساقفة لم يكونوا كلهم ورعين . وكان من سوء الحظ أن شارل الأول — وهو الرجل الجاد المستقيم العطوف المنصف الذي أخلص للكنيسة أكثر مما فعل أي ملك إنجليزي آخر على الإطلاق — كان يعوزه تماماً فن سياسة الرجال .

(١) سارية تركز في رجلة وتكامل بالورد ويحتفل من حولها بعيد أول مايو .

طلب السادة المتطهرون — الذين كانوا ذوى نفوذ فى البرلمان — تغييرات فى شئون الكنيسة . وقد أنكر شارل هذا إلى حد أنه حاول أن يحكم البلاد ، من دون برلمان ، أحد عشر عاماً (١٦٢٩ — ١٦٤٠) ، وفى أثناء تلك الأعوام فرض جميع أنواع الضرائب دون مشورة أحد ، وترك لود — كبير أساقفة كانتربرى — يضطهد المتطهرين ، ودفع لود — وهو رجل طيب ولكنه كثير اللغط — دفع الناس جميعهم إلى أن يتعبدوا وفق كتاب الصلاة بل أنه تطلع إلى أن ينشر تعاليم كنيسة إنجلترا فى كل مكان من العالم يتفق أن يعيش فيه رعايا ملكه . ولكن حدث أنه عند ما فرض كتاب الصلاة على رعايا الملك الاسكتلنديين فى المملكة الشمالية قامت الفتن فى الحال ، فلقد كان الاسكتلنديون تابعين للكنيسة المشيخية (برز بيتيريان) ، وكان لهم اتجاه خاص فى العبادة سببه جون كلثون ، وكانت كنيستهم قوية متحدة ، ثاروا وجيشوا جيشاً وغزوا إنجلترا .

ولم يستطع شارل أن يحمل لورداته على مساعدته ، واضطر إلى أن يستدعى برلماناً ، وبعد عراك مرير دام سنتين حاول زعماء الآباء المتطهرين فى البرلمان أن يسيطروا على الجيوش المرابطة بالمقاطعة ، فركب شارل إلى نوتنجهام وأهاب بجميع المخلصين أن يلتفوا حول رايته وانقسم البرلمان فشاع بعض الأعضاء الملك ، وخذله البعض . وأشفق الكثيرون من خوف الحرب ، وبعض الذين كرهوا الأساقفة كرهوا — أكثر وأكثر — فكرة حمل السلاح ضد ملكهم الشرعى . كتب سير إدموند فيرنى — وكان حامل العلم الملكى — « أنا لا أكن احتراماً للأساقفة الذين ينشب النزاع من أجلهم » .

وكانت الحرب الأهلية التى تلت (١٦٤٢ — ١٦٤٨) فى أول مراحلها أمراً غير بالغ الحماسة ، وكان من الجائز أن تنتهى بانتصار الملك ، وذلك لولا أمران : (١) الجيش الاسكتلندى المشايخ للكنيسة المشيخية .

(٢) أوليفر كروموويل . انزعج برلمان المتطهرين من إخفاق الفرق التي جندوها على عجل من المعاطف الزرقاء والمعاطف الصفراء والمعاطف الخضراء والمعاطف الأرجوانية ضد الخيالة المشايخين لشارل فعقد حلفاً مقدساً مع الأسكتلنديين وضموهم إلى صفوفهم ضد الملك . وبعد ذلك حولوا حملة البنادق وحملة الرماح التابعين لهم إلى « جيش جديد أنموذجي » تحت قيادة سادة ونبلاء تمرسوا بالحرب ، وكان أوليفر كروموويل — الذي شكل فرقه الخاصة من الخيالة الغيورين الوريين في المقاطعات الشرقية — أحد الضباط الأنموذجيين الحديثين ، ولم يلبث أن أصبح القائد العام . كان جندياً عبقرياً . وقد حوى الأنموذج الحديث كثيرين من المتعصبين الغيورين الذين كانوا يتلقون النصيح من قساوسة الميدان قبل أن يحملوا رماحهم إلى ميدان القتال والذين كانوا يحسبون أنفسهم رجال الله المختارين ليحاربوا العمالقة والوثنيين ، ولم يحدث قط أن وجد جيش كجيشهم لأنهم كانوا جنوداً لا سبيل إلى قهرهم ، وقد وصفهم أحد أعدائهم بقوله : « جيش رفعتة يقطته وأخلاقه وشجاعته ونجاحه فجعلته ذائع الصيت مرهوب الجانب في العالم أجمع » ، ولما دحر الجيش الأنموذجي الجديد الجيش الملكي في نيسبي عام ١٦٤٥ استسلم شارل .

وكان يصح أن يضع هذا حداً للحرب . ولكن عندما حاول البرلمان تسريح الجيش ، أبى الجيش أن يسرح ، وطرد كروموويل غالبية أعضاء البرلمان ولم يترك في الجلسة غير « مؤخرة » من المستقلين المتطهرين . واضطلع كروموويل والجيش بشئون الجزيرة . وعمد كروموويل إلى قمع الثورات الملكية وإلى قهر الأسكتلنديين الذين كانوا يكرهون المستقلين ويحبون حباً جماً ملكاً من آل ستيوارت .

وحكمت « المؤخرة » وضباط الجيش على شارل الأول بالإعدام .

وقطعت رأسه في وايت هول (البهو الأبيض) وقد حُرست صفوف من الرماحة المشنقة حراسة قوية .

وكانت أسكتلندا وأيرلندا من أنصار الملك . فشن كرومويل حملة على أيرلندا لا تعرف الرحمة ثم قهر الأسكتلنديين . وبيعت جماعات كبيرة من الأيرلنديين والأسكتلنديين بيع الرقيق في أمريكا وجزائر الهند الغربية . والنحقت جموع غفيرة — وبخاصة من الأيرلنديين — بالجيوش الأجنبية في أوروبا .

تلك كانت أمور فظيعة ولكنها ليست شيئاً على الإطلاق إذا قيسَت بسفك الدماء والقحط والوباء والدمار التي حلت بألمانيا في حرب الثلاثين عاماً .

وقد نصب الجيش كرومويل حامياً لحى مجموعة البلاد التي حكمها بمساعدة بضعة عشرة ضابطاً برتبة لواء . وانتهت سلطة البرلمان في عهده . وفي الخارج حارب جيش كرومويل وبحريته أسبانيا ، الخصم اللدود ، واستولى على جاميكا ، وغلب الجيش الأسباني بدفعهم بأسنة الرماح في دنكرك . وحارب أسطوله تحت إمرة «أميرى البحر» مونك - و - بليك ، الأسطول الهولندي الذي يحمل الكنوز تحت فوهات مدافع الشاطئ في تينيريف بالجزائر الخالدات .

وجاء دور كرومويل في أن يضمن إخلاد القسم المتعصب من المتطهرين إلى النظام ولكنه أيضاً لم يستطع . فالبرلمانات التي استدعاها للانعقاد كانت عديمة الفائدة فطرد أعضائها من المجلس وبقي وحيداً مخوفاً بمقوتاً . تأمر الملاكيون على قتله . وتجمع غلاة المتطهرين . وحاول «المهدون» (المجاهدون للتسوية بين الناس) المنبشون في الجيش أن يلغوا الضباط

فأعدوا رمية بالرصاص . وعمد « أنصار الملكية الخامسة » — وهم خيالة المملكة الدنيوية (مملكة الله) الذين لا يحترمون سلطان بشر — عمد هؤلاء إلى نشر راية يهوذا في أرباض لندن فأحيط بهم . ورغب البعض في أن يلغوا القوانين جميعاً وأن يستبدلوا بها سفر تثنية الاشرار (في التوراة) .

واحتفظ كرومويل برأسه . ولم يكن هادم الملذات . وكان لديه رصيد من حسن الإدراك ومن الحكمة العملية وإلا لما استطاع أن يصبح قائداً عظيماً . وقد وصل هذا الرجل الثرى — الذى جاء من البطاح — إلى مركزه العظيم بعبقريته الحربية على هدى « الإيمان والعزيمة التى لا تبارى » . ولم يكن صيته فى بلاده إلا صدى لصيته خارجها . ولما مات فى هامبتون كورت عام ١٦٥٨ بملايا حادة (كانت تعاوده كل يومين) وفاضت روحه فى خلال عاصفة من الريح والمطر قال البعض إن تلك إشارة من الله ، وقال آخرون إن الشيطان عاد إلى جسده . وليس فى وسع الناس أن يمروا على تاريخ كرومويل مر الكرام . فلقد كان أول رجل من الشعب فى أوربا ، رفع نفسه بعبقريته ، إلى مصاف الملوك .

وفقدت الجزيرة الملك والبرلمان كليهما . وخلقت جيشاً محترفاً وبحرية قوية . غير أن غالبية الناس تعبت تعباً عميقاً الجذور من حكم الجيش وحكم « القديسين » . وفى ١٦٦٠ جاء الجنرال مونك بـ شارل الثانى إلى دوور بوصفه ملكاً . جاء به على موجة من الفرح والتهليل الشاملين . وأعيدت البرلمانات والأساقفة وكتاب الصلاة . غير أن الخصومات الدينية كانت قد بدأت تفقد مراتها تدريجاً . وكان شارل قد بلغ من المهارة ما ثبتته فى الحكم ٢٥ عاماً لم تعترضه فى خلالها خصومات سياسية كبيرة . كان هنالك اضطهاد . كان محظوراً على المستقلين — أو المنشقين على الملة ، كما كانوا يسمونهم — أن يعلموا فى الجامعات أو يدخلوها أو أن يتعبدوا خارج

دائرة الأسيرة . وكان محظوراً عليهم كذلك تولى مناصب حكومية . .
غير أنهم — بمرور الوقت — وجدوا سبيلهم إلى التغلب على تلك العقبات . .
ومن الغريب أن جيمس الثانى — أخا شارل — عندما حاول أن
يعطل مفعول قانون الأرض — لم تأت المعارضة من جانب المتطهرين بل من
جانب سبعة من أساقفة الكنيسة . فقدمهم للحاكمة بتهمة الخيانة العظمى
ولكن قضاته بروههم . وفى ١٦٨٨ دعا لوردات البرلمان ولیم (أورانج)
صهر جيمس الثانى ليأتى ويعيد العمل بالقوانين . فهرب جيمس وأصبح
ولیم « ولیم الثالث » . وقد حكم بالاشتراك مع ماري الثانية (زوجته)
ملكاً وملكة بعون الله ، وبموافقة البرلمان .

المقارنة : فرنسا

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر صارت بريطانيا العظمى ملكية
برلمانية . وقد حكم هذه الجزيرة على النوالى ملكان من أسرة ستيوارت
— وأوليفر كرومويل — وملك آخران من أسرة ستيوارت — وملك
هولاندى متزوج بملكة من آل ستيورات — وملكة أخرى من
آل ستيوارت (آن) — ثم أربع ملوك ألمان تسمى كل منهم باسم جورج ،
ذلك أن لوردات البرلمان الأكار — عندما توفيت الملكة آن — قدموا
تاج بريطانيا إلى حاكم هانوفر . ولقد أسقطنا آخر أربعة تسموا باسم جورج
وذكرنا عشرة حكام . وفى خلال الفترة التى فيها حكم بريطانيا أولئك
العشرة لم يحكم فرنسا غير ثلاثة ملوك : لويس الثالث عشر — ولويس
الرابع عشر — ولويس الخامس عشر ، وكلهم فرنسيون . وصارت بريطانيا
ملكية مقيدة . أما فرنسا فقد صارت ملكية مطلقة فى عهد الملوك الثلاثة
من آل بوربون .

وعندما قتل مجنون — فى سنة ١٦١٠ — هنرى الناغارى كان ولده .

لويس الثالث عشر لم يتجاوز ، بعد ، الثالثة عشر من عمره . وكان رئيس وزراء الدولة : الكاردينال ريشليو ، وهو رجل نشيط حازم جسور حاد الذكاء ملكي — في تصرفاته وأعماله — أكثر من الملك الذي كان هو يعمل في خدمته . وقد استهدف الكاردينال شيئاً واحداً وهو أن يجعل لويس الثالث عشر أقوى رجل في فرنسا وأن يجعل فرنسا أقوى دولة في أوروبا . وقد هد القوى السياسية لكبار النبلاء وذلك بهدم حصونهم وبارسال بعضهم إلى المقصلة . ولما وجد أن الهوجنوت يسيطرون فعلاً على المدائن والمقاطعات حاصر أقوى مدائنهم — لاروشل — واستولى عليها عنوة . وبث في كل منطقة موظفين ملكيين — يسمونهم « مديري الشئون » — بكل إليهم تنفيذ الأوامر الملكية . وقد وفقت فرنسا تحت حكمه في الداخل والخارج : انتعشت الصناعات ، ونمت أرباح المزارعين ، وأصلحت ووسعت جامعة باريس ، وأرسلت الشركات التجارية عمارات بحرية إلى مدغشقر والسينجال وجزائر الهند الغربية ، واستوطنت ألوف من فلاحى نورمانديا — و — بواتو ، استوطنوا كندا (حيث يعيش سلالتهم حتى الآن) ، وزيد الجيش الملكى إلى مائة ألف ، وأنشئ ميناء برست — و — لوهافر الحربيين وبنيت سفن حربية للبحيط والبحر الأبيض المتوسط . ولكى يدفع ريشليو قوات سيده الملكى إلى حدود فرنسا الطبيعية — وهى نهر الراين وجبال الألب وجبال البرانس — شن حروباً على آل هابسبرج فى النمسا وأسبانيا .

ومات فى ١٦٤٢ ، ومات ملكه لويس الثالث عشر فى ١٦٤٣ .

وورث العرش لويس الرابع عشر وهو — بعد — طفل فى الخامسة . وحل محل ريشليو رجل آخر من رجال الكنيسة هو الكاردينال مازاران الإيطالى . ولم يكن مازاران يطاول ريشليو فى عظمته ولكنه ، مع ذلك ، كان حاذقاً نشيطاً متشبهاً برأيه قوى العزيمة . وقد تابع أعمال ريشليو رغم

الشغب والثورات التي كان يشعلها النبلاء والمواطنون ورجال القانون . وقد عرفت هذه الثورات باسم « لا فروند » (أى المقلع) وكان يعوزها قائد حقيقى وانتهت بالقحط والوباء . وقد تخطى مازاران — بصبره ودهائه — هذه الفترة واستعاد سلطانه . وترك — لدى وفاته — ملكه لويس الرابع عشر حاكماً بأمره فى فرنسا . ولم يخضع لويس الرابع عشر لنفوذ وزير ، ولكنه حكم بنفسه وأخذ يختار خدامه من بين الناس المتواضعين من التجار ومن أصحاب الحوانيت وسواس الخيل . ولم يكن لكبار النبلاء نصيب فى حكم فرنسا . وظل لويس الرابع عشر يحكم فرنسا — سيداً مطاعاً — أكثر من خمسين عاماً : من ١٦٦٠ إلى وفاته فى ١٧١٥ .

وقد امتد حكم لويس الرابع عشر وابنه لويس الخامس عشر — مجتمعين — إلى أكثر من مائة عام ، من ١٦٦٠ إلى ١٧٧٤ . وخير وصف لتاريخ أوروبا طوال هذه الأعوام هو وصفها بأنها « قرن فرنسا » .

لقد كانت فرنسا — بسكانها الذين بلغوا الثمانية عشر مليوناً ، وبمزارعها الخصبة وبغاباتها وكرومها وبصناعها المهرة وبحضريها الأذكاء — كانت زعيمة المدنية وحجر العقد فى أوروبا . وكانت ثروة فرنسا وقوتها فى يد رجل واحد « الملك » . وكان لويس الرابع عشر : « الملك الشمس » التى تتحرك الحاشية والأمة حول عرشه المتألق . وكان من بين وزرائه : لوفوا الذى خلق جيشاً نظاماً عزيزاً — و — فوبان الذى اشتهر بمقدرته فى الهندسة الحربية — و — كولبير الخبير بالشئون المالية والتجارية . وقد غذى كولبير الصناعة عن طريق الترحيب بالفنيين الأجانب وتنظيم الحرف . وأنعش تجارة ما وراء البحار والمستعمرات بتأسيس شركتى شرق الهند وغربها . وقوى البحرية إلى مدى كبير حتى إن السفن التى حشدتها فى سنة ١٦٨٠ بلغ مجموعها ٣٠٠ سفينة .

وكان أعظم ما شيدته لويس الرابع عشر من الأبنية الأثرية : قصر

قرساي الذي صرفت نفقات باهظة لبنائه بين سنتي ١٦٦٩ و ١٧١٠ . لقد شتمخ — بين بساتين البرتقال وحدائق الزهر والمرجات ومنابت العشب والبحيرات الصناعية والطرق الواسعة المشجرة والمماشى التي تزينها التماثيل والنافورات — لقد شتمخ بين كل هذا ، الصرحُ الفسيح الذي آوى الملك ووزرائه وموظفيه وندماءه وموسقييه ومثليه وصياديه وحرسه وجيش الخدم والأتباع المكلفين بالصيانة . وفي أهبائه وأروقته المذهبة المحلاة بالمرايا كان الأخصاء يقامرون بالمصائر ويخططون للحرب ويديرون شئون الدولة ويشهدون ملاهى (جمع ملاهة) مولير وماسى راسين ويسمعون أوبرات لولى . وقد جعلتهم شعورهم المستعارة وستراتهم الحريرية الأطلسية وأطراف أكامهم المزركشة بالدنتلة .. جعلتهم تلك الأشياء جميعاً أقرب إلى شكل الممثلين منهم إلى من يمارسون الحياة العادية .

ولم يغب عن ذهني قوبان وكولبير المستقبل المرموق الذي ينتظر التجارة والمستعمرات وراء البحار . غير أن لويس الرابع عشر أثر أن يستخدم قوته في محاربة آل هابسبرج لكي يستولى على حصون تخومية مثل ليل — و — ستراسبرج . وقد أضرب بتجارة فرنسا وبصناعاتها بضطهاد الهوجنوت الذين هرب منهم الآلاف إلى إنجلترا وبروسيا وأفادوها بمهارتهم وذكائهم .

وفي عهد لويس الرابع عشر وخليفته لويس الخامس عشر دخلت الجيوش الفرنسية البلاد الواطئة وأراضى الراين حيث نازلت الهولانديين والألمان والنمساويين . غير أن أوربا جميعاً اتخذت فرنسا قدوة لها . واستعملت المجتمعات الممثلة اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية في كل مكان .

وكان حتماً أن تستمر المقارنة بين مملكتي بريطانيا وفرنسا في الحياة السياسية . وقد اشتبكت المملكتان في حرب — أعواماً طويلاً — في القرن .

الثامن عشر ، وترتبت على ذلك نتائج هامة لها وللدنيا جمعاء . ولكن ينبغي لنا — قبل أن نتتبع هذا المبحث — أن نلمّ بما كان يجري وراء البحار في الدنيا الجديدة وفي الشرق .

الاتجاه صوب الغرب :

كانت فرجينيا المسماة بـ « المستعمرة القديمة » ، أول مستعمرة إنجليزية في أمريكا . بدأ سير وولستر إلى يرسل مستوطنين إلى شاطئ فرجينيا ولكن واحدة من تلك المستعمرات لم تدم . فتبدى فكرته بعض التجار وأرسلوا مستوطنين ، في ١٦٠٧ ، إلى نهر جيمس . ولكنهم لم يحسنوا اختيار تلك الجماعة فكاد الكسل والجهل والنزاع أن تضع حداً لتلك المستعمرة الوليدة . وكان مخلصها الضابط جون سميث وهو جندي شهيم من هو موسر ، فطن إلى ضرورة العمل الجدى وإلى تحسين العلاقات مع الهنود . وبعد فترات هزيلة شاقة بدأت فرجينيا تنتعش ، وكان محصولها الرئيسى هو الطّباق (الطمباك) . وفي ١٦٣٥ بدأ عدد سكانها يرتفع إلى ٦٠٠٠ .

وما وافت تلك السنة حتى كانت القارة الأمريكية — التى وجدت فيها قبلاً أسبانيا جديدة — تحوى كذلك إنجلترا جديدة وأراضى واطئة جديدة وفرنسا جديدة .

أسس إنجلترا الجديدة منفيون دينيون كانوا يبحثون عن أرض فيها يستطيعون أن يتعبدوا وفق ما يريدون . استأذن بعض أسر المتطهرين — من سكان شرق إنجلترا — تجار لندن فى أن يسافروا ليستوطنوا شاطئ فرجينيا . ونزلوا فعلاً مكاناً بعيداً شمالها . وعبر مائة منهم — وهم « الآباء المهاجرون » ، تصحبهم أمهاتهم وأطفالهم ، عبروا الأطلنطى على السفينة « ماى فلاوار » ، (أى زهرة مايو) وأنزلهم بحارتها الشجعان فى خليج پلايموث . حدث هذا فى خريف ١٦٢٠ . وفى خلال أول شتاء لهم مات

نصفهم من المشقة والمرض ، غير أنهم كانوا ذوى عزم . وأصبح الآباء المهاجرون — بقاءة ولیم برادفورد ، الذى حكمهم إلى أن توفى فى ١٦٥٧ — أصبحوا مستعمرة مزارعين وسماكين وتجار فراء .

وفى سنة ١٦٢٨ أسست شركة خليج ماساتشوستس الإنجليزية فى بوستن مستعمرة أخرى ، أعظم وأغنى ، باسم نيو إنجلند (إنجلترا الجديدة) ولم يحل عام ١٦٤٢ حتى خوت مدنها وقراها أكثر من ١٦٠٠٠ مستوطن من المتطهرين . وقد وسع هؤلاء أن يتعبدوا وفق مرامهم غير أنهم منعوا الصاحبين (الذين ينتمون إلى طائفة الاصحاب المهتزين) وغيرهم عن أن يتعبدوا على الطريقة التى يفضلونها . وعلى هذا يكون المكان الوحيد فى أمريكا الذى يسمح فيه لكل المسيحيين بحرية العبادة هو « مارى لاند » وهى مستعمرة كاثوليكية أسسها لورد بلتيمور عام ١٦٣١ تمجيداً للملكة شارل الأول ، هنريتا مارية .

وكان التوأمان : فرجينيا فى الجنوب وإنجلترا الجديدة فى الشمال ، هما أساس الولايات المتحدة التى تكونت فيما بعد . وقد نقل المستعمرون معهم — سواء أكانوا من زارعى الطباق الاغنياء أو من المزارعين المتطهرين — نقلوا اللغة والأغانى والعادات والقوانين التى كانت سائدة فى إنجلترا فى القرن السابع . وهذا هو السبب فى أن الوثيقة الكبرى تتصل بالتاريخ الأمريكى بقدر ما تتصل بالتاريخ الإنجليزى ، وفى أن المحاكمة — أمام المحلفين وبمقتضى القانون الإنجليزى العام — معمول بها فى إنجلترا ، وفى أن مأمور الأحكام (العمدة) ورجاله فى الولايات المتحدة يتصرفون تصرف مأمورى الأحكام ورجالهم فى إنجلترا . وربما صح القول بأن التاريخ الأمريكى يبدأ بإنجلترا الأنجلوساكسونية ويعبر المحيط بعد سنة ١٦٠٠ .

وكان فى جنوبى إنجلترا الجديدة : البلاد الواطئة الجديدة ، وفى شمالها — على بعد ٣٠٠ ميل وراء الغابات والجبال — فرنسا الجديدة .

وقد خطط الهولنديون مستعمرتهم — أمستردام الجديدة — على جزيرة ماتها تان في سنة ١٦٠٩ . وبما أن الهولنديين مشغوفون بالتجارة فإن هذه المستعمرة سرعان ما أضحت واحدة من المراكز الهامة لتجارة الفراء الهندية ، وبعد أن أدركتها تغييرات عظيمة كثيرة أصبح يطلق عليها الآن الاسم المألوف : نيويورك ، أكبر مركز تجارى فى الولايات المتحدة .

وتختلف فرنسا الجديدة عن سائر المستعمرات فى أنها تقع على مسافة قد تبعد عن المحيط ٨٠٠ ميل . ومن الخريطة يتضح : أولاً ، أن خليج نهر سانت لورنس يضاهى البوغاز الإنجليزى اتساعاً . وثانياً ، أن مونت ريبال ميناء تقع على بعد ألف ميل من الأطلسنطى . وفى ١٦٠٨ أسس صمويل تشامپلين — النورماندى الأصل — مستعمرة فى كويبك . وهنا أنشئ من جديد أسلوب حياة الضيعات العتيق فى فرنسا القديمة : يشتغل المزارعون فى أرض السادة الملاك ويدفعون لهم المستحق نقداً أو عيناً . وبطبيعة الحال كانت فرنسا الجديدة كاثوليكية . وقد أوغل تشامپلين فى رحلاته حتى تطرق إلى البحيرات الكبرى . وقد تودد أهل فرنسا الجديدة إلى هنود هيورون الذين قام الجزويت الفرنسيون بينهم بأعمال تبشيرية بالغة الأهمية . وأصبح كثير من المستعمرين خبيرين بتجارة الفراء فى الشمال .

وهذه المستعمرات الإنجليزية والهولندية والفرنسية البالغة الصغر روعى فى تأسيسها أن تكون على السواحل وعلى مجارى الماء فى تلك البلاد العظيمة الاتساع التى لا يربط بين كثيف غاباتها التى تنبت الشيكران (وهو نبات مخدر) والبلوط والتنوب والسدر (أى الأرز) والتامول — وهى تلك الغابات التى تمتد إلى مسافات بعيدة فى داخلية البلاد — نقول إن هذه البلاد العظيمة لا يربط بين كثيف غاباتها تلك جداول ماء صامته ودروبٌ هندية ضيقة . والغابات فى كل مكان تشبه بحراً أخضر . غير أن الشتاء يغيّر من المنظر فـ « يخلق النافورات ويكبل جداول الماء ويحوّل

الغابات المتسربة بالخضرة إلى فلاة مرتفعة عارية فلا تسمع في تلك الدنيا
الباردة المقفرة إلا د صفير الريح الشمالية الشرقية وصرخات الذئاب
الجائعة . .

وقد هام — في الزمن الغابر — ذوو الجلود الحمراء بحثاً عن مناطق
للصيد ولا قو صعباً ممضة فكابدوا وارتكبوا قساوات وحشية وإن قدّموا
كرماً بالغاً في بعض الأحيان . لقد كانوا أبناء الغابة ولهم دستور سلوك
يختلف تمام المخالفة عن دستور ذوى الوجوه الباهتة . وقد كانوا يصغون
الساعات الطويلة إلى الخطب الطويلة ويُقنعون في المجاس بصبر رزين يليق
بشيخ من شيوخ مدينة قديمة ما . ولكنهم كانوا أيضاً مع ذلك ، المتوحشين
العارين المرعبين المطلين بالمغرة (تراب حديدى) وبالهباب ، كان الفرد
منهم الخائن العديم الرحمة نازع جلود الرؤوس وكانت فؤوسه القاتلة
وجمراته تستخدم ضد ضيعات الحدود المنعزلة .

وكانت في الغرب الكبير : برارى تسرح فيها قطعان الجاموس ، وأنهار
تفيض على أودية فسيحة أو تضل في ممرات هائلة بين الجبال ، وصحارى
ينثر فيها نبات الصبار العجيب ، وسلاسل جبلية شاسعة ، وقبائل هندية
متوحشة لم تعرف ولا يتوهم وجودها . وعلى هذا الجانب من المسيسيبي
كان يحكم القارة الإيروكو - وا أو الشعوب الخمسة الذين كانوا يفترسون القبائل
الأخرى والذين كانت بيوتهم — المصنوعة من لحاء الشجر وخشب التامول —
تنتثر عبر مسالك البيض الوافدين من البحر .

وفي أخريات القرن — في حكم شارل الثانى — أسست جماعة من
السادة الفرسان : كارولينا التى أطلق عليها هذا الاسم تمجيداً لـ .. شارل .
وأسس ولیم بن - الصديق الصحبى (أى الذى ينتمى لطائفة المهترين) لشارل
الثانى — أسس ، فى سنة ١٦٨٠ ، مستعمرته الصحبية : بنسيفانيا وجعل
عاصمتها مدينة فيلادلفيا وهول المحبة الأخوية . .

وفي اخريات القرن إمتدت المستعمرات الأوربية في أمريكا إلى أبعد من ١٠٠ درجة من خطوط الطول ، من نهر بلات إلى خليج هدسون .

وفي الجنوب كان آباء يسوعيون (جزويت) يحكمون هنود پاراجواى ويحرصون على عدم اتصا لهم بالخارج ، وكانت هناك البرازيل البرتغالية بحقوقها التي تنبت القصب والطبّاق والتي يشتغل فيها العبيد الزوج ، وكانت هناك المستعمرات الأسبانية القديمة تحكم كلها من أسبانيا عن طريق نائبى ملكها في بيرو والمكسيك ، وكان لهما عليهما أن يبحثا بالمعادن الثمينة إلى مدريد وأن يتلفا غياض الزيتون وكروم العنب لكي لا تنافس نظائرها في أسبانيا .

وكانت في البحر الكاريبي جزائر الهند الغربية الغنية بالأهلة بالسكان ، والإنجليز والفرنسيون يُثرون من التجارة ومن تهريب السكر والعسل الأسود والروم والقطن وخشب البقَم الأحمر . وكانت هناك أيضاً مساكن قرصان البحر الذين تجمّع بحارتهم المختلفو الأجناس وعملوا — عام ١٦٧٩ — في خدمة هنرى مورجان لينهبوا مدينة بناما الأسبانية .

وعلى الأرض الأمريكية — شمالى فلوريدا الأسبانية — وجدت المستعمرات الإنجليزية : (١) زارعو الجنوب يعيشون في بيوت فسيحة ، وعبيدهم يكدون في حقول الأرز بكارولينا أو في حقول الطباق بـ فرجينيا (٢) مزيد من العبيد يأتون تباعاً من غير انقطاع من غرب إفريقيا وقد برّح بهم الخوف من الألم الشاحب المبرح الذى كانوا يعانونه في الطريق الأوسط عبر الأطلنطى (٣) مهربون من جزائر الهند الغربية يتسربون في هدوء إلى ميناء تشارلستون (٤) پروتستانتيون ألمانيون « ألمان بنسيلفانيا » من بلاد الراين (٥) لاجئون من الهوجنوت الفرنسيين في نيويورك جنباً إلى جنب مع أغنياء الـ « ماينهير » (أى النبلاء الدنماركيين) أو تجار الفراء الهولانديين تصحبهم حاشيتهم من العبيد السود وصاحبيون سذج مسالمون

في مستعمرة بن ونيو چرزى (٦) جماعات دينية للمتطهرين في بوستون .
مستغرقة في مطاردة السحرة (٧) مزارعو إنجلترا الجديدة الكادحون
المقتصدون المستقلون (٨) بحارة كنتيكت وصيادوا الحيتان من جبهة
نانتوكيت (٩) سمالكو نيو فاوندلاند الذين يفدون ، في المواسم فقط ، من
بسكاي وغرب إنجلترا (١٠) جماعات من أقاصى البلاد المعمورة تطأ أول
الدروب التي تصل بجبال أليجاني والآبلاش (١١) في كل مكان من الغابات
الهنود الحمر : الموهوك حلفاء الهولنديين ، التوسكارورا واليماسى على تخوم
كارولينا ، الهيورونيون يغريرون على ضيعات الـ .. مين وهامشاير الجديد
ويحالفون الفرنسيين في كندا .

ولم يكن الفرنسيون يقصرون نشاطهم على كندا . فقد استكشف
لاسال — أحد حكامهم — الأنهار ومجارى الماء على طول الطريق الواقع
بين البحيرات الكبرى وبين خليج المكسيك وأعلن تبعية منطقة «لويزيانا»
للويس الرابع عشر .

أما عن أقصى الشمال فقد أعطاه شارل الثانى إلى سادة جمعية خليج
هدسون الذين يحكمهم ابن أخته الأمير روبرت . وقد كان وكلاء الشركة
يعيشون عيشة العزلة في الأراضى الشمالية المنجمدة يتقاضون المدافع
والسكر والشاى والبطاطين والغلايات والباط لقاء فراء السمور والراقون
(وهو حيوان من اللواحم) والقضاعة (وهو نوع من كلب البحر)
والشعالب التي يجىء بها ، سنة بعد سنة إلى مصنع نيويورك ، صائدو
الحيوان الهنود على قواربهم .

وكانت الدنيا الأمريكية الجديدة التي — تُنقل كلها من أوروبا — في سبيلها
إلى البروز إلى عالم الوجود بكدّ أيد مجهولة لا حصر لها .

السلطان والقيصر :

تعدّى الأسبان والهولنديون والفرنسيون والإنجليز الحدود البحرية

الغربية التي تحد البلاد المسيحية ، وانطلقوا يجازفون - في سبيل مصالحهم - وراء مياه الأطلنطى الواسعة . وكانت شعوب أخرى تشكل مصاير أوروبا من ناحيتها الشرقية أى من جانبها اليابس حيث كان سلاطين الأتراك - من قصورهم القريبة من القرن الذهبي - يحكمون الآلاف مدينة العتيقة المخربة . كان الأتراك يحكمون مناطق سبق للفرسان الألمان أن أقاموا فيها حصونهم وحكموا مزارعهم التي انتزعت من قفار پروسيا المقفرة وقتما كانت تلك الأراضى دسمة ، أو تخوماً محصنة ضد الوثنيين . كان الأتراك يحكمون مناطق سبق لنبلاء پواندا الكاثوليك أن حكموا فلاحهم المنتشرين فى القرى على السهول ومعهم جماعة من اليهود كبيرة العدد . كان الأتراك يحكمون الأودية الواقعة على هذا الجانب من جبال الكرپات والذي سبق أن آوى الهنجاريين الذين يتكلمون اللغة المجرية الغربية كما آوى الفلاحين والنبلاء الذين كان ملكهم إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وكما آوى - على مدى مئات من الأميال شرقاً - أميراً مسيحياً درج على أن يقيم بلاطه فى موسكو .

كانت الإمبراطورية التركية تضم مجموعة كبيرة من الشعوب المختلفة كل الاختلاف ، تجارها من الأرمن والإغريق ، وعلمائها من العرب واليهود ، وبحارتها من الإغريق ، وعلمائها وشعرها مستعاران من الفرس والعرب ، وجنودها فلاحون أناضوليون من آسيا الصغرى . . . كان الأتراك سادة على أولئك وعلى كثيرين غيرهم ، ويتقاضون منهم الضرائب . . . ويشمرون سواعدهم للحرب ، وكان اعتمادهم على إرادة الله يجعلهم أقوياء الشكيمة فى الحرب ويمدهم بالتفوق فى حرب الهلال والصليب الطويلة الأمد .

وبسبب فرقة الشعوب المسيحية بسط الأتراك سلطانهم على شعوب البلقان وعلى الرومانيين والبلغاريين والعرب واكتسحوا المجر . وفى ١٦٨٣ بلغ جنودهم أبواب فيينا . ولم يتحرك ملوك الغرب . غير أن حظ المسلمين

خانهم نهائياً في هذه الغزوة إذ أن جون سويديسكى - على رأس نبلائه البولنديين وحشودهم - أجلاهم عن قينا وأنقذ المدينة . وفي ١٦٩٧ أحرق الأمير النمساوى أويجين بجيش تركى فى زنتا . وثبت البندقيون والهنجاريون حتى تنازل السلطان فى ١٦٩٩ عن كل مطمح لحكم المجر . ومنذ ذلك الوقت ظلت الإمبراطورية التركية فى حالة دفاع . غير أن وجود الأتراك فى البلقان ظل مسألة قائمة ، المسألة الشرقية ، فى أوروبا .

ومنذ ذلك الوقت أيضاً كانت هناك دولة جديدة تنافح عن المسيحيين والشعوب السلافية التى كانت ما تزال تحت حكم الأتراك . وقد نهضت تلك الدولة الجديدة على سهول بلاد المسكوف وكان يحكمها القيصر الروس ، ويتبع شعبها الكنيسة الإغريقية . وكان سياح شركة المسكوف اللندنية وتجارها يعرفون أسواقها . وقد أرسل القيصر - إيثان الرهيب - سفراءه ، ذوى الأحذية العالية واللحى المرسلة ، إلى بلاط الملكة إليزابيث الأولى . ولقد بقيت وقتاً طويلاً تتعرض لهجمات خيالة التتر وتدفع الاتاوات لزعيم تلك العشائر الآسيوية . وإذ ذاك أيقظها - على صورة ما ، من تأخرها ورخاوتها - جبارٌ صغير السن وهو القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٩ - ١٧٢٥) بمجدد بلاد المسكوف .

وكان بطرس قد زار هولاندا وإنجلترا حيث اشتغل عاملاً فى أحواض السفن بـ تساندام - و - ديتفورد وحيث تعلم كل ما وسعه تعلمه من عادات الغرب وحرفته . فلما عاد إلى روسيا أخذ - فى نشاط هائل يكاد يبالغ حد الجنون - يغير جميع أساليب حياة الروس وأساليب عملهم . واستقدم مستشارين وخبراء أجانب ليساعدوه . وبني عاصمة جديدة « نافذة على الغرب » فى سنت بطرسبرج (لينينجراد) وهى مدينة جديدة ذات طابع جديد فى مستنقع كلفت خسائر باهظة فى أرواح العمال . وبني سفناً وصب مدافع . وأدب المعارضة والعصيان بالجلد والتعذيب وضرب العنق ،

وكثيراً ما ضرب بالفأس بنفسه ودفع قضاته على أن يحدوا حذوه . وكان الحاكم المطاق على أهل ممتلكاته جميعاً . وقد رمى إلى جعل روسيا دولة أوربية .

وبعد وفاته أخذ العمل يزيد توانياً . وقد بدأت روسيا تسهم بقسط في سياسة أوروبا الشرقية . واشتبكت مع الأتراك على شواطئ البحر الأسود ومع السويديين على شواطئ البلطيق . وكان هذان البحران منفذيهما . غير أن البحر الأسود يستطاع إغلاقه بالقلاع التركية الرابضة في القسطنطينية . ثم أن البلطيق يتجمد شتاء . ووراء روسيا تترامى — إلى جهة الشرق — غابات وسهول سيبيريا التي لا تقف عند حد ، وتترامى — إلى جهة الجنوب — مدرجات التركستان وصحاريها وجبالها . وكانت الأصقاع الشرقية والجنوبية المجهولة في الدولة الجديدة تعدل في مساحتها ما كان يوجد غرب المستعمرات الجديدة في أمريكا . وقد ظلت روسيا في عهد القيصر تحكم حكماً استبدادياً وظلت شعوبها تعيش في مجتمعاتها القروية تحت حكم ملاك الأرض . وكان أهل البلاط والأشراف الروس في العاصمة الجديدة يتخذون أساليب حياة الأرستقراطيات المثقفة في فرنسا وألمانيا .

ولكن الروس لم يتعلموا ولم يفهموا أفكار الغرب السياسية عن الحرية والحكم الذاتي . وكذلك لم تفهمها الدويلات البروسية الدائمة الاعتداء ، تلك الدويلات التي أخذت قراتها تزداد في تلك الفترة من الزمان .

وقد احتفظ أمير البروسيين البروتستانتى — فريدريك فيلهلم (١٦٤٠ — ١٦٨٨) — بجيش عظيم ودعم سلطانه باستدعاء كثيرين من الهوجنوت الفرنسيين ، الذين طردهم من فرنسا لويس الرابع عشر ، ليستوطنوا بلاده واتخذ ابنه لقب ملك بروسيا . غير أن حفيده — الملك فريدريك فيلهلم (١٧١٣ — ١٧٤٠) — هو الذى حوّل بروسيا إلى دولة مسلحة . وكان محارباً

منهوساً فظاً غير مثقف . فاحتفظ بجيشٍ عاملٍ قوامه ثمانون ألف رجل كان كثير منهم من الأجانب المخطوفين الذين جلدوا حتى استسلموا . وقد عمر خزائنه نتيجةً لصهر الأواني الفضية الملكية وبيع الجواهر الملكية وإلغاء البلاط وقطع مرتبات خدمه الخصوصيين ، ولم يبق لهم غير الكفاف . وكان كل ما يهتم في مملكة بروسيا : المال والسكان والجنود — الجنود بصفة أخص .

بريطانيا تعادى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر (١٦٨٩-١٧٤٨)

وقتما ولي وليم الثالث ملك بريطانيا العظمى في سنة ١٦٨٩ — بشرط أن يحافظ على القوانين وعلى الملة البروتستانتية — كان الملك لويس الرابع عشر هو الحاكم بأمره في فرنسا . وفي سنة ١٧٨٩ كانت المقارنة بين الملكين تناسب هذا الوضع : كان صاحب الجلالة البريطانية جورج الثالث يحكم عملاً بنصيحة أعضاء مجلس اللوردات وأعضاء مجلس العموم في برلمانه ، بينما كان لويس السادس عشر يتصرف وفق هواه . الواقع أن المقارنة ذهبت إلى أعماق من ذلك . كان لانجلترا قانونها الخاص وكان لاسكتلندا قانون آخر : قانون وستمنستر أو قانون إدنبرة . كان في فرنسا تنوعٌ في القوانين كبير يتناسب مع تنوع المقاطعات بينما الحكومة الملكية هي الوثاق الذي يربط البلاد بعضها ببعض . ولا عجب إذا كان الكثيرون من الفرنسيين قد عدوا أسلوب الحكم في بريطانيا قدوةً تحتذى أو إذا كان أحدُ البابوات قد علمتق بأن استمرار قيام الملكية الفرنسية معجزة .

ولقد ظلت الدولتان تتحاربان أكثر من سبعين سنة (بين ١٦٨٩ و ١٨١٥) .

وكانت فرنسا أقوى دولة برية كما كانت بريطانيا أقوى دولة بحرية . ولم يرَ عصر من العصور قط — منذ روما — همة حربية مدعمة كهمة

جيوش فرنسا التي بلغت ذروتها بانتصارات نابليون ، كما أن أى عصر من العصور السابقة لم يَرَ إطلاقاً قوة تستحق الفخر كقوة بريطانيا التي أتاحت لها أن تحتفظ في البحار بـ ١٥٠ سفينة حربية كبيرة والتي بلغت ذروتها بانتصارات الأميرال نلسون وعقدت لواء السيطرة على المحيطات على بريطانيا طوال القرن التاسع عشر .

وعلى هذا كانت بريطانيا في حروبها مع فرنسا تنشد عون أحلاف في القارة أشدّاء في الحرب ، غالباً من النمساويين الذين كان ملوكهم (من آل هابسبورج) ينافسون ، من قديم ، ملوك فرنسا من البوربونيين .

وقد توجّج وليم الهولندي ملكاً باسم وليم الثالث غير أن الكثيرين — وبخاصة من الاسكتلنديين والأييرلنديين — وقفوا ولاءهم على . . جيمس الثاني ، وقد حارب وليم حروباً قاسية ليهزم « اليعقوبيين » (أنصار يعقوب الثاني) في إيرلندا . وقد التحق آلاف من الأيرلنديين بخدمة جيوش فرنسا حيث شكوا ألوية إيرلندية ووفوا المقام حقه بآس شديد . وقد استبقى جيمس الثاني وابنه جيمس إدوارد (جيمس الثالث) وحفيده شارل إدوارد (شارل الثالث) ، استبقى هؤلاء « بلاطهم » في فرنسا ضيوفاً على ملوكها وظلت الفرصة سانحة طوال نصف قرن ، لاحتمال إثارة متاعب في بريطانيا من جانب أتباعهم . فلقد ظل وكلاء يعقوبيون سرّيون تجيئون ويذهبون ولم يكن لأمريء أن يوقن إلى أى مدى في داخلية البلاد تستطيع صيحة « طير بدى » فوق مستنقع رومنى أن تنتقل قبل بزوغ الفجر — إلى بيت ضيعة نامٍ ليداناً يبدأ الغزو أو الثورة ! وكان وليم الثالث ندأً لمثل هذا الموقف وأحرص من أن يؤخذ على غرة . فلقد كان يعرف أن كبار اللوردات الذين أجلسوه على العرش لا يستغنون عنه . وكان على جانب كبير من الشجاعة والعزم والصبر وإن كان يبدو في الظاهر أنه بارد رخو . وقد قنع بأن

يكون ملكاً برلمانياً ما وسعه أن يحرز مساعدة بريطانية يستعين بها على كبح قوة لويس الرابع عشر . ولقد ضم فرق الجزيرة إلى فرق جيشه الهولندي وقادهم — في سبع مواسم متوالية — حارب في خلالها مشيرى (مارشالات) الملك الفرنسي في البلاد الواطئة . وكان جندياً محنكاً عنيداً . مثبتاً برأيه ، بل لقد كان بطالاً في عدم اكتراثه بالربو المزمن الذي انتابه ، وتحمل في رباطة جأش ، محن المعسكر والميدان . وهو — وإن لم يكسب قط معركة فاصلة — لم يكابد قط نكسة شديدة الوطء . ومعركة نيرفندن النموذج حظه : انتصر المشير زاكس ولكنه خسر في المعركة ١٠.٠٠٠ جندي .

وفي سنة ١٦٩٧ عُقد صلح ، غير أن الحرب قامت من جديد عندما ارتضى لويس الرابع عشر عرش أسبانيا لحفيده . واسوء حظ لويس أن ولیم مات وقتما كان هو يجهز للحرب . ذلك أن الملكة (آن) — التي ورثت ولیم — عينت جون تشرشل ، دوق مولبرا ، قائداً لجيشها .

كان مولبرا جندياً عبقرياً . وقد استطاع بالصبر والحصافة أن يبقى حلفاءه متماسكين . وكان ذا خيال وبصيرة في شئون الحرب ، يشهد في إقرار النظام وإن عنى أشد العناية براحة رجاله الذين يشقون كل الثقة بقائدهم . الأومباشي جون ، (قائد الأثنى عشر) . وفي ١٧٠٤ زحف سراً ، وفي أقصى سرعة ، إلى الدانوب حيث التقى بالقائد النمساوي الأمير أويجين . هدم الجيش الفرنسي في بلينهايم . وكانت هذه المعركة ، بالإضافة إلى انتصاراته الشهيرة في راميليس — و — أودينار — و — مالبلاكية ، ذروة فخار في مجموعة كاملة من التحركات العسكرية المتألقة التي دفعت لويس الرابع عشر إلى عقد الصلح . إلا أن الأمور لم تسر على هذا المنوال الطيب في أسبانيا حيث قهر الجيش الفرنسي — بقيادة دوق بيرويك الإنجليزي — المولد — جيش الحلفاء الذي يقوده إيرل جولووي الفرنسي المولد ، في

ألمانيا سنة ١٧٠٧ . ولم يكن الحلفاء مجبورين في أسبانيا . ولهذا فإن حفيد لويس الرابع عشر احتفظ بها (أى أسبانيا) في صلح ١٧١٣ . وتعويضاً عن هذا أعطيت الأراضي الواطئة الأسبانية . للنمسا ابتغاء متابعة كبح قوى فرنسا .

وفي البحر كان الأميرال روك قد دمر أسطولاً فرنسياً على مسافة من لاهوج وأسطولاً آخر عند فيجو حيث تقاضى أحد عشر مليون قطعة نقدية — من ذات الـ ٨ پزتياس — من سفائن الكنوز الأسبانية . وروك هو الذى استولى على القلعة المغربية القديمة ، جبل طارق ، في ١٧٠٤ . وفي الحربين حافظ الأسطول البريطانى على أمن البحار لضمان حرية نقل الجنود .

وماتت الملكة (آن) ولويس الرابع عشر وتغير المشهد . ذلك أن اللوردات الكبار بايعوا أمير هانوفر الجرمانى والپروتستانتى — جورج — ليكون جورج الأول ملك بريطانيا . وفي ١٧١٥ كان الملك الفرنسى ما يزال صديقاً : لويس الخامس عشر . وهنا حلت فترة سلام طويلة مدتها خمس وعشرون سنة نتيجة لسياسة نبيل نورفولك المخادع سير روبرت وولپول الذى كان أول رئيس وزارة في بريطانيا ولسياسة الألعى المسن الكردينال . فلودى الذى حكم فرنسا لحساب لويس الخامس عشر . وكان كل منهما ، ديدنه السلام وتشجيع التجارة والصناعة ولا ينتظر من الحرب إلا كسباً قليلاً ، وقد أثرى بلداهما وانتعشا تحت حكميهما .

ورث جورج الثانى جورج الأول ، وبلغ لويس الخامس عشر الرجولة . وتسلم مقاليد الحكم . وتوفي الكردينال فلورى وطرده وولپول من منصبه . نتيجة ضجة تطالب بأشغال الحرب ضد أسبانيا لم تلبث أن انقلبت حرباً على فرنسا . وفي ١٧٤٠ مات الإمبراطور النمساوى وترك عرشه لابنته

مارية تيريزا . وفي ١٧٤٠ أيضاً مات الشيخ المتوحش ملك بروسيا وترك تاجه وجيشه الحسن الأعداد لولده النابه فردريك الثانى الذى استولى من فوره على مقاطعة سيليزيا النمساوية الغنية من الملكة الصغيرة السن . وخف الفرنسيون إلى مساعدة فردريك ضد النمسا بينما أخذت بريطانيا جانب مارية تيريزا ، فعلت ذلك بطبيعة الحال عن طريق هجومها على الفرنسيين .

ولم تلبث القارة أن عجت بالجوش وشوهدت فى تلك الحرب ، حرب « الوراثة النمساوية » ، الفرق البريطانية والهنوفرية تحت إمرة جورج الثانى تشق طريقها للخروج من محنة فى ديتينجحين عام ١٧٤٣ . وشهدت القارة بعد ذلك دوق كبرلند ، العديم الكفاية ، ابن جورج ، ينهزم أكثر من مرة أمام مارشال زاكس الذى ضم جيشه الفرنسى فرقة اليعقوبيين الأيرلندية الجبارة . ومن الصعب معركة : هل كسبت بريطانيا من الأيرلنديين السكتيين الذين حاربوا من أجلها أكثر مما خسرت من الأيرلنديين الذين يعدّ لونهم كياسة والذين حاربوا ضدها . قهر أمير البحر الأنجليزيان ، أنسون — و — هوك ، الأساطيل الفرنسية وجرت مقارعات بين قوات الفرنسيين والأنجليز فى الهند وفى أمريكا الشمالية ولسكن — بعد تكرار الزحف والزحف المضاد فى النمسا وبوهيميا وسيليسيا وبلاد الراين والبلاد الواطئة — انتهت الحرب بالموقف البالغ الحرج ، سنة ١٧٤٨ . وقد ردت الفتوحات كلها ما عدا فتح سيليزيا المخزى على يد فردريك الهروسى .

على أن ثورة سنة ١٧٤٥ اليعقوبية ، أهميتها المباشرة تربو فى نظر الإنجليز والاسكتلنديين .

وبينما كان بلاط سانت جيمس يصغى إلى « تسبيحة الشكر » ، لناظمها هاندل ، حمداً لله على النصر الملكى فى ديتينجحين ، كان عملاء آل ستيوارت مشغولين بالاستعداد لغزو إنجلترا . وقد تبين أن ذلك يمسى بالغ الصعوبة

مالم يشارك فيه الفرنسيون بقدر كبير . غير أن شارل ستيوارت الظريف الطيب — شارل إدوارد الفارس الصغير — أبحر إلى أسكتلندا حيث نزل إلى البر في صحبة سبعة من أتباعه . ولم يمض أسبوعان إلا وهو على رأس ألفين من الجبليين غالبيتهم من عشيرة ماك دو نالد . واستمرت العشائر تتجمع حوله ، ودخل أدنبرة ، وتوَّج باسم شارل الثالث ، وتغلب على جيش من جيوش الأغوار (أى الأراضي الواطئة تحت منسوب البحر) وسار جنوباً . وعبر ٨٠٠٠ من رجال العشائر الحد الغربى . وتطرقوا في بسالة إلى كارليل وصعدوا (شباب فيل) التى يشتد فيها الريح فرحبت بهم لانكشسير « الموالية لهم » . وتقدم شارل ولبس الصوف الاسكتلندى المخطط والصدرة الزرقاء المزدانة بالذئبة الفضية ، والطاقيّة الاسكتلندية . وفى الرابع من ديسمبر — عندما بلغ الجبليون دربي — بدا كأن المغامرة تتخذ سبيلها إلى النجاح . وكان شارل يتحرق شوقاً إلى الذهاب إلى لندن غير أن اللوردات الاسكتلنديين — الذين خيب أملهم إحجام نبلاء الإنجليز عن مد يد المعونة إليه — نصحوا له بالانسحاب . فاستداروا وعادوا أدراجهم على الطريق الذى أتوا منها .

وتجمعت قوات جورج الثانى الإنجليزية والألمانية فى داخلية البلاد بقيادة كمبرلاند وتبعته . وبعد ثلاثة أشهر التقى الجيشان فى عاصفة ثلجية على كالودين مور (السبخة) .

وزحزحت فرقة أثول رجال ماك دو نالد عن مراكزهم الممتازة المعتادة الواقعة على يمين خط القتال فوقفوا بمعزل إلى ان فى الماكينتوش (أصحاب معاطف المطر المشمعة) وغيرهم نتيجة لهجماتهم الشهمة اليائسة على خطوط المشاة الثلاثية التابعة لـ . كمبرلاند . وكان نجاح غارة الجبليين يعتمد على هجومها الأول . فلما هجمت عشائر ماك دو نالد كان وقت كسب المعركة قد فات . وأخذ آخر جيوش اليعقوبيين يتفتت تفتتاً سريعاً . ونأى ضابطان إيرلنديان وشارل عن الميدان . وبقي الميدان فى حوزة رجال كمبرلاند .

ونجا الأمير شارل بفضل ولاء أصدقائه : الرجال والنساء الجبليين
الفقراء . وتمكن كبرلاند — بمساعدة آل كاميل من أرجيل —
من القبض على الثوار وإعدامهم ومن حرق الأكواخ والمحاصيل ومصادرة
الماشية . وألغى البرلمان السلطات الاقطاعية التي كان يتمتع بها زعماء العشائر ،
وخطر لبس القماش الاسكتلندي المربع النقوش والعباءة الصوفية المخططة .
وقضى على اليعقوبية . وعاش شارل إدوارد حتى ١٧٨٨ ولا عمل له غير
شرب الخمر . وصار أخوه الصغير هنري — « هنري التاسع » في نظر
اليقويين — قسيساً كاثوليكياً وكاردينالاً ، ومات في ١٨٠٧ وهو آخر
شجرة آل ستيوارت السيئة الحظ .

ومن الغريب أن إحدى نتائج ثورة الـ « ٤٥ » ، هذه كانت تقوية الجيش
الملكي البريطاني . ذلك أن الحكومة ساعدت على تجنيد الفرق الجبلية .
ولا محل للكلام في تحية ذكراهم المجيدة منذ ١٧٥٠ . والحق أن الجيش لم
ينتعش وحده من معاضدة الاسكتلنديين ، ولكن الحياة الوطنية البريطانية
انتعشت كذلك منذ أواسط القرن الثامن عشر .

وفي خلال الحرب الكبرى — التي فيها كانت الـ « ٤٥ » حادثاً شائعاً —
أعلنت البحرية البريطانية مكانتها ثانية بتأمين البحر للنقل والتجارة .
نعم لقد وسع البحرية البريطانية أن تقرر مصائر حوادث ما وراء
البحار في الشرق وفي الدنيا الجديدة ولكنها عجزت مع ذلك عن
وضع قراراتها موضع التنفيذ في أوربا دون أن تعتمد هنالك على حليفة
ذات قوة برية عظيمة (١) .

حرب السنوات السبع :

والآن استطاع خيل الملك جميعاً ورجال الملك جميعاً في فرنسا وبريطانيا
أن يعودوا إلى ثكناتهم : الحرس ، فرسان الدراجون ، حملت القرايبات

(١) انظر شكل رقم — ٩ — (ل إنجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة ١٧٥٥ — ١٧٦٣)

(وهي نوع من الأسلحة النارية) ، حملة البنادق ، رماة القنابل اليدوية ، وسائر الرجال . . . يعودون إلى التدريب والعرض العسكري ، لابسين أحذيتهم الطويلة والأحذية يغطي وجهها القماش وجلود الديبة أو الطواقي ذوات الريش الثلاث وضفائر الشعر الطويلة تزينها الزهور والأدهنة أيما تزيين . فلقد انتهت الحرب في أوروبا .

ولكن الحرب لم تقف في الهند حيث كانت شركات الهند الشرقية المتنافسة تتاجر في أمريكا التي فيها كان المستعمرون يتسابقون إلى استعمار القارة .

ولم يكن لأهل الهند نفوذ كبير فيها . ولذا أتيحت لـ . . دوبلكس — حاكم بنديشري الفرنسي — فرصة تنمية نفوذه ، وذلك بالمشاركة في السياسة المحلية في الولاية الهندية المسماة «كارناتيك» ، (أى القرنفلة) . وفى ١٧٥١ حاول أن ينصب على العرش حاكماً هندياً جديداً يلقبونه «النواب» ، فحاصر جيش من الهند تريتشينوبولى التي كان النواب القديم قد التجأ إليها . وأزعجت تلك الأحداث رجال الشركة البريطانية في مدراس . فجمع كاتب صغير اسمه روبرت كلايف حفنة من الجنود الوطنيين (أو الجنود الأهلية المجندة في جيش أوربى) وأستولى على أركوت العاصمة القديمة . وكانت تلك خطوة موفقة لأنها تسببت في سحب الحشود التي كانت تحاصر تريتشينوبولى . وحافظ كلايف على أركوت خمسين يوماً تعرض في خلالها لاحتمالات شديدة وطرد بعدها الهنود . وفى ١٧٥٢ استولى على تريتشينوبولى وأعاد النواب القديم . وعلى أثر ذلك رجع دوبلكس وكلايف إلى وطنيهما . عاد الفرنسي بالحزى ، أما كلايف فقد عين عقيداً في جيش جورج الثانى .

وكانت هذه العمليات — التي أخضعت الحصون الجنوبية بجنوب الهند — تافهة إذا قيست بالأحداث التي وقعت في الغابات الأمريكية . كان الفرنسيون (م ١٧ — تاريخ العالم الغربى)

المقيمون في كندا قد استكشفوا مجارى الماء . وكان قناصتهم — الذين يصيدون الحيوانات لبيع جلودها — وضباطهم ينشطون على طول الأنهار التى تجرى بين كندا والبحيرات الكبرى وبين المستعمرة الفرنسية في لويزيانا وكان نشاطهم يقابل بالاستنكار الشديد في المستعمرات البريطانية في الولايات الساحلية .

وفي ١٧٤٩ نصّبت جماعة من رواد منتريال لويس الخامس عشر ملكاً على المناطق التى تحيط بنهر أليجاني وفي ١٧٥٤ شيد الفرنسيون حصن دوكن حيث يلتقى نهر أليجاني — و — مونونجاهايلا . ونتيجة لهذا التهديد المتوغل في داخلية البلاد جاء الرائد جورج واشنطن — مع من جندهم في فرجينيا — إلى فلاة غرب بنسلفانيا حيث أوقعوا فصيلة فرنسية في كمين . وبدأت مباغطة إطلاق النار دفعة واحدة ، الصمت الذى يسود الغابة ، وبدأت حرب في سبيل الاستيلاء على قارة .

وفي ١٧٥٥ انطلق القائد برادوك ليستولى على الحصن فهدكشافوه درباً في الغابة سعته ١٢ قدماً وتقدم رجاله وجيشه الم رابط — وكانوا ألفين — ١٠٠ ميل في شهر واحد . وخاضوا ، في روح عالية نهر مونونجاهايلا على أنغام المزامير والطبول . وعندئذ وقعوا في كمين كان قد أعده لهم الفرنسيون والهنود . ووقع نصفهم صرعى طلقات أعداء اختبأوا في مكان لم يروه ، وجرح برادوك جرحاً مميتاً . وأثرت تلك الكارثة أسوأ تأثير في سمعة ذوى المعاطف الحجر ، بين المستعمرين والهنود الحجر . ورغم المباغطة التى قام بها ، في الشمال ، الهنود الموالون لسير ولیم جونستون ومجندي إنجائرا الجديدة ، كان الموقف سيئاً . فلقد ظل خطر عزل الفرنسيين للمستعمرات البريطانية ماثلاً ، وجاهد واشنطن بغية إيقاف زحف الجنود الحجر الذين أطلقوا العنان لوحشيتهم على طول مزارع الحدود من نيويورك إلى ولايات كارولينا .

وفي تلك اللحظة بالذات اشتعلت الحرب في أوروبا من جديد . ذلك أن مارية تريزا — التي صح عزمها على استرداد سيليزيا — تأمرت مع فرنسا وروسيا وبارقاريا ، على مهاجمة فردريك البروسي . وتنبه فردريك إلى هذا فسبقها بتسيير جيش كبير إلى قلب سكسونيا التي ظل يتصرف إزاءها كما لو كانت من أراضيه . وفي هذه المرة انحازت بريطانيا — بوصفها عدوة الفرنسيين الذين كان أبناء بريطانيا مشتبكين وإياهم فعلاً في حرب بأمريكا — انحازت بريطانيا ، راغبة أو كارهة ، إلى جانب فردريك .

وكانت بداية الحرب في غير مصلحة بريطانيا ، وأمرت زمرة السياسيين الخائنين في وستمنستر ، بأعدام أمير البحر (بنج) رمياً بالرصاص لأنه لم يصد الأسطول الفرنسي عن الاستيلاء على مينورقة . ولم يؤثر قط هذا الحادث على العدو . وكادت الأمور تتردى في حماة الارتباك لولا أن الجمهور أكره جورج الثاني على أن يسلم مقاليد الحرب إلى وليم بيت . . . لم يكن بيت يؤمن بأنصاف الحلول فأهاب بالقوى المحاربة أن تتخذ خطة الهجوم وأعد ١٥٠ سفينة للعمل . وقد رمى إلى غرض واضح وهو أن يهبط بفرنسا إلى دولة من الدرجة الثانية ويبيد أساطيلها ويستولى على جميع ممتلكاتها الواقعة وراء البحار . وخطط لحماية هانوفر ولحماية الأراضي الواطئة ، وذلك بتأدية أموال طائلة إلى فردريك وإرسال فرق بريطانية إلى القارة وكان أكبر همه أن يسيطر على البحار وعلى ما وراء البحار .

واكتسب سيادة البحار الضيقة أمراء البحر : هولمز — و — أنسون — و — هوك . وأقفل أوسبورن البحر الأبيض المتوسط وأسر أمير البحر الفرنسي دوكين في سفينة قيادته . ودفع بوسكاون جيش القائد جيفري أمهرست إلى لويزبرج وهي القلعة التي كانت تذود عن مدخل كندا البحري وأوحل عليها وأستولى عليها .

ثم بدأ الهجوم على كندا . تقدم ٢٠.٠٠٠ رجل ، بقيادة أبرو كرومبي ، في طريق (هدرسون — موهوك) وهبطوا بحيرة جورج . وتحركت العمارة البحرية الصغيرة المنتشرة — بمجاديف لا حصر لها تغطس في المياه الهادئة — تحركت شمالاً بين غابات أديرونداكس والجبال الخضراء . فلما نزلوا من السفن قام أبرو كرومبي بهجوم أمامي على تيكونديروجا حيث أحيط بخنادق جنود مونتكالم على جرف بين المستنقعات مستتر وراء حاجز من الأشجار المقطوعة . وحصد الحماة بطلقاتهم النارية المباشرة ، حصدوا المهاجمين العشرات تلو العشرات . وقد كابدت خسائر جسيمة فرق الجبلين الذين جندوا حديثاً من بين رجال العشائر المتكلمين بلغة بلاد الغال ، فلمقد كان الهجوم جسارة تبلغ حد الحماسة . وفي الوقت ذاته كانت الجنود البريطانية — بقيادة فوربز — تسير في حذر إلى حصن دوكن على الدرب القديم ، الذي أنشاه برادوك ، وكانت الطبول تدق ليلاً ونهاراً لتحافظ على وحدة (طابور) الجنود الطويل . بلغوا المكان فوجدوه مهجوراً . فخرسوه وأسموه : حصن بيت . وبمرور الوقت تطور وانتعش حتى أصبح مدينة بتسبورج الصناعية العظيمة .

وكانت ١٣٥٩ سنة النصر . فلقد دمر بوسكاون أسطول البحر الأبيض الفرنسي في لاجوس . وضرب رودني الـ . . هافر بالقنابل . ودمر هوك أسطولاً فرنسياً في مياه خليج كيبيرون الضحلة . وفي أمريكا اشتعلت موقعة — في مكان تسمع منه سقطات مياه شلالات نياجارا الهادرة — موقعة جعلت البريطانيين سادة طريق برى يوصل إلى كندا . ولما استولى جيفري أهرست على تيكونديروجا ضمن طريقاً أخرى . وثمة طريق ثالثة — هي طريق البحر — توجت انتصاراتهم . فقد نقل أمير البحر سوندرز ، نقل القائد جيمنس وولف وجيشه إلى أعالي الـ . . سنت لورنس : وشق وثابوشاطيء

التيتمز — الذين يشتغلون بالتعبئة والنقل — طريقهم عبر المياه غير المدروسة بمهارة فائقة إلى أن فاجأوا مواطني كوبيك بالرسو أمام عيونهم . وعندما أزمع وولف على أن يمر بجيشه في درب بالغ الضيق من شاطئ المياه إلى المرتفعات العالية اضطلع البحارة ببحر المدافع والذخائر . وعلى المرتفعات التقت الجيوش الفرنسية والبريطانية للفصل في مصير كندا . وقتل مونت كالم — و — وولف في المعركة التي ضمنت استيلاء البريطانيين على كوبيك . وعندما وصل أمهرست في ربيع ١٧٦٠ استسلمت مونتريال وأصبحت كندا كلها بريطانية .

إلى هذه النتيجة وصلت الحرب وقتما أمر جورج الثاني — الذي كان يزور هانوفر — بشوكولاتة الصباح الساخنة وشربها وسقط ميتاً .

وكان هذا حدثاً فاصلاً ، إذ أن جورج الثالث — الذي كان يكره ولیم بيت — أحل محله وزيراً سارع إلى عقد الصلح . وقد ظلت خطط بيت تكمل بالنصر حتى بعد استقالته . فعندما دخلت أسبانيا الحرب استولت البعوث البريطانية من فورها على الأملاك البريطانية في هاواي والفلبين وهي الأملاك التي أعيدت بمقتضى صلح ١٧٦٣ . وتنازلت أسبانيا لبريطانيا عن فلوريدا . فإذا أضفت كندا إلى تلك البقاع وجدت أن بريطانيا تملك ، إذ ذاك ، كل شمال القارة الأمريكية شرقي المسيسيبي . وفي جنوب الهند — التي كانت الدولتان ترسلان إليها الأساطيل والجنود — هزم سير أيركوت الفرنسيين في واندواش — و — بندتشرى عام ١٧٦٠ . واحتفظ الفرنسيون بمحطاتهم التجارية الواقعة على السواحل الهندية ولكنهم فقدوا كل أمل في السيطرة على الولايات الأهلية . وبدلاً عن ذلك أصبح تجار لندن سادة البنجال نتيجة لانتصارات كلايف على الجيوش الأهلية وفي بلاسى عام ١٧٥٧ وانتصارات مونرو — و — باكستر عام ١٧٦٤ .

وهكذا فقد الفرنسيون إمبراطورية وكسب البريطانيون إمبراطورية .

تركنا فردريك البروسي مع جيشه في سكسونيا عام ١٧٥٦ . لقد أنهى الحرب مع مملكة خربت تخريباً مخزناً ولكنه ظل ، مع ذلك ، يضع يده على مقاطعة سيليزيا ، وهي البلد الذي اشتعلت حرب القارة بسبب التسابق إلى امتلاكها . كان فردريك قد حقق انتصارات : على النمساويين في براغ ، وعلى الفرنسيين في روزباخ ، وعلى الروس في لويتين ولكنه كذلك منى بهزائم كثيرة . لقد أمضى ست سنوات لم ير في خلالها عاصمته برلين التي كان أعداؤه قد استولوا عليها . وكان العمل الذي قام به ضد الدول الكبرى بالغ الصعوبة . نعم ، لقد ساعدته أموال بيت فاستطاع أن يوجه الهجمات الهانوفرية والبريطانية في الغرب ضد قوات لويس الخامس عشر ولكن هذه المساعدة كانت هينة ، إلا أن خلاصه جاء ، آخر الأمر ، نتيجة لوفاة الإمبراطورة إليزابيث الروسية . ولم تناوئه وريثتها — كاترين — بل سحبت قواتها من ميدان القتال .

كان فردريك جندياً عظيماً هادئاً لا سبيل إلى قهره ، وقد أكسبته شجاعة — في مواجهة احتمالات بالغة الخطر — إعجاب العالم . وكان يؤمن كل الإيمان بالهجوم المركز الذي يوجه إلى جناح ضعيف ، الهجوم الذي يقوده مشاته المنظمون والذي ينقض فيه حشد من الخيالة . لقد كان مثل هذا الهجوم — في أغلب الظروف — يكتسح كل ما أمامه . غير أن كل شيء ، في بعض الظروف ، كان يبدو خاسراً حتى في نظره هو . وكان يستهين بالآرواح ، وبروحه هو بوجه أخص . وكان مظهره يشير إلى أنه قوى المعزم إلى درجة الغلظة في بعض الأحيان ولكنه كان ذو طبيعة حساسة يتفانى في خير أمته . وكان يوحى بالثقة والإخلاص لشعبه حتى استحق — جزاء وفاقاً — لقب « العظيم » ، لا بسبب حذقه الحرب فحسب بل بسبب الجهد الذي بذله بعد الحرب في إعادة الرخاء إلى الأرض التي

خربتها الحرب . لقد أعاد بناء البلاد التي خربت وشجع التجارة والصناعة وأعاد تعمير المزارع المهجورة ، وذلك بتوزيع الماشية عليها . ولقد حث شعبه على الكد وحماه ، مع ذلك ، من جشع ملاك الأرض ، وبدأ خطة التعليم النظامي ، ونظم مملكته كأنها جيش ، وفرض الطاعة والنظام والعمل الجدى ولكنه حرص على العدل والتسامح وأداء الواجب .

كانت النمسا — قبل تلك الفترة — هي صاحبة الكلمة العليا بين الدويلات الألمانية . ولكن منذ ذلك الوقت وجدت مملكة منافسة حسنة التنظيم والأعداد هي بروسيا .

الإنسان والكون :

وسيلتنا الأولى في الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا هي التطلع إلى شيء حقيقي نرجو وجوده هناك ، كالذهب مثلا . وطالما أمضى الكثيرون من الرجال حياتهم ابتغاء مواد سحرية كـ «حجر الفلاسفة» (حجر الكيمياء) الذي يكفي أن يلامس المعادن فيردّها ذهباً أو كـ «إكسير الخلود» (ماء الحياة) الذي يمد ماله بكه بشباب دائم . ولقد كانوا يستخنون كل أنواع الأمزجة (جمع مزيج أو مزاج) ويغلونها ويحفظونها ويفتتونها ويستقطرونها ويستكشفون ، اتفاقاً في بعض الأحيان ، أشياء نافعة . وكان أولئك يطلق عليهم اسم «السيماويين» (أى الكيماويين الذين يحولون المعادن إلى ذهب) فكانوا كمن يبحث عن مدينة خرافية ولا يرى الأزهار تحت قدميه .

والوسيلة الثانية في الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا — وهي التطلع إلى ماهو موجود هناك فعلا — هذه أتبعها آلاف الناس البسطاء كأهل الريف الذين عرفوا أسماء كل النباتات البرية والخلائق كما أتبعها أرباب المهن والحداين ودباغو الجلود وناخو الزجاج وصانعو السكاكين والآلات

القاطعة والساعات والبيرة وهلم جرا ، وهم أولئك الذين استكشفوا كل أنواع الحقائق النافعة والشائقة التي تتصل بهم . وكثيراً ما استكشف هؤلاء أيضاً أشياء بطريق الصدفة . وقد تيسرت الحياة المتقدمة بفضل حذقهم ومعلوماتهم المتعددة النواحي . ولم يكن أغلب التعليم (وهو وسيلتنا في استبقاء الحياة المتقدمة) غير تدريبٍ في إحدى تلك المهن التي تحتاج إلى مهارة .

ومعلومات العلماء أساسها معلومات الصانع الماهرة . والعلماء يعمدون في بعض الأحيان إلى تقصّي شيء بعينه كأيجاد علاج للملاريا . ولكن الذي يشتغل بالعلم لذاته إنما يبحث بدافع الفضول . وترد معلوماته إلى تعقبه الحقيقة لذاتها ، وهذا ما قد يسمى بحق ثمرة الكسل ، كالفائدة التي قد تأتي من مراقبة الحناكب بدلاً من تفليح الحديقة ، أو من العكوف على التفرس في السماء ليلاً بدلاً من التوفر على قدر من النوم يساعد على إتقان عمل الغد . إنها المتفرج على الكون . إنه لا يهتم : هل تفيد معلوماته أو لا تفيد ! إنه لا يهتم إلا بتشكيل صورة الكون . وهو بتقصياته (التي يطلق عليها عادةً الاسم الفخم : اسم « البحوث العلمية ») يبدأ في التعرف على أن الدنيا مكان أكثر روعة وإثارة للدهشة مما قد يستطاع تصوره في حلم سحري .

والحقائق التي تستكشف على هذا النحو ينبغي ربط بعضها ببعض في نسق أو مشروع ، هذا إذا قدر لها أن تفهم وتبقى في الذاكرة .

والمعرفة العلمية تنظمها نظريات وفروض . وتبدو دلائل النظام . . . (وإذا استعرنا وأسانا استعمال كلمة من كلمات الساسة) نقول : وتبدو سمات « القانون » في تعاقب الفصول وفي حركات الأجرام السماوية « جعل القمر لمواقيت . والشمس تعرف مقرها » . ولقد عرف قدامى حكماء الكلدانيين وكهان مصر الكثير عن الفلك . وتعلم الإغريق من الكلدان ومن مصر

الفلك والعلوم الرياضية . وقد حقق الإغريق أكبر تقدم — سُجل قبل زماننا — في صدد المعلومات الخاصة بالكون ووجوه التقدم في زماننا مصدرها الطفرة في المعلومات التي نشأت عن بعث الحكمة اليونانية في عهد النهضة العلمية .

والرأى الإغريقى الذى يقول بأن الكواكب والنجوم مثبتة في أجسام كروية غير مرئية يدور بعضها من داخل البعض — انتقل هذا الرأى إلى العلماء المسيحيين : بيت المقدس مركز الكرة الأرضية ، والكرة الأرضية مركز نظام سير الكواكب ، والإنسان مركز الكون . وإبان نهاية القرون الوسطى كان الكثيرون من ذوى الذكاء الحاد غير مقتنعين بهذا . وفي سنة ١٥٤٣ طبع كاهن بولندى — وهو نيقولا كوبرنيك (كوپرنيكوس) الذى تدرب في بعض الجامعات الإيطالية — طبع كتاباً عنوانه « الدوران حول المركز » . ويوحى هذا الكتاب بأن الأرض تهرم حول محورها كالنحلة الخشبية المدوّمة وتدور — في الوقت نفسه — حول الشمس تصاحبها الكواكب . وقد توصل كوبرنيكوس إلى هذا الكشف باستخدام ثلاثة أعواد خشبية شُد بعضها إلى البعض بحيث تشكل آلة للرؤية . وإنه لعبقري ما فى ذلك شك . وقد أيد كشفه هذا جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) وهو الإيطالى الذى حسن التلسكوب التى كانت قد اخترعت حديثاً واتى بها رأى صورة القمر والكواكب الدائرة فى فلكه التى تدوم حول كوكب المشترى . وقد أيد بحوثه فى صدد الأجرام السماوية — مرة أخرى — راصدو الليل المثابرون العاملون مع الدنمركى تيشوبراهى وكذلك الألمانى يوهان كيبلر صاحب الدراسات العميقة المتواصلة فى الرياضيات . والعلم لا وطن له .

والحقائق والنظريات — فى الفلك والعلوم — لا سبيل إلى تعريفها دون الاستعانة بالرياضيات التى هى نوع من أنواع اللغات المضبوطة بالحكمة .

ومن حسن الحظ أن تقدماً كبيراً في الرياضيات تحقق في القرن السابع عشر على يد أربعة فرنسيين من ذوى المواهب السامية وهم: ديزارج — وديكات — وفيرما — وبسكال . والعلوم الرياضية لا وطن لها .

وتوج جهود أولئك الرجال جميعاً ، في القرن السابع عشر ، إنجليزي اسمه إسحاق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) وهو ابن فلاح من لينكولنشير دخل ترينتي كولدج (كلية الثالوث) وكبردج وفيها تخرج وأصبح « زميلاً » عام ١٦٦٧ . وقد حول ذهنه إلى الرياضيات كتاب عثر عليه اتفاقاً في أحد الأسواق الموسمية بستوربردج وفي ذلك الوقت — الذي بلغ فيه الثالثة والعشرين من عمره — كان قد استكشف النظرية ذات التسمية الثنائية التي تتطلب البرهان وكان قد أخذ يشتغل في إيجاد طريقة للعد عرفت ، منذ ذلك الوقت ، باسم « حساب التفاضل والتكامل » . وقد قضى كثيراً من وقته في دراسة الضوء . وكان عديم العناية بالشهرة إلى حد أن تحفته « الأصول » (أى المبادئ الأولية — التي كتبت باللاتينية لكي يتيسر للعلماء قراءتها) لم تنشر إلا بعد إلحاح صديقه الفلكي : هالى .

وكانت عبقرية نيوتن توفيقاً فذاً بين الرياضيات والمقدرة العملية الفائقتين . وقد ربطت نظرية الجاذبية التي وضعها بين كل الحقائق المعروفة في هذه الدنيا المحيرة ، ربطتها جميعاً في نهج واحد جليل يشمل كل ما يتحرك من ذرة التراب إلى النجم المذنب ومن النحلة الخشبية المدومة إلى الكوكب السيار . . . ألق بالك إلى تواضعه إذ يقول عن نفسه « لست أعرف كيف بدو في نظر العالم ولكنى — في نظر نفسى — يلوح أننى لا أزيد على صبي » يلهو على شاطئ البحر أسلى نفسى بالعشور ، بين الفينة والفينة ، على حصاة أملس من المعتاد أو محارة أجمل . هذا بينما خضم الحقائق العظيم يظل جميعه مجهولاً أمامى » وقد لخص الشاعر اسكندر بوب آثر نيوتن في بيت من الشعر

فبحواه : (الطبيعة وقوانين الطبيعة تستخفى في الظلام . فقال الله : فليكن نيوتن ! ، فأضاء كل شيء) . إلا أن عبارة نيوتن أنبل العبارات فهي تصف العالم الذي يعرف ضآلة معلوماته .

وماذا عن الأرض وكل ما عليها ؟ قال أرسطو إن الأشياء جميعاً تتكون من أربعة عناصر : التراب والهواء والنار والماء وإن كلاً من تلك العناصر قد يكون ساخناً أو بارداً ، رطباً أو يابساً . وقد ظلت الطبيعة الحقة للمادة سرّاً غامضاً حتى في عهد نيوتن . فالشمع والحديد والرمل والكبريت والملح . . . أى نهج يستطيع أن يسلك هذه وملايين الأشياء الأخرى في أى نوع من أنواع التبويب ؟ وكانت مئات من الحقائق معروفة وكان المغنطيس (حجر المغنطيس أو الحديد الخام المغنطيس) موضع بحث ، وبه كان ولیم جلبرت — طبيب الملكة إليزابيث — يجرى تجاربه . وقد بحث فان هلمنت المولود في بروكسل (١٥٧٧ — ١٦٤٤) في الابخرة وصاغ كلمة « الغاز » التي شاع استعمالها في البيوت منذ ذلك الوقت . وجمع جلوبر (١٦٠٤ — ١٦٦٨) طائفة كبيرة من الحقائق في صدد مواد شتى . وأثار روبرت بويل (١٦٢٧ — ١٦٩١) في كتابه « الكيمياء المرتاب ، ظلالاً من الشك في رأى أرسطو وفي كثير غيرد من التخميمات الحديثة كما قد يفعل كيمائى مرتاب . وهو أول من أوحى بالطبيعة الحقة لأى جوهر . إنها مادة — مهما تشعب تفتيتها — تظل كما كانت ولا يمكن استخراج مادة أخرى منها ، ولا يتأتى أن تنقلب إلى مركب أو مزيج . وبرهن كاوندش (١٧٣١ — ١٨١٠) — و — بريستلى (١٧٣٣ — ١٨٠٤) — و — لافوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) على أن الهواء والماء ليسا جوهرين وعلى أنهما يتركيبان من مواد أخرى . وأثبت لافوازييه بالدليل أنه مهما عظم تغيير أية مادة لشكلها (أى مهما تحولت إلى غاز أو سائل) فإن وزنها

يظل في ، كل الحالات ، كما كان . وفي ١٨٠٨ لخص جون دالتون — وهو أحد اتباع مذهب الصاحبين من كهبرلانند — كل مظاهر التقدم تلك ، في النظرية الذرية للمادة التي ابتكرها والتي فحواها : أن كل مادة تتكون من ذرات ، وأن كل ذرات الجوهر الواحد تتماثل أوزانها وطبائعها ، وعندما تتجمع العناصر لتكون مركبات — كالمالح المعروف مثلاً — بالشكل نفسه ، وبالنسبة نفسها فإن ذراتها تتجمع دوماً . وقد صُنعت نظرية دالتون بالمادة التي تحيط بنا ما صنعتها نظرية نيوتن بالقوة غير المرئية التي تحيط بنا وأخذ السكون سبيله إلى النظام .

أما القوى أو الطاقات غير المرئية التي تعرف بالكهرباء فقد فحص عنها العديدون من العلماء الذين عرفوا كيف يتحكمون فيها ويسلكونها في الأسلاك ويقيسونها ويسخرونها للاستعمال . والأسماء التي تقترن بهذا التقدم المتواصل هي : بنيامين فرانكلين — جلفاني — فولتا — أمبير — فاراداي — أوهم — كلارك مكسويل — لورد كلفين .

وماذا عن الإنسان نفسه والكائنات الحية ؟ طبع العالم بالتشريح أندير شاسبليوس — (١٥١٤ — ١٥٦٤) ، الطالب في لوفان وباريس والأستاذ في المدارس الشهيرة .. بادوا — طبع في بازل (بال) ، عام ١٥٤٣ بعد ظهور كتاب كوبرنيكوس ، كتاباً هاماً عنوانه « كيف يعمل جسم الإنسان . » وبعد ذلك ظل علماء الأحياء والجراحة يحرزون تقدماً راسخاً ولكنه وثيد وذلك إلى أن طبع وليم هارفي — (١٥٧٨ — ١٦٥٧) الذي درس في بادوا كذلك — كتابه الذي صنع عصره : « حركة القلب ، الذي وصف فيه الدورة الدموية . وقد أرسى هذا الاستكشاف أساس كل بحوث المستقبل . وكما أفسحت التلسكوب مجال البحث في شئون السماوات بوضع اللانهاية في دائرة إبصار الإنسان هوناً ما ، كذلك فتح اختراع الميكروسكوب

— فى شمال إيطاليا حول ١٦٥٠ — آفاقاً جديدة ولا سيما فى علم الأحياء ، وذلك بوضع لانهاى الصفر فى دائرة إبصار الإنسان إلى حد ما . ووضعت الكائنات الحية جميعاً فى نسق واحد بفضل نظرية التطور والانتقاء الطبيعى التى قدمها شارل داروين عام ١٨٥٩ فى كتابه « أصل الأنواع » .

وثمة تعريف آخر بـ « الإنسان » أورده جون لوك عام ١٦٩٠ فى كتابه « مبحث عن الإدراك الإنسانى » الذى كان محاولة لمعرفة كنه العقل الإنسانى . وهذا بدأه الإغريق ، وما يزال علماء علم النفس المحدثون يبحثون فيه .

وتاريخ العلوم وحده هو الذى يستطيع أن يقص القصة الكاملة للاستكشاف الذى لم ينقطع منذ النهضة العلمية . وتعكس تاريخه فى بريطانيا — إلى درجة كبيرة — سجلات الجمعية الملكية التى أسسها شارل الثانى بميثاق عام ١٦٦٢ . ويشمل الرعيل الأول من أعضائها : بويل — برن — نيوتن . وقد انخرط فيها منذ ذلك الوقت كل مشاهير علماء بريطانيا على وجه التقريب .

الثورة الأمريكية :

حدثت حرب السنوات السبع من الخطر الفرنسى على المستعمرات الأمريكية وكبحت هزيمة بونتياك — وهو زعيم هندى تزعم مؤامرة اشتركت فيها قبائل عديدة ضد وحدات الحاميات البريطانية — كبحت خطر الهنود الحمر . ولكن الحاجة مست — مع ذلك — إلى وحدات من جنود الحاميات وإلى أموال لسد نفقاتهم . وأقنع وزير إنجليزى — هو جورج جرنثل — برلمان وستمنستر ، فى سنة ١٧٦٤ — أقنعه بإصدار لائحة لطوابع الدمغة تقضى على المستعمرين أن يبتاعوا طوابع ياصقونها على الوثائق الرسمية ، وكانت تلك طريقة مألوفة بسيطة لزيادة الدخل . فلما احتج المستعمرون وطاردوا محصلى الضرائب سحبت اللائحة . غير أن

ضرائب أخرى تقرر على الزجاج والورق والشاي . فلما أبى المستعمرون أن يشتروا تلك البضائع ألغيت الضرائب عنها جميعاً فيما عدا الشاي . وقد استغرقت هذه الحركات — بين التقرير والإلغاء — ستة أعوام .

اعترض الأمريكيون على إلزامهم بدفع ضرائب دون أن يكون لهم رأى فى إدارة الحكومة . وهذا مبدأ نقده فى الوقت الحاضر إلى حد أنه يصعب علينا أن نفهم أولئك الرجال الذين حكموا بريطانيا وأمريكا فى القرن الثامن عشر . ولقد كانت حكومة بريطانيا البرلمانية حكومة مظهرية درج فيها الرجال العريضو الثراء على أن يبيعوا ويشتروا مقاعد فى مجلس العموم . وكان الأمريكيون فى نظر رجال كجورج جرنتل وزملائه — ولم يكن أى منهم بالغ الذكاء — كانوا رعايا جورج الثالث كمزارعى سسكس أو نورفولك سواء بسواء . أما المستعمرون فكانوا رجالاً بلغوا من الحرية شأواً لم يكن ليستطيع بلوغه عمال المزارع البريطانية . فلقد كان المستعمرون يتنفسون حرية بلاد جديدة شامعة شتية . وكان فى وسعهم أن يجوبوا الغابات دون أن يكون لواحد من ملاك الأرض أى حق عليهم . وعلى أية حال — بينما يكون معقولاً دفع ضرائب لملك — لا يعقل إطلاقاً دفع ضرائب لبرلمان ينتخبه غيرهم .

وكانت هنالك خصومات أخرى فى شأن التهريب ، بين الإنجليز القادمين حديثاً ، حاول البريطانيون وقفها . غير أن التهريب كان شائعاً بين الإنجليز الجدد بقدر ما شاع بين سكان إنجلترا القديمة . وفى سنة ١٧٧٢ ذهب أهل جزيرة رود إلى حد حرق سفينة حرية بريطانية تعمل فى منع التهريب .

وحدثت الكارثة النهائية فى سنة ١٧٧٥ عندما سمح لورد نورث لبعض سفن الشاي بأن تبحر إلى أمريكا وقد خفض ثمن الشاي ولكن مع إبقاء

الضريبة عليه . وقد بدأ هذا الإجراء وكأنه خدعة تجارية خسيسة ، إذ أن شركة الهند الشرقية البالغة النفوذ كانت في أمس الحاجة إلى أن تصفى بالبيع القدر الكبير المختزن من الشاي الهندي . فاستخفت جماعة من أهل بوسطن في زى عصاة هندية وتساقوا سفن الشاي وألقوا بحمولتها في الميناء . فأجاب سـياسيو وستمنستر بأقفال ميناء بوسطن وبوضع مستعمرة ماساتشوستس تحت الأحكام العرفية .

وعندئذ كان أمريكيون من كل المستعمرات يتشاورون فيما بينهم إذ أن النزاع كان قد تـلـكأ مدى أحد عشر عاماً . وفي مؤتمر بـ فيلادلفيا رفعوا أمرهم إلى الملك جورج الثالث وإلى شعب بريطانيا مطالبين بأن يعاملوا على أنهم رجال راشدين قد يكون لهم رأى في إدارة حكومتهم .

وكان الرأى عند خير رجال وستمنستر ، لورد تشاتام — و — إدموند بيرك — و — تشارلز جيمز فوكس ، أن يستجيبوا إلى الاسترحام . ونادى بيرك بأنه إذا أحسنت بريطانيا معاملة مستعمراتها فإن دأية قوة تحت السماء لن تقوى على أن تنتزعهم عن ولائهم . قال هذا وكأنما كان يخاطب جماعة من البربر المتوحشين رغم كل ما في كلماته من خير .

وجر النزاع إلى حرب ، لا إلى حرب حقيقية بين شعبين ولا حتى إلى حرب أهلية ، بل إلى حرب بين طائفة من سياسيو وستمنستر ومستعمري أمريكا .

بدأت الحرب في جزنجت حيث رصد رجال من الجيش المرباط الأمريكي — في ١٧٧٥ — لبعض الجنود البريطانيين وأوقعوهم في كمين . وبعدئذ أمر الجنرال جيدج عساكره بالاستيلاء على مرتفع اسمه تل بنسكر (هل) نفذوا أمره في أكثر ما وسعهم من دقة وذلك بالهجوم على الجبهة مباشرة ، وفي ذلك خسروا ألف مقاتل .

وقد اختار المؤتمر جورج واشنطن — وهو سيد من فرجينيا — قائداً أعلى . وقد اقتضت مهمته البغيضة أن يشكل جيشاً من بين متطوعي المستعمرات

الثلاث عشرة المنفصل بعضها عن البعض وأن يطعم هذا الجيش ويعمل على أن يدفع مرتباته ويزوده بالذخيرة ويوفر له الغذاء والكساء والتدريب والنظام والضباط الأكفاء ثم يستخدمه بعد ذلك في محاربة بعض الجنود النظاميين بقيادة ضباط شجعان اكتسبوا خبرة في الحروب الأوروبية . وهذا رغم البرد والجوع وعدم التعاون وعدم وجود الضباط والذخيرة . واستطاع واشنطن أن يخلق جيشاً ويحتفظ به بمادل على نبوغه . وتلقى الجيش البريطاني إمداداً قوامه ثلاثون ألفاً من المسترزقة الألمان الذين استؤجروا ليحاربوا . ولكن واشنطن ورجاله كانوا يعرفون البلاد ويحسنون إصابة الهدف .

وفي اليوم الرابع من يوليو من سنة ١٧٧٦ أصدر مؤتمر القارة (الأمريكية) إعلان الاستقلال الشهير . ويرجع أكبر الفضل في صياغته إلى توماس جفرسون ، وهو أرسقراطى قرچينى :

« ونحن نستمسك بأن هذه الحقائق بيّنة لا تحتاج إلى إيضاح ، وأن الناس كافة قد خلّقوا سواسية ، وأن بارئهم حباؤهم حقوقاً ثابتة لا سبيل إلى التحول عنها ، وأن من بين تلك الحقوق : الحياة والحرية والبحث عن السعادة ، وأنه لكفالة هذه الحقوق تقوم الحكومات بين الناس وتستمد سلطاتها المشروعة من رضاء المحكومين ، وأنه عندما يكون من شأن أى شكل من أشكال الحكومة أن يهدم هذه الأهداف فإن من حق الشعب أن يغيره أو يلغيه وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مثل هذه المبادئ وتنظم سلطاتها فى وضع يرجح معه جداً أنه يحقق أمن الشعب وسعادته .

وليس في هذا من شيء يأباه الرجال الذين عزل أجدادهم جيمس الثاني عن عرشه لأنه أساء الحكم .

ولقد تكلم هذا الإعلان بلغة الحرية . أما الرجال الذين حكموا بريطانيا العظمى فلم يفعلوا ، لا ولم يعرفوا الكثير عن ممارسة الحرب .

ولإخصاص أمريكا — حتى ولو كان هذا مرغوباً فيه — كان ينبغي التوفر على ثلاثة أمور : السيطرة على البحار ، في جميع الأوقات ، وقواعد حرية قوية على الشاطئ الأمريكي ، وقوات ضخمة من الجند لتكبح شعباً متفرقاً . وكانت الحرب — في واقع الأمر — يمجها الشعب في بريطانيا إلى حد جعل التوفر على المجندين أمراً عسيراً .

وكانت الخطة التي رسمت لسنة ١٧٧٧ تقضى بالتقاء الجنرال جورج ووين (من كندا) والجنرال هووي (من نيويورك) . فانطلق جورج ووين عبر الغابات . وكذلك انطلق هووي . ولكنه — وهو لم يعرف شيئاً عن الدور الذي يطلب منه القيام به — أبحر جنوباً إلى فيلادلفيا ! وكانت النتيجة اضطرار جورج ووين إلى التسليم الأمريكيين تلقاء عيون ساراتوجا وقد قل جنوده عنهم عدداً وأحيط بهم وشحت ذخائرهم .

وقد شجذ هذا الخبر من عزم الرجال الذين كانوا عندئذ يرصدون هووي بقيادة واشنطن وقد كانوا في حاجة إلى ما يشد عزائمهم . وقد حل الشتاء التالي وهم معسكرون في أكواخ خشبية في ثالي فورج تعوزهم البطاطين وقد حفيت أقدامهم وتهلمت ملابسهم . ولم يبق على تضامنهم إلا همة واشنطن وروحه الوثابة العالية . وقد شاركه هذه الروح في الناحية الأخرى من الأطلسي لورد تشاتام الذي قال : « لو كنت أمريكياً — بقدر ما أنا إنجليزي — ووطئت جنود أجنبية بلادي فإنني لن ألقى السلاح أبداً ، لن ألقيه أبداً أبداً أبداً » .

وبعد سنة ١٧٧٧ تلقى الأمريكيون مساعدات جمة . فلقد أعلنت فرنسا وأسبانيا وهولاندا الحرب على بريطانيا العظمى . وقد قامت البحرية الإنجليزية بأعمال ضخمة ضد أولئك الأعداء . فخطمت أسطولا أسبانيا على مسافة من سنت فنست و أسطولا فرنسيا في جزائر الهند الغربية . على أن الأسطول الوحيد الذى اقترب من الشاطئ الأمريكى — عند وصول لورد كورنواليس وجيشه إلى (بلدة) يورك تاون وحاصره جنود الأمريكان ومتطوعو الفرنسيين — كان هذا الأسطول أسطولا فرنسيا . وعلى هذا اضطر إلى الاستسلام وانتهى أمره .

وقد أعاد الصالح الذى وُقِع في قرساي عام ١٧٨٣ تنظيم استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي ١٧٨٣ كان هناك أكثر قليلاً من ١٣ مستعمرة ، يغلب عليها الميل إلى المعركة يتزعمها ويحفزها نفر من الرجال البالغى الاقتدار . وفي ١٧٨٧ سن أولئك الرجال دستوراً ساسكهم جميعاً في اتحاد فيديرالى ، له رئيس منتخب وسناتو (مجلس شيوخ) منتخب يمثل الولايات كلاً على حدة . وله مجلس نواب يمثل الشعب تمثيلاً إجمالياً بوصفه وحدة . وكان هذا شيء بالغ الجودة في السياسة . وكان أول الرؤساء : جورج واشنطن ، وثانيهم : جون آدامز (من ماساتشوستس) ، وثالثهم : توماس جيفرسون .

وهكذا أسس أكبر أبناء بريطانيا بيتا ، وبدأت مغامرة كبيرة جديدة . وإلى هنا يجدر بنا الآن أن نترك الكلام عن كل ما مضى ، نترك المجتمعات الصغيرة في نيويورك الصاخبة ، وبوسطن موئل العلم ، و تشارلستون العصرية ، وفيلادلفيا الصحابية (أى التى تنتمى لطائفة الأصحاب المهتمين) نترك صاحب المزرعة وعبيده الجنوبيين ، والفلاح الشمالى ، وسماك نيو انجلاند (إنجلترا الجديدة) والهوجنوتى الفرنسى ، والپروتستانتى الألمانى ، ومتطهر

ماساتشوستس، نترك قاطع الأخشاب المتخلف يعمل فأسه في الغابة، وقناص
الحيوانات بقصد بيع جلودها، والصياد، والمرسل للتبشير بالدين، والهندي
الأحر في كوخه المخروطى الشكل. ولكن ينبغي لنا — قبل أن نترك كل
هذا — أن نرجع البصر كرتة إلى مركبات النقل، تلك المركبات البطيئة الحركة
المغطاة التى تسير على الدروب مصعدة وعابرة الجبال لتدخل كنتاكي —
و — أوهيو — و — إللينوى — و — إنديانا. إنها طلائع الغرب.

وفقدت بريطانيا أول إمبراطورية لها عبر البحار، الإمبراطورية
القديمة التى ترجع أصول أساليب لغتها إلى الإنجليزية التى كانوا يتكلمونها فى
أيام شيكسبير. ومن غريب المصادفات أن هذه الخسارة ترتبط بميلاد
إمبراطوريتها الثانية وراء البحار.

وفى خلال الحرب الأمريكية هاجر ألوف من الأمريكين — الذين لم
يرغبوا فى الانفصال عن بريطانيا — هاجروا براً وبحراً ودخلوا نوفا سكوتشيا
ونيو برنزويك وشبه جزيرة كنجزتون بين البحيرات الكبرى. وهناك
أسسوا المستعمرة الإنجليزية: «كندا العليا». وبمجيئهم تغيرت كندا من
مستعمرة فرنسية خالصة إلى مستعمرة ثنائية من الفرنسيين والإنجليز.
وكانت تلك بداية مستعمرة كندا المستقلة التى تأسست فيما بعد.

والواقعة الثانية بهيجة ولكنها لا تبعث الاحترام. لقد كان من عاداتنا
أن نرسل إلى أمريكا المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام. ولم يكن مستغرباً،
بطبيعة الحال، أن الولايات المتحدة لم تترحم كثيراً إلى مضيئنا فى هذه الفعلة.
وكان الكابتن كوك قد استكشف حديثاً، الشواطئ الخصبة لـ...
نيوسوث ويلز، فاقترح إرسال المجرمين إلى هناك، على أمل أن يسهم جمال
المكان فى جعلهم أخياراً. وعلى هذا أبحر الكابتن فيليب — فى سنة ١٧٨٧ —

مع ٧٠٠ مجرم إلى البحار الجنوبية وهبط بهم (سيدنى) فى يناير من ١٧٨٨ .
وكانوا أول من استوطن أستراليا من البريطانيين .

ولم يصبح المجرمون المنقولون أسلافاً للأمة الأسترالية ، غير أن
استقرارهم حول القارة الجنوبية إلى مستعمرة بريطانية كما أنه أظهر حاجة
البلاد القاصية إلى الرجال الأحرار المغامرين .

ثروة الأمم :

يجب أن لا نحدونا حكاية الحروب فى القرن الثامن إلى الظن بأن ذلك
العصر كان عصراً صاعداً . فلقد كان جندى الحرس الطويل القامة وفارس
الдраغون الجسور — فى زيهما الأنيق — من الجنود المحترفين الذين
علمتهم شريعة أخلاقهم أن يحترموا حياة المدنيين وأملاكهم . وكان الجيش
يحارب الجيش ولم تكن الأمة تحارب الأمة كما هى الحال فى عصرنا هذا .
كانت الحروب تفصل فى مصائر الشعوب فتحول — على سبيل المثال —
السكنديين الفرنسيين إلى رعايا بريطانيين . غير أن الحرب لم تكن لتحوّل
حياة التمدن إلى خراب . وكان العصر عصر آداب السلوك حتى فى الحرب .
وقد قرأنا حكاية رئيس فرقة فرنسى بلغت به الجمالة إلى حد أنه عند بداية
الاشتباك تضرع إلى خصومه أن يبدؤوا هم بإطلاق النار . وكان الفرنسيون
والإنجليز يتاجر بعضهم مع البعض ، والحرب بينهم قائمة . وكانت
المعارك فى الواقع من الأحداث القليلة الوقوع ، وأغلب البقاع تستمتع
بالسلام الوقت كله .

وكان من شأن استكشاف الأراضى الجديدة وتقديم الفنون والحرف
أنها أفادت الجنس البشرى إلى حد جعل المدنية الغربية تزيد انتعاشاً وتنوعاً
عما كانت عليه فى أى فترة منذ قياصرة روما . ولقد كانت هناك — بطبيعة
الحال — شوائب وآلام مروعة ، وجزاعات قاسية توقع على المجرمين ،

وتجارة في الرقيق الأسود كريهة ، ولكن ذلك كله لم يبلغ من الوحشية مثل ما بلغت المذابح العانية التي ألفتها ساحات المجالدات في الدنيا القديمة ، مع أنه لم يكن هناك همج يخشى بأسهم يهددون بأن يغيروا بحشودهم من الغابات غير المطروقة الواقعة وراء الحدود . وكانت قرون عديدة من القوانين وحياة المدن والتقاليد والعادات السلبية تؤتى أكملها . وانتهت حروب الدين الضارية . وتوافرت ضرورات الحياة ورفاهاتها بفضل التجارة . انظر إلى سفن نقل الفحم التي توسق به من شاطئ (نهر) التاين تزحف منحدره من بحر الشمال إلى (مر) التيمز ، أو إلى سفن السكر الفرنسية الفاخرة تتدافع إلى (ميناء) بوردو من (جزائر) جوادالوب ، أو إلى رجال الهند الشرقية واسقين لنا أحمالاً كبيرة من البهار والأشاي والسلع الشرقية ، أو إلى أهل الشرق الأدنى مصعدين من البحر الأبيض المتوسط بألوان الفاكهة والخمر والحبر . لقد كان رخاء العالم يتدفق على الغرب . وكانت حشود غير ظاهرة للعيان تكدح تحت سماءات استوائية وشبه استوائية من أجل رخاء الأمم الغربية .

وارتفع الصناعات في الغرب بمصنوعاتهم إلى ذروة عالية من الإتقان ، وهذه المصنوعات معروضة الآن في متاحف ودور قديمة أو بين أيدي التجار : مصنوعات زجاجية وخزفية دقيقة من درسدن - وليموج ، وأقمشة جوبلان (للفروشات) من باريس ، وحرير من ليون ، وأقمشة مزركشة بالدفنة موشاة بالخيوط الحريرية أو الذهبية أو الفضية ، وأدوات ذهبية أو فضية للمائدة : أقداح وأباريق وصينيات وطاسات وسلطانيات وأدوات تناول الطعام كالشوك والملاعق والسكاكين ، ومصنوعات من الحديد المطروق والحديد المسبوك كالقضبان والمواقد من سسكس ، وساعات للحوائط في صناديق خشبية طويلة وساعات مذهلة الضبط والإتقان ، وأثاث من طراز لويس الخامس عشر والملك جورج ، قطرات (تصان فيها الكتب والأوراق) وخزانات للثياب وأرائك (أي كنبات) وكراسي تشينديل

— و — شيراتون وكلها من خشب المُجَنِّي (أو الكابلي) مطعمة ومنقولة عن نماذج فريدة ، ومراوح ومساطط (علب نشوق) ومشابك (أى أبنيمات وتوكات) وصور مصغرة (على العاج أو ما شاكله) وحلى ومصوغات من كل نوع . وقد رسمت أنواع من الحروف المطبعية الدقيقة (مثل الـ.. كاسلون ـوـ الـ.. بارسكر قيل ـوـ الـ.. بوردوني) ليستعملها الطابعون فى طبع الكتب التى ينشرونها . . . كتب مجلدة تجليداً كاملاً بجلد العجل . وقد تضاعفت الكتب والمكتبات أضعافاً تفوق كثيراً الأمانى المبرحة التى كان يحلم بها أولئك الرهبان الذين أسلموا - فى انعطاف فائق - أسلموا كتبهم فى القرون الوسطى . وكان «تصميم» الأثاث - حتى فى بيوت المزارع البسيطة - بديعاً وعلمياً مثل : الأسرة ذوات أربعة الأعمدة (بلدكان) والمضاجع والأرائك وكراسى وندسور وخزانات أدوات المائدة (درسوار) والسلطانيات المصنوعة من النحاس الأحمر والأقداح المصنوعة من الزنك وأدوات المطبخ الحديدية . وكانت تبدو على مركبات الفلاحين لنقل البضائع عناية صادرة عن طوعية ورغبة فى إتقان صنعها وكانت حقاً تسر الناظرين . وربما كان أروع ما صنعه الرجال بأيديهم سفينة المحيطات الكبيرة العالية ذات الساريات الثلاثة التى كان كل جزء منها ثمرة أجيال من التجربة بين صانعى السفن .

ولقد كان القرن الثامن عشر - حقاً - قرن العمل المتفوق الممتاز نتيجة لميراث من المهارة الصناعية بعيد الأصول ، قبل اختراع الآلة .

وبدأ الناس الآن - أول مرة منذ عهود الإغريق الذين استهدفوا أن يحيا حياة راضية فى مدائن جميلة - بدءوا يخططون لأحياء من مدائنهم ويزينونها بأنصاب تذكارية استرضاء للعين وكرامة للحياة ، إذ لم تعد ترضيهم مدن أسلافهم البسيطة المزدهمة المشوشة المرتبكة . لقد فكروا فى فن المعمار على أنه أرفع الفنون التى يحتاج إليها فن تشييد المدن ، الذى نسميه الآن تخطيط المدن . ونتيجة لهذا ظهرت شرفة برايتون ، وميدانا السكونسكورد.

وقدوم بياريس ، وميادين بلومزبرى ، ومراسى السفن فى بوردو ، وأهلة باث وتشلترنهام . وما يكون لكل هذا أن يشير دهشتنا إذا تذكرنا أن كل مثقف قد نشأ على تعلم الدراسات الإغريقية والرومانية القديمة وأن كل النقوش المشهورة كتبت باللاتينية . ومن دواعى الأسف أنها لم تصل إلى مثل الدقة التى نراها على الآثار الرومانية . ولقد استلهم المماريون من المباني الحقيقية المخربة . أما رأى الإغريق فى الشعر المستعار الذى كان يلبس فى القرن الثامن عشر - لو كانت أتاحت لهم رؤيته - فلا نعرفه إلا تخميناً .

وفى فرنسا أمر وزراء الملك بالطرق العامة الكبرى فأصلحت لى يتسنى للمركبات الكبيرة أن تسافر سرفاً مريحاً منظماً . واحتفروا قنوات تربط الأنهار الهامة بعضها ببعض وتسهل نقل البضائع بالملاحة المائية من الأطلنطى إلى البحر الأبيض المتوسط . وفى بريطانيا أيضاً بدىء فى إصلاح الطرق واحتفار القنوات . وستقص قصتها على نحو أكثر ملاءمة فيما بعد ضمن حكايتنا كما ستقص قصة بداية الاختراعات الآلية . وفى مدى طويل من الزمن لاقى السفر من الصعوبة حداً جعل كل مدينة كبيرة عاصمة إقليمها على صورة ما . فكانت إدنبرة حقاً مركز الأراضى الواطئة الاسكتلندية وأهم مدنها ، ونورثس مركز صناعة الصوف فى إنجلترا الشرقية ، وبرستول ثانية كبريات الموانئ فى البلاد . وازدهمت باث - بعد أن أعيد بناؤها وإنعاشها لتسكون ملاذاً صحياً - ازدهمت بحشدٍ حاشد من الأغنياء الذين سعوا إلى الاستشفاء من النقرس (أى داء المفاصل) بالمياه الطبية وإلى التسلية بالمقامرة بلعب الورق . وكانت إجزتر - و - يورك مركزين للجمتماعات الراقية المحلية . وكان عدد ما نعرفه من البلدان الصناعية قليلاً . وقد تابعت شيفيلد تخصصها القديم فى صناعة أدوات المائدة . ودوت بيرمنجهام دقات المطارق على السنادين تصنع سلعاً حديدية ونحاسية صغيرة . ولم تعرف مدلزبورا وبيركنهد بل إنهما لم تكونا موجودتين إطلاقاً .

وفي القرن الثامن عشر وجدت « الحاضرة الكبرى » للبلاد ، على النحو الذي نعرفه الآن . فكان المزيد من الناس يستمر في التزايد ، العام تلو العام تدفعهم جاذبية تشبه المغنطيس . وأخذت باريس — التي كان يسكنها نحو ٧٠٠.٠٠٠ نسمة — تبدأ فعلاً في السيطرة على فرنسا بقدر يزيد كثيراً على سيطرة لندن على بريطانيا . وكانت هذه السيطرة المتزايدة — المتمركزة في حاضرة كبرى — علامة تشير إلى سلطان الملكيات وحكوماتها الآخذ في الزيادة . ومنذ ذلك الوقت اطرّد تضخم هذه السيطرة إذ أن الأمم أخذت تزداد شهاً بالجيوش التي تتلقى جميعاً أوامرهم من قيادة علوا واحدة فقط لأنها أضحت في الواقع « دولا كبيرة » .

ولقد بادت لندن التي عرفها شيكسبير، بادت في حريق سنة ١٦٦٦ الكبير في عهد شارل الثاني . فدمرت كجهم ، البيوت المسقوفة بالخشب أو الغاب وأمست خرائب يكتنفها الدخان . ومن ذاك الرماد ولدت مدينة جديدة من القرميد والحجر تزينها الأبراج العديدة لسكنائس السير كريستوفر رن الجديدة التي تتوجها جميعاً قبة تحفته وهي كنيسة (سنث پول) القديس بولس . . . في ذلك الوقت أصبحت المدينة الجديدة — مع جارتها وستمنستر — أصبحت عاصمة . وبفضل وجود البلاط الملكي في كنزنجتون ، والبرلمان في وستمنستر ، ونزل دار العدالة التي كان يدرب فيها رجال القانون ، وبيوت النبلاء بالمدينة ، والمكاتب التجارية لشركات الهند الشرقية والغربية وروسيا وإفريقيا وخليج هدسون وبنك إنجلترا والبورصة الجديدين ، بفضل هذه جميعاً صارت لندن مركزاً للجمع الراقى والحكومة والتشريع والسياسة والتجارة والشؤون المالية والعلم والأزياء المستحدثة والأخبار والفنون . وفي عهد الملكة آن وسعت عشر مجموع السكان وغص نهرها بسفن تحمل ثلاثة أرباع تجارة المملكة .

وحتى في القرن الثامن وصف الراهب (بيد) لندن بأنها « سوق

الأمم كثيرة لا ذت بها عن طريق البر والبحر ، وكذلك كانت بعد أن مضى على هذا ألف عام : فلقد رأى دانيال ديفو — في سنة ١٧٢٤ — في نهر التيمز « نيفاً وألغى شراع من كل الأنواع التي تعبر البحر حقاً ، . وكانت راتسكليف هاواي — التي عاش فيها البحارة — عتبة مدخل الدنيا . كان رجالها يهبطون النهر بالسفن العظيمة الارتفاع للقيام برحلات تستمر مواسم كاملة لتعود مع تيار الفيضان محملة بسكر الهند الغربية وعسلها الأسود ، وشاي الصين ، وطبّاق (تمباك) قرچينيا ، والعاج وخشب المجنى الأفريقيين ، والفراء الروسية ، والموسلين (قماش قطنى رفيع) والقهوة من الشرق .

وتجارة كهذه لا يمكن المضى فيها بدون عملة نقدية قوية ونظام مصرّ في متين ففي كل من بريطانيا وفرنسا ألغيت العملة القديمة المضعضعة التي انخفضت قيمتها بالاستعمال وحل محلها — في بريطانيا — الشلنات الفضية والجنيه الاسترليني الذهبي الفاخر ، وفي فرنسا : الريال الفضي (الدرهم) والليرة الفرنسية (البينثو) . وكانت الصّرافة المالية — وهي عملية إعاره الأموال واستعارتها لقاء ربح — كانت فناً قديماً جداً يجرى على يد الصياغ والمرايين . وقد ساعدت المصارف المالية (البنوك) الجديدة ، التجار بإصدار أوراق النقد وهي تعهد بدفع قدر معين من المال عند الطلب ، ووسع التجار أن يتداولوا هذه الأوراق ، بدلاً من العملة ، مابقيت ثقتهم في (البنوك) والواقع أن العجز في الذهب والفضة المطلوبين لسك العملة ، جعل المضى في الأعمال المالية صعباً بدون أوراق النقد . وقد أخذ الناس — منذ عهد ديفو — يبيعون ويشتررون أسهم الشركات التجارية ويتجرون بها في أسواق الأوراق المالية (البورصات) وفق قواعد مقررة . ومازلنا نفعل هذا إلى اليوم . وقد دفعت « تجارة الأوراق الضخمة » — على حد تعبیر ديفو — في بدايتها ، المئات من الناس في بريطانيا وفرنسا الذين

اشترى أسهم شركات مزيقة أو أسهم مشروعات رعناء طائشة ، دفعتهم إلى الخراب . أما في عصرنا فإن أثمان الأسهم تعلن يومياً في الصحف .

بدأ صدور الصحف في القرن السابع عشر : وظهرت أولى الصحف اللندنية اليومية — « أخبار اليوم » — عام ١٧٠٢ . وما هو إلا القليل حتى ظهرت أفواج من الصحف باسم « بريد » ، أو « ربطة » ، أو « سجل » ، أو « رسول » ، وحظيت واحدة من الفوج الأخير بأوسع انتشار في زمانها . وكانت تلك صحيفة مركوردى فرانس (أى رسول فرنسا) وهذا برهان على نفوذ فرنسا في ذاك القرن الذى أشار إليه فردريك الأكبر بقوله : « باللغة الفرنسية يستطيع المرء أن ينتقل إلى كل مكان » . وقد بدأت أشهر صحف العالم « التايمز اللندنية » في الظهور عام ١٧٨٥ .

والأخبار والتجارة جديرة بالبحث . درج الناس في أيام الملكة إليزابيث على أن يلتفوا في حانات كحانة ميرميد التى كان يجتمع فيها شيكسبير وأصدقاؤه . وفي أيام الملكة (آن) كان المستمسكون بأبهة المظهر يستعملون المحفّات في تنقلاتهم بينما كان القساوسة أو العلماء — الأكثر تواضعاً — يمشون إلى مقاهيهم المفضلة ، وكانوا يعدّون بالعشرات والعشرات . وكان ذوو الفطنة والعلماء يلتقون في محل ويلسى ، والقساوسة في محل تشايلد ، ومقامرو الأرسقراط في محل وايت أو محل ألك . وذاع صيت مقهى لويد في العالم أجمع فقيه كان يلتقى وسطاء (سماسرة) السفن . وما يزال الكثيرون من أعضاء الجمعيات الطائفية والنوادي يلتقون في الحانات . مثال ذلك : أعضاء جماعة رفقاء كهنة الأبرشيات الذين يحتمل أنهم درجوا على التحادث — عن علم — في ترانيم المزامير وتساييح الحمد وفي دخول رجال الدين وذلك في أثناء إخلادهم إلى شرب الجعة أو تدخين الغليونات (أى البيبات) الطويلة التى يستعملها كبار الكهان .

وكانت هناك - من سوء الحظ - مباءات أقل بعثاً للسرور . وتوجد المئات منها في الأزقة والعطفات : (حانات ادريجن) حيث يفرط المتبطلون والمتشردون في الشراب حتى ينقدوا وعيهم ، لقاء دراهم معدودات . وقد يتسقط المرء منهم أخبار الأوباش الذين قطعوا الطريق على مركبات إسبانجتون الكبيرة المعدة للبريد والركاب ، في الليلة السالفة . ولم يكن هناك رجال شرطة . وكان نظام الحراسات المتعاقبة (النوبتجية) قد انقضى وحل محله فقط قليل من الحراس المسنين يعلنون الوقت . ثم حدث في سنة ١٧٥٠ أن هنري فيلدينج - قاضي شارع (بو) الفطن - ألف فرقة (عدائي شارع بو) ليلاحقوا المجرمين ويقبضوا عليهم . وكان دهماً لندن - أو دهماً باريس - شيئاً مروعاً لا يستساغ . والأحياء القذرة ، التي تغص بالمساكن الوبيثة ، لم تكن جديدة . إلا أنها في القرن الثامن عشر - كما حدث في روما القديمة - كانت وفيرة العدد مكتظة بالسكان إلى حد شائن .

وكان في وسع المواطن المستقيم الأخلاق - الذي يبتغي الزحام والبيئات المسلية - أن يصغى إلى دافيد جاريك وهو يمثل روايات شيكسبير على مسرح دروري لين ، أو إلى أوبرات هاندل في كوونت جاردن ، أو لعله يستمتع بألحان أوبرة المتسولين المبهجة لچون جاي ، في لنسكولان إن فيلدينج . وكان في وسعه - في أمسية صيفية صافية - أن يستقل زورقاً موسداً عبر التيمز ويجول في حدائق التسلية المضاة بالمصاييح ... فوكسهول ويسلم نفسه إلى أنغام الموسيقى ، في ليلة مشهودة ، أنغام موسيقى هاندل النارية احتفاءً بذكرى صالح عام ١٧٤٨ .

ومع هذا كانت لندن صغيرة في نظره إذا ما رغب في أن يتجول على قدميه في الخلاء . . في بادنجتون أو في مروج تشلسي أو في أزقة كهبرول المورقة . وعلى مقربة من الشمال والشرق غابات إنفيلد - و - إيننج .

وكانت غالبية الناس - في الأراضى الغربية قاطبة - من الفلاحين ولم يكن تأثير الوقت والتقدم سريعاً فيهم . غير أن أساليب زراعية جديدة ومحاصيل جديدة جربت في هولندا ونجم عنها تغير كبير في نواح من بريطانيا . ولا شك في أن حرّاثى بعض المناطق ظلوا في العهـود القديمة يسوقون أزواجاً من الثيران في الحقول . غير أن تجاريب على المحاصيل وتربية الماشية بدأت ثورة حقيقية في الزراعة . وقد أخذ كثير من الأغنياء في القرن السادس عشر ، عندما كانت تربية الغنم تدرّ ربحاً أكثر من زراعة الحبوب - أخذ كثير من الأغنياء يقيمون السياجات حول أراضيهم ليسكبوا من بيع صوفها . وفي القرن الثامن عشر أخذت إقامة السياجات والأسوار تتكاثر تدريجاً ، لا لتربية الغنم بل لزراعة نخبة من الحبوب وتربية سلالات مختارة من الماشية - ابتغاء الإكثار من محصول الغلال والثمار الجذرية الجديدة ولزيادة حجم البهائم - وتلك أمور كان من المستحيل التوفر عليها أبدأ مع نظام قطع الأرض الصغيرة ، المختلط بعضها ببعض . وكان الأغنياء من ملاك الأرض يقدمون أموالاً لإصدار لوائح برلمانية ترخص لهم أن يقيموا سياجات حول الأراضى القديمة ، ومعها - في أغلب الأحيان - المروج والروضات القروية والحظائر العامة والأراضى البور . وكثيراً ما كان فقراء المستأجرين يغضبون على أن يصبحوا أجراء لا يملكون أرضاً . وحتى لو سمح لهم باستبقاء الفضلات الصغيرة فعليهم أن ينجلوا عن الحظائر العامة التى درجوا على أن يحفظوا فيها أبقارهم وعن الأراضى البور التى يطعمون فيها خنازيرهم . وقد توسل أغنياء المزارعين بعزق الأرض عزقاً مستمراً وبالتسميد وبصرف الماء عن الحقول وبإنفاق مقادير كبيرة من المال ، توسلوا بهذا كله إلى صنع الأعاجيب ، بدأوا تربية سلالات الماشية التى اشتهرت بها المملكة وحولوا الخلاء إلى منظره الحالى المألوف الذى يشبه رقعة لعبة الدام (الضامة)

فتبدو صفوف من السياجات والحقول تميزها عن خلوات الحقول المفتوحة القديمة الطراز التي شاعت في القارة . واستمرت العملية على وجه مُرضٍ إلى بداية القرن التاسع عشر . وكان اختفاء صغار ملاك الأرض نكبة . فكانت الثورة الزراعية — كسكل الإصلاحات — شيئاً نافعاً نفذ بطريقة ضارة .

وفي طول الأراضي الزراعية وعرضها قامت بيوت الضيعات المبنية بالطوب الأحمر التي أصابها الرطوبة بمضى السنين . ووجدت أيضاً أما كن أحدث ، لأغنياء من نبلاء القرن الثامن عشر . لا تقع تحت حصر . وجدت أما كن مثل قصر بلنهام — و — ستو — و — حصن هووارد . وفي هذه الأماكن كانوا يستمتعون بساعات فراغهم ويجمعون مجموعات كبيرة من الآثار والكتب والمواخات والخزف ويحتفظون بحيوش من الخدم . ولقد عُبست حصون النبلاء الباكورة الخربة في وجوه تشبستو — و — بوديام وعشرات وعشرات من الأكن الأخرى وأبدت تبايناً رومانسياً للمبلاط (المونة) والعمد وواجهات البناء التي أقيمت في المباني القديمة (الكلاسيك) . وما تزال بقية من آثار روما معروضة في يورلكونيوم — و — لنكوان وغيرهما . وتدارست جمعية العاديات التي تأسست حديثاً ، المتاريس الترابية التي أقامها إنسان ما قبل التاريخ ، وأبادة قليل من الجدران المتعفنة هنا وهناك عن موقع منسك بناه أسلاف الرجال والنساء الذين عاشوا في القصور الفاخرة والذين عاشوا في عشش القرية .

أهملت الأبروشيات والكنائس وغطاها الغبار ، وكان كثير منها مقصورات تفرشها الأسر الكبيرة وفيها يستطيع السيد النبيل أن يحتفظ به ضدته وأريكنته (كنبته) بل بموقده وأن يخط في النوم في أثناء القداس، وكنبه

المختار عند قدميه . ولم تمس الكنيسة في حالة راضية فهي لم تسترد قط ثرواتها التي سلبها إياها الملك والأمراء ، وفي القرن الثامن عشر لم يبد أساقفتها وقساوستها حماسة فائقة . وقد ظل بعض الأسقفيات بدون رعاة (أي خورية) ، وامتنعت طائفة من الأساقفة عن زيارة أسقفياتهم إلا في مناسبات نادرة . وتركت الأمور على عواهنها بدون عناية أو هممة .

وعادت الحمية مع جون ويسلي وهو عالم تخرج في أكسفورد وقسيس آمن برسالة الإنجيل والوصايا . . سافر آلاف الأميال ، على متن فرس ، إلى كل مناحي البلاد مبشراً وواعظاً منبهاً الناس إلى إصلاح حياتهم . وقد حرمت عليه منابر الكنائس وبدأ له الاحتقار من رجال الدين . وقد نظم أتباعه في مجتمع مسيحي . وبما أنه كان منظماً عظيماً فقد بقي ذلك المجتمع إلى الآن . واستطاع مع أخيه شارل — وهو ناظم ترانيم عبقرى — أن يستعيد للدين شيئاً من الحمية التي أعوزته منذ القرون الوسطى .

ولم تترك تعاليم الكنيسة البروتستنتية قط تأثيراً عميقاً في حياة الغرب الذي تطلع أهله إلى ملةٍ أخصب . وعندئذ أقيمت في قرى ويلز ، التي أسميت بأسماء قديسي ويلز في اليهود المظلمة ، كنائس صغيرة جديدة . . بيتيل — و - سالم — و - إيمينيذ وانتعشت حولها حياة الناس . وتركت مواعظ ويسلي تأثيرها على المملكة كلها . وكان لها من النفوذ في كورنويل — و - ويلز ما كان لتعليم الكنيسة المشيخية (يبرزيتران) ، التي سنّها جون نوكس ، على اسكتلندة .

ولقد أتاح ويسلي للكثيرين من الفقراء المتضعين كرامةً جديدةً وهدفاً

معنويا جديداً يقومان على قيم أبقى من السياسة والتجارة . وكان هناك آخرون ، يحفزهم العقل أكثر مما يحفزهم الدين ، أرادوا أن يرفعوا مستوى الجنس البشرى . وقد كتب العلامة جوزيف بريستلي ، سنة ١٧٩١ ، يقول : « سوف يكون عهد إمبراطورية العقل أبداً ، عهد أمن وسلام » .

وحوالى آخر القرن كان الناس فى حاجة قصوى إلى كل من العقل والدين . فقد بدأت عندئذ ثورة فى أسلوب حياة الرجال والنساء . فقد نشأت مصانع جديدة فوق مناجم الفحم فى ويلز وداخلىة البلاد وشمالها وعلى طول جداول الماء فى منطقة جبال ال بيناين ! وأخذت القرى تتحول إلى أما كن وبيئة مزدحمة وكانت هنالك أفران لاختة تصبغ السماء ليلاً بلون أحمر . وأخذ الكادحون ، الذين لا يملكون أرضاً ، يتزاحمون على الصناعات الجديدة ليعيشوا عيشة ويلة فى الشوارع الغبراء القذرة . وتلك عيشة تبعد كل البعد عن العيشة الطبيعية ، مدى الحياة ، فى الريف الذى يستطيع أهله جميعاً أن يجدوا السعادة والصحة حتى الذين يعيشون منهم من سرقة الصيد . وإن العالم لفى أشد الحاجة إلى كل حكمة رجال السياسة وكل حكمة المؤجرين ورجال الدين وذلك لحفظ ثروة الأمة الحققة التى هى حياة الناس ورخاؤهم .

وقد كانت الأقدار تقدم للناس عطايا جديدة ، إذ أخذ الطب ينبثق من السحر ، والعلم من السيميا واليازرجه (أى التنجيم) ، والهندسة — التى بدأت تغير وجه الأرض — من الحرف اليدوية ، وأخذت المعرفة والاختراع — اللذين تطورا فى مدى عشرة أجيال منذ النهضة العلمية — يتيحان الفرص لتحسين حياة البشر . ثم إنه لم يسبق قط من قبل أن تحمس الكثيرون لإصلاح القوانين وتحرير العبيد ومساعدة الفقراء

وتعليم الجهال وإحلال النور والحياة في كل الأماكن المظلمة .

ومن سوء الحظ أن العالم قليلاً ما أبدى استعدادة للاستفادة من مستيكشافات حكمائه . فهنا استعدت المخترعون وهناك وجد المصلحون الذين أزمعوا على العمل باسم العقل والرحمة . غير أن إعصاراً أهوج من الخماقة والكراهية هب واكتسح مطمح العقل . وقد بدأ كل شيء يعمل باسم الحرية المقدس ، بدأ يعمل في فرنسا سنة ١٧٨٩ وهز أوروبا والعالم خمسة وعشرين عاماً .

الباب السادس

الثورة الفرنسية

الثورة

فيما كان مجرمو فيليب يستوطنون جانب الدنيا الآخر في الوطن الأسترالي الغريب الجديد لقيت الملكية القديمة في فرنسا نهاية عنيفة وهزت العالم بسقوطها .

كانت الحكومة والقوانين والضرائب — في فرنسا — خرقاء جائرة . وهكذا كانت في الدويلات الألمانية والإيطالية . فلقد حدث أن بعض الحكام الألمان باعوا — بالفعل — شبابهم ليصبحوا جنداً للوك آخر . وكان بعضهم أحق بشكل لا يتصوره العقل . إلا أن فرنسا تقدمت العالم إلى طريق المعرفة والفنون والعلوم وأساليب الحياة المتقدمة ، وأن الملك الفرنسي لويس السادس عشر كان رجلاً أديباً طيب القلب .

ومن الجائز أن تكون دولة ما ، غنية موفقة وأن يكون الكثيرون من أهلها ، مع ذلك ، فقراء معوزين . وهكذا كانت فرنسا، فقيراً عاش الفلاحون على منوال أجدادهم في القرون الوسطى . درجوا على أن يدفعوا ضرائب مبهظة إلى الملك وإلى ساداتهم أصحاب الضيعات الكبيرة ، وكانت غلالهم التي يكسبونها بكدهم طعاماً لحماه وأرانبه التي حرم عليهم صيدها . . كانت غلالهم تطحن في مطحنه وأعناهم توطأ في معصرة العنب التي يملكها . ولم يكن لهم أن يبيعوا سائمة أو أن يتزوجوا دون أن يدفعوا له جعلاً . كانوا عبيداً وجد الكثيرون من أمثالهم في البلاد الأخرى .

ونحن — في بريطانيا — لنا أن نعد أنفسنا سعداء بأن غزانا وحكمنا

ملوك نورمانديون وزراع أقوياء كانوا سادة العالم وفرضوا على كل الناس واجبات يؤدونها ، ملوك استدعوا برلمانات تعينهم على أمور الحكم ، ملوك كانت شريعتهم — شريعة الملك — يطبقها في طول البلاد وعرضها قضاة اتصفوا بالشدة والجهامة والجرأة ، تخور في حضرتهم عزائم « الجميع » . وكما أنه لا يزال في فرنسا — في ١٧٨٩ — أقاليم لها قوانينها الخاصة . تصور أنه وجد في إنجلترا القرن الثامن عشر إقليم اسمه ميرسيا أو وسكس يطبق قوانينه الخاصة ، ولقد أعجب الكثيرون من الفرنسيين بنظام الحكم في بريطانيا ، واستثار الكثيرين أيما استثارة إعلان الاستقلال الأمريكي الذي صنعه المواطنون البريطانيون الذين آثروا أن يشعروا على أن يدفعوا ضريبة زهيدة . ذلك لأنهم أرادوا أن يكونوا أحراراً في إبداء رأيهم في شئونهم الخاصة . وكذلك قضى الفرنسيون عمرهم في النيل من سلطان الكنيسة وثروتها في فرنسا . ومقت البعض الكنيسة ورجال الدين مقتاً ضارياً متقدماً .

حكم لويس السادس عشر فرنسا من قرساي وكان سلطانه مطلقاً . كان يختار وزراءه وفق مرامه . ولم يكن هناك برلمان أو جمعية وطنية . ولم يكن لواحد من النبلاء أو السادة — الذين فرض فيهم أن يصبحوا زعماء فرنسا — أى رأى في الحكم . ولكنهم — بدلاً من ذلك — أخلدوا إلى الكسل وأضاعوا وقتهم في منادمة الملك أو لبثوا في قصورهم ومع ذلك كانت لهم امتيازات . فلم تطلب منهم واجبات ولو أنهم لم يؤدوا ضرائب . وقد تمرس كل الناس في بريطانيا — قروناً — على أن يمارسوا فن الحكم : حاكمين « أو محكومين » .

أما الفرنسيون فلم يكتسبوا تجارب من هذا القبيل .

وعندما أفلس لويس السادس عشر — في ١٧٨٩ — إفلاساً لا رجاء في تغلبه عليه استدعى مجلساً مشتركاً منتخبا من النبلاء ورجال الدين والشعب

وهذه هي الأركان الثلاثة القديمة أو الأركان العامة لمملكة فرنسا التي لم تجتمع منذ ١٨٠ عاماً . اجتمعوا ، إذ ذاك ، في قرساي حيث قام النبلاء ورجال الدين (في حللهم) ومندوبو الشعب (في أكسييتهم السوداء الوقورة) بمظاهرة باسلة عند افتتاح الاحتفال يحدوهم جميعاً أمل عظيم في إصلاح الضرائب والحكومة إصلاحاً جدياً . وحفزت المشاحنات والمجاجات الطويلة في شأن طريقة التصويت ، حفزت الركن الثالث (مندوبى الشعب) إلى أن يجتمعوا وحدهم ويحولوا أنفسهم إلى جمعية وطنية مهمتها إعادة النظر في شكل الحكومة وصياغة قوانين الدولة . وطالت المجادلات وبخاصة ممن لم تسبق لهم خبرة بتلك الشئون . وبينما كانت الجمعية تتكلم أخذ الشعب الفرنسى يصنع ما يحلو له .

وفي كثير من الأقاليم عمد الفلاحون إلى مهاجمة القصور وحرقتها ، وفر إلى خارج فرنسا نبلاء كثيرون مع أسرهم . وفي باريس افتحم فريق من الغوغاء معقل سجن الباستيل القديم . وبما أنهم من الدهماء فقد أطاحوا بروس الجنود الأبرياء الذين كانوا في حراسته واستعرضوها على أسنة الحرب . ولزم كثيرون من الباريسيين الهدوء والسلام ، إلا أن جماعة من الدهماء ، قد تبلغ الألوف ، مالت إلى الشغب دون أن تلقى مقاومة . وقال أحد القدماء للويس إن هذه الحركة ليست فتنة ولكنها ثورة ، وكان قوله الحق . وكان جورج الثالث في لندن قد قمع جمهوراً من الغوغاء ، السكرى الصاخبين ، بفرقة من الحرس الراجل في حين أنه لم يوجد في باريس رجل حازم سريع التصرف . وأقام المواطنون غير المحكومين حكومة مدينتهم وألقوا فصائل من الحرس الوطنى شعاره علامة بيضاء وحمراء وزرقاء ، وتلك هي الشارة المثلثة الألوان ، رمزاً للثورة . ولم يُعشَرِز الغوغاء أنصار أقوياء من بين الأغنياء والمتعلمين . فقد كسب دوق أورليان لقب « أورليان المساواة » نتيجة لتشجيعه أبسط عناصر العامة .

وفي خلال مجادلات لاحد لها عن كل شيء أصدرت الجمعية الوطنية

إعلان حقوق الإنسان الذى يؤكد أن الجميع أحرار متساوون . وأصبح كل أمرىء « مواطناً » ، ولا شىء غير ذلك . وتقاطر جمع غفير إلى فرساي وجاء بالملك وأسرتة ليعيشوا فى باريس بقصر التويلارى . وتبعته الجمعية وواصلت مجادلاتها بين الصنخب الثائر والهيأج فى العاصمة حيث عجت الأندية السياسية بالخطباء وحيث أخذت الأحزاب والناس على اختلاف ألوانهم تصدر صحفاً . ومن ذاك الوقت بدأ جمهور الشعب ومتحمسو باريس يقودون المماكة .

واجتمع النبلاء والمنفيون المملوكيون (المهاجرون) فى بلاد الراين وسألوا ملوك أوربا الضرب على أيدي الثوار . وعندما أمرت الجمعية رجال الدين جميعاً بأن يصبحوا موظفين مدنيين تحت سلطان الحكومة الفرنسية أبت غالبيتهم . وقد أساء هذا الهجوم على الكنيسة إلى الكثيرين من المعتدلين أيما إساءة . وشرع لويس السادس عشر — الذى كان إلى ذلك الوقت ، قد بدأ يتقبل أكثر الأمور — شرع فى الهرب سرأ مع أسرتة إلى الحدود الألمانية ، ولكن شخصيته كشفت عن كذب من الحدود . ولما وصلت الأنباء باريس ضج الكثيرون من الثوار بطلب الجمهورية . لقد أزمع الملك هجر شعبه — ألم يفعل ذلك ؟ — وإذن فلتسقط الملكية ! وليحى الشعب صاحب السلطان !

وعندما خططت الجمعية الوطنية ، آخر الأمر ، لنظام الحكم حلت نفسها بعد أن حرمت على أعضائها أن يتقدموا للجمعية التالية . ومعنى هذا أن أحداً ممن له أية دراية بالحكم ، ما يكون له أن يشارك فى الحكومة التالية وأن كل شىء يجب بدؤه من جديد . وأتاح هذا القرار البالغ الغرابة لأعضاء النوادى الباريسية المتوسمين فرصتهم . وأعلنت الجمعية التالية الحرب على النساء .

وزادت الإباحة والفوضى . وأنذر دوق برانشفيج الألمانى — الذى عسكر فى بلاد الراين — أنذر الفرنسيين بأنه سيدمر باريس إذا مس لويس

السادس عشر بسوء . فأقام غوغاء باريس حكومة مدنية جمهورية اسمها حكومة العامة ودعا زعماءها الشعوب إلى أن تهب وتحطم الملوك . وزحف أهل مرسيليا وهم ينشدون نشيداً جديداً : المرسيين . وهاجم جمهور من الغوغاء حراس الملك السويسريين وقتلوهم ونهبوا قصر التويلري . وسجن لويس . وعبر برانشفيج الحدود . وطافت عصابات من الأوباش حول السجن يقتلون المالكين الذين حشروا فيها . وتصادف — في ذلك النوع البطيء من الغارات في تلك الأيام ، في مناجزة المدافع بـ . . . ثلثي — تصادف أن البروسيين ردوا على أعقابهم وأخذوا في الانسحاب ؛ فأمر الثوار باقتراع عام بين أقوى الأبدان وشكلوا منهم جيوشاً جديدة وعجلوا بإرسالهم إلى الحدود . واستعاض هؤلاء عن نقص تدريبهم ومرانهم باندفاعهم وحميتهم . فبلغوا الرين ودهموا البلاد الواطئة (النمسية) الجنوبية .

وفي باريس بلغت مأساة الملك نهايتها فلقد حوكم وأدين وأطاحت المقصلة برأسه في يناير من سنة ١٧٩٣ . وأهاب الثوار بالشعوب في كل مكان أن يشوروا على ملوكهم وشجعوهم بإعلان الحرب على بريطانيا وهولاندا وأسبانيا .

وفي مدى أربع سنوات تحولت أقدم مملكة في أوروبا إلى شعب نائر يحارب سائر الممالك جميعاً ، ويحارب أيضاً حرباً أهلية . فقد تبع الهجوم على الكنيسة وقتل الملك ، تمردات ملكية في الأقاليم ضد الحكومة الجمهورية في باريس . ولم يكن سهلاً قمع فلاحى بريطانيا — و — لا فلاحيه بزعماء ساداتهم وقساوستهم . وأدت هذه المخاطر والمنازعات والشكوك المجنونة المرة بين الأحزاب في باريس ، أدت إلى حكم إرهابي . وأرسلت لجنة الأمن العام ، إلى المقصلة ، الآلاف من الرجال والنساء من الأشراف والقواد والملكيين ، وجواسيس ، وأعداء شخصيين وشى بهم جيرانهم ، و — في الواقع — أي فرد قضى عليه سوء حظه بتوجيه تهمة إليه . وكانت غالبية الضحايا من الفقراء . وكانت من بين من كابدوا غالبية زعماء الثوار — مثل

دانتون — الذين وقعوا في أحابيل مؤامرات الريبة واسعة النطاق، وكذلك شخصيات ذائعة الصيت مثل لاڤوازية الكيماي — وشينييه الشاعر. ومن بينهم أيضاً الملكة ماري أنطوانيت التي لقبت بـ « المرأة النمساوية » احتقاراً لشأنها. لقد كان الأمر كابوساً من القبض والإعدام المعجل. لقد كانت مركبات النقل ذوات الدولابين، في كل يوم، تنهب الشوارع وهي تحمل أنصباؤها من المحكوم عليهم بالإعدام. وفي كل هذا كان الشخص المتسلط هو روبسبير الذي لبث في السلطان سليماً معافى بينما منى قرنأؤه بالإعدام. ولم يتوقف الإرهاب حتى هاجمته شرذمة من الرجال وأسقطته وأوثقته وعجلت به إلى المشنقة.

كان هناك كثيرون يتعطشون للدماء تعطش روبسبير، نقعت روحهم المتعصبة بباريس في الدم. ولكن كان هناك أيضاً كثيرون، من أمثال كارنو، يعملون نهائراً وليلاً لتجنيد الجيوش الجديدة وتسليحها وتدريبها.

ولكن جنود هذه الجيوش — التي تواف من المقترعين للخدمة العسكرية والتي نواتها رجال الجيش الملكي الممتاز القديم الذي كانت مدفعيته خير مدفعيات أوروبا — كان أولئك الجنود أبناء تلك الثورة العنيفة العجيبة. وكان جيش الشمال (المسمى جيش سامبر — و — موز) جيش جمهور من الرجال يتعلم الترتيب والنظام في ميادين القتال في مواجهة الخطر. وهذا هو الشيء الوحيد المرتب المنظم الذي تمخض عنه خيال فرنسا. وكان طبيعياً — في ظروف صارمة كمتلك — أن تجند الجيوش الجديدة قواداً من الشباب الكفء، رجلاً من أمثال هوش — و — جوردان — و — مورو الذين اعتادوا على أن يفرضوا على جيوشهم الولاء والنظام والطاعة، وتلك الفضائل افتقدتها باريس منذ زمن مديد.

نابليون والبحرية البريطانية :

وكان من بين عشرات ضباط القيادة الذين تولوا القيادة ، والذين عينتهم الجمهورية الفرنسية : شاب كورسيكي هو نابليون بونابرت أحد ضباط مدفعية لويس السادس عشر الذين تملسوا جيداً بمهنة استعمال السلاح . وعندما ثارت الغوغاء فى الشوارع ، بعد سقوط روبسبير ، نسفهم بقنايل مدفعية ، فكان بذلك أول من فضح حشداً من غوغاء باريس منذ ١٧٨٩ . وكان نابليون — على خلاف سائر الفرنسيين فى أيامه — يحسم الأمور كلها وائته السلطة . وقد أتاحت له الجمهورية القوة بخلق جيش عظيم بعدما أعلنت بداية حكم السلام ١ .

وكان نابليون نفسه إحدى القوتين الجسميتين فى تاريخ الثورة . وكانت الأخرى : البحرية البريطانية .

وقد اكتسبت البحرية — منذ أيام دريك — القوة والمهارة والتجربة فقد علمها بليك كيف تناور وتحارب فى مجموعات . وقد زادت خبرة واجباتها فى البحار السبعة وأكسبتها الصلابة حتى بلغت ذروة الكفاية فى البحرية والنظام . ولم تكد الجمهورية الفرنسية تعلن الحرب حتى خف الأسطول البريطانى إلى العمل . وفى ١٧٩٤ هزم اللورد هووى أسطولاً فرنسياً فى الأطلنطى فى « غرة يوليو المجيدة » . وكانت الجيوش البريطانية ، التى هبطت الأراضى الواطئة ، عديمة النفع . ومهما يكن من أمر فقد كانت قوة بالغة الصغر ، غير أن الأسطول محاطة تجارة فرنسا من البحار واستولى على ممتلكاتها الواقعة فيما وراءها ، واستولى كذلك على ممتلكات هولاندا عندما غزاها الفرنسيون وهكذا آلت ترينيداد وسيلان ورأس الرجاء الصالح إلى بريطانيا .

وفي ١٧٩٦ عقدت على نابليون قيادة « جيش إيطاليا » وأظهر عبقريته الحربية في حملة باهرة . وفي مدى ستة أسابيع من بداية الحملة عبر جبال الألب في ساقوى وطرده النمساويين من لومباردى ، فكانت مآثرة حربية ميّزته ، إذ إن زميليه القائدين مورو — و — چوردان أخفقوا في محاربة النمساويين في بلاد الراين وألمانيا . وقد صنع نابليون ما يفوق على هذا كثيرًا: نقل الحرب في علٍ إلى عمّرات التيرول ودخل النمسا . وكان على بعد ستين ميلًا من فيينا عندما أكره الإمبراطور على عقد الصلح ثم انطلق يعمل على تحويل شمال إيطاليا إلى جمهوريات تابعة لفرنسا وأبان هذا المجهود عن طاقته العنيفة في العمل وبراعته في التنظيم . ولم تظل البندقية — سيدة الأدرياتق الأبية الذائعة الصيت — لم تظل البندقية دولة مستقلة بل أصبحت كقريناتها تابعة لفرنسا .

وفي البحر دمر الأميرال چرفيز أسطولاً فرنسياً أسبانياً موحداً على مسافة من سنت فنسنت . وهزم الأميرال دانكان أسطولاً هولاندياً على مبعدة من كامبردوان وقد تحقق هذان الفوزان على حلفاء الفرنسيين على الرغم من التمردات الجدية التي أشعلها البحارة الإنجليز احتجاجاً على صغر المرتبات وقذارة المساكن ورداءة الطعام وقسوة المعاملة على يد بعض الضباط .

وعلى أية حال فقد حافظ المتمردون على حسن استعداد سفنهم الحربية وعلى أهبتهم للإبحار ليلتقوا بأعداء بلادهم ، ونجم عن هذا تحسين شئونهم إلى حد ما .

وفي الوقت نفسه انتصر نابليون ، في بلاد قاصية . أبحر إلى النيل بعد أن أفلت من الأسطول البريطاني في صعوبة بالغة وتغلب (بعد عناء) على الجيش المصرى في موقعة قرب الأهرام . وبعد هذا أرسل باحثيه

وعلماءه ليسحوا الأرض ويجمعوا آثاراً مصرية . وأرسل أسطوله في خليج أبي قير إلى أن أبحر الأميرال نلسون ونسفه نسفاً . وعندئذ سير نابليون جيشه الفرنسي إلى فلسطين حيث رُدَّ جنوده المشاة لدى هجومهم على أسوار عكا ، وذلك بفضل المساعدة التي قدمها إلى الأتراك ضباط المدفعية البحرية التابعين للكابتن سيدنى سميث . وهذا ما حدا بنابليون إلى أن يقلع عن أى مشروع يكون قد أعدده لإخضاع الشرق . وعندما عاد إلى مصر ترك جيشه وأبحر سراً إلى فرنسا . وهناك ألقي كل شيء مرتبكاً ووجدتها مهددة ، وكان ذلك في ١٧٩٩ .

وكان حلف جديد — من روسيا والنمسا وبريطانيا — قد أخذ يتألف ضد فرنسا . فنصب نابليون نفسه قنصلاً أولاً ، على الأسلوب الروماني القديم — وكانت الأساليب الرومانية القديمة محبوبة في أثناء الثورة — وأخذ يشتغل ١٦ ساعة يومياً ، شهوراً طويلة متعاقبة دون انقطاع ، واستحدث بعض النظام في الحكومة . ثم زحف مسرعاً على مرسنت برنار الكبير وأدرك جيشاً نمساوياً في مارانجو وحطمه . وقهر موروجيشاً نمسواً آخر في هوهنلندن ، وأكرهت النمسا مرة أخرى على قبول الصلح . وفي ١٨٠٢ أعاد صلح أميان تنظيم التعادل بين عبقرية نابليون الحربية وقوة بريطانيا العظمى البحرية .

ولم يكن الصلح غير مهادنة مسالحة . عاد نابليون إلى احتلال هولاندا وسويسرا ، وأرسل جنوده داخل مملكة هانوفر التي يحكمها جورج الثالث . وفي ذلك العام ذاته توج نفسه إمبراطور الفرنسيين ، في أبروشية نوتر دام في حضرة البابا ، وقد جاء به إلى باريس ليجري الاحتفال . ثم أزمع على أن يغزو بريطانيا وانتظر جيش الغزو — الذي أعده — في بولونيا وأقيمت خمسة جيوش أخرى على طول شاطئ أوروبا من هانوفر إلى برست تحت

إمرة أقرب قواده إلى ثقته . وسبحت أسراب السفن الحربية البريطانية ،
التي تسد الطريق في كل الأجواء شهوراً طويلة ، بعيدة عن الموانئ الأوروبية
سبحت بقيادة أمراء البحر البريطانيين المحنكين (كورنواليس - و - كوانجود
و - نلسن) وعم النشاط المضيق بسفن صغيرة وبوارج . وخف متطوعوا
المملكة المتحدة إلى السلاح متأهبين إلى لقاء المغير بالرحم والغدارة . وقد وسع
صيادي السمك ، الموجدون على مبعدة من الساحل الجنوبي الشرقي ، أن يروا
الفرنسيين يتمرنون على الركوب والشحن في سفن مفرطة القاع . وكدست
الشمندورات (وهي مشاعل تثبت على الماء لمداية السفن على الخبوت (١))
بعد أن أعدت لتشتعل على سبيل الإنذار . والإنذارات التجريبية تدفع
الفلاحين والسائمة للتحرك إلى داخلية البلاد . وأصلحت قلاع الشاطئ أو
شيدت ولكن ظهر أن هذه العملية تدخل في اختصاص البحارة .

وتبعت ذلك واحدة من أشهر الحملات التي شنتها البحرية الإنجليزية
وواحدة من أهم الحملات البرية التي شنها نابليون .

وأعوزت نابليون سفن حربية تحمى جيوشه إذ تعبر البوغاز . وأخيراً
في ١٨٠٥ ، غافل أميراله فيلنوف ، المحتمى بـ . . طولون ، غافل أسطول
نلسون الذي كان يعترض طريقه وأبحر بعيداً إلى جزيرة مارتينيك من
جزائر الهند الغربية الفرنسية . وأخطأ نلسون وأبحر مشرقاً إلى مصر ظناً
منه أن فيلنوف ذهب إليها ، ثم انثنى راجعاً إلى جبل طارق ، واتجه إلى
مارتينيك فوجد أن فيلنوف عائد في طريقه إلى بحر المانش . وأسرع
نلسون الإبحار إسراعاً أتاح له عاجلاً - اللحاق به وهو يحث السبح إلى
المياه الإقليمية . إنها مطاردة طويلة يقيناً - وكان كيتس ربان «سوبر»
(أي الفخمة) يعلم ذلك علم اليقين - إذ أن سفينته كانت قديمة معيبة

(١) الخبت ما اتسع واطمأن من الأرض .

بطيئة : د بطة عرجاء تتثاقل في الطريق ، . وأنفذ نلسون ، خفيةً ، فرقاطة سريعة اندفعت إلى لندن تحمل الأخبار . وعلى هذا وجد فيلنوف — عندما بلغ المضيق — أسطولاً ، تحت إمرة سير روبرت كالدور ، يعترض طريقه فقفل راجعاً إلى كورونيا دون أن يشتبك في معركة .

وبهذا انتهى أمل نابليون في الغزو .

وإذ ذاك أبدى الإمبراطور الفرنسي عبقريته الحربية الفائقة : استعان ببراعه مساعديه ونقل جيوشه جميعاً — دون اختلال — إلى مكان داخل النمسا يبعد ٤٠٠ ميل بلغته بعد زحف معجل واحتشدت قبل أن يتنبه النمسيون تذهباً تاماً إلى ما يجري . وأسرت جيشاً نمسياً في أولم وهزمت جيشاً نمسياً روسياً مشتركاً في أوسترليتز ، لم يوجد قط جندي كهذا الكورسيكي ! فلقد أكره النمسا مرة أخرى على الصلح ، وأعطى هانوفر (التي كانت من أملاك جورج الثالث إمبراطور بريطانيا) إلى روسيا . وكانت تلك هي الحرب البرية التي حطمت الحلف الثالث ضد فرنسا وقضت على آمال ولیم بيت . كان بيت رجلاً مريضاً ومات بعد أوسترليتز بشهر واحد . غير أنه عاش حتى عرف أن كل خوف من الغزو قد زال (١) .

وقبل أوسترليتز بستة أسابيع تعلم الإنجليز اسماً جديداً : اسم رأس الطرف الأغر الواقع على الساحل الأسباني . وذلك أن فيلنوف — في أسطول فرنسي أسباني — أحرق به وقهر على مقربة من ذلك الرأس على يد نلسون ودمرة إخوانه « اخترق نلسون — و — كولنجوود — يقودان ، في صفين ، سفنهما التي ألحق بها الجو ضرراً بالغاً — اخترقا خط دفاع مجموعات سفن العدو ومرا من بينها وأحاطا بها وحطماها .

وقد عظم سحر اسم نلسون إلى حد أن خبر النصر الكبير قد حجبه

(١) أنظر شكل رقم — ١٠ — (إمبراطورية نابليون الحربية ١٨١٠)

خبر موته على ظهر سفينته « فكتورى » (أى النصر) . فزع الناس عند سماع الخبر وامتعت وجوههم كأنهم سمعوا بفقد صديق عزيز .

وبعد هذا لم تحدث مواقع بحرية أخرى وإنما حدث قدر كبير من النشاط البحرى والنقل والمحاصرات وحراسة السفن . وأمر نابليون أوربا جمعاء بأن تمتنع عن الاتجار مع بريطانيا . وحاصرت بريطانيا أوربا كلها . وكانت الدول البرية والبحرية ما تزال عاجزة عن أن تضرب ضربتها .

واستمرت الحرب برأ . ولما استأنفها البروسيون لحسابهم الخاص هزمهم نابليون فى بينا ودخل برلين وعبرها راكباً فى موكب النصر . بمعاوضة البولنديين له بعد أن وعدهم بتحريرهم من روسيا وروسيا والنمسا وهى الدول التى كانت قد اقتسمت بولندا فيما بينها . وبعد هذا حارب الجيوش الروسية فى مايو — و — فريدلاند . ثم التقى بالقيصر الروسى فى طوف على نهر نيمن وعقد وإياه ميثاقاً تواضع العاهلان على أن يقتسما أوربا فيما بينهما : فيسيطر نابليون على الغرب ويكون القيصر شريكه فى اقتسام العالم المتمدن وفى السيطرة عليه .

وفى سنة ١٨٠٨ كان نابليون يحكم إمبراطورية أوسع من إمبراطورية شلمان . وكان إخوته ملوكاً على إيطاليا وهولاندا و — وسفاليا (بلاد الراين) ، وصهره ملكاً على نابولى ، وحكام بافاريا — و — فيرنبرج — و — بادن أزواج نسيباته ، وكان قد طلق زوجته الأولى وتزوج بإبنة إمبراطور النمسا .

وبذلك أصبح ضابط لويس السادس عشر المدفعى الصغير المنطوى على نفسه ، أصبح إمبراطوراً وجعل من أصدقائه ومرشاليه الدوق والمركيز والكونت وغير ذلك وكون منهم طبقة الأشراف فى إمبراطوريته الجديدة .

وقد فرض إرادته على الأمراء والشعوب بالمدافع وحراب البنادق ، وأصبحت العروش والأسر الممالك العوباته . غير أنه لم يكن مجرد قاهر منتصر ، بل كانت لديه كفاية فائقة في فن الحكم وولع بالقانون والتنسيق والنظام في الحرب والسلم . وقام مهندسوه وضباطه بتنفيذ هذه الأفكار في بلاد ألمانيا وإيطاليا المتخلفة ، فمدوا الطرق وغذوا الصناعة والتجارة وأيقظوا الناس من عاداتهم العتيقة في الطاعة العمياء . وحطم مجموعة دول ألمانيا وإيطاليا الصغيرة المتداعية التي ضمها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكون من إيطاليا وهولندا جمهوريات ، وأعاد تشكيل الأراضي الألمانية فصيرها دولاً كبيرة قليلة العدد . ويرجع إليه وإلى مساعديه الفضل في إزكاء رغبة الألمان والإيطاليين في جعل بلادهم أمماً حرة مستقلة . غير أنهم في عهده كانوا رعايا الإمبراطور الفرنسي ، إذ كان سلطانه لا يجد .

نابليون و أسبانيا وروسيا :

ولم يستمر في الحرب غير بريطانيا العظمى بمفردها . . أخذت تأسر السفن التجارية الفرنسية وتحاصر شواطئ أوروبا ، وهذه الأمور أنجزتها البحرية البريطانية المنقطعة النظير . غير أن بريطانيا العظمى لم تكن لتنتصر في الحرب بدون حلفاء في أوروبا . وهؤلاء أمدتها بهم نابليون وذلك بغزوه أسبانيا وروسيا .

وفي ١٨٠٨ عزل ملك أسبانيا وأجلس على العرش الأسباني أخاه جوزيف بوناپارت . ولا يسع أحداً أن يقول إن نابليون تغاضى عن مصاير أفراد أسرته . . . ولجأ الأسبانيون — وهم أمة أبية مستقلة — إلى السلاح بلدة بعد بلدة وقرية بعد قرية ، وهزموا جيشاً فرنسياً كبيراً وأسروه . ثم سير نابليون نفسه جنوده ، الذين حنكتهم الحرب ، إلى داخل شبه الجزيرة

ودخل مدريد . ومن ثم اضطر إلى الانسحاب شمالاً حيث هددت قوة بريطانية — بقيادة سير جون مور — هددت مواصلاته مع فرنسا . فأسرع بخيالاته عبر الجبال المكشوفة القارسة البزد خلف فرق مور التي انثنت إلى الشاطئ . تقطع ١٧ ميلاً في اليوم بين عواصف ثلجية باردة . وفي الوقت ذاته صدت الفرقة العسكرية الخفيفة ملاحقة الفرنسيين للأسبان . ثم حدث توقف نهائى فى كورونيا قتل فيه مور ولكنه أتاح للبريطانيين الهرب فى ناقلات كانت فى انتظارهم . نعم كانت المعركة صغيرة نسبياً ولكنها تبين ، فى جلاء ، مزايا القوة البحرية . وكان نابليون إذ ذاك قد عاد إلى فرنسا تاركاً أسبانيا لمشيريه العسكريين (مارشالاته) .

ولم يكن على هؤلاء أن يتصرفوا فقط إزاء هذه الأمة العنيدة المناجزة التى تشبه صفاتها الحربية ما يرد فى الأساطير بل كذلك إزاء جيش بريطانى — يقوده ولينجتون — معسكر فى ميناء لشبونة الباهر . وكان ولينجتون — حتى قبل أن يقهر مور فى كورونيا — قد قاد تجريدة عسكرية إلى البرتغال وصد جيشاً فرنسياً فى فيميرو . وعندئذ قهر ولينجتون الجيش الفرنسى مرة أخرى فى تالافيرا سنة ١٨٠٩ . ولا شك فى أن المعركة كانت بسيطة بالمقارنة إلى الحرب الرئيسية بأوربا التى استأنفها النمساويين والتى استمرت ثلاثة أشهر قبل أن يكره نابليون النمساويين — بعد معركتين ضاريتين (فى أسبرن — و — فاجرام) على عقد الصلح مرة أخرى .

وظلت أسبانيا مسرحاً للبربرية والهلول . شن فلاحو الأسبان حرب عصابات أو حرباً صغيرة قوامها هجمات صغيرة مباغتة على المراكز الأمامية والدوريات . واضطر نابليون — سنوات عديدة — إلى أن يبقى هناك خمسة جيوش متفرقة بقيادة مارشالاته يبلاد فيها « الجيوش الكبيرة تهلك من الجوع والجيوش الصغيرة تهزم » ، بلاد شعبها الغاضب يتصيد الفرنسيين

المنقطعين عن زملائهم والأتين بالمؤن ، ويعذبهم ويفتك بهم . وكان نجاح الأسبان عظيماً إلى حد أن استدعى مائتا فارس ليضمنوا لرسول فرنسي حراسة أمينة . وكثيراً ما كان المارشالات في الأقاليم الأسبانية المجاورة يعجزون عن معرفة أخبار حركات بعضهم بعضاً إلا عن طريق باريس . ولم يكن الأسبان يعرفون لهم حكومة ، وقصارى ما عرفوه أن الفرنسيين ليس لهم أن يعيشوا في الوطن الأسباني وينهبوه . ولهذا أشعلوا الحرب بالطريقة الوحيدة التي يقدرون عليها : شيئاً فشيئاً ، بربرية ، انتقامية .

وفي تلك الفترة كلها أبقى ولينجتون جيشه البريطاني الصغير — الشديد المراس مع ذلك — معسكرأ في لشبونة التي حماها بخطوط طويلة من المتاريس الترابية المحصنة والأشجار المقطوعة والمدفيعيات . وتحتم على الجيش الفرنسي الذي يرقبه أن يعسكر في أرض مقفرة بينما ولينجتون ورجاله يستمتعون بالكثير الذي تمدهم به سفائنة . وعندما اضطر الجيش الفرنسي ، آخر الأمر ، إلى الانسحاب تبعه ولينجتون في ١٨١١ وكسب سلسلة من المعارك البارعة في فوونتيس — دونورو — ألبوتيرا — سيوداد رودريجو — باداجوز — وفي الثاني والعشرين من يوليو من سنة ١٨١٢ ، في سالامانكا .

في يوم سالامانكا كان جيش عظيم يقوده نابليون قد وصل فعلاً إلى روسيا يزحف شرقاً . وقد تقدم خيالاته وعبروا (نهر) النيمن في الثالث والعشرين من يونيو . وتبعتهم المشاة والمدافع في غياهب من التراب فوق السهل الذي لا يحده ، وكانوا نصف مليون من الرجال من فرنسيين وألمان وإيطاليين وبولنديين .

وارتد الروس تاركين للغزاة فلاة مقفرة . ثم وقفوا ليحاربوا على نهر بورودينو في السادس من سبتمبر . وفي ذلك اليوم ركب رسول إلى داخل المعسكر يحمل أخبار سالامانكا . وكان طرفاً أوربا يتأججان بحروب

الإمبراطور ١ وزحزح نابليون الروس ولكنه بهذا خسر الآلاف من رجاله . واستأنفت السكتائب زحفها المديد . ودخل نابليون موسكو آخر الأمر . وكانت تلك المدينة قد هجرها أهلها وصارت مدينة أشباح صامتة الطرقات . والسبب ما تسمرت فيها النيران وأخذت بيوتها الخشبية تلتهب النهاباً عنيفاً فيما كانت جيوش الإمبراطور تنتظر جائعة واهنة مهلهلة فاقدة روابط النظام . وبعد انقضاء شهر على تلك الحال أمر نابليون بالانسحاب ، وبدأ أكثر من مائة ألف رجل الأياب البطىء المروع . وحل الشتاء قبل أوانه . وفي التاسع والعشرين من أكتوبر أنجمدت الأرض وعمق الجليد وهرع فرسان القوازيق — الذين تعودوا على الجو البارد — إلى المنقطعين عن رفاقهم وإلى المراكز الأمامية . وقد خسر الغزاة — لدى عبورهم أحد الأنهار — عشرين ألفاً من رجالهم . وإلى أن حل ذلك الوقت نفقت أغلبية خيلهم . وركب نابليون مركبة جليدية استحث بها الزحف على الثلج على رأس من بقي من جيشه وذلك لكي يعيد تنظيم الجيوش التي تركها لتحرس ألمانيا وفي الرابع عشر من ديسمبر كافح من بقى من الأشداء المهلهلي الثياب المستيثمين « الشديدي التذمر » ، كاخفوا ليعبروا النيمن ثانية ويقفلوا راجعين . وقاد « أشجع الشجعان » المارشال (ناي) ، قاد الرجال الأربعة الباقين من مؤخرة الجيش . وكان هو آخر من عبر .

وجيش نابليون جيوشاً جديدة في فرنسا ولكن أوربا جمعياً هبت ضده وحدث في موقعه الثلاثة الأيام العابسة ، التي دارت حول ليزج ، أن تغلب عليه الروس والنسويون والبروسيون بسبب تفوقهم العددي ليس إلا . وفي الوقت نفسه كسبوا لينجتون معركة أخرى في فيتوريا بأسبانيا وتعقب الفرنسيين عبر عررات جبال البرانس إلى داخل فرنسا . وفي الشمال كان نابليون مايزال يحارب في براعة مذهلة ولكن الأحوال أكرهته على العودة

إلى باريس . وفي الجنوب وصل رجال ولينجتون إلى طولوز . فأذعن نابليون ونفى إلى إلبا يحيطه التكريم .

وتهاوت إمبراطورية — آخر الأمر — أمام وطنية فلاحى روسيا وأسبانيا الحرون ، وطنية لم يلقها قط في حشود الدويلات الألمانية والإيطالية . ويرجع الفضل في مشاركة بريطانيا في قهره إلى جماعتين من « جماعات الأخوة » : رجال ولينجتون في شبه الجزيرة ، وبحارة تلك السفن الحربية التي ألحق بها الجو ضرراً بالغاً والتي سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى .

واجتمع سياسيو أوروبا في فيينا ليتسوا في شئون أوروبا . وقبل أن ينتهوا من مهمتهم أفلت نابليون من إلبا وهبط فرنسا ، وقوبل بترحيب حماسى ، وجيش جيوشاً جديدة ، وعرض أن يحافظ على السلام واسكن الحلفاء لم يأمنوا له . فتحركت جيوشهم صوب التخوم الفرنسية : البروسيون يقودهم القائد المسن بلوخر ، والبريطانيون والهولنديون والهانوفرانيون يقودهم دوق ولينجتون ، والروس يجمعون قوة دافقة من بلادهم القاصية . وفي ووترلو بيلجيك في يوم الأحد الموافق ١٨ من يونيو من سنة ١٨١٥ ثبت رجال ولينجتون النهار كله أمام الغارات الفرنسية المتكررة . وقد قال الدوق فيما بعد : (« هجموا بالطريقة القديمة ، وقهرناهم بالطريقة القديمة ») . وبعد الظهر ظهر بروسيا وبلوخر من الشمال الشرقى وحولوا الانكسار إلى اندحار . وخضع الفرنسيون أمام تقدم عام للحلف واستسلم نابليون . وفي هذه المرة أرسل إلى جزيرة القديسة هيلانة المنقطعة في جنوب الأطلنطى ، وعاد الملك البوربونى لويس الثامن عشر إلى باريس ، وتابع سياسيو مؤتمر فيينا مهمتهم وهى إقرار السلام في أوروبا بعد حروب دامت ٢٥ سنة .

وهكذا انتهت الحروب الطويلة المبددة التي شنتها الثورة الفرنسية و نابليون ، الحروبُ لا نتائجها ، إذ أن مبادئ الثورة انتشرت في كل مكان . فالناس الذين كانوا يُحكَمون حكماً سيئاً طلبوا الحرية ليشاركوا في حكم أنفسهم ، والناس الذين كانت تحكمهم أمم غريبة طلبوا الحرية كذلك . وانطلقت قوتان من عقائهما : الديمقراطية أو الرغبة في الحرية الشخصية ، والقومية أو الرغبة في تحرير الوطن من السيطرة الأجنبية .

الباب السابع

اختراعات عديدة ومعارف جديدة : العالم اليوم

ثلاث مجموعات من الأحداث :

حكاية القرنين الأخيرين يمكن تلخيصها في ثلاث مجموعات من الأحداث :-
أحداث السياسة ، وأحداث الاختراع وأحداث التوسع في أقطار الأرض .

بدأت السياسة فوراً وقتما استطاع رجل من رجال الكهوف أن يعقد
اتفاقاً مع آخر . وبدأ الاختراع فوراً وقتما عرف الناس كيف يقطعقون
الصوف أو يفتلوا الصوف خيوطاً طويلة . وبدأ التوسع فوراً وقتما بدأت
القبائل الأولى تجول في كل مكان لتعثر على مراع جديدة .

وجرت تلك الأحداث في سرعة متزايدة في خلال الأجيال الستة الماضية .
ونحن — في مناهج الحياة والفكر ، في أيامنا هذه نبعد — عن أهل عصر
نابليون أكثر مما يبعدون هم عن أهل عصر روما القديمة . ومن المؤكد أن
مدة السفر من لندن إلى روما كانت ، في عصر نابليون ، أطول منها في عصر
القيصرية . أما الآن فنحن نظير هذا المدى في ساعات قليلة . وفي عصر
نابليون كان الرجال والنساء فلاحين أميين يحكمهم الأشراف كأسلافهم
أيام الرومان . أما الآن فكل أمرى يستطيع أن يقرأ ، وغالبية الرجال
والنساء حضريون ويشاركون بنصيب في حكم بلادهم . وفي عصر نابليون
كان مجمل تخطيط الكرة الأرضية لا يُعرف غير جزء منه . أما الآن فقد
رسمت لأغلبها الخرائط ، وأنجزت الرسوم البيانية لقيعان المحيطات ،

وكثرت المصورات الجغرافية ، وأهلت القارات الجديدة بالسكان ، وأخذ الراديو يربط أقاصى البلاد بعضها ببعض فى مدى ومضة .

ونحن نترقب ظهور اختراعات جديدة فى كل وقت . ونحن نتحدث عن السفر إلى القمر ، فهذا عصر رجال العلوم والهندسة . والناس تزداد معلوماتهم عما حولهم باطراد ، كما تطرد مقدرتهم على تغيير ما يحيط بهم . وهذا مؤكد . أما الشئ الذى لا سبيل إلى التأكد منه فهو هل هم يتعلمون من الحكمة ما يحملهم على استعمال معلوماتهم ومقدرتهم لمنفعة الجنس البشرى كافة ؟

أحداث السياسة : ممالك وجمهوريات :

التاريخ غاص بالملوك . ومن قبل أن يطلب اليهود إلى صمويل ملكاً منهم يحكمهم ، ومن قبل أن يسمح بالزيت شاول ليعتلك عليهم كانت هنالك مدينتان أودية الأنهار يحكمها ملوك يتسمون بأسماء مثل سارجون — و — حامورانى . وقد جاء وقت كان فيه لكل مدينة فى وادٍ ملك ، اختص به يقيم العدل ويقود الرجال إلى ساحات القتال . وكان فى مصر أمراء البيت الكبير ، الفراعنة أمثال أمنحوتب ورمسيس وغيرهما ، كان هناك أسر عديدة منهم . وكان هناك ملوك على الحيثيين وهم أولئك الناس المبهمون الذين تكشف اليوم بالحفائر مدائنهم المخربة . وكان هناك ملوك على صور وصيدا الغنيتين . وكان لبلاد الفرس ملوكها . والإسكندر الأكبر الذى قهر بلاد الفرس ، بدأ ملكاً على مقدونيا . ونصّب قواده أنفسهم ملوكاً . ومن قبل الإسكندر بزمان طويل كان للمدن الإغريقية الكثيرة ملوكها ، ويظهر الأولون الذين عرفوا منهم فى ملحمة هومر أجائمنون — و — أخيل وفى كل مجموعة الأبطال العظيمة الذين سيروا سفائنهم ضد طروادة .

وروما أيضاً كان لها ملوكها الأتروريين ، وذلك إلى أن طردتهم روما

وتحولت إلى « جمهورية » (أو حكومة للشعب) يدير شؤونها حكام يختارون في كل عام من المدن المتزعمة. والمدن الإغريقية — التي كانت أئينا حاضرتها الكبرى وزعيمتها كانت هي أيضاً — جمهوريات لها جمعياتها المشكلة من مواطنين يجتمعون ليسنوا القوانين. غير أن في تاريخ البشرية كلها كانت الملكية هي النوع المألوف من أشكال الحكومة. وكان العاهل عند الإنجليز يسمى « كنج » وعند الإغريق « باسيلبوس » وعند الرومان « ركس » . واستعملت شعوب آخر ألقاباً أخرى مثل « سلطان » . شاه . زاد . قيصر . مهراجا . ميكادو ، وكل هذه الألقاب ترمي إلى معنى واحد وهو حكم الفرد .

وكان لروما وثرواتها المذهلة شأن آخر يختلف كثيراً عما ذكر . فهي ، بعد أن صارت جمهورية قهرت العالم ، وبعد ما صنعت ذلك تحولت إلى إمبراطورية يحكمها « قيصر » ، أو « إمبراطور » . وبما أن روما — التي صارت على التتابع جمهورية وإمبراطورية — هي أم أوروبا الغربية كلها فقد وجد منذ ذلك الوقت ، نموذجان من الحكومة يحتذيهما الناس . فكان كل زعيم بربري يقود — إلى داخل أراضي روما — عصابة مسلحة من الإنجليز أو القوط أو الفرنجة أو اللباردين ، يعدّ نفسه خليفة للقيصر .

وكان يستعمل اللاتينية في قوانينه وفي « مقر عمله » و « رئاسة حكومته » وفيما بعد — عندما تاق الناس إلى أن يعيشوا بدون ملوك — احتذوا النموذج الثاني لروما وشكلوا جمهوريات .

فمدينة البندقية التي طفقت سفائنها تحمل البهار من شرق البحر الأبيض المتوسط — كانت جمهورية تجار . وكذلك كانت جنوا . وطالما حلم الناس بجمهورية رومانية تبعث أبحار المدينة العتيقة . وعندما ظفر رجال البحار وفواب المقاطعات الهولنديون بحرّيتهم من أسبانيا ، حولوا أنفسهم إلى جمهورية هولندية ، وتحول المستعمرون الإنجليز في أمريكا الشمالية عام ١٧٨٣ — إلى جمهورية للولايات المتحدة ، وعندما أنشأ رجال الثورة الفرنسية جمهورية

فرنسية ، عند ذاك تسمى كثيرون منهم بأسماء عتيقة ، حتى أن نابليون سمي فترة قصيرة ، بـ د القنصل ، .

ولقد يكون حكام جمهورية ما أقوى ، فعلاً ، من ملك من الملوك . والفرق الكبير هو أن تغيير الحاكم في حكومة جمهورية — بدون حرب أو ثورة — أسهل ، فهناك تقاليد لتغيير الحكام تغييراً سهلاً .

ولكن هناك طريقة أخرى لتشكيل حكومة ما . وهي من وحي أرسطو ، ذلك الإغريقي البالغ الحكمة الذي كان مؤدب الإسكندر . لاحظ أرسطو أن المدن قد يحكمها رجل واحد ، أو رجال قليلون ، أو المواطنون جميعاً . وأسمى الأولى « حكومة ملكية » ، والثانية « إرستقراطية » ، (أى حكومة الأعيان) ، والثالثة « نظام الدولة » ، التي نفضل أن نسميها « ديمقراطية » . والديمقراطية هي ذلك النوع من الحكومة الذي فيه يتعاون الرجال جميعاً والنساء جميعاً ليسيروا الأمور لمصلحة الجميع . (وهذا ، بطبيعة الحال ، أسهل في القول منه في العمل) .

وعلينا أن نتذكر دواماً الفرقين الكبيرين بين السياسة عند الإغريق والرومان الأقدمين وبينها عندنا . في العهود البائدة كانت كل مدينة تحكم نفسها ، وكانت الدولة دولة مدينة واحدة مثل أثينا وكورينثوس وروما . أما اليوم فالدول دول أمم مثل أسبانيا والدانمرك . وفي دولة المدينة لا يشق على كل الناس أن يقوموا بقسط فعلي في الحكم ، ففي وسعهم أن يذهبوا جميعاً إلى المكان الكبير الذي تعتمد فيه الاجتماعات العامة . أما في دول الأمم ، في أيامنا ، فلا سبيل إلى المشاركة في الحكم إلا بانتخاب ممثلين يحكمون باسم مواطنيها .

والفرق الثاني هو أنه — في العهود القديمة — كان العبيد يقومون بالعمل . الشاق الدنيء . أما اليوم فيقوم به رجال أحرار . وواحدة من معضلات اليوم هي من الذي عليه أن يقوم بالعمل الشاق وما شروط ذلك ؟

ووقتها سقط نابليون ، وسقطت معه إمبراطوريته ، كانت حال بعض الممالك الغربية قريبة الشبه بها الآن ، مثل بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وهولاندا ، والنرويج ، والسويد ، والدانمرك . وكانت هنالك أيضاً روسيا ، وكانت لها حكومة ملكية قوية مركزها موسكو وسنت بطرسبرج (لينينجراد) . وكانت بها أصقاع شاسعة لم تُستكشف تترامى فى آسيا إلى مدى بعيد .

وكذلك كانت هنالك إمبراطوريتان عظيمتان تلاشتا ، هما : (١) الإمبراطورية النمساوية المكونة من النمسا والمجر وبوهيميا ، ومن بعض الأقطار السلافية . (٢) الإمبراطورية التركية التى ضمت البلقان (بلاد الصرب والبلغار والرومان واليونان) وآسيا الصغرى والجزيرة العربية والشام وفلسطين ومصر .

ولم تكن هناك أمة ألمانيا المتحدة ، ولم تكن هناك مملكة إيطاليا ، إذ أن إيطاليا وألمانيا لم تكونا غير اسمين لمنطقتين .

وكان ملوك البرتغال يحكمون البرازيل ، وملوك أسبانيا يحكمون سائر أمريكا الجنوبية . وكانت بريطانيا العظمى تسيطر على البحار . وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أمة فتية حرة وراها قارة ضخمة تتطلع إلى الاستقرار والإنتاج .

وكانت غالبية الدول يحكمها ملوك بغير دستور أو تحكمها جماعات من الحكام لا تتبدل ، كأولئك الذين يُسيرون شئون النوادي والجماعات التى تحتفظ بأعضائها دواماً . وعلى هذا كانت غالبية الحكام تعمل ما يروقها على صورة ما . وكان لإنجلترا دستور غير مكتوب ، دستور قوامه

العرف والعادة . وللولايات المتحدة دستور مكتوب أو اتفاقية عقدها المواطنون فيما بينهم تنص على الأسلوب الذى يودون أن يحكموا بمقتضاه .

السياسة : الحرية :

اجتمع فى فينّا : الأباطرة والملوك والدوقات والكونتات من كل الممالك لينظموا شئون أوربا بعد خمسة وعشرين عاماً قضتها فى الحرب والجلبة . وظل ذلك المؤتمر الجذلان المناق سنتين — ١٨١٤ و ١٨١٥ — يبحث فى تعديل خريطة أوربا . وكانت المدينة الإمبراطورية مركزاً للولائم وحفلات التسلية والرقص والاستقبال وصيد الخنزير البرى ، وأخذ أهل فينا يرون — اليوم بعد اليوم — صانعى السلام الأرستقراطيين الرفيعى القدر : إمبراطورهم ذا الشعر الأبيض الهش الواهن ، وملك بروسيا الطويل ، وملك الدانمارك القصير ، وقيصر جميع الروس البهيج الهيئة ، والوزراء : ولينجتون العسكرى التصرف الحاسم الأمور ، والورد كاسلرى المتباعد المتزمت الذى يشغله الهم ، والكونت ميتزنيخ الوسيم الجمال ، وتاليران الرجل الفرنسى الذى يفوقهم جميعاً فى الخدق والذى كان أسقفاً قبل الثورة والذى انتصر على كل احتمالات السياسة الفرنسية وتقلباتها . ولهذا الخدق يرجع الفضل فى أن المؤتمر عدّ فرنسا المنهزمة دولةً كبرى وأعاد إليها النظام الملكى تحت تاج لويس الثامن عشر أخى لويس السادس عشر . وكان لويس الثامن عشر — البدين المستهتر — منفياً بإنجلترا .

ولم يُشر موضوع حق الشعوب فى حكم أنفسهم أو فى التحرر من حكم الأجنبي . وقصارى ما استرعى اهتمام القيصر إسكندر والكونت ميتزنيخ هو أن أفكار ١٧٨٩ الحرة يُنظر إليها كأنما حدثت فى القمر . غير أن الناس فى كل بلد صـبّوا إلى التحرر من القوانين الجائرة

والضرائب والاستبداد ومن خوف السجون المظلمة والمشاق ورغبوا في دستور يؤمنهم على حياتهم . وكانت الحرية تملأ هواء كل مكان إلا قدينا . فهناك أعاد الأرسطراطيون رسم الخريطة . ولم يتمكنوا من إعادتها إلى حالها في سنة ١٧٨٩ ، ولسكنهم ساروا في تلك السبيل ما واثم الجهد وصنعوا كل ما وسعهم ليؤمنوها للبلوك ، أى لإمبراطورى النمسا وروسيا وعواهل بروسيا وفرنسا ويحولوا دون اشتعال ثورات جديدة .

وقتلوا بولندا . ذلك أن تلك المملكة الشهمة الشقية التى سبق لنا بليون أن وعد بيعتها ، دفنوها هم مرة أخرى تحت روسيا والنمسا وروسيا . كل امرئ له وطنه إلا البولندى فوطنه قبر ، . وهذه العبارة المرة التى قالها بولندى وطنى منفى ، ما تزال تصدق حتى يومنا هذا .

ولكى يضع المؤتمر العراقيل دون حدوث أية متاعب من ناحية الفرنسيين أعطى منطقة بلاد الراين الغنية التاريخية إلى ملك بروسيا الذى خطا الدويلات الألمانية — بناء على هذا — من الشرق إلى الغرب . وتجمعت الممالك والدوقيات الألمانية الأخرى — التى انخفض عددها إلى ٣٩- فى درابطة ، أو اتحاد خاضع لتوجيه النمسا . تخلت النمسا عن أراضيها الواطئة (بلجيكا الحديثة) لهولاندا ، ولسكنها كوفت بالسيادة على شمال إيطاليا .

وبقيت « إيطاليا » اسماً لشبه جزيرة . وفى الجنوب قامت مملكة نابولى وصقلية المحكومتين حكماً سيئاً ، وفى الوسط أملاك البابا — تحت أسوأ حكم فى العالم — ، وفى الشمال الغربى الدولة الصغيرة الواقعة فى سفوح الجبال (بيدمونت) يحكمها ملك سردينيا وساقوى .

وتمت أعمال المؤتمر بنيتة استدامتها . ولم يكن ذلك من المرجح لأن

نسبنا الحرية كانت تهب في صدور الناس هبوب الرياح التي حركت الغابات التي فيها كانوا يلتقون ليتآمروا على إشعال الثورة ولشكوا جمعيات سرية من الوطنيين ، ومهروا عهودهم بطقوس دينية مقدسة . وكوّن طلبة الجامعات الألمانية جمعيات سياسية . وكان الوطنيون في إيطاليا يسمون أنفسهم : مشعل الفحم والكربوناري . وقد شاركهم المواطنون والعمال والأعيان والشعراء والجنود المرتزقة الخشنون . وكان مجرد الانتساب إلى جمعية سرية يعد جريمة ، وكان العمال الزراعيون المقيمون في إنجلترا يُنقلون إلى أستراليا على أنهم مجرمون لا شيء إلا لأنهم اجتمعوا سرّاً كي يتدارسوا كيف يحتفل أن يحصلوا على أجور أعلى .

ومهما يكن من شيء فإن الانتصارات الأولى التي كسبت باسم الحرية لم تُكسب لا في إيطاليا ولا في ألمانيا وإنما كُسبت في تركيا وفي الدنيا الجديدة .

وكان من بين رعايا السلطان المسيحيين : الصربون الذين احتفظوا بنزعتهم الحربية في التلال البلقانية ، وقامت أولى ثوراتهم عام ١٨٠٤ . وبعد حرب طويلة الأمد ، وإن تكن غير متتابة ، كسبوا حق استقلالهم وتملك عليهم أمير من جنسهم . وفوق ذلك عطف عليهم الروس لأنهم إخوان في السلافية . وكان الروس جيران الأتراك ومنافسيهم في البحر الأسود ، والقيصر يعد نفسه حامى مسيحي تركيا جميعاً . وكان هذا صدى النزاع القديم بين الصليب والهِلال . وفي سنة ١٨٢١ ثار على السلطان شعب أكثر شهرة وهم الإغريق الذين علمت أسلافهم الناس كيف يجمعون بين الحرية وحياة المدن . وشكوا هم أيضاً — أسوة بوطنيي الغرب — جمعيات سرية عرفت باسم «أصدقاء اليونان» . وشبت الحرب ضارية ، إذ أن الإغريق الحديث عديم الرحمة كأسلافه الأقدمين . فقتل في (شبه جزيرة) المورة أكثر من عشرين ألف تركي . واقتص الأتراك لأنفسهم باضطهاد

اليونان ، وبخاصة في (جزيرة) شيبوس . وحدث أن شهرة الإغريق .
سحرت الغربيين الذين تنسموا في صباهم حكايات ليونيداس وپركليز ،
وشارك متطوعون كثيرون من الغرب في حرب استقلال اليونان ، تذكر
منهم الشاعر لورد بايرون .

تطل الجبال على ماراثون (١) ، وماراثون تطل على البحر ،
وبعد ما استغرقت هناك ساعة في التأمل — وحيداً —
حلت أن اليونان أيضاً قد تكسب حريتها .

وقد ظفر اليونانيون بأحلاف أقوى من المتطوعين . إذ أنه عندما
أرسل والى مصر التركي جنوده إلى المورة ليخضعوا الثوار تصدت السفن
الحربية الإنجليزية الفرنسية — يقودها الأميرال كودرينجتون —
للبحرية المصرية ، في خليج ناغارينو ، ونسفتها . وهجم جيش روسى
من الشمال . وهكذا اضطر الأتراك إلى إعطاء اليونانيين حريتهم ، وأصبحت
اليونان مملكة مستقلة .

وعلى بعد آلاف من الأميال ولدت أمم جديدة . . . عندما احتل
نابليون أسبانيا والبرتغال ، قطعت المستعمرات البرتغالية والأسبانية -
الصلة بهما . وأصبحت البرازيل إمبراطورية مستقلة عن البرتغال واحتفظت
باستقلالها وتحولت بعد ذلك إلى جمهورية . وثار المستعمرات الأسبانية
في الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٢٠ وحصلت جميعاً على استقلالها . وكان
أعظم قوادهم : سيمون بوليفار ، وكان أشهر متطوعى الإنجليز والفرنسيين .
الكثيرى العدد الذين ساعدوهم : لورد دندونالد وهو بحار من صنف

(١) ماراثون اسم بلدة في اليونان . والماراثون سباق (مداه ٢٦ ميلا و ٣٨٥ يارداً ،
أخذ به لحياء لذكرى العدائين الذى عدوا من ماراثون إلى أثينا يحملون نبأ انتصار .
عام ٤٩٠ ق . م .

نلسون . وقد ظلت أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى أسبانييتين أكبر من ٣٠٠ سنة ، وخلفت أسبانيا طابعها الثابت على القارة كلها من حيث الجنس والدين واللغة . وقد ظهرت في الوجود بعد ذلك جمهوريات : پاراجواى وبوليفيا والأرجنتين وبيرو وشيلي وإيكوادور وكولومبيا وفينزويلا والمكسيك وجواتيمالا ممتدة فيما بينها قارة ذات ثروة ومساحة يصعب تصديقهما . وباستثناء كندا ، تحررت الدنيا كلها من تبعيتها للممالك القديمة في أوروبا .

وفي الفترة التي فيها عقدت سيادة البحار لبريطانيا كانت الدنيا الجديدة أبعد من أن تصل إليها الحراب النمساوية والفرنسية . أما إيطاليا وأسبانيا فلم يكن هذا شأنهما : عندما ثارت الفتن في هذين البلدين دخل جيش نمسوى نابولي وجيش فرنسى أسبانياً ، وسحقاهما . وأطفا النمساويون كذلك تمردات في لومباردى التي استشارها مشعلو الفحيم والتي ألقى بكثير من زعمائهم في سجون النمسا المظلمة .

وفي يوليو من سنة ١٨٣٠ ثار عصيان ، فهرب الملك الفرنسى إلى إنجلترا وحل محله ابن عمه لويس فيليب الذى كان أكثر انعطافاً إلى الأفكار الديمقراطية . وقد أثار هذا العصيان الناس إثارة عنيفة في كل مكان . فقامت تمردات في البرتغال وپولندا وألمانيا وإيطاليا ، أخفقت جميعها . فلقد لجأت الفرق النمساوية في إيطاليا إلى منتهى القسوة في قمع الثوار وبخاصة فى أملاك البابا . وكان من بين الوطنيين الكثيرين الذين نُسفوا : جويسى ماتزىنى الذى كرس حياته - منذ كان طالباً - إلى قضية استقلال إيطاليا والذى أصبح نبى إيطاليا قوميةً ، حريةً ، ديمقراطية .

ولم يثمر العصيان إلا فى البلاد الواطئة . فهناك ثار أهل الجنوب على

الحكام الهولانديين وأذنت لهم الدول الأوروبية في أن يقيموا مملكتهم البلجيكية التي نعرفها الآن والتي استعارت اسمها من شعب «البلجي»، الباسل الذي اشتهر في عهد قيصر .

وكانت الصرب واليونان وجمهوريات أمريكا الجنوبية وبلجيكا من ثمرات الحرية . ففي عهود أسر أوروبا القديمة كان الكثيرون من الرجال البواسل ما يزالون يكابدون من ضياع حرياتهم ، إذ أن الملوك كانوا يحرسون على نظام أملاكهم وأمنها لمنع الثورة . وقد مات لورد بايرون عام ١٨٢٧ ولكن كلماته تصلح الإشارة إلى السنوات القليلة التي تلت ١٨٣٠ .

«ومع ذلك : فالحرية ! ومع ذلك فإن الراية ، وإن تمزقت ، ستظل تقابل الريح بتيارات كالعاصفة الراجعة ، .

السياسة : أم البرلمانات :

شكل الرجال الذين أسسوا الولايات المتحدة الأمريكية ، شكوا حكومتهم على نموذج الحكومة البرلمانية البريطانية ، وكانت في نظرهم خير حكومة أخرجت للناس . هذا وإن صح أن مجلس العموم البريطاني كان ، عندئذ ، في حاجة إلى الإصلاح بل ظل في حاجة إليه بعد ذلك بخمسين سنة . فكثير من المدن الانتخابية - التي تبعث بنواب إلى مجلس العموم - كان كُفُورا (أى قرى صغيرة) لا يعتد بها . مثال ذلك : كانت كل من أولد ساروم - و - جاتون ترسل نائبين ليثالا حفنة من الناس . وكانت أماكن كهذي تسمى - على سبيل الفكاهة - « المدن الانتخابية العفنة » . وكانت أماكن أخرى - قليلة عدد الناخبين - مثل تافستك التي لا يتميز فيها أكثر من عشرة رجال - كانت هذه الأماكن الأخرى في « جيوب » كبار اللوردات الذين يؤجرون الناخبين يرسلوا إلى مجلس العموم نواباً يختارونهم

هم من الأبناء والأقارب والتابعين . والنتيجة أن غالبية أعضاء مجلس العموم كانوا يعتمدون اعتماداً كلياً على « مناصرين » نظام في مجلس اللوردات .

إلا أن ذلك لم يكن كل شيء . فلقد تفكك كاتب روائى سنة ١٨١٧ بالكتابة عن (مدينة « لاصوت » الكبيرة الآهلة بالسكان الواقعة بالقرب من مدينة « صوت واحد » الانتخابية العتيقة المسكومة) . وكانت هنالك طائفة كبيرة من مدن « لاصوت » نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : منشستر ، هاليفاكس ، ليدز ، شفيلد ، برمنجهام ، وكانت تلك مدناً تغص بالسكان وتنمو نمواً سريعاً بفضل الصناعة والتجارة اللتين أخذتا تنموان في أواخر القرن الثامن عشر . وفيما بين ١٧٨١ و ١٨٣١ تضاعف عدد سكان الجزيرة ، وكان أكثر الزيادة في مدن « لاصوت » تلك التي لم يكن لها — بناء على ذلك — أى رأى في حكم البلاد . ومن بين نحو الخمسمائة عضو من أعضاء البرلمان كان نحو سبعين ينتخبون عن بلاد لا تكاد تضم ناخبين على الإطلاق . وهذا النوع من الانتخابات الهائلة التي جرت في المدن الانتخابية وصفه دكنز في كتابه « مذكرات بكويك » عندما تكلم عن حوادث يوم الاقتراع في إيتانزويل .

ولكى ننصف أسلافنا يجب أن نقرر أن الكثيرين تذهبوا إلى تلك الأحوال السخيفة وطلبوا علاجها وذلك قبل شبوب الثورة الفرنسية . وقد دفع جنون دهماء الفرنسيين الوحشى ، دفع حكام بريطانيا إلى التخوف من أن يعطوا أى امرئ أى قدر من السلطان . وبطبيعة الحال كان في تلك الجزيرة متهورون بمن يظنون أن النموذج الفرنسى يجب أن يحتذى . غير أن الحروب الطويلة سببت الكرب والتعطل بين العمال الزراعيين وغيرهم فارتفعت ضججات الشعب وحرقت أكاداس

الغلال ومخازنها ونهبت المتاجر ، وتحتم على القوات المسلحة أن تفرق محدثي الشغب، وأخذ رجال متوحشون يتحدثون عن «جمعية الأمن العام» وفيما كانت التجارة تستعيد رواجها تدريجاً تحول ذلك الهياج إلى المطالبة بإصلاح البرلمان . وفي ١٨٣٠ قامت طائفة من أعضاء البرلمان تحبذاً لإصلاح . وفي ١٨٣٠ باتت البلاد مهددة باحتمال اندلاع ثورة . وفي تلك السنة حوكم ما لا يقل عن ٧٠٠ رجل في ونشستر بتهمة التمرد . عندما رفض البرلمان في ١٨٤١ مشروع الإصلاح الذي تقدم به لورد جراي تجدد الشغب في ضراوة بالمقاطعات الداخلية . وفي بريستول بدأت الدهماء تحرق المدينة . وفي آخر الأمر أذعن دوق ولنجتون وحزبه وأشاروا على وليم الرابع بأن يوقع اللائحة . وألغيت مدن «انتخابية» متعطنة ومدن بالغة الصغر عددها ١٤٣ ووزعت مقاعدهم من جديد بين المدن الصناعية الجديدة . وفي الوقت ذاته رخص لكل مدني يدفع إيجاراً سنوياً قدره عشرة جنيهات أن يدلي بصوته . وكذلك أجرى إصلاح بالولايات الإقليمية .

وعلى هذا النحو ، عندما كان وطنيو أوربا يضجون بطلب التحرر من الاستبداد ، أصلحت أمم البرلمانات نفسها ، أو بعبارة أصبح أخذت تصلح نفسها ، وذلك لأن العملية استمرت . ووفق على لوائح إصلاحية أخرى (في ١٨٦٧ و ١٨٨٥) تعطى حق التصويت لأغلب من بلغوا سن الرشد من سكان المدن والقرى . والقيمة الكبرى لهذا واضحة ، وهي أن أية حكومة لا يقبلها الجمهور يمكن تغييرها عندما يأتي وقت الانتخابات التالية .

والبرلمان الإنجليزي هيئة قديمة ترجع إلى عهد إدوارد الأول وهو الملك الذي نادى بأن «مايس الجميع ينبغي أن يوافق عليه الجميع» . ولكن علينا أن ننتبه إلى تبدل طرأ على فكرة التمثيل البرلماني . في القرون الوسطى كان فارس المدينة الانتخابية (أي عضو الإقليم) يمثل كل فرسان المدينة الأخر أو المزارعين ذوي الأهمية ، أي الرجال الذين يمثلونه تماماً .

وبالمثل كان المواطن الحر (أى ساكن المدينة) يمثل كل المواطنين الأحرار في بلده ، ذوى المال أو المهنة ، الذين يماثلونه . أما الآن فنظراً للنمو الكبير في عدد السكان فإن عضو البرلمان إن هو إلا رجل طيب يختار ليثلهم ، لا لأنه يماثلهم بل ليبذل جهده في الإسهام في حكم البلاد . فلمقاطعة أن تنتخب غنياً من أصحاب الأراضى وللمدينة ذات الدائرة الانتخابية أن تنتخب غنياً من رجال المال .

كان القرن التاسع عشر عصر البرلمان الزاهر . ولم يكن من الأهمية بمكان أن قوة البرلمان كان يؤمن بها الجميع إيماناً كبيراً ، وأن سمعته كانت بالغة العلو بل كان من أهم ما يستدعى اهتمام كل العمال هو الصوت فإذا تم لهم هذا اطمأنوا إلى أن كل ما يرغبون فيه آتٍ بعد ذلك . وهذا ، يقيناً ، مثل من الإيمان الذى لم ينفك يراود أهل الجزيرة في أن يجتمعوا ويناقشوا متاعبهم — بتعقُّل — دون أن يذهبوا بعيداً في العمل على تحقيق مطالبهم ولسكنهم على استعداد الأخذ والعطاء .

على أن إصلاح مجلس العموم تلاه إصلاح أكثر لزوماً وهو إصلاح الحكومة المحلية للحواجز والمدن ذوات الدوائن الانتخابية : الأول في ١٨٣٥ والثاني في ١٨٨٨ . فبدلاً من أن تتصدى جماعات صغيرة من الناس — ينتخبون جزافاً أو ينتخبون على يد أنفسهم وأصدقائهم — لتسيير دفة الأعمال بدلاً من هذا ظفرت الحواضر والمدن ذوات الدوائن الانتخابية ، بمجالس نظامية منتخبة .

الاختراع : المهندسون :

منذ البداية أخذ الناس يغيرون ما يحيط بهم ، بالعمل الطويل الأناة . فهدوا سفوح الجبال للسكرور ، وأزالوا الغابات ، وصرفوا ماء المستنقعات ، وعمقوا

مجارى الأنهار ، وبنو أرصفة البحر ، وأقامو الأبنية الأثرية من الطوب والحجر ، وشيدوا المدن ، ومدوا الطرق عبر القارات .

ولم تتعرض الدنيا قط لتغييرات جارفة ك تلك التى بدأت حول سنة ١٧٦٠م
والتي يرجع الفضل فيها إلى المهندسين .

فالمهندس يبتدع اختراعات تستلزم الخلق والبراعة . وتبدو براعته —
أكثر ما تبدو — فى البناء ، وإقامة الجسور (الكبارى) واحتفار الخنادق ،
وشق الأنفاق ، واستخراج محتويات المناجم ، وصناعة المعادن . ولقد كان
من أسلافه : كل أبناء الصنعة الدهاة ، وبخاصة مقيموا الطواحين وصانعى
الساعات وجيش الحدادين والسباكين والصياغ القدير ، إذ أن عمل
أولئك يعتمد على المقاييس الصحيحة وبالتالى على العلوم الرياضية . وهو
يعتمد كذلك على طبائع المواد وبالتالى على الطبيعة والكيمياء . فأرباب المهن
والمتشغلون بالرياضيات والعلوم ، رواده . ذلك أنه يتلقى معلوماتهم وحقدهم
ويهيئها للزاولة العملية ، فيطوِّع الخشب والصخر والمعدن لتخطيطه . فهو
إذن المهندس الأعظم لصناعات الإنسان .

وأدواته — هى نفسها — آلات بارعة . خذ مثلاً : المَكشِر (معمل
نشر الخشب) والمخرط الآلى (آلة ميكانيكية لخرط الخشب والمعادن)
والمطرقة البخارية — وهذان تحركهما قوة سقوط الماء — والبخار المتمدد ،
والغازات المفرقة ، والدفع الكهربائى . وهذه الآلات وأشباهاها أسرع
وأقوى وأرق من الأدوات اليدوية ، مائة مرة .

وقد قضى عمل المهندس على الطراز القديم من جمعيات الصناع والفلاحين ،
إذ أن آلاته تحتاج إلى تعاون دقيق منظم من الكثيرين وكانت الدنيا القديمة
تستخدم العبيد وليس فى وسع المهندس أن يفعل هذا فى مدينتنا المبنية على
حرية الناس جميعاً . ومع هذا فضمامان المعاونة الصادقة من جموع المواطنين

الأحرار تحير أحياناً ، إذ أن آلات كثيرة تحتاج إلى استخدام الرجال والنساء ، كأنهم جزء من الآلة ، ليكرروا بضع حركات عضلية بسيطة ، المرة تلو المرة واليوم بعد اليوم : ومع هذا فقد يشعر المهندس نفسه — في العمل الذي يخصه — بنشوة صاحب المهنة اليدوية. غير أن الذين يهتمون بشئون الآلة يقضون الأيام الطويلة في القيام بأعمال ، إذا قيس بها تخريط الخشب ودهن الحوائط عد مشيراً جداً .

الاختراع : الطرق والقنوات :

بعد ما ألقى الفوج الروماني الأخير مجادفه لم تحظ طرقات بريطانية قط بعمل نافع في مدى يزيد على الألف عام . وكانت قطعان من الماشية تطأ الدروب إلى الحشيشات (أى الأراضي الرخوة اللينة) وفي الصيف كان الحجاج والباعة المتجولون يسرون على أقدامهم فوق الأخاديد أو على ظهور الأفراس الصغيرة والكبيرة . وفي الشتاء يقبع الناس في بيوتهم ولا شيء غير ذلك . وفي بعض النواحي لم يكن بد من استعمال أعمدة خشبية تحدد مسرى الطريق العامة ، إذ كثيراً ما صعب التمييز بينها وبين الحقل المحيط بها . وكانت الرحلة بين يورك ولندن تستغرق أسبوعاً . ولئن كان سويفت نكس قد قطعها في يوم أو نحوه — في ١٦٧٦ — فهو قاطع طريق متعجل . وقد قالت « مجلة الأماجد » (جنتلمانز ماجازين) في ١٧٢٥ إن الطرق المؤدية إلى الغرب كانت « كما تركها الله بعد الطوفان » ، تغطس الأقدام فيها ، في الوحل السميك شتاء وفي التراب السميك صيفاً .

والمدينة تعتمد على طرق النقل الجيدة . وعندما بدأت لندن — بعد ١٧٠٠ — تمتد وتتسع كانت الطرق تخص بالغنم والثيران والإوز ، وهي جميعاً في طريقها لتطعم العاصمة . وبعد سنة ١٧٠٠ بفترة وجيزة أخذت الشركات المتحدة — المكونة من أفراد المواطنين — تصالح رقماً مستطيلة من الطريق العامة وتنفق على العمل من المكوس التي تجبها من كل الركاب

عند بوابات المسكوس المقامة عبر الطريق. وإلى أن جاءت سنة ١٨٣٧ وجد من تلك الجمعيات المتحدة ما يربو على ١١٠٠٠ ، وقد تفاوتت كفاياتها في العمل، على أنها استخدمت فعلاً بعض مهرة مهندسى الطرق . وأكثر أعمال توماس تلفورد مدعاة للفخر : طريق هوليهيد والجسر المعلق فوق بوغاز مياناي ، اللذان شيدهما . وقد أطلق جون ماك آدم اسمه على نوع من الطرق سطحه من الحجارة الصغيرة المتعددة الزوايا ضغط بعضها إلى بعض ضغطاً قوياً حتى صارت كتلة صلبة . وبسبب هذه التحسينات أفسحت المركبة الثقيلة القديمة المدلاة على أشرطة جلدية ، أفسحت مكانها لمركبات السفر العامة المركبة فوق زمبرات من الصلب ، وكانت أخف وأسرع . وفيما بين ١٧٦٠ و ١٨٤٠ اتصلت أهم المدن — بعضها البعض — بعربات : التاليهو والنرود وومضة البرق ، وكلها ملونة بألوان زاهية وتجرها مجموعات من الخيل تتبدل عند كل مرحلة . وكان الشتاء — بطبيعة الحال — يسبب خللاً في المواعيد المحددة القيام والوصول ، ويسبب انقلاب العربات في بعض الأحيان . وعندئذ كان أقوى الركاب هم وحدهم الذين يستطيعون تحمل السياحة على المقاعد الخارجية . وهناك حكايات بشعة عن ركاب مثل أولئك وجدوا — في آخر المرحلة — ميتين من البرد .

ودفع بطء حاملي البريد (٤٠ ساعة بين باث ولندن) شخصاً اسمه چون بالمر إلى اقتراح تسيير مركبات كبيرة للبريد والركاب تسييراً منظماً وقد وصلت الأولى — في ١٧٨٤ — إلى برستول في ١٥ ساعة . وأصبحت مركبات البريد الملكي خيراً يتحدث عنه : مركبة فاخرة — تقرقع عبر بوابات المسكوس التي تفتح بمجرد سماع بوق البريد — تمر فتلوح لها القرى وتهتف « الدقة المطلقة في جميع مواعيد المركبات وفي عدة الخيل وقوتها ونظافتها وبساطتها الجميلة . ولكن ربما يكون الشيء الذي يسترعى الانتباه ، أول الأمر أكثر من غيره ، ربما يكون فخامة الخيل وأبهتها ، . هذا ما كتبه

توماس دى كوينسى عن عرض مركبات البريد الفخم قبل أن تنطلق من شارع لومبارد إلى أهم مدن المملكة . وإلى أن حلت سنة ١٨٣٥ كان يقوم بالعمل أكثر من ٧٠٠ مركبة بريد وآلاف من المركبات التى تستخدم حشوداً من السواقين والحرس وصغار الخدم وسواس الخيل ممن يقومون على خدمة الاصطبلات فى مئات من الفنادق .

وعهد مركبات الركاب والبريد كان كذلك عهد القنوات ١٧٦٠-١٨٤٠ .

والنقل المائى سهل رخيص . وفى مدى فترة طويلة كانت سفن الشواطىء - التى تنقل الفحم - تحمل الفحم من التاين والتيمز ، وما زالت تفعل . وقناة لانجدوك الطويلة - التى تصل ما بين خليج بسكاى بالبحر الأبيض - هى التى أوحى لدوق برادجوير بفكرته فى قناة تحمل الفحم من مناجم المعادن التى يملكها فى وورسلى - و - منشستر . وقد استعان ب... جيمس برندلى - وهو من مقيمي الطواحين النابغين - فى تخطيط مشروعه . وعندما انتهت القناة فى ١٧٦١ هبط ثمن الفحم فى منشستر إلى النصف وحدث جنون حقيقى فى احتفار القنوات ، تصل نهرأ بنهر وبلدة ببلدة . والآن يستطيع چوسيا ودجوود أن يصنع ويبيع خزفه ، المصنوع فى ستافورد شاير ، دون أن يخشى من عدم تسليمها سليمة . ولم يعد ملح نورذتش فى حاجة - بعد - إلى أن يحمل على ظهور خيل النقل على طول طرق الملاحات . ولقد ذهبت أقطان منشستر وأصواف يوركشير رزماً رزماً على سفن النقل . وصلصال الصينى والطوب ، والبضائع الحديدية ، والخشب ، والفحم أصبحت سهلة النقل ، الآن بعد أن اتصل (نهرأ) السقرن والتيمز بداخلىة البلاد وبعد أن اتصل كل منهما بالآخر . وفتحت لندن - وهى أكبر الأسواق - لصناعات البقاع الوسطى والشمالية الآخذة فى الانتشار . وقد حمل بعض القنوات (صنادل) الركاب . ونقلت الحكومة عليها جنوداً . وقامت البيوت والمصانع على

طول شواطئها . وهناك انفتح الأمل بقيام مدنية قنوات : مدنية نشيطة غنية ، عامرة هادئة . وإلى أن حلت سنة ١٨٣٠ انزاح جنون الاحتفار ، على أن أوسع طريق مائية — وهي كاليدونيان كانال (القناة الخالدة) التي خططها تلفورد — احتفرت ما بين ١٨٠٤ و ١٨٢٢ . ومن سوء الحظ أن القنوات كثيرة الاختلاف عمقاً وعرضاً ، وأن أصحاب السفن الذين استخدموها غلب عليهم الطمع ، في الأجور ، وعدم الدقة في المواعيد . وما زال أحسن القنوات يستعمل حتى الآن . والخرائب الجميلة المنظر التي بقيت ، من القنوات الأخرى ، تمكن رقيتها في رقع طويلة من الماء الآسن ، والعشب النامي ينثر فيه الزنبق والسوسن وتأوى إليه الطيور المغربية .

وفي العقد الرابع من القرن التاسع عشر (١٨٣٠ — ١٨٣٩) كان المهندسون يجهزون لو سيلة أخرى من وسائل النقل السريع : قطار سكة الحديد البخاري الذي يعتمد على الفحم والحديد وتقدم الهندسة الميكانيكية .

الاختراع : الفحم ، والحديد ، وقوة البخار :

خير ما يصف السكيفية التي بدأ المهندسون بها تغيير هيئة حياة الإنسان هو بيان موجز لما نسميه « الثورة الصناعية » التي حدثت — أول ما حدثت — في بريطانيا والتي تركزت حول استخدام الفحم والحديد .

منذ ملايين من السنين نبتت غابات وتلفت في المستنقعات الراكدة ، واختفت — تحت سطح الأرض — طبقات من الشجر المتعفن المهروس تحت ثقل البحار التي تكونت فيما بعد وثقل الصخور المترسبة . ومن هذه الأحداث الجسيمة البطيئة — في الزمن الجيولوجي — بقدر لا سبيل إلى تصديقه — جاءت عروق الفحم الذي اعتمدت مدنيتنا عليه .

واستخراج الفحم مهنة عتيقة . وقد ظلت مسألة محلية أجيالاً طويلة ، فقد كانت المناجم قليلة الغور بسبب فيضان الماء . وكانت أحمال الفحم أثقل وأكبر حجماً من أن تنقل إلى مسافات بعيدة . وكان فحم شواطئ (نهر)

التاين ينقل إلى لندن في السفن التي تسبح على طول سواحل البحار ولهذا كان يسمى «فحم البحر» . وعندما احتفرت القنوات سبحت فيها «صنادل» الفحم . وكثيراً ما بنى أصحاب المناجم سككاً حديدية لمركباتهم التي تنقل الفحم لكي تجرى في سهولة من المناجم إلى المرفأ . غير أن المناجم ظلت مقصورة على عروق الفحم القريبة الغور وطبقاته السطحية إلى أن أتيح لها الحصول على «طلبة» جيدة تمكنها من العمل غير متأثرة بفيضان الماء .

وقد استخدمت قوة البخار — وكانت معروفة لدى قدامى الإغريق وموضوعاً للتفكير المتطلع إلى الاستقصاء بين ذلك النوع من الناس الذين يرغبون في «دفع الأشياء إلى الدوران» (مثل : صناع الساعات وبناء الطواحين وصناع الآلات) — استخدمت قوة البخار، أول ما استخدمت، لتسير الطلبة على يد الحداد نيوكومن في ١٧٠٥ . وكانت ثقيلة تحتاج إلى صبي يفرج عن البخار بعد كل دفعة . ولكنها اشتغلت ودخل عليها التحسين وزادت المناجم عمقاً هوناً ما . وفي سنة ١٧٨٤ أضاف إليها جيمس وات — وهو صانع آلات علمي — مكثفاً مستقلاً يفرج عن البخار الزائد بعد أن يؤدي وظيفته في دفع القضيب أو المدك (الپستن) . وأصبحت الطلبة — على صورة ما — آلة بخارية ، على نحو معرفتنا بها . وبخيلة ميكانيكية بسيطة أمكن، في يسر ، تحويل حركة الصعود والنزول الأفقية إلى حركة دوارة . وبعبارة بسيطة : استطاعت آلة (وات) البخارية أن تدير عجلة . وحتى ذلك الوقت كان العجل يديره الناس والكلاب والحمير والماء والرياح .

واطردت الحاجة إلى مزيد من الفحم . فالموارد الكبيرة التي كانت — في الأيام الغابرة — تغذيها كتل الخشب ، وأساطيل السفن الخشبية ، والأبهاء المبطنة بالخشب ، والبيوت والأنبار (أى مخازن الحاصلات الزراعية) ، والطواحين ، وقطع الغابات لمقابلة مطالب الضيعات ، كل أولئك استهلكت الأحرار في سرعة كبيرة . وشح نمو الغابات . وشح

الوقود وبخاصة فحم الخشب . وإلى أن حل عام ١٧٦٠ لم يكن يشتغل من الأفران العاصفة إلا القليل . ثم طرح للبحث ، السؤال : هل استطاع إحلال الفحم المستخرج من المناجم محل فحم الخشب فى صهر الحديد الخام ؟

ولقد كان كبار مستخرجى الحديد الأولون — فى البقاع الشاجرة ، مثل فلوات سسكس وغابة (دين) الملكية — يشتغلون عن كسب من منابع فحم الخشب الذى يملكونها . ومن أفرانهم — التى كانت تظل تنقد بحرارة عظيمة أياماً متصلة بفعل منفاخ هادر بدائى — درجوا على أن يصبوا الحديد المصهور فى قوالب كبيرة ترسل إلى المصهر (المسبك) . وهناك يقوم ذوو السواعد القوية بصهرها وطرقها : أحذية أو إطارات أو قضبان أو صناديق أو قووس . وحول سنة ١٧٠٨ استكشف إبراهيم داربى — وهو صاحب مصنع حديد ينتمى (لطائفة الأصحاب المهترئين) استكشف أنه بإضاجه الفحم أو بتقويمه ، يتسنى له استخدامه فى أفرانه العاصفة بدلاً من فحم الخشب . وقد حدث ذاك الاستكشاف إبان الحاجة إليه . وبدأ صاحب مصنع الحديد ينتقل إلى حقول الفحم بجنوب ويلز والبقاع الوسطى والشمالية ، وقد ترك خلفه — فى الغابات الأزلية — أكواماً من الفضلات كالتى نراها اليوم فى ويلد — و — دين (أى فى المرج والوادي الضيق) . وأخذت سلاسل صانعى الحديد — الذين بدؤوا العصر الحديدي — أخذوا فى بيئتهم الجديدة . بين اللهب والبخار ، يكدحون فى خلق مدنيتهما الميكانيكية والحديدية الضخمة . وكان صناع الحديد هم يد المهندسين الينى . وأضافت سلسلة من الاختراعات والتحسينات معرفة إلى معرفة وحذقاً إلى حذق . وفى ١٧٦٧ ، فى كوابروكديل ، صبوا أول قضبان حديدية للسكك الحديدية التابعة لمنجم الفحم الحجري وأقيم جسر (كوبرى) مصنوع من الحديد عبر منبع (نهر) السقرن . وخطط رجل فرناً فيه « ينعكس » اللهب أو يرتد إلى أسفل على كتلة المعدن الخام والفحم الكوك بينما تثار الأوساخ وتستخرج منها . وكذلك عرف كيف يحصر قطع الحديد المتوهجة التى لانت

وذلك بتمريرها فى أخاديد أسطوانية متدحرجة ، ليصنع قضباناً لسكك الحديد وأسياخاً . وحتمى رجل آخر الحديد بفحم الخشب فى بوتقات صغيرة ليصنع حديداً مضاعف الصلابة بنسبة كبيرة — وهو الفولاذ أو الصلب — حديداً يصلح للزمبركات وأدوات الطعام ويستخدمه حدادو النصال والشفرات فى شفيك . ولقد كان أصحاب مصانع الحديد الأولون ذوى عقول خصبة . فالدكتور جون روبك (من كارون بأسكتلندا) لم يقتصر على صب المدافع البحرية الشهيرة (المدافع الكارونية) بل توصل كذلك إلى صنع مقادير عظيمة من حامض الكبريتيك .

هكذا بدأت الصناعة الثقيلة . لاحظ كيف أن الفحم والحديد تأثر كل منهما بالآخر ، وتفاعل كل منهما مع الآخر : فالفرن فى حاجة إلى فحم ، والمناجم فى حاجة إلى حديد لقضبان سكك الحديد والطللمبات والمحركات . وفيما بين ١٧٥٠ و ١٨٣٠ ارتفع مقدار الفحم المستخرج من المناجم من ٥ إلى ٢٥ مليون طن وارتفع إنتاج الحديد من بضعة آلاف إلى مليون طن .

وهذا التطور ، فى الحياة اليومية والعمل ، حدث فى البقاع الوسطى والشمالية . وكذلك حدث التغير الكبير فى مهنتى الغزل والنسيج القديمتين . وفى مدى قرون ، فى بيوت المزارع وفى الأكواخ فى كل مكان ، كانت النساء غير المتزوجات يسحبن الخيوط ويغزلنها كي تطعمن الأنوال المهمة ولتصنعن قائمة النسيج الصوفى التى لا تدخل تحت حصر : الصوف المغزول للحياكة (الشلال) ، القماش القطنى ذى الوبر ، القماش الصوفى الخشن ، الجوخ (وهو نسيج من صوف ناعم) وما إليها . لقد كانت صناعة يقوم بها أفراد الأسرة وإن حدث أن أغنياء التجار كانوا يقدمون الخامات ويجمعون الأقمشة المصنوعة فيها . وكانت ثروة الجزيرة قوامها الصوف . وبالمال العائد من بيع الأقمشة الجيدة ، بنى الوردون

من التجار الكنائس الجميلة في إنجلترا الشرقية وفي جلوسترشير . وبالأضرائب على الصوف أنفق الملوك على حروبهم . وكان تجار الصوف أرسقراط التجارة . وفي ١٧٠٠ كانت قيمة الصوف المصدر تعادل ربع مجموع ثمن الصادرات جميعاً وكانت أهم مراكز النسيج المقاطعتان الشرقيتان : جلوسترشير — و — يوركشير . أما الآلات التي بدلت صناعة النسيج فقد استخدمت — أول ما استخدمت — في تجارة القطن الأكثر استحداثاً تلك التي جرت ، بصفة خاصة ، في لا نكشاير والتي كان القطن يستجلب لها من الشرق . ولم تكن الصناعة الجديدة قد استقرت استقرار صناعة الصوف ، فكان من السهل إدخال تغييرات عليها .

وكان النسيج الواحد يستهلك إنتاج غزالين كثيرين . وعندما خطط جون كاي (مكوكا) طائراً يزيد كثيراً في سرعة المغازل كاد يتحتم على الغزالين أن يتخلفوا محزونين لو لم تسعفهم سلسلة كاملة من الاختراعات . وفي السنوات القليلة التي تلت ١٧٧٠ و ١٧٨٠ اخترع جيمس هارجريف — وهو تاجر من بلاكبورن — دولاباً للغزل يدير طائفة كبيرة من المغازل في وقت معاً . واخترع رتشارد آر كرايت — وهو حلاق من پرستون — هيكلًا تسحب فيه الخيوط بين البكر قبل أن تجدل ، وكان هذا من دواعي تقويتها . وحول صمويل كرومبتون — وهو غزال من بولتون — أداة غزله الشهيرة إلى آلة غزل جمعت مزاياء سائر الآلات . وهذه الآلات — التي تدور بالماء أو بقوة البخار — تضاعفت في سرعة مذهلة . وجاء الآن دور النساجين في أن يسايروا ، في سرعتهم الغزالين ، وهذا ما استطاعوا تنفيذه بفضل مغزل آلي اخترعه قسيس اسمه أدوارد كارترايت . وفي مانشستر وما حولها زاد عدد مصانع القطن من اثنين — في سنة ١٧٨٠ — إلى ما يزيد على ٥٠ في سنة ١٨٠٠ .

وهكذا خرج الغزل والنسيج من السكوخ وانتقل إلى المصانع ، وكذلك انتقل إليها الرجال والنساء ، وبدلاً من أن يشتغلوا كل الوقت في بيوتهم

اشتغلوا كل الوقت في أحد المصانع وإلى هنا كان النسيج عملاً يختص به الرجال ، ولكن تبين الآن أن قدراً كبيراً من العمل البسيط الذي يساعد في المحافظة على الآلة يمكن إسناده إلى النساء والأطفال . وكانت تجارة القطن — التي تجمعت بوجه أخص في وست رايدنج بـ ٠٠ يوركشير ، حيث تسكر جداول الماء التي تدير العجلات — كانت تجارة القطن هذه أبطأ في استخدام الآلة . ولكن في ١٨٣٠ استعملت الآلة في صناعة الصوف ، وفي مدى لا يزيد على حياة فرد تحولت الكثيرات من المدن ذوات الاستقلال الإداري إلى مدن للصناعات الصوفية والقطنية تعتمد على المصانع اعتماداً تاماً . على أن هذا التحول لم يمر بسلام ، ذلك أن الاختراعات سلبت صناعات الأكواخ رزقهم فحدثت مشاغبات فيها حطم النساج الساخطون الآلات . ولم يكن القتل غير معروف . فقد قُتل المشاغبون وعلقوا بأمر الحاكم . وفي الحق أن انتهاء عصر النساج باليد كان حدثاً محزوناً وفي الحق أيضاً أن الاختراعات الجديدة في صناعة الفحم والحديد كثيراً ما دفعت في طريق النجاح مع التغاضي المطلق عن سعادة الناس وصحة العمال .

وكانت آلات جيمس وات البخارية يصنعها ماتيو (متي) بولتون في مصانعه بـ ٠٠ سوهو القريبة من برمنجهام . وما هو إلا القليل حتى أخذت آلات (بولتون — و — وات) تدير العجلات في مصانع البيرة والمطاحن ومسابك الحديد كما تدير مصانع النسيج — وفي واقع الأمر — في كل مكان تستخدم فيه الحركة الدوارة واستخدمت آلة واحدة لتسيير سفينة صغيرة على نهر هدسون في ١٨٠٧ . واستخدمت جريدة التايمز آلة بخارية لتدير أسطوانات الطباعة ، وذلك في ١٨١٤ . وفي ١٨٣٠ كان هناك نحو ٣٠٠ آلة تشتغل في جلاسجو وما حولها .

وكانت هذه الآلات (تتطلب دقة متناهية في أجزائها العاملة . واعتمد صانعو المحركات الحديدية تلك الذين اطردهم اعتمادهم على الآلات الميكانيكية اعتمدوا لا على اليد ولكن على الآلات .

وتعتمد الهندسة الحديثة جميعاً على تجارة الأدوات الميكانيكية التي بدأت في لندن مع يوسف براماه (١٧٤٨ — ١٨٤٤) . اخترع هنري مودسلى — تلميذ براماه — ، في سنة ١٨٠٠ ، آلة لولبية لخرط الأخشاب والمعادن تستطيع أن تقطع ما عرضته واحد على الألف من البوصة (البوصة = ٢,٥ سنتيمتر) اخترع آخر فآرة معدنية للنجارة ومطرقة بخارية . وفي سنة ١٨٣٤ خطط يوسف وايتورث لأحجام قياسية للمسامير اللولبية (الألوظ) وللأجزاء الصغيرة التي تستعمل في الآلات . وهؤلاء الميكانيكيون الحاذقون كانوا جميعاً صناعاً على قدر طيب من البراعة . وقد وسعهم أن يخططوا وينصبوا أية آلة للصنع والقطع . تصور مدينة هندسية حديثة يصنع فيها باليد كل « الألوظ » وكل « صمولة » وكل « محبس » .

ولقد قام المهندسون المدنيون والميكانيكيون بتجهيز اختراع عظيم سكة الحديد البخارية . وقد اشتدت الحاجة إليه ليسير تدفق البضائع المتزايد . ولقد كان اختراعاً مزدوجاً : سكة الحديد ثم القاطرة البخارية .

والسكك التي عليها تسنى للحصان أن يجر أحمالاً زنتها ١٢ طناً بدأ استعمالها في سنة ١٧٠٠ . وتلك كانت قضباناً خشبية مربوطة بعارضات وبينها دكات من الزلط تثبتها جميعاً . ولمقاومة الاستهلاك الناجم عن الاستعمال غطت طبقات من اللوحات ، القضبان الخشبية بصفايح حديدية . ثم ظهرت قضبان الحديد المسبوك (الزهر) مشففة عند أطرافها الخارجية . ثم انتقل التشفيف (إضافة شفة) إلى عجلات مركبات النقل الكبيرة . وقد اقترح البعض تغطية الأرض بشبكة من تلك السكك الحديدية العامة تتراكن في لندن وتنطلق منها . وفي ١٨٢٤ كان هناك أكثر من ١٠٠ ميل من تلك السكك في جنوب ويلز في خدمة حقول الفحم . وفي بعض الأحيان كان قطار بخارى يجر عربات نقل من أولها إلى آخرها بواسطة سلك يطوق بكرّة ضخمة .

وإذا كانت قوة البخار تستطيع أن تدير عجلة فربما يمكنها أن تدير عجلات مركبة النقل نفسها . ذلك إذا أمكن صنع آلة كافية الدقة وإذا لم ينزلق العجل .

ولقد استغرقت القاطرة البخارية ستين سنة في تطويرها منذ عام ١٧٦٩ . في ذلك العام كانت مركبة نقولا كونيو البخارية تسير بسرعة ميلين في الساعة في شوارع باريس . ثم جاء اليوم الذي فيه جذب جورج ستيفنسون روكت مركبة قطار للركاب على سكة حديدية في رينز هيل بسرعة ٣٠ ميلاً في الساعة . وكان ذلك في ١٨٢٩ . وصنع مخترعون كثيرون قطارات بخارية ومركبات سكة حديدية ونجحوا نجاحاً لا بأس به . وكان خيرها ما صنعه ستيفنسون . وعندما افتتح خط سكة حديدية جديد في ١٨٣١ ، بين ستوكتون إلى دارلنجتون استخدمت قاطرته ، وأصبح مهندس أولى السكك الحديدية التي مدت للقاطرات البخارية من منشستر إلى لثربول . وعلى هذا الخط سارت قاطرته بسرعة ٣٦ ميلاً في الساعة ، وحملت ٢٥٠ ألف نسمة في الشهور الستة الأولى . لقد جاءت سكة الحديد البخارية في وقت كان الناس فيه بحاجة إليها . ذلك أن القنوات المائية لم تستطع أن تسير أكاداس البضائع التي تحتم حملها .

و٣٦ ميلاً في الساعة سرعة تفوق أية سرعة سبق للناس السفر بها . لقد كانت سرعة مذهلة ، مخيفة جداً لبعض الناس ولقد شكوا رجل من أنها سوف تتلف كل هدوء وجمال ، ومن أن « عجيج الثيران و ثغاء الغنم وقباع الخنازير (أى نحرها) » ، حيث تمر القطارات سوف يديم هديرأ واحداً يستمر طوال الليل » ومن أن الحلاء كله سيتلوث بالدخان . أما السيد المحترم سيدني سميث فقد كتب ، في سنة ١٨٤٢ ، يقول : « الرحلة بالسكك الحديدية تطور بهج في حياة الناس . لقد أصبح الإنسان طائراً ، وإنه ليستطيع أن يطير أطول وأسرع من إوز الأبحر الشمالية » ، وقد تكلف بناء السكك

الحديدية البريطانية — نظراً لسابق التحامل عليها — مبالغ خرافية : وفي بعض الأحيان كانت آلافاً مؤلفة من الجنبيات تدفع لبعض المشرعين لا شيء إلا ليجزوا مشروع قانون للترخيص بمد خط كما أن بعض ملاك الأرض تقاضوا مبالغ ضخمة لقاء الرقع المستطيلة من الأرض المطلوبة ، وعلى رغم هذا فقد وضحت فوائد النقل بسكك الحديد إلى حد جعل الناس يكتبون بأموال طائلة لمد خطوط في كل مكان ، وطبق الاختراع تطبيقاً سريعاً في كل البلاد المتقدمة .

أما تلك المئات من آلاف الغنم والثيران والإوز التي درجت على أن تزحف إلى لندن في أناة فهي تشحن الآن ، في سرعة ، في مركبات النقل . واختفت حركة مركبات الطريق العامة وأخلت النزل والاصطبلات . وفي ١٨٢٤ اختفى الـ ٢٥ حصانا التي كان مقرها هونسلو وهي أول محطة للمركبات التي كانت تخرج مركباتها من لندن وضاعت على (خان) واحد في نورفولك تسكاليف وأرباح إيوام ٩٠٠٠ دابة في طريقها إلى العاصمة . وذاب سواس الخيل وخدم الاصطبلات والماشية والخوزية في البحث عن أعمال أخرى وكان ما يزال هنا وهناك مركبة بريد تحي القرى الجانبية مثل مركبة بريد «كويكسلفر» التي بقيت تسير من فالمت إلى بليمث حتى سنة ١٨٥٩ ولما سكن هدوءاً شاملاً حل على أغلب طرق المكوس ، وخربت الاستراحات وهدأت بلاد الأسواق الصغيرة التي لا تمر بها القطارات حتى أصبحت كالغدران النائمة . وإلى أن حلت سنة ١٨٥٠ كان عهد الطرق والقنوات قد انقضى .

الاختراعات : الأرباح والخسائر :

عندما مات عم الأميرة فكتوريا — ولهم الرابع — في وندسور عام ١٨٣٧ ، ركب فارسان — أحدهما رئيس أساقفة كانتربري — ركبا فجراً ، إلى قصر كنزنجتون ليؤديا لها التحية بوصفها ملكة . وكانت تلك

أسرع مواصلاتهم . وقد عاشت فكتوريا — التي أضفى حكمها الطويل من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١) اسمها على عصر — عاشت فكتوريا فعلاً أجيالاً متعاقبة ، هذا إذا جعلنا أساس الحساب الحشد الكبير من الاختراعات الحديثة التي بدلت الحياة اليومية عندما ماتت فكتوريا كانت السكك الحديدية قد أصبحت فعلاً جزءاً من منظر الجزيرة الخلوى وكان أكثر من ألفين من السيارات الجديدة يثير سحائب من التراب على الطرق الكبيرة العامة . وعند توليها كانت سفاتها الحربية ما تزال هي « الحوائط الخشبية لإنجلترا القديمة » . وقبل أن تموت كانت أساطيل من السفن التجارية العملاقة قد نقلت جيشاً قوامه نصف مليون من الرجال إلى جنوب إفريقيا . وثمة إيضاح للتغيرات أكثر لفتاً للأنظار يمكن أن يقدمه شاهد قبر من وست أف إنجلترا (أى غرب إنجلترا) يسجل ميلاد أب في ١٧٧٥ ووفاته ابنته في ١٩٠٧ . وقد طوت حياتهما الأعوام التي خلالها تحولت حياة منطقتيما القروية والمنزلية إلى حياة مدينة ومصنع تعتمد على الحديد والفحم وقوة البخار . وتدانت ثمرات المعرفة بسرعة موفورة بين الناس حتى أنه عند التدافع بالمناكب للاستمتاع بها أهمل — في أغلب الأحيان — مراعاة السلوك العادل . ونحن مازلنا نستوثق من أنها للإنسانية : أرباح لاخسائر .

وكان من بين الأرباح البينة : انهزام الظلام والإقلال من المرض . وقد درجت الدنيا على أن تضئ بالشمع أو تعنى بتشذيب أشرطة مصابيحها الزيتية حتى القرن التاسع عشر . والمناارة الخشبية الأولى القائمة على إديستون ، حتى هذه كانت تضئ بالشمع . ووسائل الإضاءة في الظلام مصدرها الفحم . وفي ١٨١٦ استخدمت مصابيح الغاز في شوارع لندن . وبعد ذلك عم استعمال الغاز بتسخير قوة غازية . وهذا في حد ذاته مآثرة عظيمة . ونمت صناعة الغاز عظيمة غنية ، شواهدا عدادات الغاز التي تزين الآن مدننا والتي كانت مصابيحها في الغسق فرحة أطفال العصر

الشكوتورى . وفى ١٨٨٠ وجد للغاز منافس فى الإنارة وذلك بالمصابيح الكهربائية التى بدأت بداية بطيئة ثم لقيت إقبالا كبيرا إلى حد أنها ، منذ ١٩٠٠ ، حلت نهائيا محل الغاز . ومشعل المصابيح اليوم هو الرجل الواقف عند لوح مفاتيح التحويل (التابلوه) فى محطة القوى الكهربائية . وسواء أكان يعيننا أن نستيقظ مع القنبرة أو لا يعيننا فأنا لم نعد مضطرين إلى أن نرقد مع الحمل . وإطالة نهارنا بالضوء الصناعى زاد إنتاج عملنا وزاد وقت فراغنا زيادة عظيمة .

وتأنت محاربة المرض بتحسين وسائل الصحة ، وبمصارف الماء ، وبزيادة توفير صابون المصانع ، وبزيادة توفير الملابس القطنية الرخيصة . وقد تجمعت المعرفة الطبية على يد أطباء المستشفيات ، كما كسبت المستشفيات كسبا عظيما مما صنعتها فلورنس نايتنجيل ونساء غيورات أخريات أصررن على توفير مستوى تمريض أعلى وأرفع حدقا . أما تجميع الأدوية والعقاقير وتحديد مقاديرها فقد حددتها الصيدالة ، وتقدمت المعرفة فى استعمال العقاقير ، كالكينين مثلا . وعرف الأطباء كيف يستخدمون المخدرات ، كالتيار والكوروفورم فى العمليات ، ونشروا مسجلاتهم ليستفيد منها الغير . وانتهت الأيام التى فيها كان الجرحى يسقون (الروم) ويشدون بسيور من الجلد أو المعدن بينما «ناشروا العظام» (يقصد الأطباء الجراحين) يقطعون ويخيطنون فى أحد الأطراف المشوهة . وفى ١٨٦٥ علم لويس باستير الأطباء كيف يستكشفون ويحاربون الجراثيم التى تسبب المرض . وفى ١٨٦٦ علمهم يوسف لستر كيف يمنعون تعفن (الغرغرينا) فى القطوع والجروح . وفى ١٨٩٥ استكشف رونتجن استعمال الأشعة النافذة (X) فى تصوير العظام وأعضاء الجسم الداخلية . وهكذا حدث فى القرن ، من أوله إلى آخره ، تحسین فى الصحة مطرد . وتقاضت حمى التيفود والدفتريا والتدرن الرئوى ، تقاضت ضريبتها من أعمار الناس . وتفشت الكوايرا المرة بعد

المرّة ، أما الجدرى فقد تظامن إلى زوال ، وأصبح الطاعون نسياً منسياً . والجدرى ، من قديم ، دائم الظهور . وكثيراً ما أخذ يتفشى الوباء — الذى خرب مدينة الغرب فى القرن السادس ثم فى القرن الرابع عشر — كثيراً ما أخذ يتفشى مدداً قصيرة حتى القرن الثامن عشر .

وكانت نتيجة هذا الكسب فى الصحة والحذق الطبى زيادة فى عدد السكان : نقصها فى وفيات الأطفال زيادة فى عمر الرشيدى . إلا أن الخسارة فى المهاجرين الذين يبحرون إلى الدنيا الجديدة فلا بد من أنها زادت . وارتفع عدد سكان بريطانيا العظمى من ٨ ملايين فى ١٧٨١ ، إلى ١٦ مليوناً فى ١٨٣١ ، إلى ٣٧ مليوناً فى ١٩٠١ ، ثم إلى ٤٥ مليوناً فى ١٩٣١ . . . أفواه بالغوا السكثرة يتحتم إطعامها من مزارع الجزيرة ، كانت الفلاحة تعطى ربحاً وبيعاً ثم زادت منتجاتها ، وظلت الحبوب والمحصولات الجذرية والبهائم والأغنام من أحسن الأنواع فى العالم وأخرها غير أن تكاثر عدد السكان أخذ يعتمد على السفن التى تجلب الحبوب واللحوم من الخارج ، عوضاً عن لحمها وحديداتها وبضائعها وأصوافها وأقطانها وخزفها وآلاتها . واعتمدت بريطانيا العظمى فى عيشها على الصادرات . وكانت (البنوك) ومكاتب شركات التأمين — التى أمدت مصانعها ومتاجرها بالمسالك — تقرض المسالك أيضاً فى بلاد أجنبية ، وتتقاضى عليه أرباحاً طائلة : كانت لندن محور تمويل العالم ، واشتهر جنيه بريطانيا الذهبى اشتهاً بيزنطياً بيزنطة الذهبى أو بندقى (عيار الذهب) البندقية الذهبى فى القرون الوسطى .

ولسكن مبتدأ عصر الآلة جلب البؤس الفظيع إلى الآلاف من سبيء الحظ . فالناس القاطنون بعشش قروية قليلة عمدتهم نعمة الهواء الطليق اليوم كله . والقاطنون بمجموعات من صفوف العشش فى بلدة صناعية جديدة قضوا معظم أيامهم فى مصانع يكتنفها البخار والضوضاء والقذارة . أما كيف

نمت البلدان فيمكن تبينه من مسجل مدلتبرا — و — بيركندهد ، ولم يكن
أى منهما على قيد الحياة في ١٨١٥ . وقد تاق أحدهما إلى استعارة عبارة —
الدكتور جونسون الواضحة فقال : تصعدت كما قد يتصعد الزفير من
الأرض ، . تصور إغريقياً (يخطط لمشروع مدينة جديدة بمقاييسه المصنوعة
من الخيال) يخطط لشيء كهذا . وإن أحداً بطبيعة الحال — لم يخطط لها
بأكثر مما يدبر رجال اليوم قتل الآلاف على الطرق . إنها حدثت فجأة .
والمؤجرون — في تكاليفهم على جمع المال والسلطان — غالباً ما ينسون
واجبهم نحو رفاقهم من الرجال والنساء . كلا . ولم يكن هناك تخطيط سابق
لبلدان القرن التاسع عشر القبيحة الصورة التي كبرت من دون جلال
أو جمال . ولقد كانت الأرباح التي جناها الناس من تلك البلاد ، تتفق في
لندن أو في مدائن المتعة ، في إنجلترا أوفى أوربا . وإن : أيدي ، العمال لم
تعرف أى شيء عن التمتع بالعيش في مدينة جميلة . فلقد كانت هندسة البناء
في نظرهم فناً ضائعاً والاعتزاز بالتمدن فضيلة مجهولة . وهكذا عاش الآلاف
عيشاً موحشاً على السكفاف ساعات طويلة من الاسترقاق ، يكدحون لمصلحة
صاحب مصنع حديد أو غزل أو منجم أو صانع كيماويات ، وفي مدى
قرون عديدة كدح الزراع والصناع ساعات طويلة في أعمال تتلف الصحة
ولا تستلزم مهارة . وكانت حياة المصانع رتيبة ، مضنية ، وبيلة ، لا تتطلب
حذقاً أعلى من المعتاد ، وذلك كلها أمكن استخدام أطفال أو نساء بسبب
رخص أجورهم وكان بعض أصحاب المصانع يشترون ، الأطفال للصناع
ويضربونهم ليحثوهم على العمل . وفي بعض المناجم درج النساء والأطفال
— وهم أنصاف عرايا — على أن يجرّوا منكبين على أيديهم وأرجلهم ، مركبات
نقل الفحم على طول رواقات تحت الأرض كما قد تفعل دواب حمل الأثقال . وكان
كثيرون من أصحاب المصانع رجالاً جهلة ، وكثيرون رجالاً قساة ، وكثيرون

أوغاداً لا شك في سفالتهم . كما أن طائفة منهم كانت من المسيحيين المذهبيين
الطيبين الذين سارعوا إلى مشاركة غيرهم من المواطنين في الإهابة بالحكومة
أن توقف مثل هذا الاستعمال السيء لبنى آدم .

ولقد وجد ، منذ زمن طويل ، رأى يقول بأن الناس ينبغي لهم أن
يصنعوا ما يريدون ما امتنعوا عن ارتكاب جريمة : كالسطو على طيور
السيد أو على صيده ، أو السرقة ، أو التزييف . أو التزوير ، أو الإتلاف ،
أو القتل ، أو الاقتراء . وبما قيل إن أحداً لا يود إطلاقاً أن يلحق الضرر
بنفسه . ولن ينسى أحد أبداً أنه وجدت وراءه آلة سريعة التدويم ، غير
مسوّرة من خلفه . فلماذا يفصلها بحاجز ؟ ومن الطبيعي أن كل امرئ
يود اجتناب الخطر والفقر والجوع وأن كل امرئ حر في ترك عمله .
ولم يكن هذا الرأي نافعاً — في القرن التاسع عشر — عندما كان الكثيرون
من أصحاب المشروعات العظيمة يصعدون إلى الثروة والسلطان على حياة
رفاقهم . وعيب هذا أن الرجال كلهم لم يبدوا متساوين ، وأن الكثيرين
منهم أكرهوا على أن يشتغلوا في عمل مهين ، لقاء شهادات قليلة في
الأسبوع ، لكي يحافظوا على حياتهم وحياة أسرهم . وقد فقد هذا الرأي
أهميته تدريجاً بمثابرة الناس الطيبين على مطالبة البرلمان بسن لوائح تنظم
حياة المصنع . وعملت البحوث ، واستجوب العمال وأصحاب الأعمال ،
ونظمت المصانع : فنقصت ساعات العمل ونفذت احتياطات التأمين .
وفى ١٩٠١ جمعت لائحة للمصانع شاملة لجميع اللوائح السابقة .

وعمل البرلمان كثيراً للاحق ويساير التغييرات الدائمة في الحياة والعمل
الاجتماعيين . وقد يتضح نشاطه من كشف عن بعض الأشياء التي عذبت بها
لوائحهم الكبيرة : الطرق الكبيرة العامة ، القنوات ، سكك الحديد ،

التجار ، السفن ، البريد ، الشرطة ، الزراعة ، جباية الأموال ، (البنوك) ، الشركات التجارية ، التأمين ، اتحادات العمال ، الحكومة المحلية ، المدارس ، السجون ، الصحة العامة ، قوانين الفقراء ، بناء البيوت ... وللوثوق من تنفيذ تلك اللوائح تحتم تعيين المزيد من الموظفين المدنيين والمزيد ثم المزيد من المفتشين . وفي ١٨٧٠ أخلت الطريقة القديمة — في تعيين الموظفين المدنيين بالمحسوبية — مكانها للمسابقات في الامتحانات التحريرية العامة ، على طريقة الصينيين . فإذا أضفنا إلى أولئك الموظفين المدنيين كل من يتقاضون أجوراً من المجالس المحلية ، من الكناسين إلى موظفي البلدية ، خرجنا بأن الدولة هي إحدى كبار مؤجري العمل . ويهمننا أن لا ننسى أن العمال قاموا بدورهم الخاص في عتق أنفسهم من الاسترقاق والخطر والظلم . وفي مستهل القرن بدأ العمال يؤلفون جماعات لتحسين أحوال عملهم ، وفي الوقت ذاته ، لمساعدة بعضهم بعضاً ، عند الضيق والمرض . وكان هذا بدء اتحادات العمال . وعارضتهم الحكومة أول الأمر ، ولكن في ١٨٢٤ صدرت لأئحة رخصت للناس تكوين اتحادات كمندى ، نظمتها فيما بعد لوائح أخرى . ولقد كان فلاحو القرى ، في الأيام السابقة على هذا ، مصونين ، إلى حد ما ، من سادات الضيعات الأوغاد ، بمقتضى العرف السائد فيها . أما المصانع الجديدة فلم يكن فيها عرف يحمى العمال الذين لا يملكون أرضاً . كان كل واحد يقصر سعيه على نفسه وكان السكيل منهم يقع في المحذور . ولهذا تحتم وجود اتحادات العمال . وهي تعد اليوم بين منظماتنا الصناعية الهامة . وعلى هذا فإن بعض الربح تولد عن كل ما جلبته الثورة الصناعية من بأساء . وليت الناس بعد ذلك يدركون وجه الصواب في مبادئ مشرعى الكنيسة القديمة ، في القرون الوسطى : يجب أن لا يسمح لأمري ، بأن يستفيد من بلية غيره .

وفي الوقت ذاته سعى العمال أنفسهم ، كذلك ، إلى تحسين عيشهم بوسائل أخرى . وفي ١٨٢٧ ، أسست جماعة — عرفت باسم : روادرو تشديل —

أول جمعية تعاونية ، . وتبعتها أخريات . وفي ١٨٦٤ تأسست الجمعية التعاونية العامة . وإلى هذا شكلت عشرات من الجمعيات الودية على يد العمال والموظفين والكنايس والمنتصرين للخير ، شكلت بغرض تشجيع الاقتصاد والتأمين ضد العوز . وفي هذا أيضاً قامت شركات التأمين بدورها .

وهكذا — في وسط دنيا كدرتها وقبحتها الأقدار ، دنيا ما فتئت تبرح بها شهوة جمع الذهب اللعينة — هكذا بدأ الناس ينتعشون قليلاً ، ويشاركون هوناً ما ، في فوائد المعرفة والقوة الجديدة . وكان كثيرون من الناس يتربصون بالظلم والعسف متأهبين لأن يستحقوا أية حكومة متوالية في العمل ، واعتقد البعض أن تأمين رخاء الناس لا يتأتى إلا بسيطرة الحكومة على كل الصناعات الكبرى ، ودافعوا عن الاشتراكية . وقد ردت بعض صناعاتنا — الآن — إلى المبادئ الاشتراكية . ذهب آخرون — كالكتور برناردو — إلى العمل من تلقاء أنفسهم . ووجدوا ، إذ صنعوا ذلك ، ألف يد تمتد لعونهم : وبيوت برناردو للأطفال ليست إلا واحداً من مئات المشروعات الخيرية التي فتحت المستشفيات والتسكيا وملاجئ اليتامى للشردين والمنبوذين . وثمة واحد من الأمور المرجوة التي حدثت في السنوات المائة والخمسين الأخيرة هو الإقبال المتزايد على التطوع لمساعدة الكسبيح واليتيم والأيم (أى المرأة التي فقدت زوجها) وفي هذا قامت كنائس كثيرة بأعمال الخط الأول . وبعد عادات القرن الثامن عشر المستهينة هبت روح جديدة لأداء الواجب وتقديم الخدمات ..

وثمة واحد من الاختراعات ارتكز عليه سائرها هو اختراع جوتنبرج الألماني القديم . فلقد جمعت الطباعة المعرفة وأذاعت المعلومات ، واطردت تزايد قارئ الكتب . . . ومن الناس من كان يظن أن من حماقة تعليم الفقراء القراءة خشية أن تمدهم بأفكار فوق مرتبتهم . ولكن في الحق

أن تركهم جاهلين معناه وضعهم تحت تأثير أهل السوء . ومع ذلك فقد حدث أن جماعات كبيرة من الفقراء تعلمت القراءة بغير معلم .

وفى بداية القرن كان هناك ، على وجه التقريب ، نوعان من التدريب : التدريب الذى يقدم فى المدارس الثانوية وما إليها ، والتدريب الذى يقدم للتلاميذ المهن . وقد استهدفت المدارس تدريب الصبيان على أن يكونوا محامين أو كهنة أو أطباء أو تجاراً أو كتبة . أما التدريب المهنى فكان يستهدف تخريج صناع مهرة . ولم يساعد أى النوعين العمال الزراعيين أو العمال الذين لا أرض لهم ويعيشون فى المدن الصناعية .

وتسنى للسياسيين — رويداً رويداً ، ومع المعارضات والمصاعب — أن يهيئوا للأطفال القراءة البسيطة والكتابة والحساب . وفى ١٨٣٣ لم يحظ بأى نوع من أنواع التعليم على الإطلاق غير نصف الأطفال . وفى ١٨٧٠ أذن لكل ناحية من نواحي البلاد أن تجبر التلاميذ — إلى سن الثالثة عشرة (أى سن الإلزام) ، — على أن يواظبوا على الحضور إلى المدرسة . ومنذ ذلك الوقت رفع سن ترك المدرسة — على مراحل سهلة — إلى الخامسة عشرة . وفى ١٨٧٦ أجبر الأطفال جميعاً — حتى سن العاشرة — على المواظبة على الحضور إلى المدرسة . وكانت المصاعب كبيرة : نفقات المباني ، ضرورة تدريب المدرسين ، حرمان الوالدين من النقود القليلة التى كان يكسبها صغارهم من عملهم . وقد قامت بعض الجمعيات بالكثير من العمل النافع .

ولقد بدأت المدارس الثانوية الأولى فى القرون الوسطى على أبواب الكنيسة ، وأنشأ الكهنة الجامعة . وفى القرن السابع عشر عندما حرم على المنشقين على المعتقد دخول المدارس الثانوية والجامعات أسسوا لأنفسهم دوراً علمية عظيمة .

وفي خلال القرن التاسع عشر ، فتحت أبواب الجامعات الإنجليزية على مهاريهم لليهود والكاثوليك والمنشقين على المعتقد . وأسست جامعات أخرى . وكان للندن دائماً مدرستها الشهيرتان — الحقوق والطب — ولكن جامعة قشبية (جديدة لنج) أنشئت هناك في ١٨٢٨ . وتلتها درهام في ١٨٣٢ ، ومنشستر في ١٨٨٠ ، وتسلمت سائر الجامعات مراسيم إنشائها في خلال القرن .

أما طبع الكتب ونشر التعليم بين الجميع فأمران جديدان تماماً في تاريخ الإنسانية . واليوم انتشر العلم بأنواعه انتشاراً عظيماً إلى حدٍّ معه يستطيع المرء أن يرجح بأنه في حالة فقدان كل مؤلفات دانتى وشكسبير ، مثلاً ، فقد تعاد كتابتهما من ذاكرة الناس . وقد يعاد بناء أهرام المعرفة العلمية نقلاً عن ذاكرات الناس . وإذا تذكرنا القدر الكبير من أدب الدنيا القديمة الذي افتقدناه إلى الأبد كان لنا أن نغضب بحالنا اليوم . ونحن مطالبون كل المطالبة بأن نحفظ بتراث الأجيال الغابرة ، في مبانينا ولوحاتنا وتماثيلنا وأدبنا وموسيقانا . وليس في اليقين بعد : هل نشر التعليم يتمخض عن أعمال من مبتكرات الخيال في الدرجة الأولى ؟ ذلك لأن الظروف التي يظهر فيها النبوغ غير معروفة . فالموسيقى وحدها تحسب من الفنون التي تعد أحد مخلفات الستة القرون الماضية ... المسجل منها على أقل تقدير . فالموسيقى التي وقعت الصفارة — على حد تعبير السير توماس براون — يجب أن تظل غامضة . ولئن كنا قد فقدنا تلك المسجلات الموسيقية الباكورة — كما هو الواقع — فإننا نعلم علم اليقين أن تأثيرها كان بيناً للإغريق الذين جاء في حكايتهم الشائقة أن مزهر (آلة للطرب كالعود) أورفيوس تسنى له أن يؤثر حتى على أفلوطن إله العالم السفلى والذي — في تأمله — تتحرك الكواكب جميعاً في تناسق . وإن حظنا لكبير بذخيرتنا الموسيقية التي لحنت في القرون الخمسة الماضية . ولولا المطبعة لما وصل حتى إلى

القليدين المحظوظين ، إلا القليل منها . والوسائل التي بين أيدينا اليوم والتي تمكننا من حفظ تراثنا الجمالي ومن إشراك الناس فيه ومن توفير المسرة ومن رفع شأن العقل ، كل هذه الوسائل لا أحد لها .

السياسة : عام ١٨٤٨ في أوروبا :

عندما أهدى جون كبل كتابه التاريخي « السكسون في إنجلترا » للملكة فيكتوريا لاحظ أنها حكمت بلاداً خالصة من الضجة التي ملأت أوروبا كلها في ذلك العام ، عام ١٨٤٨ .

والواقع أن الثورات والتمردات حدثت في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وبوهيميا . وقد انقضى قرابة ستين عاماً على إعلان الثورة الفرنسية حرية الإنسان وأكثر من ثلاثين على نقل نابليون في سفينة حربية بريطانية إلى منفاه الأخير : جزيرة القديسة هيلانة . ومع هذا ظلت شعوب أوروبا تكابد الظلم والعسف من حكام أنانيين ، غرباء بعض الأحيان . وقد اعوزتهم جميعاً — حتى ذلك الوقت — الدساتير، وقوانين المساواة والعدل ، والضرائب العادلة، وحرية الكلام والنشر. وبالمقارنة مع هذا تجد أن البرلمان البريطاني القديم المضمحل أصلح في ١٨٣٢، وانهمك في تفحص القوانين القديمة لتصحيحها وسن قوانين جديدة توائم النوع الجديد من المجتمع الصناعي الذي خلقه استخدام الآلة .

وحكم الملك لويس فيليب فرنسا بمساعدة جماعات من الأرستقراط والأغنياء . وكان أقل من واحد في كل مائة لهم حق التصويت ، كما كان ممكناً منع الناس ، بالامر ، من نشر آرائهم . وكان أكثر من الفرنسيين — إذ ذاك ، كدأهم الآن — فلاحين ولا يكلفون خاطرهم زيادة الاهتمام بالسياسة ما تركت لهم حرية الكسب من مزارعهم . غير أن المصانع الجديدة زحمت المدن ، وباريس بصفة خاصة ، بالآلات والعمال غير المهرة ،

وكانت كثرتهم فقيرة متعطلة . وكان نوع جديد من مجتمع المدن —
او المجتمع المتحضر — في سبيله إلى التشكل . . . أناس حرموا ملاذ الريف
أو سلوانه . وفي فبراير من سنة ١٨٤٨ اصطدام جمع من غوغاء باريس
بالشرطة . وكثر الشغب — على الطريقة الباريسية — وانضم للمشاهدين
الحرس الوطني . وسارع لويس فيليب إلى الهرب ، وأفلت في مركبة وأبحر ،
فيما بعد ، إلى إنجلترا . وأعلن الباريسيون الجمهورية الفرنسية الثانية . ولما
تخلى الحكومة عملاً للمتعطلين أسست الحكومة الجديدة مصانع قومية .
وما هو إلا القليل حتى كان هناك مائة ألف رجل يتقاضون أجوراً لكي
لا يقوموا بأي عمل في تلك المصانع . ولم يستطع أحد أن يجد لهم عملاً . وقد
اقترح ماجن أن يصرفوا وقتهم في تعبئة مياه نهر السين في زجاجات .

وإلى ذلك الوقت كان ما كان أقرب إلى الهياج والبلابة منه إلى الممارك
الجديدة . فلما حدث أن جمعية وطنية جديدة منتخبة (منتخبة في الأغلب
من الفلاحين ، كما حدد لها) أغلقت المصانع ، عندئذ اشتعلت معارك
ضارية في الشوارع ، فقد فيها الآلاف أرواحهم . وكان هذا أسوأ مما حدث
في بداية ثورة ١٧٨٩ . وبعد هذه المأساة المروعة استقرت الجمهورية
الثانية — بعض الوقت — مع لويس نابليون ، ابن أخى الإمبراطور العظيم
على أن يصبح رئيساً لها .

ولم يضع لويس نابليون وقتاً طويلاً قبل أن يقلد عمه . فأنهى — في
١٨٥٢ — الخلافات الأبدية القائمة بين الأحزاب السياسية ، وذلك بتنصيب
نفسه إمبراطوراً باسم نابليون الثالث . وقد تقلب حظه كثيراً بين الصعود
والهبوط . . . غزا فرنسا من دوثر بأصحاب له ملأوا السفينة ، وعانى
السجن في معقل (هام) مدى ست سنوات . وأفلت من ذلك المكان إلى
إنجلترا . . . كان جريئاً وأسعفه سحر اسمه . وفي الحق أنه كان يفيض
أفكاراً ومشروعات نافعة لترقية بلاده . وكان ذكياً ، ويهتم بالعلم ، محبوباً .

وحكم سنين طويلة استقرت فيها الحكومة ونمت التجارة والصناعة وزادت ثروة فرنسا . إلا أنه لم يحل المشكلة الصعبة وهي إقامة حكومة شعبية ديمقراطية تتمتع بالحرية الحقيقية .

وقد حركت فتنة فبراير — التي قام بها الباريسيون — الألمان ، فضجوا بطلب حكومات حرة ، واضطر الحكام — في عشر دويلات — إلى منح دساتير . ومعنى الدساتير : الجمعيات البرلمانية ، وحرية الكلام والدين والصحافة .

وكان أعجب العجب جميعاً الفتنة في فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية . وبسبب هذا التمرد سافر الأمير ميترنيخ على جناح السرعة ، إلى إنجلترا (من الصعب تصوير ما كان عسى أن يفعله ملوك أوروبا وثوارها إذا لم تكن إنجلترا أملاً لهم) . وتبع هذا انتفاضات وطنية في الإمبراطورية النمساوية : من البوهيميين في براغ ، ومن الهنغاريين في بودابست ، وبعد أن كثرت الحروب أطفاها القواد النمساويون . وفي هنجاريا — حيث احتدم النزاع مرأً طويلاً — لم يخضع الثوار إلا بمساعدة جيش روسي كبير أرسله القيصر ليساعد أخاه الإمبراطور ، وعوقب الهنغارون بقسوة على هذا التمرد . أما في النمسا وألمانيا فكانت نتائج تلك الثورات التي قامت في ١٨٤٨ ، قريبة من العدم . واستمر الملوك والأدواق يحكمون وفق هواهم . غير أنه حدثت محاولة عنيفة لتوحيد كل الدويلات الألمانية في برلمان مركزي ، أي في نوع من « الولايات المتحدة » الألمانية غير واضح المعالم . وظلت فكرة الاتحاد الجرمانى تراود أفئدة الرجال ، ولكنها أخفقت بسبب المنافسة بين النمسا وبروسيا ، وقد وافق ملك بروسيا في ١٨٥٠ ، بعد أن حدثت في براين

حروب في الشوارع على دستور طبع يهيمن عليه موظفوه ، وملاك الأرض في بلاده ، وضباط جيشه — دستور له مجموعة قوانين وجمعية وطنية . ولم تكن هذه حكومة برلمانية لرجال أحرار كما في بريطانيا أوفى الولايات المتحدة الأمريكية . ولكنه أمد بروسيا بجهاز واضح منظم بقي طويلاً . وفي سنة ١٨٦٢ عين ملك بروسيا الكونت أوتوفون بسمارك مستشاراً له ولم يكن بسمارك حي الضمير ، ولكن عقله كان ثاقباً ذا حيوية ، ولم تشبه أية شائبة من الأنانية ، لأنه كان يعيش بروسياً .

أما الإيطاليون فقد وضعوا نصب عيونهم واجباً مزدوجاً ، وهو أن يكسبوا حريتهم : من الحكم الأجنبي وأيضاً من الاستبداد . وكان من بين الكثيرين الذين صنعوا الأمة الإيطالية فيكتور عمانوئيل ، ملك سردينيا . الشهم ، والكونت كافور وزيره الحكيم الصبور ، ويوسف ماتزيني الذي ألهم الثوار بأحاديثه الحماسية النبيلة ، وغاريبالدي الجندي المحبوب ،

أسس ماتزيني جمعية إيطالية الفتاة . وقد انضم إليها الآلاف من الوطنيين من كل الطبقات . وأقسموا على أن يجعلوا إيطاليا أمة موحدة مستقلة ذات سيادة مكونة من أحرار أنداد متساوين ، . وكان ماتزيني نفسه يجذب الجمهورية ولكن كان متأهباً لأن يعاضد أي نوع من أنواع الحكومة يرتضيه الشعب وتطلع آخرون إلى الباباوات لتوحيد البلاد ، وبخاصة البابا بيوس التاسع (في ١٨٤٦) الذي بدأ في إصلاح دويلته البابوية التي اشتهرت بأنها تلقى أسوأ حكم في أوروبا .

وفي ١٨٤٨ قامت قتن في صقلية وناپولي حيث منح الملك دستوراً . وكذلك منح دستورين ملك سردينيا والبابا . وثار أهل لومبارديا والبندقية ضد ساداتهم النمساويين وتلقوا عوناً من السردنيين . غير أن أوائلهم جميعاً سحقهم ذرو المعاطف البيضاء من النمساويين بقيادة رادتسكي الجبار .

وعقب هذا استقال شارل ألبرت ملك سردينيا وأسلم عرشه لابنه فكتور عمانوئيل . وكابد البندقيون — يقودهم البطل دانيال مانين — حصاراً مروعاً قبل أن يستسلموا لجيش رادتسكى (النمساوى) .

وانتهت الرواية المحزنة في روما . فهناك أعلن الشعب — ومعه ماتزيني — حكومة جمهورية . وهرب البابا . وعندئذ رغب نابليون الثالث في أن يظهر بمظهر حامى الكنيسة الكاثوليكية والمناضل عن البابا ، وأرسل جيشاً يحاصر روما . وقاد غاريبالدى فرقة من المتطوعين من شمال إيطاليا لينقذ الجمهورية الرومانية وأشعل رجاله مواقع عظيمة بغية حمايتها . ولكن الفرق الفرنسية عصفت بقلب المدينة . وأعادوها إلى البابا . وكان إفلات غاريبالدى ورجاله ، عبر (جبال) الأبينين إلى الشمال ، هو الفصل البطولى الذى ختم أول انطلاقة إيطاليا للظفر بالحرية . (١)

السياسة : إيطاليا وألمانيا:

بدا أن ثورات الناس في سبيل الحرية ، قد أخفقت إخفاقاً تاماً . فقد رأى الوطنيون والديمقراطيون أمانهم الحارة يحطمها القواد النمساويون والروس . ومع هذا وخلال ربع القرن الذى بدأ في سنة ١٨٤٨ أصبح الإيطاليون أمة حرة متحدة يحكمها الملك فكتور عمانوئيل واتحد كل الممالك الألمانية والدوقيات ، في إمبراطورية ألمانية موحدة يحكمها ولهم الأول البروسى . وقد قامت فرنسا — أحياناً عن طيب خاطر وأحياناً على

(١) انظر شكل رقم — ١١ — (توحيد إيطاليا) .

عكس ذلك — قامت بدور قيادي في تكوين إيطاليا. أما في تكوين الإمبراطورية البروسية فلم يكن دورها عن طيب خاطر إطلاقاً . ولم تقم بريطانيا العظمى بدور فعال لأن دلتا الراين والطرق التجارية في المحيطات لم يكونا في خطر . وكانت حروبها حروباً صغيرة ، قاصية في آسيا وإفريقيا ، اللهم إلا حرب ١٨٥٤ التي فيها شاركت نابليون الثالث في حملة على روسيا كي تحمي تركيا ، وإلا عندما أبحرت سفن الحرب والنقل إلى البحر الأسود لتنزل جيشاً إنجليزياً فرنسياً كبيراً في شبه جزيرة القرم وهنا تطوع الوطنيون من كل الطبقات . ولم يحارب أحد في شجاعة أكثر من الشجاعة التي حارب فيها ٢٥٠٠٠ إيطالي أرسلهم كاثور وفكتور عمانوئيل ملك سردينيا ليحاربوا جنباً إلى جنب مع الفرق الفرنسية والإنجليزية . وقد رفعت شجاعته مملكة سردينيا البالغة الصغر إلى مستوى دولة أوربية كبرى ، مما أثار نفوذ النمسا . ولكن حدث أمر صدم النمساوين صدمة أكبر بكثير . ذلك أنه في ١٨٥٩ أمر الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث — الذي تفاهم سراً مع كاثور — أمر نابليون الثالث بإرسال جيش لغزو لومبارديا وطرد النمساويين . وقد كفت موقعتان حاميتان — في ماجنتا وسولفيرينو — لتحقيق ذلك ، وأضيفت لومبارديا إلى مملكة فكتور عمانوئيل . وهذا العمل المفاجيء المفزع — الذي قام به نابليون الثالث . بوصفه رائد الحرية الإيطالية — استنهض همم وطنيي توسكاني وبارما ومودينا ودومانا الذين طردوا ساداتهم النمساويين ووضعوا أنفسهم تحت ملك سردينيا . ولكي يتم غاريبالدي — قائد تحرير إيطاليا البطل — العمل النافع شن ، مع فرقة متطوعيه ذوى القمصان الحمراء ، معركة مفاجئة فاصلة . وبمساعدة ماتزيني الأدبية وعون فكتور عمانوئيل الفعلي ، أبحر من مسقط رأسه ، مدينة جنوا ، وسط حماسة عظيمة . وقد صمم هو ورجاله انتزاع صقلية من نابولي . وكانت إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى تحت الحكم الفعلي لفكتور عمانوئيل ، وبقي عليه أن يضم إيطاليا الجنوبية .

وقد فعل ... اكتسح قصائمه البحر الأشداء المنطقة عبر صقلية ثم عبر البلاد الأصلية حيث دحروا أهل نابولي . وفي الوقت نفسه جاء الملك فكتور عمانوئيل راكباً صوب الجنوب ، ودخل هو وغاريبالدى ، نابولي ظافرين في ١٨٦١ .

وعلى هذه الوتيرة توحدت إيطاليا كلها في ثلاث سنوات . هذا بينما وزراء خارجية الدول الكبرى أخذوا يتابعون الأحداث — راضين ، أو قلقين ، أو منزعجين — تبعاً لما يحدوهم من آمال ومخاوف . قضى الأمر وولدت أمة جديدة . ولم يفلت من سلطان الملك غير جمهورية البندقية القديمة ومدينة روما . . . الأولى يحكمها — بعدئ — ذوو المعاطف البيض من النمساويين ، والثانية يحكمها البابا ويحميها جيش فرنسى .

وثبت في مصائر هاتين المدينتين : الحوادث التي جرت في شمال (جبال) الألب والتي كان العامل الأكبر فيها هو مستشار بروسيا الحديدي السكونت أوتوفون بسمارك .

وكانت بروسيا — منذما بدأت ، بلاذاً تخومية معادية للسلاف الوثنيين . وكانت دويلة حربية . وقد وجدت — وحدها من دون ممالك أوروبا — في فردريك الأكبر ملكاً جندياً عبقرياً . وقام البروسيون بدور قيادى في حرب التحرير ضد نابليون . وكان جيشها يقوده المارشال المسن بلوخر الذى توج وصوله إلى أرض المعركة في ووترلو انتصار الحلفاء في ١٨١٥ .

وكان بسمارك — وهو صاحب أرض پروسى صخيم جهم أضحى . مستشاراً للملك ولهم الأول في ١٨٦٢ — رجلاً صلباً ، ثاقب الفكر ، فذ العقل في السياسة ، متفانياً إلى أبعد الحدود في خدمة هدفه وهو جعل ملكه سيد الألمان جميعاً ، وكان لا يؤمن بالبرلمانات ولا بالخطب وإنما يؤمن .

بالقوة وحدها . وكان خير الحجج التي يقدمها : عبارته البليغة : « الدم والحديد ، ومعناها : الحرب . وكانت روسيا على أتم استعداد لها . وقد هيء جيشه — تحت إمرة الجندي العظيم فون مولتسكى — لأن يصبح آلة متقنة للمهجوم ، حسنة التدريب ، حسنة الإعداد ، يقوده أركان حرب بارعة حصينة ومثلها درس نابليون حروب فردريك الأكبر ، درس فون مولتسكى وضباطه حملات الكورسيكى العظيم . وتوفر بسمارك على المدافع والحرب التي تكفل تنفيذ سياسته . ولكنه التزم بأن يدخل فى حسابيه صداقة أو خصومة الدول الثلاث الكبرى وهي روسيا والنمسا وفرنسا .

وفى ١٨٦٣ أشعل البولنديون ثورة ضد روسيا . وتفضل بسمارك على روسيا بالسماح لجيشها باختراق الأراضى الروسية كي يسحق البولنديين الذين ردوا فوراً ، فى صرامة وقسوة ، إلى الخضوع .

وبعد هذا بسنوات ثلاث ضرب بسمارك ضربته ، بغتة ، فى قوة عظيمة فاحتل ، أول الأمر الدويلات الألمانية الشمالية ، ثم حمل على النمسا . ودحر البروسيون النمساويين عند كونجراتز فى سنة ١٨٦٦ ، وكانت هذه الهزيمة الواحدة كافية . ودامت الحرب سبع أسابيع ليس غير . وأصبح البروسيون هم السادة المعترف بسيادتهم على هانوفر وكل شمال إيطاليا ، وأصبحت مملكتا بشاريا — و — فورتنبرج الجنوبين حليفين . وفى غزوة خاطفة اغتصب ملك بروسيا (الذى ينتمى إلى آل هوهنزولرن) زعامة الشعب الألمانى من إمبراطور النمسا (الذى ينتمى إلى آل هابسبورج) ، والذى حكمها أسلافه منذ القرون الوسطى . واستفادت سردينيا . ذلك أن بسمارك — فى مقابل بضعة هجمات ، محدودة النجاح ، على الجيوش النمساوية فى إيطاليا — قضى عند الصلح ، بأن تسلم النمسا إلى الملك فكتور عمانوئيل ، البندقية وتوابعها .

وفي سنة ١٨٧٠ كشف بسمارك عن غاية مقصده وذلك عندما غزت فرنسا ثلاثة جيوش بروسية . وكان نابليون الثالث هو الذى أعلن الحرب بالفعل ، غير أن بسمارك هو الذى هيا الفرصة واستفز فرنسا ، وحول مولتى وقواده البارعين ، حولوا الحرب لمصلحتهم وقد حارب الفرنسيون فى شجاعتهم التقليدية . ولكنهم كانت تعوزهم القيادة الحازمة . وأظهرت هذه الحرب الفرنسية البروسية سطوة الجيش الألمانى الذى حركته إرادة موحدة إلى النصر ، إلى النصر الخاطف وأستسلم جيش فرنسى فى (سيدان) وآخر فى Metz ، وكان نابليون الثالث بين أسرى الحرب ، وحاصر البروسيون باريس واستولوا عليها .

وفي ١٨٧١ ، فى قصر فرساي ، نودى بالملك ويهلم الأول : أول إمبراطور (قيصر) للإمبراطورية الألمانية . وكان فى فرنسا شيوخ دخلوا بروسيا تحت قيادة نابليون الأول ، وشيوخ فى ألمانيا قاتلوا نابليون الأول فى حرب التحرير .

وأكرهت فرنسا على أن تسلم الألزاس واللورين إلى الإمبراطور الألمانى الجديد . وأدت الحرب ، مباشرة ، إلى استكمال المملكة الإيطالية الجديدة ذلك أن نابليون الثالث اضطر إلى سحب جيوشه من روما ، التى احتلها فوراً فكتور عمانوئيل ، وأصبحت روما التى كانت ، فى مدى ١٨٠٠ سنة ، العاصمة الدينية للمسيحية ، أصبحت روما العاصمة الوطنية لإيطاليا . وبما أنه لم يكن فى حيز الاحتمال أن يمس البابا من رعايا أى ملك دنيوى فقد انسحب بيوس التاسع إلى ذلك الجزء من روما المعروف بمدينة الفاتيكان التى ظلت تحت حكومة ، خارجة تماماً على منطقة حكومة الملك .

وأدى كرب الفرنسيين وغضبهم بسبب الهزيمة ، إلى ثورة الوطنيين والاشتراكيين فى باريس . فوضعوا المدينة تحت إشرافهم واختاروا

حكومتهم الخاصة . وشهد الجيش الألماني المنظم الجيش الفرنسي يحاصر العاصمة ويحارب ليدخلها . وفي ستة أسابيع من الكفاح المرير فقد الآلاف أرواحهم ونهب الكثير من المباني وأحرق . وبعد إقرار النظام وضع دستور برلماني اتفق عليه السياسيون الذين صاغوه — ما وسعهم الجهد — على غرار الدستور البريطاني . واتجهت نيّتهم ، أول الأمر ، إلى استعادة الملكية القديمة ، ولكن الفرنسيين استقروا ، آخر الأمر ، على رئيس جمهورية . وكانت تلك هي الجمهورية الفرنسية الثالثة .

كانت هذه هي الأحداث العابسة التي أذنت بدخول الإمبراطورية الفرنسية التاريخ الأوروبي والعالمي .

وفي السنوات الأربعين التالية (من ١٨٧١ إلى ١٩١٤) ظل الهيكل السياسي لأوروبا الغربية على حال لم يتغير . . . كان هناك الإمبراطوريات البرية العظمى الثلاث (روسيا وروسيا والنمسا) والمملكة الإيطالية الجديدة وجمهورية فرنسية جديدة . ولقد أخذ يتزايد فيها جميعاً باطراد : السكان . والثروة والصناعة والتجارة . واحتفظت جميعها بجيوش كبيرة متأهبة للقتال . وعاشت في سلام وتأهبت للحرب . وكانت في الجنوب الغربي مملكتا أسبانيا والبرتغال لم تمسسها تلك الأحداث . وفي الجنوب الشرقي : أملاك تركيا المتأخرة التي ضيعها الإهمال والاستبداد والكسل وعدم الكفاية . وانهمكت بريطانيا العظمى — سيدة البحار والتجارة البحرية — في الصناعة والتجارة عبر البحار وفي المستعمرات .

وتأججت أوروبا بالسلاح ولكنها لم تطلق ، عند الغضب ، طلقة واحدة . . . حدث في الإمبراطوريات البرية الثلاث أن الأرستقراطية — مالكة الأرض — حكمت فلاحى الريف ، وأن أهل المدن أخذوا

يجادلون في الاشتراكية ويتساءلون بأى حق تحكم شعوب شعوباً أخرى ، لا لسبب سوى وراثة الحكم أو الثروة . إلا أن تلك الأعوام الأربعين كانت عهد رخاء مطرد وتعاون مطرد بين الأمم . وبدأ محتملاً أن الأمم الأوروبية — بالحكمة والمصابرة — قد تقاد إلى التقليل من أسوار التخوم ومن سوء التفاهم ، وذلك إلى أن يتسنى لهم أن يعيشوا في سلام بوصفهم أوروبيين ، تماماً كما فعل مواطنو بلادهم الأولون تحت حكم خير أباطرة الرومان .

السياسة : روسيا والثورة :

خلفاً للبلاد الغربية ، لم ترضع روسيا قط إبان أية مدنية قديمة . ولم تكن كنديستها — اليونانية الأورثوذكسية — تهتم قط بنشر العلم أو المدنية ، ككنيسة الغرب اللاتينية الكبرى .

كانت روسيا مترامية الأطراف وكان أهلها متأخرين . وكان أغلبهم عبيداً يعيشون في مجتمعات قروية يدفعون مكوساً للنبلاء مالكي الأرض . وكان هناك طوائف قليلة من التجار ورجال الأعمال والصناعة . وكانت الحكومة — فوق كل شيء — استبدادية ، وقيصرها أكبر سطوة من قيصرية الرومان الذين حمل لقبهم . فلقد كان حامى الكنيسة المقدسة ، وأبا الشعب ، والحاكم المطلق على كل الروسيين ، وكانت إرادته هي القانون .

ووالى خلفاء بطرس الأكبر — فى هوادة — « تغريب » بلادهم ، ونخص بالذكر منهم القيصرة — الألمانية المولد — كاترين الكبرى وقد تأثرت — أكثر ما تأثرت — بفرنسا لأن فرنسا سبقت أوروبا فى الفنون فى القرن الثامن عشر وعلمت نبلاء الروس كيف يتكلمون الفرنسية . أما انتماء روسيا للمجموعة الأوروبية أو « جوقة » الدول الكبرى فقد اتضح فى عهد نابليون ، من وجود جيوش القيصر تعمل فى ألمانيا وإيطاليا . وزاد الأمر وضوحاً عندما حضر

القيصر — الأسكندر الأكبر — مؤتمر الصلح في فيينا عام ١٨١٥، وأعان الإمبراطور النمساوى — بعد ذلك — على إخماد الفتن . وكانت روسيا متأهبة للأفكار الغربية .

واقدر كان الأفكار التحررية — الصادرة عن الرجال الذين صنعوا الثورتين الأمريكية والفرنسية — كان لها صدى في كل أوروبا خلال القرن التاسع عشر : ينبغي للناس جميعاً أن يتحرروا ليستمتعوا بالحياة والفراغ في ظل قوانين عادلة تسوى بين الناس ، غير خائفين ، معبرين عن آرائهم في صحافة حرة ، مشاركين بعض المشاركة في حكم بلادهم ... اعتمدت أفكار كهذه في صدور بعض السبلاء والطلبة الروس وجسمت الفروق بين عيشة السادة الروس البهجة الفارغة وبين العيشة التافهة للعبيد الروس الذين أعوزهم التعليم والذين كانوا مرتبطين بحقوقهم ، والذين كان لسادتهم الحق في جلدتهم حتى لو كان روسيا كانت ملتقى القرنين التاسع عشر والتاسع . ولم تكن هناك طبقة وسطى كالتى نشأت في القرون الوسطى بفرنسا وإنجلترا لتصل ما بين طرفي المجتمع .

واقدر قام الفلاحون — قبل سنة ١٨٠٠ — بثورات خطيرة كثيرة . وفي الثورة الأخيرة منها — التى قادها مغامر قوزاقى اسمه يوجاشيف ما بين ١٧٧٣ و ١٧٧٥ — قتل ما لا يقل عن ألف وخمسمائة من ملاك الأرض . وعند تولى نقولا الأول العرش فى ١٨٢٥ ثارت جماعة من ضباط الجيش ذوى الميول التحررية، وقعت ثورتهم . وكشف نيقولا عن أنه مستبد عنيد لا يلبس يود أن يسيطر على بلاده كما قد يسيطر قائد عام على جيشه . واستمرت ثورات الفلاحين وفيما بين ١٨٤٥ و ١٨٦٠ هبت فى أماكن عديدة نحو ١٨٠٠ انتفاضة هلك فيها أكثر من ٣٠٠ من ملاك الأرض . ولكى تقاوم الحكومة تلك

الخلفية من الاضطراب والعنف نظمت شرطتها السرية وشبكتها من الجواسيس واستخدمت فيا فيها في سيبيريا منفي لمثيري الفتن واسيئي الحظ الذين يشي بهم عملاء القيصر . ثم حدث أن الأمر الذي قدر له أن يأتي بالخير العميم ، قد خلف البلبلة والقلق . ذلك أن القيصر الاسكندر الثاني ، الواسع الأفق ، عندما أعتق العبيد — أى « حررهم » ، في سنة ١٨٦١ أضحي خمسون مليوناً منهم أحراراً بالفعل . ولكن النتيجة في الغالب أسفرت عن أنهم لم يستطيعوا العيش من الفدائين اللذين وزعتها الحكومة على كل منهم . حقاً لقد كانوا أحراراً في أن يهيموا إلى البلدان حيث يصبحون عمالاً أو عاطلين لا يملكون أرضاً . وإذن فقد خلخلت لأتحة ١٨٦١ ، هذا المجتمع الروسى من جذوره وأصلح الاسكندر الثاني كذلك المحاكم ، وأنشأ مجالس محلية لتدبير الشؤون المحلية . غير أن دعاة الإصلاح ، الذين يطالبون بما يفوق هذا كثيراً ، خاب أملهم في هذه التغيرات كما أن أهل الطراز القديم — بطبيعة الحال — أغضبهم أى تغيير ثم إن قضية دعاة الإصلاح — الواسعى الأفق — لم تستفد من قتل الاسكندر الثاني في ١٨٨٤ . فقد استمرت الفوضى طوال السنوات الأخيرة من القرن ، وزادت الأحزاب الثورية وكثر عدد أعضائها . وكان من بين هؤلاء دعاة الإصلاح المألوفون المائلون لمتطرفى بريطانيا الذين يطالبون بإصلاح جذى وفقاً للبيادى . الحرة . وكان هنالك أيضاً نوعان من المتطرفين هما الفوضويون والشيوعيون .

فالفوضويون هم الذين يؤسوا من إصلاح الحكومة أو من تحسينها إلى حد أنهم رغبوا في القضاء على كل الحكومات وكل الحكام . وعندهم أن أية قنبلة يرمى بها أى حاكم أو أى صاحب سلطان ، أمر مستحسن . ولا ريب في أنه لو كان الناس جميعهم كاملين لما اشتدت الحاجة إلى حكومة . والشيوعية معناها جعل كل الأشياء على الشيوع وتوزيعها بالتساوى . لأنها نوع متطرف من الاشتراكية معناها تملك الأراضى والصناعات للشعب وإشرافه عليها ،

وذلك لضمان توزيع خيرها على الجميع توزيعاً عادلاً. وقد نودى بالاشتراكية في إنجلترا وفرنسا في عهد مبكر جداً ، وكانت المشاركة في الملكية والعائد من الأمور المألوفة . وثمة مثل طيب للمشاركة في الملكية والعائد ، تجده في الجمعيات التعاونية التي تملك وتدير متاجر كبيرة وتوزع الأرباح على أعضائها . غير أن كارل ماركس — وهو يهودى ألماني أتى ليعيش في إنجلترا — ابتدع نوعاً متطرفاً من الشيوعية ، وبشر له بحماسة بالغه قاتلاً بأن كل تاريخ الإنسان كان نزاعاً عديماً الرحمة بين من يملكون ومن لا يملكون وبأنه ينبغي لكل الفقراء أن يخلقوا الفتن والارتباكات ليعجلوا بتحطيم المجتمع كي يقيموا مجتمعاً لا طبقياً. قال: وعلى أية حال فلم يكن بد من مجيء هذا المجتمع اللاطبقى لأن ذلك النمط من المجتمع الذي فيه يستطيع الناس أن يصبحوا أصحاب ملايين ، لا مفر له من أن يتحطم . وينطوى مذهب ماركس على كثير من الحقد وبعض الأفسكار المشوشة . ومع ذلك فقد توجه بنداءين الأول — وذلك أمر طبيعي — إلى المواطنين بالأقدام والمنكوبين . والثاني إلى ذوى الهمم الغيورة الذين أحسوا بأنه ينبغي لهم أن يضطلعوا بمطالب الأجيال جميعاً وأن يصبحوا رسل القدر ، تدفعهم الحمية المقدسة إلى أن يصبحوا أخطاء الإنسانية . ولكن من سوء الحظ أنهم اعتقدوا أيضاً أنه لا مانع من ممارسة الكذب والقسوة في سبيل الوصول إلى غاية موادهم ، وأن الغاية تبرر الوسيلة . والشيوعيون الماركسيون لا يأبهون للأخلاق المثالية . والمهم الذي يستحق الملاحظة هنا هو أن ماركس استثارته وأبلغت غضبه إلى مداه — على نحو ما حدث لأناس لا حصر لهم — آثام الثورة الصناعية في إنجلترا ، وأنه علق كل آماله على عاطلي المدن الذين لا يحدقون مهنة ما . وهؤلاء المنكودون هم نتيجة من نتائج المدنية الحديثة . وكان هناك أناس من أمثال وليم موريس ، تطلّعوا إلى بناء مدنية جديدة أساسها عيش

المواطنین عیدشاً سعیداً . ومارکس لیس كذلك فهو لم يفکر فی الفلاحین علی أنهم مواطنون فی دنياه المثالیة ، وقد رأى شیوعيته تبدأ فی الغرب فی المدن و فی الأوساط الصناعیة الکبیرة .

و فی الوقت نفسه كانت البلاد التي اطرد فیها التأهب للثورة هی روسیاً . استمرت تمردات العمال وإضراباتهم . وكانت صناعاتها ، طوال الوقت ، تتزايد رويداً رويداً .. فی بعض الأحيان بمساعدات مباشرة كتلك التي يقدمها أناس کچوون هیوز الذي أسس مصانع الحديد بـ کریفوی و فی بعض الأحيان بقروض طويلة الأجل ، مصدرها بوجه أخص ، الفرنسيون الذين أعانوا الروس علی بناء سسکهم الحديدیة وغيرها من المرافق العامة . وكانت هذه القروض إحدى نتائج التحالف التدريجی بین فرنسا وروسيا بعد الحرب الفرنسية البروسیة (فی ١٨٧٠) وذلك وقتما بدأت الدولتان تخشيان القوة الحربیة الضخمة التي تملكها الإمبراطوریة الألمانية .

وروسیا معناها الآن کل البلاد التي تحكم من موسکو ، وهی المدی الممتد من التخوم الألمانية ، إلى حدود الصين ، إلى شواطئ المحيط المتجمد ، إلى هضاب ایران وجبال القوقاز . وروسيا تمتد فی قارتین . ولم يبدأ روس المناطق المحیطة بـ .. کییف وموسکو فی بسط سلطانهم فی أوربا وإفريقيا حتی القرنین الثامن عشر والتاسع عشر . وكما أن الأمريكيین استعمروا قارتهم متجهین غرباً من الشاطئ متابعین الحدود المضطربة صوب مغرب الشمس عبر الغابات والبراری والصحاری . كذلك استعمر الروس قارتهم مع فارق أنهم بدؤوا من الداخل وتحركوا إلى الخارج ، شمالاً وشرقاً وجنوباً ... أول الأمر ، أهل الغابة : القناصون وصائدوا الفراء وصيادوا السمك ثم الرعاة والفلاحون الذين قطعوا الأشجار علی طول جداول المیاه کی يربوا الماشیة وغلة البراکة (وهی نبات کالشعیر) ، ثم

المعدنون يتقصون عروق الحديد والرصاص ، ثم موظفوا القيصر يبسطون سلطانه على البلاد الجديدة . وكانت هنالك حروب . وربت روسيا — كما ربّت أمريكا — قبائلها التخومية : جماعات من الخيالة مستقلة شديدة المراس ترتاد بعيداً طويلاً وعرضاً ، وترعى سائماتها ويصعب ترويضهم على الحياة المستقلة . والتاريخ يعرفها جيداً باسم قوازي (نهرى) الدون والفلجا .

وإلى سنة ١٧٧٥ لم يستطع القيصر أن يخضع البواسل تتار منطقة الفلجا الوسطى الواقعة على هذا الجانب من جبال الأورال . كما أنهم — إلى ١٧٨٣ — لم يستطيعوا أن ينتزعوا شبه جزيرة القرم من الأتراك . . . أعدائهم الذين حاربوهم إحدى عشرة مرة . ثم إنهم إلى الأعوام القليلة التالية لسنة ١٨٦٠ لم يتغلبوا على مقاومة رجال جورجيا والقوقاز . وأسسوا ميناء فلاديشوستك على ساحل المحيط الهادى ، فى ١٨٦٠ . ولم يتم إنشاء سكة الحديد التى تعبر سيبيريا حتى ١٨٩٨ ، وحتى عندئذ كان جزء منها يعبر الأراضى الصينية . ولم يكمل خط روسيا كلها حتى ١٩١٦ .

ولقد أزعج توسع روسيا فى آسيا عساكر البريطانيين الذين هالهم احتمال مباشرة تدفق الجيوش الروسية — عبر أفغانستان — هابطين أودية الهند . والواقع أن الأسد البريطانى والدب الروسى كانا يتنافسان على محالفة الأفغان . وكان من نتائج التوسع الروسى فى الشرق الأقصى : الحرب الروسية اليابانية فى ١٩٠٥ . . ذلك لأن اليابان كانت ، هى أيضاً ، دولة استعمارية تسعى إلى مد نفوذها فى أراضى آسيا الأصيلة . وقد منى جيش روسيا وبحريتها بكوارث فادحة على يد اليابانيين . فقد أبحر الأسطول الروسى المرباط فى بحر البلطيق الطريق كله إلى الشرق الأقصى لا شىء إلا لتفرقة البحرية اليابانية

وهذه الهزيمة المهينة شجعت تمرد الساخطين ، إذ ثبت — كما حدث

في حرب القرم — أن حكومة القيصر كانت كيلة متعفنة مستبدة . ورمى بالرصاص مئات المتمردين في سنت بطرسبرج (ليننجراد الآن) وقامت في موسكو ثورة مسلحة وخرج — فيما بعد — ثلاثة ملايين من العمال مضربين عن العمل وأكرهت هذه القلاقل القيصر على منح دستور وبرلمان (مجلس الدوما) . ورغم هذا قام الفلاحون — وكان عددهم عندئذ ٧٥ مليوناً — باضطرابات واسعة الانتشار في سنة ١٩٠٦ . وظلت الاضطرابات — والرمى بالرصاص — تنشط العام بعد العام حتى ١٩١٤ . وكانت روسيا بلاد الاغتيالات والمؤامرات والشرطة السرية والقبض السري .

وكانت — بعد — في حالة قلق مزمن وعلى حافة الثورة عندما دخل القيصر الحرب الأولى ضد ألمانيا حليفة لفرنسا . وأثارت الحرب حماسة الوطنيين من كل الطبقات : النبلاء ، والعمال ، والفلاحين . ولاح أول الأمر أن روسيا التي يساعدها الحلفاء الأقوياء قد تدرك — عن طريق النصر — عصر أحسن وأسعد .

التوسع :

ومن دواعي الأسف أن العالم — من الصين إلى بيرو — نزح إلى ارتداء الملابس القاتمة التي اخترعها الأوربيون بعد الثورة الفرنسية . ولنا لنصدر عادتنا في سهولة تفوق السهولة التي بها نصدر مزايانا الحضارية أو ديننا . وتحويل أحد سكان شبه جزيرة الملاي أو بلاد الزولو إلى ميكانيكي ، يلبس كساء عمل قائماً أسهل من تعويده على اتباع الفضائل الدينية مع رفاقه . وكثيراً ما نظن أن الرجل الذي يمسك بندقية أو الذي يلبس بذلة ذات سترة وسراويل يكون أكثر تمدناً من رجل يمسك بخنجر ولا يكتسى غير مئزر .

وكانت قوتنا العظيمة — بطبيعة الحال هي التي تركت انطباعاتها على غير الأوربيين ، وذلك منذ روع كولومبس سكان (جزائر البحر) الكاريبي ببندقيته . ويبدو أن في هذه البندقية — وفي ترفنا وآلاتنا — سحر الرجل الأبيض . وقد يكون فيها سحرنا نحن أيضاً ولكن السحر الحقيقي للرجل الأبيض أعمق من هذا . إنه ينبع من حكمة الإغريق (ومن التوراة) ومن قوانين روما .

وقد قضى الأوربي أربعة قرون في الارتحال بجزر إلى كل أجزاء الدنيا ، يتاجر ويبحث عن أسواق ويتسلط على قارات نصف فارغة وعلى جزائر استوائية ويعيش على الثروات الطبيعية للمناطق الاستوائية كالسكر والقطن والأرز والبهار والشاي والقهوة والمطاط . والحكاية متنوعة ، بطولية ، فظيعة ، قاسية كالحياة الإنسانية ذاتها . إنها حكاية أمم متفرقة ، ومغامرات متفرقة ، وشركات تجارية متفرقة ، وكنايس متفرقة — عدائية في بعض الأحيان — كلها يكافح بعضها بعضاً . وهذه المغامرة المتعددة النواحي التي صنعتها الشعوب البيضاء مع الشعوب السمراء والسوداء والصفراء مبعثها دوافع من كل صنف ، ابتداء من « الجوع اللعين إلى البحث عن الذهب » إلى حمية نشر الدين الخالصة . لقد صدرنا حروبنا وضغائننا . هذا بينما أن الرومان عندما ملكوا إمبراطورية برية كبيرة ، كانوا غالباً ما يرسلون إلى الخارج خير رجالهم لحكم الأقاليم ، بل إن أباطرتهم كانوا يعنون شخصياً بالمسائل الإقليمية . أما الأمم الأوربية فقلما أرسلت سياسيتها البارزين ليحكموا في الخارج . وكانت مغامراتهم البحرية — إلى حد كبير — عفوية تعتمد على المصادفات .

التوسع : قصة الإمبراطورية والسلم البريطاني :

كانت الأمم الخمس التي امتلكت إمبراطوريات عبر البحار هي :

البرتغال وأسبانيا وهولاندا وفرنسا وبريطانيا . وفي ١٨٣٠ كان الموقف كما يلي :

فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية . والبرتغال فقدت البرازيل . وأسبانيا فقدت أملاكها في الأمريكتين الجنوبية والوسطى . والأمم الجديدة التي تحررت من سيطرة أوربا بقيت تحمل طابعها السابق : لغة الولايات المتحدة وقوانينها بريطانية . ولغة البرازيل وقوانينها برتغالية . ولغة سائر جمهوريات أمريكا الجنوبية وقوانينها ، أسبانية .

وقد شملت الإمبراطورية البرتغالية في أوج سلطتها - فوق البرازيل - بضع عشرات من المواقع التجارية المحصنة على طول السواحل الإفريقية وفي مواضع متفرقة من المحيط الهندي ، استولى الهولنديون على أغلبها ولم يتركوا للبرتغال غير محطات قليلة مثل ديو - و - جوا في الهند . أما الأملاك البرتغالية الحالية في شرق إفريقيا وغربها فقد تخلفت عن الأيام التي فيها كان ملوك البرتغال أرباب البحار الشرقية وسادة الطريق البحرية إلى الهند .

واستولى الأسبان على جزر غنية كثيرة غير أن جاميكا أخذها منهم البريطانيون في ١٦٥٥ ، وترينيداد انتزعتها بريطانيا في ١٧٩٧ ، وكوبا (في جزائر الهند الشرقية) والفلبين (في المحيط الهادي) استولت عليها بريطانيا في ١٧٦٢ ثم أعيدت إلى أسبانيا . وقبل هذا بكثير - في ١٧٠٢ - استولى البريطانيون على الطرف الجنوبي من أسبانيا نفسها ، جبل طارق ، الذي مايزالون يحتفظون به على أنه حصن .

وكان الهولنديون ، في يوم من الأيام ، قد أنشئوا مدينة باسم نيو أمستردام استولى عليها البريطانيون وأطلقوا عليها اسما جديداً : نيويورك

وهي ميناء جميل ذهب مع بقية المستعمرات الأمريكية عندما ثارت في ١٧٧٦ وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية الشهيرة — التي طردت البرتغاليين من الشرق — كانت « دولة » في حد ذاتها : تعلن الحرب وتعقد الصلح ، وتسك عملتها الخاصة ، وتوفد ملاحين ذائعي الصيت ليرودوا البحار الجنوبية ويستكشفوا شواطئ أستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا . بل إن الأسطول الهولندي كانت له أسطوره المرعبة — حكاية الهولندي الطائر — وموضوعها سفينة مجهزة أحسن تجهيز رؤيت تنساق أمام العاصفة وقد مات ملاحوها جميعاً بدءاً الجرب وهذا منظرير تعد له البحارة الذين يتأثرون بالخرافات . وكان قلب الإمبراطورية الهولندية : جاوة وجزائر الهند الشرقية الاستوائية المليئة بالثروة الطبيعية . وهذه كلها أخذتها بريطانيا في ١٨١١ وأعيدت كلها إلى هولاندا . أما المواقع الهولندية التي أخذتها بريطانيا واحتفظت بها فكانت : ملاكا في ١٧٩٥ ، وسيلان في ١٧٩٧ ، ورأس الرجاء الصالح في ١٨٠٩ .

وقد طردت شركة الهند الشرقية الإنجليزية الشركة الفرنسية من أرض الهند الأصلية في حرب السنوات السبع واستبقى الفرنسيون مستعمرات ساحلية صغيرة مثل بندتشرى — و — شاندرناجور . واستولت بريطانيا على جزيرة موريشاس واحتفظت بها . وكذلك استولت على المستعمرتين الفرنسيتين الهاعيتين : نوفا سكوتشا وكندا . واستولت على جزيرتي السكر : الجوادلوب — و — المارتينيك ، استولت عليهما وأعادتتهما إلى فرنسا ما لا يقل عن ٤ مرات .

وعندما اتهم روبرت كلايف بأخذ نقود من الهنود دفع الحجة بأنه عندما فكر في الأمر ذهل من اعتداله . وربما جاز لإنجلترا أن تقول مثل هذا القول . ذلك أن الأملاك التي ردتها للأمم أخرى تساوى ثروات

لا تخصى . وحتى إذا صح ذلك فإن إمبراطوريتها فى ١٨٣٠ فاقت كل أحلام الإمبراطوريات ولا معدى عن أن نضيف إلى الأملاك التى سبق ذكرها : مالطة وبرمودا وجزائر البهاما وغيانا ، ونيوفاوندلاند ومنطقة خليج هدسون — اللتين تمتدان امتداداً لانهائياً عبر البرارى وشمال كندا المتجمد — وأستراليا وتسمانيا ونيوزيلندا وجزر كثيرة فى المحيط الهادى . وإلى هذه احتفظت بحصون على ساحل إفريقيا الغربى هى محطات قديمة لبيع الرقيق حررها الآن ، من حسن الحظ ، قانون ١٨٠٦ الذى حرم تجارة الرقيق . وفوق هذا كان تجار شركة الهند الشرقية سادة البنغال وأكثر من ذلك ، سادة شبه جزيرة الهند .

ولم يكن البريطانيون المستعمرون وراء البحار بالغى الكثرة وإنما كانوا بضعة آلاف من الأمريكيين الموالين فيما نسميه الآن أونتاريو ، وبضعة آلاف من الجنود السابقين فى نيوبرنزويك وفى رأس الرجاء الصالح ، وزراعا قليلين فى جزائر الهند الغربية ، ومستعمرة مجرمين فى نيو ساوت ويلز مع قليل من رعاة الغنم . وكانت غالبية رعاياها البيض ، المقيمين عبر البحار ، من الأجانب : هولندي الكاب (البوير) فى جنوب إفريقيا ، وكنديين فرنسيين كاثوليكين حول منتريال — و — كويك .

وإمبراطورية بريطانيا — كإمبراطورية البندقية — خلقتها التجارة ، وهى من عمل بحارتها وتجارها . وقد كتب تاجر بريطانى كتاباً أسماه « كنوز إنجلترا من التجارة الأجنبية » ، وهذا عنوان يوضح ما وراءه وأنذر نبيل إنجليزى مواطنيه بقوله « أنظروا إلى خندقكم المائى : ينبغى أن تكون أول مادة فى عقيدة البريطانى السياسية أنه يؤمن بالبحر » . وكانت الكتب التى يقرأها صمبيانها : « رحلة حول الدنيا » للورد آنسون ، وتلك الحكايات المثيرة عن جزر نائية مثل : « روبنسون كروزو » و « رحلات جليليقر » .

وفيما بين ١٨١٥ و ١٩١٤ كان سلام بريطانيا فوق جميع البحار . فقد
مخرت بحريتها لا يتحداها أحد . وأخذت سفنها التجارية وسفن بلاد أخرى
تذهب وتجيء لا يمنعها أحد في الظروف المشروعة ، ولم يكن لها منافسون
فقد استغرق الهولنديون نشاطهم في إمبراطوريتهم الخاصة المستكفية الغنية
بالتوابل . وكانت فرنسا ما تزال تنشد كيف تحكم نفسها . ولم توجد ألمانيا
ولا إيطاليا قبل ١٨٧٠ . وحكمت بريطانيا حكومة وطيدة الأركان ، حكومة
قادرة ومستعدة لتحسين حالها . وتمتعت بريطانيا — أجيالاً — بسلام
داخلي حقيقي لأن الحروب الأهلية لم تضيعها . وكانت لها تقاليد قديمة في
التجارة وقد جمع مواطنوها ثروات . وفي القرن الثامن عشر أبدوا المذهلات
في النشاط والاختراع والصناعة التي جعلتها مصنع العالم . فلا عجب إذن
إذا كانت إمبراطوريتها قد امتدت على بلاد متخلفة أو خالية .

أما كيف أصبحت مستعمراتها أمماً تحكم نفسها ، وكيف نظمت وحكمت
الهند ، وكيف استولت على أراض شاسعة جديدة في آخر قارة أسيط
اللثام عنها — وهي إفريقيا — فذلك أحد موضوعات البحث الكبرى في
تاريخ القرن التاسع عشر .

التوسع : المستعمرات البريطانية المستقلة :

حول كويبك ومنتريال وقعت المستعمرات الفرنسية التي أقيمت
في القرن السابع عشر : فرنسا جديدة استوطنتها فلاحون أشداء وحضريون
من نورماندى ، عاشوا عيشة بسيطة بأسلة في تلك البلاد النائية التي تتوافر
فيها الغابات والمياه التي تبعد مائة ميل عن عرض البحر . وهناك حموا قراهم
من الهنود ، وفلحوا الأرض كما فلح أسلافهم أرض فرنسا القديمة ، وغنوا
أغاني وطنهم المفرحة ، ورحبوا بالمسافرين العائدين من فلولات البحيرات
وجداول المياه في الغرب والشمال .

وفي شبه جزيرة نياجرا جاء المهاجرون الأمريكيون ليستوطنوا ، وقد حدث ذلك خلال تمرد المستعمرات الأمريكية على جورج الثالث . وكابد أولئك الوافدون الجُدُدُ مشقةً عظيمةً ، بادئينَ الحياةَ من جديد فسكنوا العُششَ ، واستَنَبَتوا الزراعات الشحيحة المحصول ، وطحنوا غلالهم بالأيدي إلى أن وافَتْهم مؤنُّ وأكسيةٌ وآلاتٌ من بريطانيا .

وقد اختلفت هاتان المستعمرتان — كندا العليا وكندا السفلى — اختلافاً بيناً في اللغة والقوانين والدين والعادات . وبينما كانت الواحدة بلداً مغلوباً ، كانت الثانية تدين بالولاء ، إلى درجةٍ خيالية ، إلى حيدِ جملهم لا يكادون يُرحبون بأيَّة جماعةٍ جديدةٍ من المستعمرين البريطانيين ، وهذا يخالف الترحيب الحار الذي يلقون به « مواطني » كوبيك الفرنسيين .

ولمَّا بلغ التمدُّر في المستعمرتين إلى حد التمرُّد في ١٨٣٧ أبلغ اللورد ديرهام — الذي أرسل ليستقصي الأمور — أنه وجد « أمتين تعتركان في حضنٍ ولايةٍ واحدة . وكان علاجه المقترحُ هو أن يتحدا في ظل حكومتها المختارة لكي يندرجوا على الأزدِهاء بقوميتهم وقد مُسَوَّى هذا ، ونجح برغم كثير من العقبات ، ويرجع أكبرُ الفضلِ إلى حصافة الحاكم . وكان الزمنُ يتغيَّرُ سريعاً .. أخذتُ بآخرُ خط (السن) الجديدة تنقل مستعمرين جدُّداً في العقدين السادس والسابع ، وتضاعف السكانُ في فترةٍ وجيزة . وأنشئت سككٌ حديديةٌ تصلُ كنجزتن — و — كوبيك بالأطلنطي . ورأى بعضُ بعيدى النظر أن « الأمتين ، الكنديتين — ومقاطعتي نوفا سكوتشيا . و — نيوبرانزويك ، وأراضى شركة خليج هدسون الغربية والشمالية الشاسعة المهجورة — ينبغي لها جميعاً أن تنتظم في اتحادٍ سياسيٍّ مُوحَّد وأن ترتبط كلها بسكة حديدية عبث القارة . وكانت الحرب الأهلية الأمريكية إنذاراً بالخطر ، ذلك لأن الكنديين لم

يُرضيهم وجود دولة قوية التسليح على تخومهم الطويلة الموحشة . وفي سنة ١٨٧٠ انحدر الخيالة — الذين سبق لهم أن أخذوا عصياناً قام به أنصاف المولدين في منطقة النهر الأحمر — راكبين عبر البراري إلى سفوح الروكي (الجبال الصخرية) ، في جولة استكشاف هامة . وقد صار أولئك الخيالة نواةً للشرطة الكندية الراكبة .

وفي ١٨٨١ — على طول الطريق الممتد بين البحيرات الكبيرة وساحل المحيط الهادى — أخذ نحو تسعة آلاف عامل يشتغلون في الخط الحديدى الكندى الباسيفيكي . وقد وجدت بينهم فرق لنحت المدرجات وثانية لنحت الأنفاق ، وثالثة لتسوية الدروب ، ورابعة للديناميت ، وخامسة لتشديد الجسور ، تعيش كلها في مخيمات وتطعم على قطاعان البهائم التى تمشى مشياً وتبدأ مصصرةً من السُّرول الأمريكية إلى مكان العمل ولم يحدث إخلال بالنظام ولا هجوم من الهنود ، ويرجع الفضل في هذا إلى الشرطة الراكبة الكندية . وتقدم العمل — عاماً بعد عام — على طول السهول وفي الأماكن العالية الموحشة بالروكي (جبال الصخور) حيث شارك آلاف من العمال الصينيين في تسوية الدروب وحيث طرح المهندسون جسوراً مصلبة على صقائل فوق الأودية الضيقة . وأخيراً ، في ١٨٨٥ ، تلاقت الخطوط الآتية من الشرق والغرب في بحر ليمجل (أى النسر) ، وكملت الشرايين الفولاذية للمستعمرة المستقلة الكندية الجديدة .

واحتلت البراري التى تنبت الحنطة وأخذت حقول الألبان والفواكه الواقعة على سواحل المحيط الهادى . وقد حدث ذلك على مهل أول الأمر ثم تدرج في السرعة . ولم تبق ثمة ضرورة للاستدارة حول رأس هورن (أى القرن) للوصول إلى فانكوفر . وقد تأمست مستعمرة كندا المستقلة في ١٨٦٧ . وانضمت مانيتوبا في ١٨٧٠ ، وكولومبيا البريطانية في ١٨٧١ . . . على شرط أن تمد السكة الحديدية . وكمل الإطار السياسى في ١٩٠٥ عندما

أمست ألبرتا — و — سمكتشوان مقاطعتين . وامتدت الدولة الاتحادية الجديدة من المحيط إلى المحيط كما امتدت شمالا عبر الفيا في المنجمدة إلى دائرة القطب الشمالى .

وفي الوقت نفسه — تحت نجوم نصف الكرة الجنوبي — أخذت قارة أخرى — كذلك — تأهل بالسكان وتفلح . إنها بلاد نائية جنوبية تتوافر فيها أنواع النبات والحيوان الغربية وغابات الجبال المعتمة والأصقاع ذوات الألوان الدكناء والزيتونية والأرجوانية الهادئة . إنها أرض قلبها ليس من البرارى ولكن من الوحشة والصحراوات . على أن الأرض التي ابتدأت هناك لتكون محطة للبحر من ، تستغرق الرحلة بينها وبين أوروبا ستة شهور ، تلك الأرض نمت تدريجاً حتى أصبحت المقاطعات : (نيوساوث ويلز — و — كوينزلاند — و — فكتوريا) أصبحت تدريجاً جنة الرعاة تهيم بها أغنام المارينوس (١) في أراض عشبية ومرجيات شاسعة . . . قام الفلاحون الأحرار القلائل والمستكشفون بكشف المناطق الخصبة ، وقامت البحرية بمسح الشواطىء . وتحدد في بريطانيا اهتمام بالاستعمار أدى إلى إنشاء مستعمرات حول بيرث في أستراليا الغربية وأديليد في أستراليا الجنوبية . غير أن الأعمار بالسكان تلتكأ حتى ١٨٥١ . وفي تلك السنة عثر رجل — من الذين شاركوا في التدفق على البحث عن الذهب في ١٨٤٩ — عثر على ذهب في نيوساوث ويلز ولقط آخرون كتلا من خامات الذهب في بنديجو — و — بللارات بفكتوريا . وتدفقت جموع خشنة من الباحثين والمنقبين إلى داخلية البلاد . وأقفرت الموانىء وفر نوتية سفن كثيرة على أمل أن يجمعوا — في يسر — ثروات كبيرة . نعم . فليملون هم الذين أصابوا الثراء ولكن التكالب على البحث عن الذهب رفع عدد السكان ، في ١٨٥٨ ،

(١) المارينوس أغنام جميلة الصوف أسبانية الأصل .

إلى أكثر من مليون نسمة . وإلى ذلك الوقت كانت البواخر تنقل مزيداً من المستعمرين في رحلات تدوم ستة أسابيع ليس غير . ولبت المستعمرون — الذى خاب فآلمهم — ليشغلوا في عمل آخر . وانتعشت الموانئ واستخدم الذهب في استيراد رفاهات المدنية . وبقدر ما تزايد السكان زادت الزراعة والأعمال التجارية . وعلى هدى التجارب في كندا منح البرلمان البريطانى الولايات الأسترالية استقلالاً داخلياً . وحدث فيما بعد ، في ١٨٩٢ — هجوم جديد للبحث عن الذهب في أستراليا الغربية حيث فتحت مناجم في كالجورلى — و — كولجرادى . وفي ١٩٠٠ اشتركت الولايات المتفرقة وكونت الحكومة الأسترالية الموحدة ذات الاستقلال الداخلى .

وتقع على بعد ١٢٠٠ ميل من نيوزاوث ويلز جزائر نيوزيلندا التى عثر عليها الهولنديون وأطلقوا عليها هذا الاسم التى مسح أراضيها الكابتن كوك وارتادها صائدوا الحوت وعجل البحر والمبشرون . ونحن مدينون لهؤلاء الآخرين بكتابة لغة الماورى التى يتكلمها الأهلون . وكان الماورى نمنمين (أى أكلة لحوم البشر) ذوى جاذبية وبنية مثالية وذكاء ومقدرة فى القوى البدنية ويطربون لشن الحروب القبلية وبعد نزول مجرمى الكابتن فيليب فى أستراليا أضحت شواطئ نيوزيلندا نوعاً من الأرض المباحة حيث اختلطت حمالة البحار الجنوبية بالماورى وتاجرت فى البنادق وبطاين الجنازير والرءوس الأدمية المخملية ، التى تحمل الوشم .

وكان تجدد الاهتمام بالاستعمار هو الذى جعل نيوزيلندا المكان الذى نعرفه ... وفى ١٨٥٤ منح المستعمرون استقلالاً داخلياً . ومنذ ذلك الوقت — إذا استثنينا حرباً عنيفة شنها الماورى فى ١٨٦٠ — كان تاريخ تلك الجزائر سلمياً موفقاً ، مع استقرار تدفق المهاجرين إلى داخلية البلاد وبخاصة من إنجلترا . وفى ١٩٠٧ نودى بنيوزيلندا مستعمرة مستقلة تحت التاج البريطانى .

التوسع : الولايات المتحدة الأمريكية :

في سنة ١٨٢٨ غرقت السفينة الشراعية « جيمس » على مسافة من نيوفاوندلند مع ١٦٠ مهاجراً إيرلندياً كانوا على ظهرها. وقد غرقت فعلاً في تلك السنة ١٧ سفينة غاصت بالمهاجرين المتجهين إلى أمريكا، غرقت وفقد معها مئات من الناس المساكين الذين كابدوا - قبل غرقهم - بؤس اجتياز الأطلسي . ولم تكد سنة تمر دون وقوع كوارث من هذا النوع ، على أن الخسائر لم تكن دائماً في آخر السياحة . وفي ١٨٤٩ تحطمت (السفينة) فلوريدا وغرق مهاجرون ألمانيون من أنتورب (أنظر) على مسافة من هارويك . وفي ١٨٥٠ هلك مائة إيرلندي عندما اصطدمت (السفينة) لإدموند ، بصخور كاوتشي كبير . وقعت تلك الأحداث خلال الهجرة الكبرى من الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة التي بدأت في السنوات القليلة التي تلت ١٧٨٠ واستمرت طوال القرن التاسع عشر . وإلى أن حلت السنوات القليلة التالية لـ ١٨٥٠ كان المهاجرون ينقلون في سفن شراعية دائمة التعرض للريح وتقلبات الجو . وكان أغلب المهاجرين من الفقراء ، والكثيرون منهم معدمين يائسين . وكان من بينهم البستانيون الجبليون المطرودون من أراضيهم المستأجرة ، والصناع الإنجليز ؛ والنساجون بالأيدي ، والميكانيكيون المتعطلون بسبب ركود التجارة الذي حدث بعد الحروب النابوليونية ، والفلاحون الذين استولى ساداتهم على أراضيهم ، وقبل كل شيء : الفلاحون الذين أفلسوا بسبب عجز محاصيل البطاطس وأخرجوا من أراضيهم المستأجرة لقصورهم عن دفع الإيجار . وقد أتى من أوروبا ، وبخاصة من الدويلات الألمانية ، الآلاف من المهاجرين الفلاحين والصناع المتلهفين على استئناف الحياة من جديد بمنأى عن مظالم أوروبا . وفي الحق أن بؤس الدنيا القديمة واليأس منها هما اللذان عمرا الدنيا الجديدة بالسكان . فلقد تدافعت عبر البحار ضحايا القحط في إيرلندا والتعطّل في إنجلترا والثورة والعسف في أوروبا ، وفي السنوات العشر - الواقعة بين ١٨١٥ و ١٨٢٥ - زایل بريطانيا نحو سبعين

ألفا . وفي عام ١٨٥٠ ما لا يقل عن ١ مليون ، أغلبهم من الإيرلنديين . وكثير منهم هبط كويبيك ورحل منها إلى الولايات المتحدة . وكانت أقوام كثيرة تهبط نيويورك في كل عام وعلى سبيل المثال : رحل في عام ١٨٤٨ من النساء والرجال مائة ألف ، نصفهم من الألمان ونصفهم من الإيرلنديين وقد قلل من تعب الرحلة وطولها مجيء مخطط كيونارد البحري إلى نيويورك في العقد الخامس ومجيء بواخر أللان إلى كويبيك في العقد السادس ، وكان مجموع من عبروا المحيط في القرن المنتهى بسنة ١٨٩٠ لا يقل عن ١١ مليوناً ، وصل منهم ٩ ملايين إلى الولايات المتحدة . ومع هذا فإن طوفان المهاجرين لم يقف عندئذ . ووجد الوافدون الجدد أمة بدأت فعلاً في التحول صوب أرض (تنسي و - كنتوكي - و - أوهيو) الطيبة ومناطق (اللينوى - و - ميسوري - و - إنديانا - و - ألاباما - و - المسيسيبي) التي تليها في البعد والتي صارت كلها ولايات في الاتحاد ، قبل عام ١٨٢١ . ورحل الخيالة وعربات النقل على طول البرابات الجديدة لدفع المكوس ، خارج مقاطعة نيويورك أو على طول طريق الجيش القديمة (برادوك) خارج بنسلفانيا في اتجاه الغرب . ولم يكن أولئك هم الرواد بل كان أولئك تجار الفراء والصيادين نصف المتوحشين الذين أخذوا ، في كل وقت ، يناون عن المجتمعات المستقرة . إلا أن من جازفوا بالزوح غرباً اضطروا جميعاً إلى الاعتماد ، في كل شيء ، على مواردهم الخاصة . وقد طرد الهنود من مناطق صيدهم بعد منازلات دموية كثيرة ، وبعد غارات فجائية متعددة شنها جيش الولايات المتحدة المرابط ، وبعد نفخ ونفاح ومذابح وساخ جلد الرأس . ورحل المستعمرون وراء ذلك غرباً في دروب واضحة المعالم — زادها رجال الحدود وضوحاً — دروب تؤدي إلى سنتافى بالمكسيك (واسمها الحالي : نيومكسيكو ، أي المكسيك الجديدة) ، وإلى كاليفورنيا — و - أوريجون . وكان رجال مسلحون بالبنادق يحرسون قوافل « سكونات » البراري (وهذا هو الاسم الذي كان يطلق على مركبات النقل الكبيرة المغطاة) وكانوا يعيشون ، في الأغلب ، على لحم الجاموس ،

وذلك في السهول التي تسود أفاقها أحياناً بقطعان مسنمة الظفر جسيمة . وقد تلاشى الجاموس بسبب رصاص البنادق الذي يطلق عليه بلا رحمة . وقد درجت مركبات النقل على أن تتلصكاً ليلاً توقياً من غارات الهنود المباغثة . وفي هذه العملية — عملية الظفر المتلف المأمول الجسور — بقارة تسكر فيها البراري والأعشاب والغابات الجبارة ، في هذه العملية أدت الأنهار نفعاً كبيراً . فلقد كان من السهل حمل مركبة النقل على طرف كي تسبح منحدرة في (نهر) الأوهيو . وكان المسيسي في السنوات القليلة التي تلت ١٨٣٠ يستخدم فعلاً طريقاً عامة للسفن العريضة ذوات المجاذيف التي تدور بالبخر وذوات المداخن الطويلة .

وهكذا أخذ أحسن الأرض . وهكذا اجتيزت الصحراء وفلاة الصبار وممرات الروكي الجليدية التي قهرتها أمة جديدة من المخامرين . وعجل بنجى سكك الحديد بكل شيء . وفي ١٨٦٠ أكملت السكك الحديدية التي تعبر القارة ، وقد دق آخر مسمار فيها في أوجدين (يوتا) وقما التقى الجزءان الشرقي والغربي .

ولقد كان يوسف بريستلي — وهو أحد الإنجليز المتخصصين في العلوم وأحد الذين يؤمنون إيماناً قوياً بسلطان العقل — يتحمس غاية التحمس للجمهورية الأمريكية حديثة الميلاد . وفي ١٧٩١ كتب يقول إنه ليس من المحتمل — في أغلب الظن — أن تشتعل ، في أي وقت ، في الولايات المتحدة حرب أهلية ، وإنما المملوكيات « القليلة الاعتدال » هي التي تكابد مثل هذا الشر . ولكن بعد ذلك بأقل من مائة سنة حدثت فعلاً حرب أهلية في أمريكا ، حرب دموية عنارية بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية . وفيما بين ١٨٦١ و ١٨٦٥ انسحخت : فرجينيا وولايتا كارولينا — و — جورجيا — و — تينيسي — و — أركانساس — و — لويزيانا — و — ألاباما — و — المسيسي انسحخت كلها عن الاتحاد وانتخبت رئيسها الخاص بها وأعلنت الولايات الشمالية الحرب عليها لتسكرها على البقاء في الاتحاد . وقد يبدو هذا أقرب

إلى الغرابة نظراً لأننا نتفق ، عادة ، على أن الناس يجب أن يكونوا أحراراً في اختيار حكومتهم . ولكن الواقع أنه كان هناك خلاف طويل بين الجنوب والشمال ، إذ كان الجنوب بلاداً زراعية يقوم بها العبيد ، والشمال بلاداً تجارية صناعية . ثم إن الجنوب كانت تكثر فيه بيوت زراعية أرسقراطية أصحابهم ملاك يعيشون على أرباح القطن والطباقي بينما الشمال بلاد تجار وصناع وزراع أحرار . وكان السبب وراء النزاع هو : استرقاق العبيد . وقد رغب الكثيرون من أهل الشمال في أن يحرروا العبيد ، وفي أثناء الحرب أعلن الرئيس أبراهام لنكولن إلغاء الرق (١) .

ولقد نشأ لنكولن في أكواخ من كتل الخشب في بلاده الأصلية : في كنتوكي — و — إنديانا وعلم نفسه بقدر كبير وأصبح محامياً . وبقيادته الباسلة الصبور دفع الشمال إلى الانتصار على الجنوب ، وذلك رغم أن الجنوب كان يتزعمه الجندي البالغ النبوغ (روبرت هـ . لي) . ومن مآسي الحرب حقاً أن رجلين كـ . . (لي) و (لنكولن) يرسلان ليحارب كل منهما الآخر . وهذه مأساة كان لها ما يماثلها في الحرب الأهلية الباكورة في إنجلترا . وكان لنكولن — كلما تقدمت الحرب — يزداد تقديراً في عيون الناس ، وذلك نظراً لما يبديه من تفهم نادر للطبيعة البشرية ولتفكيره في آلام الناس . غير أنه رأى الأخطار تهدد قارة مقسمة . وأنقذ حزبه الاتحاد ، بعد أن أزمع إنقاذه حتى ولو كان ذلك يعني الحرب والالم . وقد قال في خطبة جلييلة بميدان القتال في جتزبرج في ١٨٦٣ : منذ ٨٧ عاماً : جلب أسلافنا على هذه القارة ، أمة جديدة أحسنت إدراك الحرية وقدست فكرة أن كل الناس خلقوا متساوين ... وإنا لنصمم تصميماً جازماً على أن أولئك الشهداء لم يموتوا عبثاً ، وأن هذه الأمة — في رعاية الله — سوف تظفر بمولد جديد للحرية ، وأن حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب لن يزول من الدنيا . وفي رأينا — نحن الذين رأينا الحرية يحدق بها أمدح الخطر في كل مكان بالدنيا خلال

(١) انظر شكل رقم — ١٢ — (توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب)

قرننا هذا — في رأينا أن خطبة لنكوان لها صدى كالبرق . وهذا هو الرجل الذي أتى من الكوخ الخشبي البسيط ، والذي لم تكن لوالديه مزية غير تحرير أولئك الذين خاطروا بالذهاب غرباً ، والذي وصل إلى أعظم منصب مشرف عن طريق الحرية وحتى خصومه أكبروا له الأب إبراهيم .

ولقد تركت الحرب الأهلية ذكريات سيئة ومرارة . غير أن جراحها لم تؤثر على أولئك الآلاف من المهاجرين الجدد والمتحمسين الذين ظلوا يتدفقون من البلاد المملوكة القديمة في أوروبا . واستمر التوسع الأمريكي في نشاط متزايد ؛ ولا يمكن القول بأن أمريكا استقرت . إنها لم تفعل ذلك قط . فلقد اشتغل الوافدون الجدد طوال النهار وطوال الأيام ، وكدحوا من أجل الربح ، واخترعوا ، وتاجروا . وصنعوا ، وزرعوا ، عملوا كل هذا في همة ودأب . وجاهدوا في كل وقت ليتوفروا على نظام موحد للتعليم مستكمل من أصغر مدرسة بالقرية إلى جامعة الدولة . وأصبحت أمريكا بلاد زراع ومهندسين أصحاب ملايين . وخلق — على نحو ما حدث في الدنيا القديمة — نوع جديد من الرجال ألا وهو رجل الأعمال . وفي عشرات من السنين نشأت مدن عظيمة مثل شيكاغو ، وبفلو ، وسان فرانسيسكو ، ونيويورك التي بنيت على جزيرة وامتدت إلى أعلى بناطحات السحاب . وقد أظهر الأمريكيون في كل حياتهم وكل أعمالهم براعة مذهلة وتعطشا للسرعة والابتداع ، وهذه نتيجة مغامراتهم الدائمة الحركة لتطويع إحدى القارات .

ولم تحلّ نهاية القرن حتى كان طوفان المستعمرين الإيرلنديين والألمان قد ثقل على المجتمعات التقليدية القديمة في نيو إنجلاند وفرجينيا ونيويورك الهولندية ، وقد فانت أيام ريب فان ونكل (في الحجر الوسنان) وفانت أيام ريفي مسانشوستس . ومع هذا فقد أخذت هذه الأمة المعجزة تداوم الامتداد على يد منفيي الأمم الأخرى وتبرهن على صحة مبادئ مؤسسها الذين بنوا ميراثهم على قوانين وعادات إنجلترا القرون الوسطى وقد أخذ

زعماء الولايات المتحدة على عواتقهم أن يحببوا تقاليدهم ويلقنوها لأكثر البيئات تنوعاً : الألمان، والإيرلنديين، والسلافي، واليونانيين، واليهود، والإيطاليين، بل الصينيين واليابانيين على سواحل المحيط الهادى حيث هبط كذلك أسبان منذ العهد الذى حكمت أسبانيا فيه كاليفورنيا . وقد أطلق كاتب على أمريكا بحق ، لقب « بوتقة العالم » التى امتزجت فيها الشعوب جميعاً .

وقد ظلت الولايات المتحدة - فى مدى ١٥٠ عاماً بعد إنشائها - تتابع طريقها ، دون عقبات ، بالاهتمام بشئون أوطان سكانها الأصلية الكثيرة العدد فى أوربا احتفظ بقوانينها ودستورها وامتصت تلك الملايين التى تطلعت إلى الحرية والعمل ولا عجب إذا قل اهتمام مواطنيها بما يدور فى العالم الخارجى ، إذ أن دنياهم كبيرة تستغرق كل تفكيرهم وأنهم لديهم أعمال تفوق طاقاتهم . ومهما يكن فقد زایل المهاجرون إليها ، دنياهم القديمة بإرادتهم الحرة وأداروا ظهورهم نحوها ليصنعوا دنياهم الجديدة . فلماذا إذن يهتمون بشئون أوربا ؟

التوسع : الهند :

إلى أن وافى منتصف القرن التاسع عشر كان تجار شركة الهند الشرقية قد حكموا الهند بأجمعها حتى جبال الشمال وقد تأتى ذلك بمقتضى معاهدة وأيضاً بالفتح فى البلاد التى لم توجد فيها الوحدة أو فكرة الوحدة ، بلاد كان فيها الهندوس والمسلمون مختلفين متخاصمين ؛ ولم يوجد فيها قانون موحد بل وجدت خرافات لا حصر لها وعوائد همجية وحكومات لا تحصى . وقد نظم عملاء الشركة وجنودها - يعاضدهم ضباط المملكة وجنودها - قانوناً موحداً أو سلطة موحدة . وزحف أكثر من جيش إنجليزى هندى إلى داخل جبال أفغانستان الوحشية بعد الحدود الشمالية الشرقية وهذه المنطقة

حربية تشبه ما كان عليه سور هديران في بريطانيا القديمة أو تحاكي متاريس الجيش الروماني في بلاد الرابن .

وقد أدى امتلاك الهند إلى إخضاع بورما وهي بلاد أدغال ، كما أدى - بمقتضى معاهدات - إلى امتلاك ولايات الملايو في شبه جزيرة الملايو ، وهي بلاد أثرت ثراءً فاحشاً من صيفيحتها الخام ومن شجر المطاط الذي يكثر فيها . وفي ١٨١٩ أنشئ ميناء سنغافورة وأصبح مركزاً للتجارة الشرقية التي ولدتها بحار الشرق وملتقى الصينيين والهنود والعرب وأهل الملايو وتجار الهند الشرقية . وقد أسس إنجليزى مخامر - اسمه بروك - أمسى راجا (أو حاكم) السرواك ، وهي قسم كبير من جزيرة بورنيو الكبيرة . ولم يحل آخر القرن حتى كان نصف ملاك الجزيرة من أملاك بريطانيا . وأصبح المحيط الهندي - من رأس الرجاء الصالح إلى سنغافورة - بحراً بريطانياً .

وإلى أن حلت نهاية القرن السابع عشر كان لشركة الهند الشرقية مصانع في كالكنا وبمباى ومدراس وكانت لها تجارة مع الصين . وبنى تجارها مرافئهم التجارية في بلاك وول (أى الحائط الأسود) على (نهر) التيمز ، كما بنوا مراكب كبيرة انفردوا بها ، وصنعوا حبسهم وأشروعاتهم بل صنعوا براميلهم الخاصة . وكانت سفنهم مجهزة بمدافع عديدة حتى أصبحت أقرب إلى السفن الملكية منها إلى السفن التجارية ، وقد وسعها أن تنازل وتغرق سفناً حربية أجنبية . وكانت مصانع الشركة في الخارج - حيث تخزن البضائع وتعد للشحن - كالمدارس الكلية ، فيها حاكم وقسيس وكنيسة صغيرة وقاعة الأكل ، وقد جندوا فرقاً من الإنجليز وفرقاً من الهنود . وكانوا يتصرفون في الواقع - وفي كل شيء - كما قد تتصرف سلطنة ذات سيادة . وفي نضالهم مع الشركة الفرنسية ، في القرن الثامن عشر ، أرسلت فرق الملك كي تساعد ، وفي آخر ذلك القرن أرسل حاكم ملسى ليحكم إمبراطورية البلاد التي أحرزها التجار .

ولم يُرَ شبيهه لهذا من قبل ، وليس من المحتمل أن يرى مرة أخرى .

وبعد التردد الذى حدث فى الفرق الهندية البنغالية ، عام ١٨٥٧ ، انتهت الشركة . ومنذ ذلك الوقت آل حكم الهند إلى نائب ملك وإلى مجلس باسم الملكة . وكان ثلث البلاد يتكون من ٦٠٠ مقاطعة أهلية يدير شؤونها أمراؤها المختلفون فى القوة والاعتبار ، من نظام حيدر أباد (الذى يحكم مناطق تضاوى إنجلترا فى سعتها) إلى زعيم قرية مفردة . وحكم الثلاثين الآخرين ، باسم الملكة ، نحو ألف موظف من المختارين المخلصين ، يدير كل منهم منطقته كما قد يفعل الحاكم المستبد . ويكون هذا الحاكم أحياناً الرجل الأبيض الوحيد بين ربع مليون من الأهلين . وكان يعاضد هذه الحكومة المدنية العجيبة جيش لا يقل عجباً ، قوامه ربع مليون جندي ، منهم ٧٥ ألفاً من البريطانيين . وكانت فرقة بريطانية تعسكر مع ثلاث فرق هندية ، ويقودها جميعاً ضباط بريطانيون . وكان المشاة والخيالة الهنود يجندون من بين الشعوب البواسل مثل البنجاب والسيخ والماراتا والدوجرا والراچپوت ، ومعهم باتان وجودكا من وراء الحدود . لقد كان جيشاً لم تر الدنيا شبيهاً له . وكان الأمر الثالث والأهم فى شأن هذه الإمبراطورية الهندية العجيبة أن الرجل والمرأة العاديين فى بريطانيا ، معرفتهما بها قليلة واهتمامهما أقل .

وقد بدأت الهند - تحت الحكم البريطانى - تشارك فى مزايا الهندسة الغربية : الطرق والسكك الحديدية ، والتلغراف ، والقنوات ، والمنارات ، والجسور (الكبارى) ، والخزانات . لقد أنشئ كل هذا . وأدخلت طرق للزراعة أكثر نجاحاً ، وقطعت بعض الأدغال . وأخضعت الفيضانات والمجاعات والأوبئة بعض الإخضاع وحُدَّ بعض الخد من تأثيراتها المروعة . واستقرت مناجم الفحم والحديد ، وزرع القطن والقصب والقنب (الجوت) وأقيمت المصانع ، واحتفظ بالغابات توفيراً للخشب ، وتنفيذ هذه الأمور لا يتطلب وقتاً طويلاً ، وهو الجزء من مجهود الإنسان الذى يقل فى

الأهمية . أما الجزء الأصعب فهو التوفر على وضع نظام طيب للتعليم أو الصحة العامة . ولم يكد القرن يشارف نهايته حتى كان للهند جامعاتها ومدارسها الطبية .

التوسع : الشرق الأقصى :

حكاية أوربا أقل بكثير من نصف حكاية الإنسانية . فاقد كان هناك وراء غابات أوربا الوسطى وسهولها ، وهضاب بلاد الفرس - منطقة مراعي شاسعة انحدرت منها قبائل خشنه من الهون والتتر ، على الحدود الشرقية لأوربا حيث كان يحسبهم سكانها سيافاً أرسلت للتنكيل بالأشرار أو كائنات صعدت من دنيا جهنم . وكذلك أغار أولئك الفرسان المتوحشون على الحدود الغربية لمدينة بالغة القدم في الشرق الأقصى ، وهي الإمبراطورية السماوية للصين التي بنى حكمها الأولون السور العظيم ، الذي يمتد ١٨٠٠ ميل ، لكي يبعدوا المغيرين .

وترجع المدينة الصينية إلى عهد سحيق مظلم ، إلى ثلاثة آلاف عام قبل المسيح . ولها تاريخها الطويل في صدر الإمبراطوريات والأسر والحروب والفتوح . وقد طورت طريققتها الخاصة في الكتابة على الورق وأساليبها في البناء والزراعة والتجارة . وكان لها أدبها وقها الجميل وألعابها (بما فيها كرة القدم ذات الطرائق السبعين في ركل الكرة) وقصصها التثيلية . وقد بقيت مجهولة للغربيين الذين لم يتصلوا بها قط اتصالاً مباشراً كائناً ما كان نوعه . اللهم إلا — على سبيل الاحتمال — بطريقة عابرة عندما زحف فرسان الإسكندر إلى داخل الهند ولقنوا الشعوب ، التي تستوطن شمال شبه الجزيرة تلك ، بعض العلم بالأساليب الإغريقية . وقد وصل رحالة انفراديون إلى الصين من الغرب ، وجرى قبس واه من تجارة أنواع الحرير

على يد سلسلة طويلة من التجار . أما معرفة أوروبا بالصين معرفة تامة فقد بدأت عندما رست سفينة برتغالية في كانتون سنة ١٥١٤ ، وقد وجد صينيون كثيرون في ملقا حيث كانت السفن الصينية شيئاً ، ألوفاً . وبعد أن حل الهولنديون والإنجليز محل البرتغاليين في المياه الشرقية تاجرت سفنهم في الموانئ الصينية . وقد أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية وكالة في ١٧١٥ في كانتون حيث كان وكلاؤها يتاجرون — مع أداء الشحائر المرعية — مع محال التجار الأجانب ، فيبيعونهم رزماً من الأقمشة الصوفية لقاء صناديق من الشاي .

والشاي — الذي هو الآن المنعش المألوف في بيوتنا — هو الهبة السامية التي قدمتها الصين . وزرعت الأصناف الهندية المختلفة — فيما بعد — لتمدنا بالمقادير الهائلة التي نتطلبها . وكان أحد صادرات الشرق الأقصى الشهيرة : الخزف وبخاصة خزف أسرة منج . ذلك أن الصينيين كانوا خرافين مهرة ، زهرياتهم وتماميلهم الصغيرة وأقداحهم وأطباق أقداحهم يكثر عليها طلب جامعي التحف . وإن مهارتهم لتخلدها ، بحق ، الكلمة التي نستعملها للتعبير عن أدوات المائدة : « الصيني » ومن هباتهم العظيمة الأخرى للشرق ، المجموعة الكبيرة البديعة من الشجيرات والأزهار التي جلبها علماء النبات الذين حملوها إلينا ، على مدى القرنين الماضيين ، من أقاليم الصين كافة .

وكانت أفكار الصينيين — من حيث القانون والتجارة وآداب السلوك — تخالف الأفكار الأوروبية كل المخالفة غير أن فهمهم للفضيلة والواجب يشابه فهم الأوروبيين كل الشبه . فلقد كانوا مرحين صخابين أوفياء كثيرى العمل صبورين مجاملين . وهم لم يحفلوا بفروق طبقية شديدة

متزمتة كما يفرق الغربيون بين الأرستقراطية وعامة الشعب . ومن حيث المهن الأربع التي تفوق غيرها في الأهمية كانوا ينزاون العالم أرفع منزلة ويليه المزارع ، ويأتي بعده الصانع الماهر ، ويمسبون التاجر في المؤخرة . (وهذا — في الجملة — يعاكس الترتيب الغربي على خط مستقيم) . وقد درجوا على أن ينتخبوا حكامهم وموظفيهم من زمرة العلماء المتضلعين في العلوم الصينية القديمة .

ودراسة خير ما في المدنية الصينية هو رؤية حياتنا وعاداتنا على ضوء جديد . وحكمة فلاسفتهم — من أمثال كونفشيوس ومينيكوس — بوضعها ميراثاً يدخر للجنس البشري كافة — لا يقل عن ميراث حكمائنا . فلقد كانت الإمبراطورية الصينية أكبر مساحة من أوروبا وبقيت أطول من أية إمبراطورية أخرى في تاريخ العالم بمدة تقدر بأجيال . وأكثر ما يسترعى النظر في الحياة الصينية هو تماثلها في أثناء عصور الغرب المسيحية جميعاً . إلى أن فرض الغرب نفسه على الصين ونقل قلقه إلى الشرق الأقصى .

وحكاية التجارة الغربية مع الصينيين حكاية ليس في مقدورنا أن نفخر بها ... في عام ١٨٣٤ حارب البريطانيون الصينيين ليكرهوهم على الترخيص باستيراد الأفيون الهندي ، وفي حرب شنتها — فيما بعد — الفرق البريطانية والفرنسية أحرق — بطريقة هوجاء — القصر الصيفي الجميل الذي يصطاف فيه أباطرة المنشوري (وهو صقع في شمال الصين) . ولكي تأمن الدول الأوروبية على تجارتها وعلى الربح الذي تدره ، أكرهوا الصينيين على أن يعطوهم موانئ محددة — كانتون ، أموى ، فوشاو ، ننجبو ، شنغهاي — ليعيش فيها تجارهم ولايرسلوا بضائعهم عن طريقها . وخص البريطانيون أنفسهم بـ ... هنج كنج ، ولا يدهشنا أن الكثيرين من الصينيين لم يحبوا

مجيء «الشياطين الأجانب» إلى بلادهم ، ولنا أن نتصور إلى أي حد تغضب نحن إذا أرسل أباطرة المنشوريين تجارهم ليحتلوا أنتورب (أنقر) أو لندن وقد حسب الأثرون من تجار الغرب أنفسهم الناس «المتمدنين» الأعابن ونظروا إلى الصينيين على أنهم «أولاد البلد» . ومن سوء حظ الصينيين أن الحكام المنشوريين كانوا ضعاف الشخصية في الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، فقد نجم عن هذا اضطراب الصين بالحروب الأهلية والخصومات ، سنوات طوالاً ، أغلب الوقت في واقع الأمر وربما كانت تلك الحالة تشبهه ، بعض الشبهه ، ظروف أوروبا في السنوات الأخيرة للإمبراطورية الرومانية . وكان من سوء حظ الصينيين الفادح أن اليابانيين تحولوا إلى دولة قوية مجهزة مسلحة بآلات الرجل الأبيض وأسلحته . . . بالسحر الجائر .

وقد أيقظ اليابان تحرق الرجل الأبيض إلى التجارة مهما كلفه ذلك . فلقد أكره الأمريكيون اليابانيين على استقبال التجار في ١٨٥٤ . وفي أعقاب هذا ، برهن الجزائريون صغار الحجم على أنهم تلاميذ مستعدون لتلقي الحذق الفنى والعلم الغربيين ، وما هو إلا القليل حتى تحولوا إلى أمة صناعية تملك بحرية وجيشاً قوين تقودهما أرسقراطية قوية . وفي ١٨٩٤ انتزعت اليابان كوريا من الصين ، وأثار هذا غيرة الدول الغربية (بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا) وحفزها هذا إلى الاستيلاء على موانئ صينية .

وفي ذلك الوقت كانت الاصقاع المتعدنة في الصين — كالأصقاع غير المتعدنة في إفريقيا — تحت رحمة مزيد من أطماع الدول الكبرى وشهواتها ومنافساتها ، فلما اتحد الوطنيون الصينيون (المعروفون باسم البوكسر ، أى الملاكمين) وقتلوا المهندسين والمبشرين الأوربيين ضمت الدول الكبرى

قواتها وسلبت ونهبت بكين وغيرها ، وتصرف الكثيرون من جنودها تصرفات بربرية (١٨٩٩ — ١٩٠١) .

وبعد هذا بسنوات قلائل — في عام ١٩٠٤ — تنازعت روسيا واليابان على أيهما يحكم منشوريا . وأشعلا حربهما في الأراضي الصينية وفي المياه الصينية . وهزم اليابانيون الروسين وأغرقوا أسطولهم .

وفي سنة ١٩١١ أصبحت الصين بالاسم فقط ، جمهورية . ولكن كان الواقع أن إمبراطورية المنشوريين قسمت . ولم يستقر الوضع على حكومة موحدة بل حدث أن حكومات وجيوشاً متنافسة زحف بعضها على البعض وحارب بعضها بعضاً . وكفلت معاهدة الموانئ — التي عقدها الدول الغربية — القانون والنظام . غير أن هذه الدول ، في مدى أربعة أعوام ، اشتمكت في حرب شملت أغلب العالم .

التوسع : إفريقيا :

قلت متاعب السكنديين مع الهنود الحمر نظراً لمجهود الشرطة الراكبة ، ولم يلق الأستراليون معارضة من السكان السود الأصائل . والأمريكيون والزيلنديون حاربوا الهنود الحمر والماوزي على التتابع ولكنهم مع ذلك لم يستبعدوهم .

أما في إفريقيا فكانت الحقيقة مختلفة بشكل مروع . فإن هذه القارة الضخمة ، التي كانت شواطئها الشمالية يوماً موائلاً لمدينة قديمة ، احتفظت بأسرارها مدة أطول مما احتفظت الآخرين . فلقد حلت عليها لعنة الرق ، وكانت مجموعات لا تحصى من العبيد يعرضون للتجارة حتى على يد زملاء لهم من العبيد الذين باعواهم بيع السلع لتجار عرب الشرق أو لرباني سفن الغرب الأوربية . ويمكن إجمال أغلب تاريخها في كلمات قليلة مروعة : الجهل ،

والفقر، والجوع، والمرض، والحرب، والخوف، والخرافة، والاسترقاق .
وفي وقت باكر — قبل أن يعرف أى رجل أبيض أين تجرى أنهار إفريقيا
أو أين تطاول جبالها السماء فوق بحيرات كبيرة كأنها بحار داخلية — قبل
هذا نقلوا بالقوة الجبرية أقواماً بتمامها من الأسود ليكدحوا في زرع السكر
والطباق والقطن والنيلة ، بالدنيا الجديدة . لقد استبعد ما لا يقل
عن ٦٠ مليوناً من المروعين ، من قرابة أربعين محطة عبء على طول الشاطئ*
الغربي الاستوائى حدث ذلك في القرن الثامن عشر . وفي آخر ذلك
القرن لم يكن معنى إفريقيا ، في نظر الأوربيين ، أكثر من المتاجرة في ذلك
«العاج الأسود» وبكمية أقل ، في سن الفيل والتبر (وهو تراب الذهب)
والمُجَنِّس (أى خشب الكابلي) . ووجد على طول الشاطئ* المغربي بالجزائر
قراصنة أو اصوص البحر . ووجد — على بعد ستة آلاف من الأميال ،
عند رأس الرجاء الصالح مستعمرة بالغة الصغر للمولنديين أو البوير . على
أن شيئاً مالم يكن يعرف عن المناطق الداخلية الاستوائية وشبه الاستوائية ،
لأن إفريقيا عندئذ كانت « قارة سوداء » بكل معانى الكلمة . (١)

وبعد أن ضمت بريطانيا جنوب إفريقيا في ١٨٠٧ اختلّف البوير
وحكامهم الجدد في شأن الأهلين . . كان الأهلون — في نظر البوير —
سلالة منحطة من بني آدم . أما بريطانيا العظمى فقد بدأت في ذلك الوقت
ترسل عشرات من الشبان ليُنصِّروا وثنيسي المحيط الهادى وإفريقيا .
ولم يتفق المبشرون والبوير في الرأى في شأن الزنوج . فلما حرر كل
العبيد بالممتلكات البريطانية حلت بالبوير — بسبب تصرفات خرقاء —
خسائر تفوق كثيراً الخسائر التى حلت بزراع الهند الغربية الأغنياء . والواقع
أن هذه المعضلة ذات الأطراف الثلاثة — البريطانيين والبوير والبانـتو

(١) انظر شكل رقم — ١٣ — (احتلال أوربا لإفريقيا) .

(أى الأهلين) — كانت بالغة التعقيد ، ولم تبسطها التهجئات والتهتم التي كان يوجهها كل طرف إلى الطرفين الآخرين .

وخلت النتيجة في عام ١٨٣٦ والسنوات التالية عندما حزمت جموع غفيرة من البوير أمتعتها على مركبات بطيئة تجرها الثيران واتجهت شمالاً تبحث عن مواطن جديدة ومزارع في البراري التي كانت ، نندند ، مناطق صيد المحاربين الزولو ومراعيهم . وكانت تلك الهجرة الكبرى — في نظرهم — رحلة شعب مضطهد إلى الأرض الموعودة ، رحلة اقترنت فيها الشجاعة بالمأساة . وقد قتل الكثيرون منهم بيد القبائل المتعطشة للدماء . أما أولئك الذين شقوا طريقهم بالقوة فقد أسسوا ولايتين جديدتين : إحداهما على نهر الأورنج وثانيتها في الترانزفال .

وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون يعملون في أقصى الشمال . فقد فتحوا الجزائر وركبوا البحر الأبيض المتوسط ببحر القراصنة — ثم بدؤوا يخططون مشروعات لوصل البلاد التي فتحوها حديثاً بمقرهم على نهر السنغال .

وفي منتصف القرن استكشف رحالة ومبشرون — وكان أعظمهم دافيد ليفنجستون — الجزء الداخلي المهتم من إفريقيا الوسطى مترسمين بحاري أنهار : النيجر والنيل والزمبيزي والكونجو ومستكشفين البحيرات الكبرى وقد أبانوا عن الوحشية المفزوعة والفظائع المروعة لحياة القبائل وحروبها . وكذلك أبانوا عن الثروات الطبيعية الضخمة التي تحتويها القارة . وكان ذلك تحدياً مزدوجاً للأمم الأوروبية ، أولاً لنشر الدين المسيحي وثانياً للاستيلاء على أكبر رقعة من الأرض يمكن الاستيلاء عليها طلباً للربح . وكانت النتيجة أن تدافعت الدول الكبرى لحيازة الأراضي الإفريقية في العقود التاسع والعاشر .

وضم البلجيكيون — بمجهود مليسكم ليوپولد — الحوض الكبير لنهر الكونجو ، حيث أخذوا بزرعون المطاط وحيث استكشفوا فيما بعد معادن كبيرة القيمة . ومدت بريطانيا نفوذها على أراضي النيجر وخالقت نيجيريا بعد أن استولت على نياسالاند وأوغندة . وكان البرتغاليون قد امتلكوا فعلاً أنجولا وشرق إفريقيا البرتغالي ، اللتين خلفتهما لها أيام الاستكشاف البطولية في القرن الخامس عشر . ووضع الألمان — الذين تخلفوا في الإقدام على الغزو — أيديهم على الكاميرون وعلى مناطق كبيرة في شرق إفريقيا وغربها . ونجح الفرنسيون في مجهودهم الطويل المدى ليمسكوا سلطانهم على رقعة محبوبة من الأرض تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى شاطئ غينيا بما في ذلك الصحراء الكبرى . ولم تمض سنوات قليلة حتى كانت إفريقيا كلها ، باستثناء مملكة الحبشة (إثيوبيا) المسيحية وليبيريا الواقعة على الشاطئ الغربي (التي استوطنها عبيد متحررون) ، قد قسمت بين الدول الكبرى .

وحتى مصر نفسها احتلت . . . وهناك — فيما بين ١٨٥٩ و ١٨٦٩ — احتفر مهندس فرنسي ، اسمه ديليسيس ، قناة السويس ليقصر الطريق البحرية إلى الشرق ، ووقتئذ أصبحت مصر ، من فورها ، ذات أهمية . فاحتلتها بريطانيا وحكمتها في ١٨٨٢ لمصلحتها الخاصة . وكانت نتيجة ذلك أن سيطرت على السودان . وأصبحت قناة السويس حلقة هامة في سلسلة المواصلات الإمبراطورية البريطانية ، وبخاصة لوقوع مصر وسط المقتضيات التجارية والحربية لمصلحة بريطانيا .

وقد أعاد المبشرون تنظيم تدوين اللغات الأهلية المتعددة . وما يزالون يعملون بمساعدة الحكومة . ولكن الأحداث ، في الجنوب الأقصى ، تحركت صوب كارثة كبرى .

في عام ١٨٧٧ ضمت بريطانيا جمهوريات البوير . وفي عام ١٨٧٩ أباد الزولو قوة بريطانية . وفي عام ١٨٨٢ أباد هولانديو الترانزفال ، في ماجوبا ، قوة أخرى من البريطانيين . ولكن فيما بعد ، أخضع الزولو وضمت بلادهم . وقد تركت الحكومة البريطانية أهل الترانزفال وشأنهم ولكن المغامرين لم يتركوهم . وكان الماس قد وجد في كيمبرلي والآن وجدت — في ١٨٨٦ — عروق من خامات الذهب على ويتواتر ستاند (الراند) في الترانزفال . فاندفع ، في الحال إلى البلاد حشد كبير من الباحثين عن الذهب ليجازفوا بتحقيق مبتغاهم . ولم تمض سنوات قليلة على محلة جوهانسبرج الصغيرة حتى تحولت إلى بلدة غنية ومركز لصناعة التعدين في العالم . ولم يكن أولئك الأجانب أو « الغرباء » صفوة المدنية بالمعنى المفهوم . وكان رئيس الترانزفال — بول كروجر المسن — مزارعاً بويرياً « طبق الأصل » ، شارك ، صبيّاً ، في الغارة الكبرى التي أشعلت لجعل تلك البلاد وطناً قومياً .

وكان أحد الرجال الذين ربحوا الملايين من الماس والذهب : سـل رودس وهو ابن قسيس إنجليزي . وفي عام ١٨٩٠ صار رئيس بلاد الكاب . وقد استخدم ثروته في تأليف شركة تستخدم أراضي الأهلين الواقعة شمالي الترانزفال . وكان الفضل في التنفيذ للتجريدة المسلحة التي أرسلتها الشركة . وأطلقت على البلاد التي دخلت في الحياة حديثاً اسم روديسيا . وعندئذ أحاطت الأملاك البريطانية بالبوير من كل جانب .

ونظم رودس حملة مسلحة لتدخل الترانزفال كي تساعد أغراب الراند الذين كانوا — في الواقع — يلقون من البوير معاملة قاسية . وأخفقت الحملة إخفاقاً مبيئاً . وفي عام ١٨٩٩ وصل سوء التفاهم بين البوير والبريطانيين إلى توتر حدا بفارسان الترانزفال وولاية الأورانج الحرة إلى أن حشدوا فدائيتهم ودخلوا بنخيلهم مستعمرة ناتال البريطانية . وقد جاءوا بمدفعية مشتراة من أوروبا وكانوا يحسنون تصويب البنادق ويحميدون التحركات .

وهذا يعيد إلينا ، في وضوح ، النبالة الخيالة الذين أعدتهم بريطانيا في القرون الوسطى . وبدأت الحرب التي تلت ذلك بسلسلة من الهزائم البريطانية . ولم تكسب إنجلترا غير المعركة الأخيرة في عام ١٩٠١ بعد أن أرسلت إلى الميدان بربع مليون من الجنود بينهم ركبان كثيرون من مستعمراتها . وخسرت ستة آلاف قتيل ، وعشرين ألفاً غيرهم ماتوا بالحمى وبالدیسونتاريا . ولم تقتنع سائر الدول الأوروبية لا بعدالة مقاصد إنجلترا ولا بذكاء قوادها . وسادت الحكمة في وستمنستر بصلح ١٩٠٦ الذي منحه البوير استقلالاً داخلياً كاملاً ، داخل اتحاد كل مستعمرات جنوب إفريقيا .

وإلى أن حلت سنة ١٩٠٠ كان خلفاء داجاما وكولومبس وكابوت وكارتيديه وتسمان وكوك قد امتلكوا جميع الأراضي في جميع القارات . وبسطت روسيا الإمبراطورية جناحيه على إمبراطورية وصلت إلى منغوليا ، وذرعت نسر الولايات المتحدة الجمهورية ، أمريكا ، وأصبح العالم ملكاً للأوربيين ، باستثناء الصين في فوضاها الكبرى العديمة التنظيم ، واليابان الكاملة التنظيم والتسليح التي تعج بالسكان وتتطلع إلى أراض جديدة ، وباستثناء مجموعة أراضى الشرق الأدنى المخطمة حيث يستمتع التركي براحة على حساب رعاياه البائسين .

وانتشر العالم حول أوربا كما انتشر يوماً حول روما القديمة . إلا أن روما كان لها مجلس أعيان واحد وجيش واحد ، أما أوربا فلديها الكثير . وحكمت روما شعوباً بيضاء كأبنائها . أما أوربا فقد حكمت ملايين الشعوب الملونة المختلفة . وكان في مقدور خير الرومان أن يجلب السلام إلى إمبراطوريتها . أما السلام الأوربي فغير موجود ، وبدلاً من السلام أغرقت الدول الأوروبية العالم في خصوماتها المرة .

الأمم في جهادها من ١٩١٣ إلى ١٩١٨ :

في وقت قصير أصبحت ألمانيا الجديدة إمبراطورية غنية صناعية تجارية وتطلعت إلى أن تستعمر . وفي زحمة التكالب على الأصقاع التي لم تحل في إفريقيا استولت ، في عام ١٨٨٤ ، على مناطق شاسعة في الجنوب الغربي لتلك القارة ، وفي شرقها ، كما استولت على توجلاند والسكرون . وكذلك احتلت غينيا الجديدة . وكان مهندسوها وصناعها وعلماءها حاذقين ، وتجارها ذوي إقدام ، وسفنهم تتاجر مع كل أجزاء المعمورة ، وسكانها موفوري العدد مطيعين شجعاناً محبين للعمل . وأخذ بعض أبنائها الزائدي الحماسة يبشرون بمبدأ أن الألمان شعب ممتاز قدر له أن يسيطر على جميع من دونه من الأجناس البشرية . وكان جيشها النظامي خير جنود أوروبا تدريباً . وكان أركان حربها وضباطها يحتقرون الروس ويصغرون من شأن الفرنسيين كثيراً ويصغرون من شأن البريطانيين أكثر من ذلك . ولم تكتف بحيازتها لأداة حربية عظيمة فبدأت تبني عمارة بحرية حربية تتحدى بها الأسطول البريطاني .

وقرب هذا التهديد بين فرنسا وبريطانيا فتفاهما وعقدا ، في ١٩٠٤ ، اتفاقاً ودياً . وكانت روسيا وفرنسا حليفتين ، وألمانيا والإمبراطورية النمساوية حليفتين كذلك . ولا كمال دائرة الاتفاقات والمنافسات نقول إن روسيا والنمسا كانتا تتنافسان على النفوذ في البلقان . وهكذا وجدت مجموعتان من الدول الكبرى تتنافسان وتخشى كل منها الأخرى . إلا أن أوروبا استمتعت بأربعين سنة شاذة امتازت بالسلام والرخاء ، وبدأ أنه — إذا استثنينا النزق البشري — ليس هناك ما ينع الدول من فض خصوماتها بالطرق الودية . والواقع أنه كانت هناك في لاهاي محكمة دولية يفصل مشرعرها العلماء في الخصومات التي تقع بين الأمم وينهونها بالطرق السلمية .

وفي يونيو ١٩١٤ قتل الأرشيدون فرديناند ولي عهد التاج النمساوي «
في سراييفو بالبوسنة. ولما زعمت النمسا أن الحادثة قديمتها السرييون طلبت .
ترضية كاملة من الحكومة السربية. ولكنهما لم تترك مهلة للمفاوضات الهادئة ،
وأعلنت الحرب بدلاً من ذلك . وعاضدت روسيا أصحابها السلاف .
السربيين . ورغم الجهود الياثسة التي بذلها الوزراء والسفراء لحفظ السلام .
أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا وعلى فرنسا . وواضح أن أركان الحرب .
النمساويين والألمان انطلقوا يحاربون . وأمل القواد الألمان - بغزوهم بلجيكا ،
وهي دولة صغيرة محايدة - أن يعجلوا بإرسال جيش جرار إلى شمال فرنسا .
من أيسر السبل ، إلا أنه نجم عن فعلتهم الغادرة أن أعلنت بريطانيا الحرب .
على ألمانيا في الرابع من أغسطس من سنة ١٩١٤ .

ورأى أناس قلائل - من فوق صخور (كنت) - السفائن البريطانية .
المحاربة تتحرك ، في صفوف طويلة ، عبر المضائق ، في اتجاه الشمال . وكان .
الأسطول في طريقه إلى المحطات الحربية في المياه الاسكتلندية . وعُوق آخرون ،
من المستمتعين بالأجازات ، فترة طويلة حتى تمكنت قطارات عسكرية طويلة .
من المرور . وكانت سبعة الفيالق الأولى من الجيش النظامي تتجمع في .
سودامبتون كي ترحل إلى فرنسا . وترك الناس زراعتهم ومصانعهم ومكاتبهم
ليحلوا محل الكتائب التي رحلت ، وملأوا المعسكرات . وبذلك أصبحت .
بريطانيا - أول مرة في التاريخ - أمة مسلحة . وهرع أبناؤها من جميع نواحي
العالم ليلحقوا بإخوانهم . وقدمت الهند والمستعمرات المستقلة جيوشها
و ثرواتها . وكان الشعور العدائي لألمانيا قوياً بصورة مذهلة . وحتى عندئذ ،
في البداية ، حدث تصميم على المبدأ القائل : التجأت ألمانيا إلى القوة فلتقابل
بالقوة ، بل بنهاية القوة ، وكأنما كانت حرباً صليبية ، وبالنسبة للمجندين الفرنسي
الذي ذهب إلى معسكره دون تفكير .. وبالنسبة للاحتياطيين الذين ساعدوا
في إشمال أفران السفن التي اتجهت إلى وطنهم من أمريكا الجنوبية .. وبالنسبة .

الملتطوع البريطاني الذي وثب لحمل السلاح ... كانت الحرب هي المناسبة التي يهب فيها كل ذى أرب ليقاوم التهديد الذي لا يحتمل ، الذي مصدره الاعتداء . لقد دخل الحلفاء الحرب لإنهاء الحرب .

وهذه الاستجابة خيبت قصد الألمان في شن حرب الصاعقة الذي استهدف قهر الفرنسيين أول الأمر ثم التحول شرقاً لهزيمة الروس .

وفي الحق أن هذا كاد يتم . ولكن لحسن حظ الفرنسيين ، ولشجاعتهم أيضاً . استجمع الفرنسيون قواهم ضد المغيرين وردوهم إلى (نهر) المارن . وصنع البلجيكيون ماوسعهم . وقام الجيش البريطاني بدوره الصغير الفعال . وتحولت حرب الصاعقة إلى لعبة شطرنج . فقد احتفر الفريقان خنادقهم على طول الخط من جبال القوق إلى الشاطئ البلجيكي . ولبث الميدان الغربي أربع سنوات ، حرب خنادق وقنابل جهنمية ، حارب فيها الملايين من الرجال نوعاً من حروب الحصار . وأطلق العنان لجنون الإنسان ولشجاعته في حرب استدرجت معظم أوروبا . فلقد انضم الأتراك إلى ألمانيا في عام ١٩١٤ وأعلن الإيطاليون الحرب على عدوهم القديم ، النمسا ، في عام ١٩١٥ .

وأصبحت ألمانيا والنمسا وتركيا حصناً جباراً أو كتلة من الأرض مسلحة محاصرة من جميع النواحي الممكنة . وقد هاجمتها الجيوش الروسية من البلطيق إلى البلقان . وكذلك هاجم الروس تركيا من جبال القوقاز . ونزل جيش إنجليزى هندي في دلتا الدجلة بالعراق . ووقف جيش بريطاني آخر على قناة السويس . وتسلق الإيطاليون وحاربوا على طول (جبال) الألب النمسية . هذا بينما — من سويسرا إلى الشاطئ البلجيكي — اشتركت جيوش الفرنسيين والبريطانيين (والبلجيكيين) في حماية باريس وموانئ المضيق .

وفي ١٩١٥ قامت جيوش البريطانيين والاسـتراليين والزيـلنديين ،
والفرنسيين — تعاضدها السفن الحربية — للاستيلاء على شبه جزيرة
غاليبولي ، وبذلك تفتح طريق بحرية إلى القسطنطينية وإلى الموانئ الروسية .
بالبحر الأسود . ولو نجحت الحملة لخرجت تركيا من الحرب ولوصلت
إلى روسيا نجات كانت هي في أشد الحاجة إليها . غير أن المحاولة أخفقت .
بعد مواقع ضاربة . . . وأنقذت تركيا مهارة ضابط تركي اسمه مصطفى كمال
أتاتورك وبقي الروس معزولين عن حلفائهم .

وعاش الناس في فرنسا وبلاد الفلاندر عيشة النمل في الأرض على أن
يظهروا في بعض الأحيان لكي يهجموا في مواجهة نيران المدافع الرشاشة
والبنادق والقنابل المتفجرة ، ثم يموتوا ليكسبوا أمتاراً قليلة موحلة ، وقد
لا يكسبون شيئاً على الإطلاق . . . هجمات وهجمات مضادة ، غارات
وغارات مضادة ، خندق ضد خندق ، تسلسل ضد تسلسل ، لغم واغم مضاد . . .
كان هذا هو الشوط اليومي الذي يجريه آلاف الرجال . وقد استخدمت
جميع وسائل التخريب : قنابل يد ، وقنابل ، ومدافع هاون ، وشرابيل ،
ومفرقات عالية ، وسحب من غاز السم الحاقق (وقد أطلقها الألمان قبل
غيرهم) . وحول هلاك المدافع مناطق زراعية كاملة إلى خراب موحد قاحل .
وكانت الهجمات الطموحة تسدد بإحكام ثم تخفق وتترك أكداً من القتلى
والجرحى والكسيحين ، وتترك كذلك أسماء الأماكن المظلمة التي حدثت
فيها : لوس — ييپر — نوف شاتل — شيان دي دام — مسين — فـردان —
تتركها على أنها سجلات للجنود والبطولة اللذين يفوقان حد الوصف . وقد
اشترك المتطوعون المتحمسون الذين انخرطوا في الجندية في عام ١٩١٤ ، اشتركوا
في هجوم كبير — عام ١٩١٦ ، على طول (نهر) السوم — وفقدوا ، في
اليوم الأول ، ستين ألفاً ما بين قتيل وجريح . ولم يتوافر لرجل على قيد
الحياة من الحكمة والمهارة ما يكفي لتوجيه شجاعتهم وتوجيهها مفيداً . وقد طارت

الطائرات وحاربت فوق الرموس وزادت من البلية والدمار . ولم توات
أى زعيم من زعماء الطرفين أدنى فكرة عن كيفية وضع حد لهذا الطمع
المنهك ، اللهم إلا بنوع بشع من حساب الموت ، بطرح المزيد ثم المزيد من
الرجال ضد خطوط القتال المحصنة . وقد استخدمت الدبابات
البريطانية — أول ما استخدمت — على (نهر) السوم ، ولولا أنها قليلة
لاخرقت الخطوط .

ولم يكن الحلفاء يستطيعوا متابعة الحرب إطلاقاً لولا أساطيلهم . فإن
الطرادات وسفن الحراسة المسلحة هي التي حاصرت أوروبا ، ومنعت وصول
المؤونة إلى ألمانيا ، وحمت الأساطيل التجارية التي حملت المعادن والأطعمة
والمهمات الحربية من الدنيا الجديدة إلى دور الأسلحة وأحواض السفن
التابعة للحلفاء ، وحافظت على خطوط الملاحة البحرية الكبيرة التي عجت
بالجنود . وقد أمضى أسطول حصار بريطاني معظم وقته في أعمال الحراسة
والعس ، بين أيسلندا والنرويج . وفي عام ١٩١٦ عندما انفلتت سفن الألمان
الحربية التابعة للقيادة العليا من قواعدها ودخلت البحر الشمالى لقيتها الوحدات
الصغيرة التابعة للأسطول البريطانى الكبير ، وراء جتلند ، لقيتها لقاء عنيفاً
جعلها تهرع إلى مراقبتها حيث ظلت قابعة .

وفي عام ١٩١٧ لقي الحلفاء أسوأ حظهم : إلى هنا احتجزت الجيوش الروسية
الضخمة جيوشاً ألمانية تعادلها ضخامة ، على طول ميدان قتال يترامى من
البلطيق إلى البلقان حيث كانت جيوش كاملة تتحرك إلى خلف وإلى أمام
عبر روسيا الشرقية وبولندا وجاليسيا . وكانت الخسائر الروسية فادحة
ومواردها من المدافع والذخائر بالغة الشح . وكانت شجاعتها مذهلة . غير
أنه فى مارس من سنة ١٩١٧ قامت فى روسيا ثورة شعبية . اعزل القيصر
وقتل بعد ذلك هو وأسرتة ، وقد بدأت الثورة الروسية — كالثورة الفرنسية —

بزعامه رجال ذوى عقول حصيفة ومقاصد طيبة ، هم الشيوعيون — بزعامه لينين — الذين سارعوا إلى عقد الصلح مع الألمان . وهكذا انسحبت الجيوش الألمانية في الشرق لتعين الجيوش الألمانية في الغرب .

وعندئذ ثارت الجيوش الفرنسية . وفيما كانوا يستعيدون نظامهم حارب البريطانيون حرباً طويلة موحشة باهظة النفقات ، وقد حدث ذلك في أراضى بساتشنديل الموحلة . ثم ظهر جيش ألماني على الجبهة الإيطالية واكتسح الطليان وردهم إلى خلف ، إلى داخل السهول . ولم يقف ارتدادهم غير وصول الفيالق الفرنسية والبريطانية التي أرسلت من فرنسا .

وهذه الارتدادات والتعويقات وازنها دخول الولايات المتحدة الحرب بعد أن أغضب أهلها إغراق الغواصات الألمانية للسفن التجارية إغراقاً لا رحمة فيه بما في ذلك سفن الركاب . وكانت الموارد التي يحتاج إليها الحلفاء تنقل — كلها — بحراً . وفي عام ١٩١٧ كانت الغواصات الألمانية تغرق البضائع بمعدل مدمر . ورغم نظام القوافل الذي اتبعه أمراء البحر في شيء من التردد كانت الدلائل مخيفة . ولكن بعد دخول أمريكا نحسن أفق الأمل . فقد هرعت الوحدات البحرية الأمريكية إلى العمل من فورها . وحولت أحواض السفن الأمريكية طاقتها الهائلة لبناء السفن . وقد استقبلت بترحيب بمائل : فرق الطوارىء الأمريكية الكثيرة التي همطت فرنسا والتي اطردت زيادتها حتى بلغت تعداداً مذهلاً يقدر بربع مليون ، شهرياً . ولم يكن أولئك أول من وصل من الجنود عبر الأطلنطي ، إذ ، منذ أولى شهور الحرب ، أرسل السكنديون جيوشاً ليحاربوا مع البريطانيين جنباً إلى جنب .

وفي مارس من سنة ١٩١٨ هجم الألمان هجمة ناجزة أخيرة ، وقهروا الجيش البريطاني الخامس ، وردوا الجيش الفرنسي . وبعد فترة محفوفة بالآخطار ملئت الثغرات ، فقد أمدتهم وصول الأمريكيين باحتياطى موفور .

وإلى أن حل ذلك الوقت اضطرتهم هزائمهم المستمرة إلى الانضواء تحت القيادة العليا لفرنسي أوتى شجاعة وخلقا ، ألا هو المارشال فوش . وقد تولى القيادة بالفعل . وفي يوليو بدأ سلسلة من الهجمات المفاجئة الضارية — هنا ، وهناك ، مصعداً تارة ومنحدراً تارة أخرى — على طول الخط ، دون أن يتيح للعدو مهلة ما وتوافرت لديه الإمدادات الطائلة . ووقفت المدافع ، والعجلة تجاررها العجلة ، على طول خطوط القتال . وتحرك الجيش تلو الجيش — الفرنسي والبريطاني والأمريكي — تشد أزره عواصف من نار المدفعية ، وتلاحق قذف النيران إلى درجة أن الجبهة كلها كانت تتحرك . وترنح الدفاع الألماني تحت تلك الهجمات المتصلة وما هو إلا القليل حتى كان مدفعيو الحلفاء يصولون ويحولون في العراء ، يطلقون نيرانهم من مواقع استحدثوها في الميدان ، والمشاة يمدونهم بما يلزمهم من موارد . ولم يأت نوفمبر حتى كان الألمان يتراجعون تراجعاً عاماً .

وتواردت أخبار النصر من جهات أخرى في ميادين القتال . فقد أعيد تنظيم السريين وتسليحهم في سلانيك وانطلقوا عائدین إلى بلادهم : وهى أمة من المحاربين . وحارب الجنرال اللبى من مصر — الأتراك عبر تلال أرض الميعاد — وقتما ذهب الفرسان المتطوعون فى الجيش الإنجليزى وخيالة المستعمرات على طول فلسطين ليوقعوا العدو الهارب فى الشرك . وسقطت دمشق . وفى العراق تقدم رجال الجنرال (مود) مصعدين الأنهار ليلتقوا برجال اللبى وكان الإيطاليون يتعقبون النمساويين عبر الجبال .

وهكذا انتهت الحرب الكبرى بهدنة — أى بوقف إطلاق النار — فى الحادى عشر من نوفمبر من سنة ١٩١٨ . وثارت ألمانيا والنمسا . وكانت القسطنطينية فى أيدي الحلفاء . ودقت الطبول البريطانية والفرنسية والأمريكية على الراين . وأوقفت الآلام والخسائر المفزعة ، والجنون المخرّب ، والبطولة الفائقة . وبقي على سياسى الحلفاء أن يعقدوا صلحاً مقبلاً .

الإمبراطوريات التي تهاوت :

قضت حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بانهيار إمبراطورية القيصرية الروس وإمبراطورية الترك العثمانيين وإمبراطورية آل هابسبرج النمساوية . أما محاولات التفاهم مع شرق أوروبا فكان نصيبها البلبلة والارتباك .

وتركت الثورة الروسية — التي قامت في سنة ١٩١٧ ، والتي فيها فقدت جموع من الناس أرواحها — تركت الحكومة المركزية في يد الحكم الشيوعي الماركسي ، بزعامة لينين الذي أوتي براعة سياسية عظيمة . وأنشأ الثوار في كل مكان ، « سوفيت » ، أو مجالس تحوّل القيصرية إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية تظلمها راية حمراء رسم عليها مطرقة ومنجل لم تسبق الاستفادة منهما قبلاً . وكانوا يرمون إلى جعل روسيا بلاد مصانع وآلات وجارات ، وإلى تحويل شعبها إلى « بروتاريات » أو كتلة من العمال لا تملك أرضاً ، على أن يحل أعضاء الحزب الشيوعي محل الأرستقراط القدامى .

وما كان لهم — بوصفهم أعضاء حزب شيوعي دولي ، يرمون إلى التخلص من جميع الحكومات القائمة — ما كان لهم ، بهذا الوصف ، أن يتوقعوا الصداقة من الحكومات القائمة . وترتب على ذلك أن الروس لبشوا بمعزل عن العالم المتمدن ، وهنا ، مرة أخرى ، لم يحدث تغيير ذو بال إذ أن الروس — بسبب مركزهم الجغرافي — كانوا دائماً بمعزل ، بعض الشيء عن المجرى العام للحياة الغربية .

وإعادة النظام والعمل ، إلى شعب يائس متخلف جاهل مغلوب لا زعيم له ، صعوبة على كل حال . إلا أن السوفييت رموا إلى أن يضعوا بالقوة الجبرية ، جميع رعاياهم في قالب سياسي موحد وقد استهدفوا السيطرة على حياة الرجال وعقولهم ، تماماً كما قد تسيطر القبائل على حياة أفرادها

وعقولهم بحيث يفكر كل امرئ ويتصرف بالطريقة ذاتها وفي الوقت ذاته . وحكم الناس على هذا النحو أسهل . أرادوا أن الدولة تملك كل شيء وتوجه كل إنسان ، وأن يصنعوا مجتمعاً كأمة إنسكا القديمة (في بيرو) على أن تصير صناعية لازراعية . ومن الغرابة بمكان أن الفلاحين لا يرضون كثيراً عن الشيوعية السوفيتية . وقد وجد ثوار روسيا الماركسيون — كما وجد الثوار الفرنسيون في ١٧٨٩ — أن أشد معارضيهم عناداً هم فلاحوهم . وقد صيغت كلمة جديدة لوصف هذا النوع من المجتمع ، هي « الجماعيون » (أى المتعلقون بالمذهب الجماعى فى الحكم) .

وكانت المآثر التى أنجزها الزعماء السوفيت — أول الأمر بزعامة لينين ، وبعد موته بزعامة ستالين — مهمة إلى حد كبير . فأنشأوا الطرق ، وبصرفوا مياه المستنقعات ، واحتفروا المناجم ، وأسسوا مدناً صناعية جديدة ، وأقاموا محطات للقوى الكهربائية ، وابتكروا نظاماً لتعميم التعليم ، ونحو الأمية ، واستكشفوا موارد بلادهم الشاسعة ، وأسسوا صناعات فى الشمال السحيق المتجمد وفى الجنوب شبه الاستوائى . وكان لديهم ، تحت تصرفهم ، سدس مساحة العالم القابلة للسكنى يعج بثروة طبيعية من الزراعة والمناجم لا سبيل إلى تقديرها . ولقد صنعوا من الكدح والآلم قصة بطولية .

ولم يخلف تفتت الإمبراطورية التركية المتداعية ، الأتراك ، غير مدينة القسطنطينية الجميلة وآسيا الصغرى وغير وطنية كالأتاتورك الملتزمة وجهوده ، ولولا هذا لكانت رقعة أرضهم أصغر . فأتاتورك هو الذى لم شعث قومه وطرد جيشاً يونانياً من آسيا الصغرى فى ١٩٢٠ ، فهربوا لا يلوون على شئ ... خلق أأتاتورك تركيا الجديدة الحديثة ، فجعل قومه ينهجون نهج الغرب فى زيه وعاداته وأفكاره وحروفه الهجائية وتعلمه ، وحول تركيا القديمة - تحويلاً كاملاً - إلى بلد زراعى تجارى مجد . نعم ماتزال هناك عجائز تلبسن

النقاب (البرقع) حتى في أثناء كدهن في الحقول ، إلا أن من تصغرهن سنّاً تلبسن كما تلبس أخواتهن في فرنسا وفي بريطانيا . وعلماء الحفائر الأتراك ، في الوقت الحاضر ، يحفرون ويدرسون خرائب الإمبراطويات التي بادت في آسيا الصغرى . ويستخدم الأتراك في الوظائف ، جامعات . وكانت تركيا عدوة قديمة لروسيا في عهد القيصرية . وما يزال جنود الجيش الأناضولي الشجعان الأذكيا يقومون اليوم بحراسة مسلحة على طول التخوم الروسية السوفيتية في أرمينيا . ومن تناقض الأقدار الغريب أن التركي الحديث يحرس جناح الغرب المتمدن ، تماماً كما درج الفنزيون على أن يحرسوها ضد الأتراك القدامى .

وبقي سائر الإمبراطورية التركية إرباً إرباً ، ممالك وجمهورية عربية : العراق ، سوريا ، لبنان ، الأردن ، المملكة العربية (السعودية) . وفي أراضيها تقع حقول الزيت المؤجرة لشركات الزيت في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا . ففي الشرق — الذي أفقر وطال إهماله ، والذي حكمه أناس لا خبرة لديهم ، وسكنه أفقر الرعاة والرحل — يتدفق ذهب أمريكا والغرب لدفع ثمن الزيت الذي عليه وحده يتوقف استمرار المدنية حتى الآن . وإنك لتجد كل كتلة الشرق الأدنى هذه المكونة من دول صغيرة ضعيفة في حالة قلق وتبدل . وهي — كدول البلقان الصغيرة في القرن التاسع عشر — يزعم البعض أنها مصدر خطر على السلام العالمي بسبب التنافس بين روسيا والغرب .

وقد أخذ زعماء اليهود ، منذ فترة طويلة ، يسعون إلى عودة اليهود — يوماً ما — إلى بيت المقدس . وبدأت حركة « صهيونية » لتحقيق ذلك ووعدها حلفاء حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وفي سنة ١٩٢٠ حدث هذا تحت حماية الجيش البريطاني .

وأشد ما يلفت النظر من نتائج الحرب : تفتت إمبراطورية هابسبرج النمساوية . فقد ضمت بعض شرائح مستطيلة من الأرض إلى إيطاليا وسربيا (التي أطلق عليها اسم : يوجوسلافيا) . وقسم الجزء المهم من الإمبراطورية إلى ثلاث جمهوريات : النمسا ، والمجر ، وبوهيميا (التي أطلق عليها اسم : تشيكوسلوفاكيا) . وكانت النمسا — وهي المنطقة التي تحيط بثيينا — أصغر من أن تعمل نفسها ، وكان المجر سهلاً غنياً يسكنه للاحون يعملون عند ساداتهم الملاك ، وكانت تشيكوسلوفاكيا بلداً به مجموعة من الصناعات وذوى الحرف والصناع الماهرة . وكانت كل تلك الولايات يعتمد بعضها على البعض أما الآن فهي دول مستقلة (١) .

وظهرت دول جديدة في الأصقاع التي ملكتها يوماً ، ألمانيا وروسيا . فلقد كانت — على طول ساحل (بحر البلطيق) — الجمهوريات الصغيرة : إستونيا ولاتفيا وليتوانيا . وفي قلب سهول مملكة بولاندا الكاثوليكية القدينة العظيمة ظهرت من جديد الجمهورية البولندية .

وإذا أضفنا إلى تلك ، ممالك البلقان الصغيرة — وهي رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان — وجد ما لا يقل عن ١١ دولة صغيرة كلها تتدمر وتحقد في صدد حدودها المترامية عبر كل أوروبا الشرقية من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تكون حجاباً حاجزاً من الدول بين أمي الألمان والروس القويتين .

ومنذ ١٩١٨ أخذ تاريخ أوروبا والعالم يدور حول هذه الحقيقة : كل الدول الإحدى عشرة ، تسنى الألمان قهرها في يسر ، بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وهي جميعها — باستثناء النمسا ويوجوسلافيا واليونان — خاضعة لجيش

(١) أنظر شكل رقم — ١٥ — (تفتت شرق أوروبا)

روسيا الشيوعية وقد أدرك المؤرخ الإنجليزي الكبير اللورد أكتون —
في سنة ١٩٠٠ — خطر الجيوش الألمانية والروسية الكبير . غير أن السياسيين
والرجال الذين صنعوا معاهدات الصلح في ١٩١٨ لم يستطيعوا أن يدركوا
الآلام والمصائر الفاجعة لتلك الدويلات الصغيرة الكثيرة ، بل على العكس :
هللوا لمظهرها على أنه علامة تبشر بدنيا جديدة فيها تختار كل أمة حكومتها
وتعيش بعد ، ذلك ، في وفاق مع جيرانها .

إحدى وعشرون سنة بين حربى ١٩١٨ و ١٩٣٩ :

كانت مهمة صناع الصلح في فرساي عظيمة شاملة ولكنها مستحيلة ،
إذا كان عليهم أن يعيدوا الاستقرار إلى دنيا منهوكة ممزقة جاهلة ، وهم ليسوا
عباقرة . وكان أمل واحد يشتعل اشتعالاً مترهجاً . ذلك أن مبدأ « الحرب
لإنهاء الحرب » يجب أن ينجى . في إثره ميثاق مهيب بين دول تذكر ، إلى الأبد .
فكرة الالتجاء إلى القوة . وكانت مشروعات على هذه الشاكلة ، فيما مضى ،
حلم الكثيرين من الساسة والفلاسفة . وقد وجدت فعلاً هيئة للقانون الدولى
ومحكمة العدل فى لاهاى ونجحت فى فض خصومات كثيرة بطريق السلام .
والآن أسست — بتوجيه كثير من الرجال البارزين ، ومنهم الرئيس ولسن
رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والفيلد مارشال سمطس (من جنوب
إفريقيا) — أسست عصبة الأمم مقرها جنيف . وكانت تلك العصبة محاولة
مباشرة كبيرة لحفظ السلام عن طريق المجادلات والمؤتمرات ، وقد أنجزت
لجانها المختلفة أعمالاً نافعة جداً فى حل الأمم على التعاون لتحسين شئون
العمل والمواصلات . غير أن العصبة أخفقت فى منع الحرب بين الدول
الكبرى . وسيستمر الخلاف طويلاً ، بعد ، فى سبب إخفاقها . وقد يجوز
أنها لم تبدأ ، حقاً على الإطلاق ، بداية طيبة : فالولايات المتحدة الأمريكية
لم تكن عضواً ، وكذلك روسيا وألمانيا حتى مضت على البداية سنوات .

ولم يحدث في وقت ما أن شاركت فيها الدول الكبرى جميعها . وقد تخاصمت الدول في اجتماعاتها خصاماً علنياً . ولأمر غريب ما ، لم يكن ينظر بعين الاحترام إلى الأمم إذا اعتذرت أو تساحت كما قد يصنع الأفراد .

وكانت لدى الفرنسيين رغبة ألحت عليهم ، وهي أنهم رغبوا في أن يأمنوا الغارات الألمانية إلى أقصى حدود الأمان ، وكانوا يخشونها . وحاول الألمان — وكانوا ما يزالون يفوقون دول وسط أوروبا عدداً وصناعة ومهارة — حازل الألمان أن يجعلوا جمهوريتهم الجديدة تقوم على قدميها . والأمة المغلوبة تجد من الصعب عليها دائماً أن تتقبل نوعاً جديداً من الحكومة . وقد أصر المنتصرون ، في فرساي ، على أن تلزم ألمانيا بالاعتراف علناً بجريمتها في إشعال الحرب ، وبالتجرد من السلاح ، وبالبقاء فقيرة ، وبالاستمرار — سنوات طويلة — في دفع غرامات تثقل كاهلها ، نقداً أو بضائع ، تعويضاً عن كل خسائر الحرب وأضرارها . ومع هذا ظل الجنود الألمانيون — الذين تصدوا لجيوش العالم أربع سنوات ، والذين عادوا في نظام عظيم إلى وطنهم — ظلوا يشعرون أنهم خير من الفرنسيين والروس .

وعندما أعلن الشيوعيون الروس أن هدفهم نشر الشيوعية في الخارج نشطت المنافسة القديمة الطويلة ، بين روسيا وألمانيا ، للسيادة على شرق أوروبا . وكان الخوف من سطوة الروس والرغبة في اجتناب المبدأ الشيوعي جزءاً من الخلفية المحزنة لكل نواحي السياسة الحديثة .

وانتشرت الشيوعية في فرنسا وأسبانيا وإيطاليا . فأضعفت قوة السياسة الفرنسية التي كانت ضعيفة بطبيعتها بسبب قصور الفرنسيين عن أن يتفقوا في شئون الحكم ، وأقلقّت إيطاليا وهي بلاد فقيرة خسرت كثيراً ولم تكن من المجد والمنفعة إلا البذر اليسير . وأدت حروب العصابات والقرصنة

السياسية — بين الشيوعيين الإيطاليين ومعارضهم — إلى اضطرابات خطيرة. وفي عام ١٩٢٢ قاد صحفي اسمه بنيتو موسوليني « قمصانه السود » في زحف إلى روما ليرد النظام والقانون إلى نصابهما . وأصبح موسوليني دكتاتوراً بلقب « الداشي » (أى الزعيم) ، وتصرف وفق هواه وطبق طغياناً قوياً واتخذ الحزمية (١) شعاراً وهي التي كان يحملها الأمناء الرومان ، وهم الرجال الذين نيط بهم حفظ النظام في عهد قيصر . وقد أطلق على حزبه اسم « الفاشيين » . وأخذ هو ورجال حزبه على عواتقهم جعل إيطاليا دولة حربية قوية ودولة استعمارية تحيي عظمة روما . وساق الناس إلى العمل ، ومنع الإضرابات ، واقترح كل الرجال والصبيان في قوات مسلحة . وأنجز الأشياء الكثير : صرفت مياه المستنقعات ، ومدت الطرق ، وقضى على اللصوصية . ومثل تلك الأمور يمكن دائماً إنجازها باللجوء إلى القوة . ونجاح موسوليني مرده إلى عدم نضج إيطاليا في الحكم البرلماني ، وإلى جهل الشعب ، وإلى مؤامرات الشيوعيين ، وإلى انتشار الفقر والتعطل . وإيطاليا فيها سكان كثيرون وموارد طبيعية قليلة . ويرى موسوليني أن أهل الريف هم الوارثون الطبيعيون للرومانيين . ويرى الكثيرون من أولئك أن موسوليني هو « المختص » . إنه ، في الواقع ، مزيج من اللصوصية والوطنية والطغيان .

وكثير من المتاعب التي تنشعب بين الأمم والأحزاب — في كل مكان — اقتصادي . وموضوعها : الصناعة والتجارة ومن الذي يعمل العمل الفلاني وبأية شروط وقد رُفِرَف — بعد عام ١٩١٨ — فيض من الإنعاش . ولكن في عام ١٩٣١ حدث كساد وهبوط في التجارة العالمية : أعمال كثيرة كان ينبغي إنجازها (والأعمال موجودة في كل وقت) مع عجز في الثقة تام ، وبذلك

(١) الحزمية قضبان محزومة على فأس .

أصبحت التجارة فى حالة توقف تقريباً . وانهارت أعمال البورصات المالية بين الدول . فلم يكن فى طاقة امرئ أن يشتري البضائع التى تغص بها المستودعات ، ورقدت — فى الموانئ والمباهى الراكدة — أساطيل من السفن التجارية الجميلة يعلوها الصدا . ذلك أن أحداً لم يملك أن يستأجرها . ووقفت العجلات فى المصانع . وألقى ابن البرازيل فى المحيط . واحترقت الخنطة الأمريكية ، وسكب اللبن فى المصارف . وتعطل عن العمل ملايين من الناس ، حتى فى الولايات المتحدة التى لديها طعام يكفى كل سكان العالم أجيالاً . وبدأ أن العالم أصابه مس من السحر . وأصبح الموقف بشعاً غريباً . ثم انتعشت التجارة وتناقص التعطل رويداً رويداً .

وقد نجحت عن محاولة المنتصرين الضغط على ألمانيا لتظل فقيرة ولتدفع غرامات الحرب — متاعب جسيمة زادها الكساد سوءاً . فأفلست ألمانيا وأملقت غالبية الطبقة الوسطى ، وزاد التعطل زيادة فاحشة . ثم ظهرت عصابات سياسة ومنازعات تمردية ، وتصدى منها أحد الأحزاب الطاغية وانزع مقاليد الحكم وهو الحزب الاشتراكى الوطنى أو « النازى » بزعامة أدولف هتلر ، وكان قبلاً قائد عشرة (أمباشى) وأصله من عامة الشعب . وفى عام ١٩٣٣ أصبح هتلر : « الفورر » أى الزعيم الحاكم بأمره (الدكتاتور) ، ونظم أتباعه كما قد تنظم فرق الجيش ، وقمع كل معارضة ، بوحشية دموية جامدة القلب . وكانت أهدافه بسيطة فظيعة : إكراه الناس على العمل والطاعة ، والقضاء على كل الشيوعيين واليهود ، وإخضاع الألمان — المقيمين فى أية بقعة من بقاع الأرض — لصوائه ، وجعل الشعب الألمانى ، الذى كان فى نظره شعباً حاكماً قدر له أن يسود العالم ، جعله سيداً فى العالم ، ورمى إلى غزو السهول الخصبة الواقعة فى غرب روسيا وحقول الزيت فى القوقاز . ورمى فى الوقت ذاته إلى أن يكره صناع الصليح بقرساي (م ٢٦ — العالم الغربى)

على أن يعكسوا قراراتهم . ولم يخف أى شيء من كل هذا ، وقد راقبته سائر أوروبا وهو ينفذه .

ونرجع قوته إلى انهيار الحكومة الديمقراطية فى ألمانيا وإلى ياس الشعب ، وإلى مقت أغنياء اليهود والاعتقاد بأن كل المناصب الاقتصادية مردها إليهم ، وإلى الرغبة فى الانتقام . وترجع قوته كذلك إلى أسباب خاصة : إلى تعود الألمان طاعة أى أمر ، وإلى أن ضباطاً كثيرين كانوا يعاضدونه . وقد أملوا أنهم — بعد توحيد ألمانيا وتقويتها — يتخلصون منه ، وكان هذا أملاً خاطئاً .

وكان طبيعياً أن يحالف هتلر موسوليني . فكلاهما معدوم الضمير ، وكلاهما آمن بالمبدأ الشيطاني القديم — وهو أن الغاية تبرر الوسيلة . وقد أعلن فعلاً وفى صراحة أن الأكذوبة إذا كانت كبيرة بقدر كاف واستمر تكرارها بقدر كاف فسوف يصدقها الناس . وكان كلاهما ينادى طاعة فورية عمياء ، وكان كلاهما يلبس مسوح الوطنيين .

وفىما كانت ديمقراطيات فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، تعيش على الأمل ، وتتنازع فيما بينها ، وتترك جيوشها وبحرياتها تذوب ، كانت ثلاث مجموعات من الناس تعرف ما تريد حق المعرفة وتتأهب لأخذه بالقوة : أدواف هتلر وذايروه ، بنيتو موسوليني وفاشيويه ، وستالين ورفاقه . وكان طبيعياً أن يقف المثات من مواطنى الديمقراطيات على هذه الحقائق . وعلى سبيل المثال : لا أحد ممن كانوا يرقبون أطفال المدارس يتدربون فى ألمانيا تدريباً عسكرياً ، يمكن أن تخفى عليه المأساة التى قد تحل .

وفى عام ١٩٣٤ هاجم موسوليني إثيوبيا . وفى عام ١٩٣٦ قهرها رغم انضبط الشديد الذى علا صوته فى الديمقراطيات . وفى عام ١٩٣٦ قامت حرب أهلية

غنيقة في أسبانيا وهى دولة نجت من حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . وحاربت قوات الشيوعيين والأحرار ، أى الديمقراطيين — فى ضراوة الأسبان المألوفة — ضباط الجيش « المحافظين » ، ونهبت الكنائس وأحرقت ، وأطلقت القذائف على المدن ، وأعدم الأسرى . وتدفق المتطوعون ، من دول أخرى ، ليساعدوا الأسبان على تخريب بلادهم بالاسم المقدس لبعض الأحزاب . فأرسل هتلر جنوداً فى زى سياح ، وأرسل موسوليني فرقاً تساعد الفائد الأسباني ضد الشيوعيين . وفى النهاية انتصر الجيش الأسباني التابع للجندرال فرانكو ، وأصبح دكتاتوراً فى عام ١٩٣٩ . وقد صورت الحرب اضطراب التفكير فى الديمقراطيات . وكانت الحالة السياسية فى أوروبا مفرقة إلى حد أن أحداً من الديمقراطيين لم يكن يستطيع معاضدة مطالب شعبي من دون أن يحالف الشيوعيين . وإذا عارض مطلباً شعبياً فلا معدى له عن أن يحالف النازيين والفاشيين .

ولسوء الحظ حدث اعتداء مقنع فى الشرق الأقصى حيث أخذ اليابانيون - بزعامة أرسقراطيههم الحربيين - يهاجمون الولايات الصينية ويخلفون دماراً . وقد عارضت عصبة الأمم هذا الإجراء أشد معارضة ولكنها كانت قد فقدت سلطانها الأدبي ، إذ انسحبت منها أمم كثيرة . وفى ديسمبر ١٩٣٩ طردت العصبة روسيا لأن الروس حاربوا فنلندا . وكان هذا آخر ما صنعته العصبة . وذلك لأن كل أوروبا شاركت ، من جديد ، فى حرب . وقد بدا لأوائك الذين شاركوا فيها أنها استئناف لحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بعد هدنة مشوشة مشحونة بالكوارث ،

الأمم فى جهادها من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ :

فى عام ١٩٣٦ قذف هتلر بجنوده إلى بلاد الراين ، متحدياً معاهدات

الصلح . وفي عام ١٩٣٨ استولى على النمسا . وفي عام ١٩٣٩ استولى على تشيكوسلوفاكيا وكسب بذلك مصانع سكودا للسلاح . ولم تصدر عن فرنسا ولا عن بريطانيا أية محاولة لمنع هذه المظالم الفظيعة أو نقضها . إلا أن البريطانيين بدأوا يستأنفون التسليح ، وعمدوا إلى التجنيد الإلزامي ، وأعلنوا هتلر بأنه إذا غزا بولندا — كما هدد بذلك — فسيعلنون عليه الحرب . وهاجم هتلر بولندا ، واحتل أوسع رقعة استطاع أن يحتلها منها ، إذ أن ستالين كان قد أنفذ إلى معظمها ، خفية ، فيلقه ليحميها من سطوة ألمانيا الآخذة في النمو . وهكذا قسمت بولندا التعسة ، من جديد ، بعد فترة قصيرة من الحرية دامت إحدى وعشرين سنة .

وقد بت في مصائر الحرب العالمية الثانية — التي بدأت في سبتمبر من سنة ١٩٣٩ — ثلاثة اختراعات بدى في تطويرها وتحسينها من سنة ١٩١٨ : قاذفة القنابل السريعة الثقيلة ، والدبابة المحاربة المسلحة ، والتلغراف والإذاعة اللاسلكيان .

وعجز الحلفاء عن إنقاذ بولندا وعجزوا عن عمل أى شيء آخر . وتوقف القتال ثمانية أشهر في ظلام وهم وخوف وغموض مرعب ، توقف إلا في البحر حيث أخذت الألغام والغواصات الألمانية تغرق السفن . وانتظر الحلفاء أن يبدأ هتلر الاعتداء . وفي مايو من ١٩٤٠ عمل في سرعة وغدر ونجاح باهر . فاستولت جيوشه وطائراته على الدانمرك والنرويج وهولندا وبلجيكا . واخترقت فرقه المسلحة الجيوش الإنجليزية الفرنسية وقتما تحركت لحماية بلجيكا . وسقطت باريس ، وسلمت فرنسا ، وزحف مليون قرانسي ليقعوا أسرى . وأنقذت قوات الحملة البريطانية من شواطئ دنسكرك حشود من الأطواف الصغيرة ، والوحدات البحرية وقوارب الصيد والسفن واليخوت (أى سفن السياحة الخاصة) وبواخر

الإنزوة . كل هذا أنجزه الألمان في شهرين من حروب الصاعقة ، وكانت خسائرهم تافهة بالمقارنة إلى خسائر الحلفاء .

ولم يكن لدى بريطانيا مدافع ولا دبابات بل ولا بنادق تستحق الذكر . غير أن الطائرات المقاتلة — من طراز سبتيفاير (قاذفات اللهب) والهاريكين (الإعصار) التابعة للسلاح الجوي الملكي ، يوجهها اختراع راداري جديد — حطمت قاذفات القنابل الألمانية التي كانت تهاجم الموانئ والمطارات ، وبذلك منعت الألمان من محاولة الغزو . وقد أنقذت الموقف المئات القليلة من قواد الطيارات المقاتلة . وكان حرياً بألف من أمثالهم — لو أنهم كانوا متأهبين — أن ينقذوا فرنسا . وبعد معركة بريطانيا ، هذه ، كادت أن تدمر قنابل الطيارات ، ليلة موحشة بعد ليلة موحشة ، شهوراً دون انقطاع وترتبت على هذا خسائر فادحة في الأرواح والأموال .

وحدث تقارب محزن في حظ بريطانيا . فقد تقدم مواطنوها مسلحين بالحرايب وبنادق الصيد بينما كانت الفرق الناجية يعاد تسليحها . وليس في الإمكان وصف الحمية والجلد اللذين دأبت عليهما بحريتها الشجاعة وسفنها التجارية ، إلا في تاريخ مفصل . . . وقفت بمفردها ، وقدر أغلب الناس في العالم أجمع أنها مقضى عليها لا محالة . وكانت القوى المتجمعة في مستعمراتها المستقلة مستعدة لإمدادها بعونها على شريطة أن تتمكن من السيطرة على البحار . ثم لأنها لم تكن لتأمل أن تنتصر في الحرب من دون حليف قوى في أوروبا . وبدأت مصانعها الحربية وغير الحربية تدريجياً ، تصلح من شأنها وأخذت معدات الحرب تتدفق من الولايات المتحدة الأمريكية التي كان فرانكلين روزفلت رئيسها . وكان أهم شيء — بالنسبة لبريطانيا — هو تغيير حكومتها . وتحت وطأة الصدمة والكوارث والحزى نودي جونستون تشرشل رئيساً للوزارة . وكان صديقاً حميماً لروزفلت ، وجندياً ورجلاً مجلواً البصيرة لم يلبث إلا قليلاً حتى سيطر على الحرب بعزمته وخصوبة عقله وبلاغته العظيمة الملهمة .

ضربت مدن بريطانيا بالقنابل ، وأغرقت سفنها، وجند سكانها وحددت مقادير أغذيتهم . وأضاء الظلام نصر واحد : فى ديسمبر من سنة ١٩٤٠ تقدم الجنرال ويثل بفرقتين من مصر وأباد جيشاً إيطالياً فى ليبيا قوامه ١٥٠٠٠ رجل . وقبل مايو من سنة ١٩٤١ طردت جيوش بريطانيا أخرى ، الإيطاليين من إثيوبيا . غير أن حرباً خاطفة أخرى ، أوقدها الألمان ، عرضت كل الشرق الأدنى للخطر ... احتلت جيوش هتلر : المجر ورومانيا وبلغاريا ويوجوسلافيا ثم هاجمت اليونان . وحارب اليونانيون متقهقرين تساعدهم قوة بريطانية وصلت من مصر ، غير أن الدبابات الألمانية والطائرات اكتسحت أمامها كل شيء . وماهى إلا أيام قلائل حتى بلغ الألمان سلا نيك وأثينا ، ثم استولوا على كريت بهجوم مركّز من جنود المظلات . ومرة أخرى أنقذت البحرية الملكية قوات بريطانية كبيرة من اليونان وكريت . وفى مايو سنة ١٩٤١ كان هتلر قد استعبد كل مناطق أوربا الواقعة غرب روسيا . وإلى هذا نزلت فرقة أفريقيا الألمانية ، فى ليبيا - بقيادة رومل - وردت البريطانيون على أعقابهم حتى حدود مصر . وكانت بريطانيا ما تزال واقفة بمفردها .

ثم أتاح هتلر لبريطانيا حليفاً فى القارة .. فى الثانى والعشرين من يونيو من سنة ١٩٤١ - فى مثل اليوم الذى غزا نابليون فيه روسيا - انطلقت سبعة جيوش ألمانية فى شرق بولندا وروسيا دون أى إنذار سابق . ولم يمض شهر واحد حتى كانوا قد بلغوا سمولنسك ، ووصلوا قبل الشتاء أمام لينينجراد وموسكو ، واحتلوا المنطقة الصناعية على حوض (نهر) دونيتز وآبار الزيت فى القوقاز . وكما انكسر الفرنسيون فى ١٨١٢ ، انكسرت الجيوش النازية فى شتاء ١٩٤١-٤٢ بسبب الجليد المدمر الذى أتلّف كل مركباتهم المسلحة . والروسيون محاربون أشداء ، وكان من خلف الألمان آلاف من المشايخين المدنيين نهاراً ، المحاربين حرب العصابات ليلاً . وكانت الحرب ضارية مخيفة .

وعمد هتلر إلى استعباد جميع سكان البلاد التي يغزوها ، ونقل الروس المصانع الحربية التي لديهم ، في كدّ لا يصدق ، إلى (جبال) الأورال حيث تبقى في مأمن . وصدوا الغزاة بحرب دبابات جبارة أمام موسكو ، صدوا الغزاة بينما كانوا هم ، في الوقت نفسه ، يشككون ويحشدون جيوشاً في سيبيريا . ولم تكابد بلد في الحرب أكثر مما كابدت روسيا .

وشهد شتاء ١٩٤١ تبديلاً مبالغتاً آخر في ديسمبر : دمرت قاذفات القنابل اليابانية — بدون أي إنذار حرب — قاعدةً بحرية أمريكية في بيرل هاربور بالمحيط الهادئ ، وغزت (جزائر) الفلبين . وفي مدى ثلاثة أشهر احتلت اليابان هونج كونج والهند الصينية والملايو وبورما . وأخذت كل جزائر الهند الشرقية الهولندية ، واستولت على الحصن البحري البريطاني في سنغافورة ، وأسرت سبعين ألف جندي .

وكانت الولايات المتحدة — عندئذ — تحارب إلى جانب بريطانيا العظمى ضد ألمانيا واليابان . ولم يكن مستقبل ديمقراطيات العالم يبدو أكثر كآبة ، فلقد عُنقَت المبادأة الألمان واليابانيين الذين كانوا يسيطرون على كل أوروبا وجنوب شرق آسيا ، وكان جيش ألماني يهدد مصر . حدث هذا في ربيع ١٩٤٢ .

ولكن قبل نهاية العام انتقل الحلفاء إلى الهجوم في ميادين الحرب الثلاثة . وفي مايو ويونيو أغرقت ساملة طائرات أمريكية ، سفناً حربية يابانية في بحر المرجان وعلى مسافة من جزيرة مدواي . وبعد هذا أخذت القوات الأمريكية ، من بحرية وجوية وبرية ، تغير على الجزيرة تلو الجزيرة ، وتسترد رويداً رويداً السيادة على المحيط الهادئ وتنسف القواعد الجوية . ولم يكن بد من أن تطول هذه المهمة . وجرت أعنف المعارك البحرية والجوية في البحار المحيطة بجزائر سليمان وپاپيوا وغينيا الجديدة . وكان الجنود الأمريكيون والستراليون يطهرون أذغال الجزيرة من حماتها الذين حاربوا حتى الموت . وفي الوقت نفسه أخذ جيش مكون من فرق بريطانية وإفريقية

وهندية وصينية ، في أراكان ، يعمل كذلك في الأدغال الكثيفة إلى أن شق طريقه رويداً رويداً إلى بورما الجنوبية وبورما العليا وإلى ماندالاي .

وفي أكتوبر من سنة ١٩٤٢ حطم الجنرال منتجومري جيش رومل الإفريقي في العلمين بمصر وطارده عبر الصحراء الليبية إلى تونس . وفي الوقت نفسه نزل جيش إنجايزي أمريكي في الجزائر . ولما حوصر جيش رومل بين القوتين ، استسلم في تونس ، في مايو من سنة ١٩٤٣ . وتحرر ، الآن شمال إفريقيا وتناقصت مخاطر البحر الأبيض المروعة وأغيثت جزيرة مالطة الباسلة بعد سلسلة هجمات جوية . وفي يوليو استولى الحلفاء على صقلية . وفي سبتمبر هاجموا جنوب إيطاليا . وبدأوا - بقيادة القائد الكسندر البريطاني - تقدماً ، في الجزيرة ، بطيئاً باهظ الثمن . وسلبت الحكومة الإيطالية ، ولكن الألمان استمروا يقاومون مقاومة بارعة . وفي مايو من سنة ١٩٤٤ كان الحلفاء ما يزالون في جنوبي روما .

وفي نوفمبر من سنة ١٩٤٢ أطبقت الجيوش الروسية على ربع مليون جندي ألماني ، يقودهم فون باولوس في ستالينجراد على القوارجا . وفي يناير من سنة ١٩٤٣ أسروهم أو أبادوهم . وظلوا يتابعون الهجمات ، بالجيش تلو الجيش ، طوال صيف وخريف وشتاء ذلك العام وربيع ١٩٤٤ حتى ردوا النازي إلى حدود بولندا ورومانيا .

وأمسى حصن أوروبا الهتلري محاصراً . ومنذ ١٩٤٢ أخذت قاذفات القنابل التابعة للحلفاء تقصف بلدانه في قوة متزايدة ، بمئات من الطائرات تزداد أحياناً حتى تربي على الآلاف ، تعمل كلها في وقت معاً . وفي البحر أخذت بحريات الحلفاء وقواتها الجوية تتغلب ، في اطراد ، على أسراب الغواصات الألمانية التي ألحقت الدمار بقوافل السفن التجارية . وقد صارت الحياة اليومية للملايين ، تحت نير النازي ، كابوساً من الطغيان والريبة والخوف والعذاب . فقد حول هتلر وعصبة شركائه ، أوروبا إلى مباءة عبيد من الشعوب

المدعنة يحكمها الألمان « الأعلون » ، فقد عين لكل بلد حاكمها النازي العديم الرحمة وشرطتها السرية . أرغم الآلاف من الناس التعسفين على العمل في المصانع الحربية والمعسكرات ، يساقون - هنا وهناك - كالأنعام ، ينتزعون من بيوتهم وأسرهم ، ويعطون عملاً كثيراً وطعاماً قليلاً . وكان الآلاف يلقون في معسكرات الاعتقال المروعة (مثل معسكر بوشنقالد) ويعيشون أنصاف عرايا في القذريو توا من المرض ، ويجلدون ويعذبون ويرمون بالرصاص أو يخنقون بالغاز في الغرف المعدة لذلك ويحرقون في محرقة القمامات . وكلما تقدمت جيوش الحلفاء في شمال إيطاليا وكلما اقترب الروس ، زادت بربرية الألمان . وفي أوروبا المقفلة المفجوعة هذه ، أخذ جنود المظلات يتساقطون من بريطانيا ليرشدوا المخربين ويشجعوا الوطنيين . وفي قارة الحزن واليأس هذه جاءت رسائل الأمل اليومية الإذاعية تترى من محطات الحلفاء .

وفي يونيو من سنة ١٩٤٤ تحرك أكبر أسطول سبق تنظيمه — وكان بقيادة الجنرال أيزنهاور — من موانئ بريطانيا العديدة إلى الشاطئ النورماندي حاملاً معه موانئه المادية الاصطناعية ، تحميه قوات الحلفاء الجوية حماية تامة . ولم تسكد فرق أمريكا وبريطانيا والمستعمرات المستقلة تنزل حتى انتشرت واشتبكت في حروب مبرحة وتقدمت ، ونزل جيش أمريكي آخر على مقربة من مرسيليا ثم جاء من الجنوب . وقد اشتدت المقاومة الألمانية إلى حد أن التغلب عليها استغرق سنة كاملة . وبلغ الحلفاء الراين وعبروه في الجنوب ، ورمى الروس بكل جيوشهم إلى الأمام وأخذوا يطهرون الأرض تطهيراً شاملاً ، متجهين جنوباً ليحرروا البلقان . وألقى النازي القنابل على الإنجليز وترسلها الطائرات الخالية من القواد والصواريخ ، وأغرقوا هولاندا . وحاربوا — كما قد يحارب الشياطين — على طول الطريق منسحبين إلى مدائنهم المخربة التي ظلمت ، حتى ذلك الوقت ، تستهدف لغارات ليلية .

وفي النهاية — عندما وصلت الدبابات والمدافع الروسية إلى برلين ، وعندما تحرك الحلفاء الغربيون مسرعين إلى ألمانيا الغربية نفسها — انتحر هتلر في مخدعه بمنجبهه بيرلين . وفي مايو من سنة ١٩٤٥ دبر بعض الضباط الألمان استسلام شعبهم وجيشهم بلا قيد ولا شرط . وانهت الحرب في الغرب . واستطاع المنتصرون أن يروا ذلك الذي فتحوه : قارة من ملايين اللاجئين والمدن المهشمة .

وإلى أن حل ذلك الوقت كان الجيش الألماني في إيطاليا — الذي سيق شمالاً إلى (جبال) الألب — قد استسلم ، وكان بعض وطنيِّ الطليان قد قتلوا موسوليني . وفي الشرق حررت رانجون وأعدت جيوش بريطانية وأمريكية كبيرة للهجوم على اليابان .

وأُهيّب بسادة الحرب اليابانيين أن يستسلموا فأبوا . وفي السادس من أغسطس من سنة ١٩٤٦ فجرت قنبلة ذرية على هيروشيما ، وقتلت النيران والإشعاعات ثمانين ألف نسمة دفعة واحدة . وبعد ذلك بيومين ألقيت قنبلة أخرى على نجازاكي وقتلت أربعين ألفاً . وكان اليابانيون قد كابدوا ، قبل ذلك ، ضرباً مبرحاً من المفجرات القوية المعتادة . فأنهت الحرب مذبحه هيروشيما ونجازاكي المخيفة . وسلم اليابانيون كل شيء ووضعوا أنفسهم تحت تصرف المنتصرين .

اختراعات لاحد لها وأناس كرمال البحار :

تسير مغامرة الاختراع بخطى مذهلة ، فمهندسون يصنعون آلات بالغة التعقيد تحتاج إلى قوى تدفعها ، وعلماءونا يستكشفون طوال الوقت حتى ليبدو في بعض الأحيان أنهم لن يقفوا حتى يفتتوا الكون كسفاً ويعيدوه إلى وحدته مرة أخرى .

ويخترع المخترعون النظام الآلي ليشد ويدفع وليدور ويبرم وياف ،

تتحكم فيه وتوقته توقيتاً دقيقاً ، العجالة التي تتحرك هي نفسها في كل الاتجاهات في وقت واحد دون أن تتبع أيّاً من هذه الاتجاهات . وتأخذ الآلات ، التي تنتمي إلى هذا النوع ، أنواع خشب الحور الرجراج بأحد طرفيها ثم تطرح بالطرف الآخر علب كبريت ، أو تأخذ رصاصاً مصموراً وتخرجه مقذوفات نارية صلبة ، أو تزن وتغلف وتعنّون رزماً من الشاي ، وهكذا . والآلات تعمل لنا ، وهي في حاجة إلى قوة ، قوة يستطيع تحديد مقاديرها والسيطرة عليها ، قوة تسقط مطرقة بخارية على زجاجة ساعة في مكان لا يكاد يفترق جزأه من ألف جزء من البوصة .

ومنذ استكشف فاراداي تفاعل المغنطيس والتيارات الكهربائية في سنة ١٨٣٢ أتقن المتقنون المولدات الكهربائية لتوليد الكهرباء ، وصانوها في محطات للقوى ، يستخدم بعضها طاقة الفحم المحترق ويستخدم البعض طاقة المياه الساقطة . وإن محطات شلالات نياجرا لتوليد الكهرباء من القوى المائية لترسل تيارات كهربائية إلى جهات تبعد أكثر من ثلاثمائة ميل . والروس الآن في صدد إكمال مصانع لتوليد الكهرباء من القوى المائية ، على الثولجا . والمهندسون في إسكتلندا مشغولون بإقامة خزانات لحجز المياه وبناء سدود التحكم في منحدر المياه بالأراضي الجبلية . ومهما يكن من شيء فإن القوى المائية التي يستطيع استخدامها في أنحاء العالم لم يستخدم منها حتى الآن إلا النزر اليسير .

وقد استكشف وقود ومصدر قوة جديديان — حول سنة ١٨٦٠ في آبار الزيت الكامنة تحت سطح الأرض ببسنلفانيا ، وهو زيت يصفى ليحول إلى جازولين ويستنبط منه الكيماويون البرافين (أي زيت القطران) والبنزين ومئات من المواد الأخرى بينها الثاقلين . وفي عام ١٨٨٦ استطاع جوتفريد ريملر — بتفجير بخار الجازولين في أنابيب — أن يصنع محركاً يدور بالجازولين . وهكذا ظهرت في الطرقات السيارة وهي رائدة النقل .

الميكانيكى جميعاً من الدراجة الآلية (الموتوسيكل) إلى المركبات الضخمة
المرعبة . وإلى أن حل عام ١٩٣٣ تحسن المحرك ، بفضل ألف من المخططين ،
وتحول إلى « مولين (١) » رولز رويس الذى دفع قاذفات اللهب (سبتفاير)
البريطانية التى جابت آفاق السماء .

والواقع أن محرك الجازولين — الخفيف الوزن نسبياً — جعل الطيران
ممكناً ، وكان أول من استطاع أن يعلو سطح الأرض قليلاً هما الإخوان
رايت ، فى أمريكا سنة ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩٠٩ طار بليريو عبر المضيق .
وفى عام ١٩١٩ طار ألكوك — و — براون عبر الأطلنطى . وتجد بمجمل سائر
الحكاية فى حرب ١٩٣٩ — ٤٥ الملتهبة وفى (طائرات) القايكونت الجبارة
وفى طائرات بريطانيا الحالية . وثمة دور مهم فى الطيران قام به المتخصصون
فى استخراج المعادن وصناعاتها أولئك الذين عجلوا باستخراج الألومنيوم
من خاماته (وكان مجموع ما استخرج عام ١٨٨٤ ثلاثمائة رطل وفى عام ١٩٥١
أكثر بكثير من مليون طن) أولئك الذين اخترعوا كل أنواع خليط
الألومنيوم الصلبة الخفيفة التى تصنع منها الطائرات . ومنذ عام ١٩٤١ أخذت
المحركات النفائنة تستخدم فى الطائرات والصواريخ .

وبعد عام ١٨٨٠ بسنوات قليلة حدث تطور كبير فى الهندسة الخفيفة ،
كالهندسة التى أنتج الدراجات ومكينات الخياطة والآلات الكاتبة والآلات
الحاسبة ، وهذه — كما هى الحال فى السيارات والطائرات — لا يستطيع صنعها
إلا عدد الآلات ذوات القوى الجبارة التى تسكيف أجزائها فى القوالب
وتقطعها وتدهنها وتطرقها .

وبدأت الفوتوغرافيا فى عام ١٨٢٤ ، واخترعت آلة تصوير تصور على
فيلم من الباغة (٢) ، بين عامى ١٨٨٠ و ١٨٩٠ وحول نهاية القرن عكست الصور

(١) المولين فى قصص المصور الوسطى نبي وسجار فى القرن الخامس الميلادى .

(٢) الباغة : مزيج من الكافور وقطن البارود .

المتحركة على الشاشة وكثر الإقبال على الصور المتحركة قبل عام ١٩١٤، وظهر النوع المتكامل منها في عام ١٩٢٨. ويسهل الوقوف على مدى تأثير انتصارات فنون المصورين (بالفوتوغرافيا) في مدننا. ومن بين الانتصارات الأخرى : آلات تصوير (كاميرات) تزيد قوة إبصارنا وتوضح أشياء هي أصغر أو هي أسرع من أن تباينها العين المجردة، كحركة جناح طائر أو تركيب مادة كالصلب. ومن بين الانتصارات الأخرى كذلك : الفوتوغرافيا الهوائية التي وسعت معلوماتنا عن الكرة الأرضية وعن الزمن الماضي. ويرجع إرسال الرسائل الرمزية (بالشفرة) بأسلاك كهربائية إلى السنوات القليلة التي تلت عام ١٨٤٠ وظهر التليفون في ١٨٧٦ وجرب ماركوني استخدام الأمواج السابحة في الفضاء أي دالاسلكي، في عام ١٨٩٦ وإلى أن حل عام ١٩٠١ أرسلت رسائل عبر الأطلنطي. وفي عام ١٩٢١ كان مهندسو الراديو قد أتوا بمعجزة جديدة وهي الإذاعة باللاسلكي. وما هو إلا القليل حتى أخذت أجهزة الاستقبال البلورية أماكنها للصمامات الترميونية^(١) وفي السينما جاءت الصورة قبل الصوت، وفي الراديو سبق الصوت الصورة : وحل هذا ونقل بالأمواج عبر الفضاء، ثم أعيد تأليفه على الشاشة في عام ١٩٣٦. ونحن نطلق على هذا اسم التليفزيون. ونقول هنا فوق ذلك إن تلك الأشياء إن هي إلا لعب إذقورت بالسيطرة على موجات الرادار لإرشاد الطائرات والسفن والقذائف وإذا قورنت باستجلاء النواحي القاصية من العالم.

وجميع المادة والحيوان والنبات والمعادن طحن^٢ لرحى علماء الكيمياء أو الطبيعة. وإنها لينأتى لها — كما قد تأتى لسحر المشعوذين في غرف الضيافة — أن تغير وتحول كل شيء إلى شيء آخر فهم يستخلصون من الفحم الأصباغ والروائح العطرية ويخلقون ألواناً لم تشاهد قط في البر أو البحر وعطوراً تفوق عطور شبه الجزيرة العربية، ويحولون السلولوز^(٢) إلى حرير.

(١) الترميون : دقيقة مشحونة بالكهرباء وهي إما سالبة وإما موجبة .

(٢) السلولوز : المادة المسكونة للخويصلات أو الخلايا النباتية .

صناعى ، والبنزين إلى خيوط نايلون . وهم يعصرون أو يضغطون إيثيلين (١) الغاز حتى يتحول إلى بوليثين . وقائمة المواد الجديدة — من المساحيق المطهرة إلى أدهنة الزينة طويلة طويلاً . ثم إن المواد القديمة المألوفة تفصل وتوصل وتصهر وتبدل تبديلاً لانهاية له ليخرج منها كل أنواع السبائك والصلب والمواد الصلبة والزجاج وألواح السكرتون وخشب الألواح (الابلاكاج) . ومن الواضح أنه لم تختفِ البراعة التي ورثناها عن جدودنا المجتهدين الذين عاشوا في العصر الحجري والذين اخترعوا السنار والسلال والقماش .

وإن العلم ليزداد تعمقاً في طبيعة المادة نفسها . فنند بحث مدام كورى في الراديوم سنة ١٨٩٨ لم تتوقف دراسة عناصر النشاط الإشعاعى قط . ومنذ أن استخدم روبرت فوردر ، في عام ١٩١٩ ، النشاط الإشعاعى لفصل جزيئاً أو نحركه عن الذرة ظلت المطاردة ملحة وكان هدف العناية والاستقصاء هو التحكم في الطاقة الذرية . فطبيعة المادة وطبيعة الكهرباء وطبيعة الجزيء غير المرئى الذى صنع منه الكون جميعاً ... كل هذا موضوع تحت الفحص البالغ الدقة . وقد وصل البحث ، حتى الآن ، إلى القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ووصل — في آخر وقت مع إذكاء الأمل — إلى محطة القوى الذرية مثل هوكالدر . وربما تنتعش الدنيا ، آخر الأمر ، بسبب سيطر تناعلى مصادر كل الطاقات حتى نملك قوى لا تدخل تحت حصر .

وإن العالم ، اليوم ، ليزيد مصاعبه بزيادة عدد سكانه زيادة سريعة . فهو يضيق ، في الواقع ، أربعين ألف مخلوق بشرى في كل ساعة وهذا يعنى ٣٥ مليوناً في كل عام . والآكثرون من هؤلاء يولدون ليكابدوا سوء التغذية كما أن الأكثرين إنما يزيدون في عدد سكان الشعوب المتخلفة . وإذا تهيأ للجميع طعام جيد وتوافرت لهم طبيبات الحياة فسندحتاج إلى حكمة تفوق كثيراً الحكمة التي عرفناها عن الماضي ، عندئذ سندون في حاجة إلى التسامح

(١) الإثيل أصل المشيرة الكحولية .

واللفهم بين الأجناس والأمم . وسنكرن محتاجين ، بطبيعة الحال إلى قوى
تسلس وتصرف في سبيل الخير العام .

دخول الحاضر في المستقبل :

إن التلغرافات السلكية واللاسلكية والنقل الجوي لنقرب بين بعض
أجزاء العالم كله والبعض الآخر وتربط بينها جميعاً ربطاً مباشراً ، كما أن
العادات والأفكار الغربية تنتقل إلى كل مكان بخطى واسعة . وما ينفك
المهاجرون يتدفقون من أوربا إلى القارات الجديدة ، وما يزال بعضهم يكابد
الشقاء في مهجره بوصفه لاجئاً . وترد التقارير من القارات الجديدة ومن إفريقيا
عن ثروات جوهريّة من المعادن والزيوت يستكشفها خبراء مسح الأراضي
الجيولوجيون ، وبذلك تفتح الآن حقول معدنية جديدة وصناعات جديدة .
والروس — في داخل بلادهم المترامية — ما يزالون يمدون ويطورون مناجمهم
وغاباتهم حتى دائرة المحيط المتجمد الشمالي . ولا ريب في أن المنطقتين
القطبيتين موضوعتان تحت الحصار . وفي سنة ١٩٥٨ الجغرافية عسكرت بعثة
أمريكية عند القطب الجنوبي ، بينما كان عالم إنجليزي يستكشف المتجمد الجنوبي .
وبدأ العلماء يستكشفون أغوار البحر ويرسلون آلاتهم تدفعها الصواريخ —
من أمثال صواريخ «سپوتنيك» الروسية — تنهب أجواز الفضاء المحيط
بالكرة الأرضية .

وقد أثار الشعور الوطني حرباً مريعة في الجزائر بين الفرنسيين وأهل
البلاد . وقد استنزفت الحرب قدراً كبيراً من ثروة فرنسا . ويخلق الشعور
الوطني في الشرق الأدنى متاعب شديدة للأوربيين . فالمصريون الذين أجلوا
الحاميات الإنجليزية من أراضيهم ، أموا قناة السويس في ١٩٥٦ ، وكانت
شركة إنجليزية فرنسية تضع يدها عليها . إلا أن أشد التغييرات استرعاء
للنظر وأكبر مصادر القلق في الشرق الأوسط هو استفحال شأن دولة

إسرائيل . فاليهود ما يزالون يستعمرون تلك المنطقة من أراضى غيرهم ، ويجمعون المال من اليهود المقيمين في سائر أنحاء العالم . وإسرائيل تكبر وتنتعش بعد حيازتها ذاك القدر الكبير من الأرض وبعد طرد سكانها العرب الذين ما يزال مليون منهم مهاجرين معدمين مشردين .

وإن انتشار علم الغرب وبراعته الفنية ليتقدمان باطراد بين الآسيويين والأفريقيين الذين يتلقون هذا العلم وتلك البراعة في سهولة ويسر . وإنك لتجد الآن علماء الصين واليابان والهند في طليعة الحملات على طول تخوم معرفة القوى المجهولة والكائنات الطبيعية . غير أن الأكثرين من الآسيويين والأفريقيين فريسة للفقر والجهل وسوء التغذية .

وهناك مفارقات مفرقة : فدكتور الفلسفة الزنجي الذي تدرب في كلية إفريقية جاء من حظيرة مسقوفة بالبوص عاش فيها أبواه في وجل من الطبيب الساحر ، والشيخ في جنوب شبه جزيرة العرب يسوق سيارة مقفلة نفخة وسط القبائل التي لا تختلف معيشتها عن المعيشة في أيام الحروب الصليبية إلا قليلا .

وتستمر مغامرة السياسة في دنيا المتناقضات هذه ، حيث يتزاحم العصر الحجري وعصر الذرة كي يدفع كل منهما الآخر . فالمثل الأعلى للديمقراطية في الغرب أساسه اختراع البرلمان في العصور الوسطى ، وقوامه نظام التصويت . ومعناه — على قدر الإمكان — : أن الناس يحكمون أنفسهم بالوصول إلى اتفاق عن طريق تبادل الرأي ، وأنهم سوف تتوافر لهم سلطة تغيير حكومتهم كلما رأوا ضرورة لذلك ، وأن أحداً لن يجور على رفاقه ، وأن كل امرئ سيكون حراً في التعبير عن آرائه دون أن يتعرض لمكروه بسبب هذا الرأي . ويرتكز كل هذا على عادة وتقليد تأصلا في أوروبا منذ قرون .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان يهيمن على مسرح السياسة ثلاثة رجال : ونستون تشرشل وروزفلت وستالين . وقد شكلوا مع مستشاريهم منظمة هيئة الأمم لتحل محل عصبة الأمم . وأهيب بأعضائها أن يحلوا مشاكلهم عن طريق تبادل الرأي وأن يتعاونوا على خير الشعوب . وقد أنجز قدر كبير من الحلول العملية — وما يزال بعض الحلول العملية الأخرى رهن الإنجاز — لإنقاذ الملايين من مهاجري الحرب وإعادة توطينهم ولمساعدة أهل البلاد الفقيرة بالمال والسلع . وفي هذا تتكاتف الشعوب بسرعة . غير أن الدنيا ما تزال تحمل السلاح .

ولكن — منذ ١٩٤٥ — غشى مجلسي الأمم المتحدة أمران قائمان ، نشيوعيو روسيا ، والديمقراطيات تقودها أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، يرتاب كل طرف منهما بالآخر أشد الريبة ، ويسيطر على تصرفاته الخوف والحسد والشك . وهذه المشاعر القاسية تزيدها عمقاً قوة القنبلة الذرية المخربة وقوة القنبلة الهيدروجينية المبيدة اللتين يملكهما الطرفان .

وأصبحت الكرة الأرضية ميدان قتال « بارداً » يقف فيه أقوى دولتين ، وهما الاتحاد السوفيتي الروسي والولايات المتحدة الأمريكية ، وجهاً لوجه . وفي نهاية الحرب ، في سنة ١٩٤٥ ، قسمت ألمانيا بين روسيا وبين المنتصرين الآخر . وهي ما تزال مقسمة . فالجيوش الروسية تحتل الشرق ، والجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية تحتل الغرب . وعلى هذا النحو في الشرق الأقصى ، بعد هزيمة اليابان ، قسمت أرض كوريا الجميلة بين الشيوعيين (في الشمال) والأمريكيين (في الجنوب) . وفي ١٩٥٠ — عندما انسحبت القوات الأمريكية — غزا الكوريون الشماليون الكوريين الجنوبيين « ليعيدوا الأمن إلى نصابه » . فلم يتردد

الأمريكيون في أن يدخلوا — من جديد — جنوب كوريا ودعوا الأمم الأخرى إلى أن تمد يد العون لتطرد العدوان . فأرسلت لهذا الغرض فرق من بريطانيا والمستعمرات المستقلة والنرويج وتركيا وغيرها . وبعد جهاد عنيف استردت الجنوب وعبرت إلى الشمال . وعندئذ تدفق جيش شيوعي صيني كبير . وغنى عن القول بأن كوريا — في هذه المجازفة الحربية — كادت كل الأهوال المألوفة في حالات الجوع والقحط والهجرة .

والهوة التي تباعد بين الشيوعيين والديمقراطيات هوة عميقة . وكل من الطرفين ينكر أسلوب حياة الطرف الآخر وإخلاص الطرف الآخر ، ويظل مدججاً بالسلاح محاولاً أن يدخل أفعل المحسنات على أبحاث الأسلحة للملاك .

وتسيطر روسيا على كل أوروبا الشرقية باستثناء تركيا واليونان . وتستبقى الولايات المتحدة الأمريكية مدفعيتها وطائراتها ودباباتها في ألمانيا . ولها قواعد حربية في أوروبا الغربية . فقد تفتقت الإمبراطوريات الأوروبية القديمة التي امتدت إلى ما وراء البحار . إذ فقد الهولنديون جزائر الهند الشرقية الغنية التي كانت تابعة لهم ، وفقد الفرنسيون الهند الصينية كما فقدوا الجزائر بعد صراع عنيف . وأصبحت الصين — بعد كابوس طويل من الفوضى — شيوعية ولفظت الغربيين والمبشرين .

وكادت الإمبراطورية البريطانية تغيرات مفزعة ، ولكنها لم تسكب خسائر مفزعة بمنحها الحكم الذاتي لأعضائها الآسيويين والأفريقيين . منحته — أول الأمر — إلى شبه القارة الهندية التي اختارت أن تنقسم إلى دولتين : الهند والباكستان (١٩٤٧) . وإن لم تخل هذه الحركة من سفك دماء غزيرة ومن مرارة شديدة . ثم منحته إلى سيلان وبورما (١٩٤٨)

وأخيراً إلى ساحل الذهب الذى أطلق عليه اسم شاعرى وهو غانا (١٩٥٧) .
وما تزال مشروعات من هذا القبيل فى الأفق . وكل هذه البلاد حرة الآن
فى أن تتصرف وفق مرامها حتى ولو أرادت أن تنفصل عن الإمبراطورية .
والحرية الكاملة وحدها هى التى تكفل حماية الحرية . وقد سنت كلها
قوانينها ودساتيرها الخاصة بعد أن ارتبطت بجزيرة بريطانيا التى كان
دستورها يعده أباء الجمهورية الأمريكية مثالياً . ولقد صدق مواطن من
الجمهورية فى قولته النبيلة : « تسكن الحرية فى قلوب الرجال والنساء .
وعندما تموت هناك فإنه ليس فى مقدور أى دستور أو أى قانون أو أية
محكمة إنقاذه . وهى فى كونها هناك ، ليست فى حاجة إلى أى دستور
أو أى قانون أو أية محكمة لإنقاذها » .

الباب الثامن

خاتمة

أخبار العالم

إن الفضول القلق في استقصاء واستكشاف ما يدور في كل ما يحيط بنا من عوالم -- في السماوات ، وفي أعماق الأرض ، وفي المياه الغائرة تحت الأرض -- ليطالعنا في كل عام بأخبار جديدة عن دنيانا . وإنا نتعلم -- عن طريق المجهر (الميكروسكوب) والمرصد (التليسكوب) والأجهزة الكهربائية (الألكترون) -- أشياء لم يكن أسلافنا ليحلوا بها . نتعلم أموراً عن الذرات التي صنعت منها المادة جميعاً ، ونبنى مستودعات للقوى الذرية لاستخدام الطاقة المكونة داخل هذه الجزيئات غير المرئية .

ونتعلم عن حشد متألق من النجوم يبعد عن الأرض بعداً سحيقاً إلى حد أن الضوء الذي يبعثه يستغرق مدى الملايين من أعوامنا في الوصول إلينا . ونتتبع توارىخ كل الكائنات الحية ونكشف وحوش الأعماق ونستعيد صور حيوانات غريبة انقرضت قبل وصول الأدميين إلى سطح الأرض .

نحن مخلوقات لا تقوى على العيش إلا في نطاق درجات قليلة من الحرارة والبرودة . ولكننا مع هذا ، نقيس القوى التي تحفظ الأجرام السماوية في أماكنها العتيقة .

وإن علماءنا ليتتبعون خطى الإغريق ، وكوبرنيكوس وجاليليو ، وفاساليوس ، وكبلر ، وهارفي ونيوتن ، ولافاوازييه ودالتون ، ودارون وكلاارك ماكسويل ، وأينشتاين ورفرورد ، وسائر الآخرين الذين مضوا بوقتهم ونبوغهم .

لأنهم يمدوننا بأخبار استكشافاتهم . وحيث يسبقون هم ، يحدد في أثرهم المهندس والمخترع والفني ، يستخدمون ما استكشفوه لنا لكي يجعلوا حياتنا أكثر راحةً ولكي يمدونا بسلطان على ما يحيط بنا أكثر فعالية ، وليقدموا كل جديد من الآلات والمواد وعقاقير الاستشفاء والمعارف والمصنوعات لجلب المسرة والاستعمال العادي .

والعلم والقوة مطلوبان . وفي الاستطاعة استخدامهما — كما عرف الناس دائماً — في الخير وفي الشر .

أخبار من لا مكان :

أطلق الشاعر ولیم موریس على حكايته في صدد شعب كامل في أرض كاملة « أخبار من لا مكان » ، وهذا عنوان مناسب . وقد درج الناس دائماً على أن يرحبوا بحكايات الجزر السعيدة الحظ ، أو أساطير عصر ذهبي ، أو الوعد بجنة باكرة وكان الناس يصيبون — على مر قرون الأسى والسكد — إلى شيء هو أغز عليهم من المعرفة . لقد صبّوا إلى انتصار الخير على الشر ، والحق على الباطل ، والحب على البغض

وكان الإغريق قد أطلوا التأمل في أمر مدنية مثالية . ووصف أفلاطون واحدة في حوارهِ عن « الجمهورية » فقال ، وهو الإغريقي الحكيم : « أن تتخلص ، أبداً ، المدن من شرورها حتى يصبح الفلاسفة ملوكاً أو حتى تتأق ملوك هذه الدنيا روح الفلاسفة » . وقد تولدت تلك الحقيقة من مصائر المدن الإغريقية أثينا ، وكورنثا ، وسركوزة ، وغيرها — تلك التي كسرتها وحطمتها شرور الحرب الأهلية .

وبعد ذلك بأجيال بدا أن سيقوط روما واختفاء قصورها ومعابدها وسلامها وقوانينها ، قد قضى على كل أمل .

وقد وجّه إحياء العلوم الإغريقية أذهان الناس إلى الأرض مرة أخرى . وتخيّل البعض أخيلةً جديدةً عن مدينة مثالية يعيش الناس فيها بتوجيه من أوصياء فلاسفة . وقد أطلق السير توماس مور على كتابه اسم « دنيا المثال » (أو المدينة الفاضلة) ومعناه « لا مكان » . ولكنه راودته شكوك كما راودت أفلاطون فقال : « ليس في مقدور كل الأشياء أن تكون طيبة ما لم يكن كل الناس طيبين ، وما أظن أن يحدث هذا قبل انقضاء سنوات عديدة طويلة » . وأتى فرانسيس بيكون ، في كتابه « الأطلنطيد الجديد » على وصف نوع على من الدولة في جزيرة .

وبمرور الوقت أخذ الناس يتطلعون إلى سلام يشمل الشعوب جميعاً ، يصاحبه العدل لجميع الناس ؛ غنيهم وفقيرهم . وقد خطط لهذا كهان إسبانيون ، ومشرعون هولنديون ، وصاحبيون إنجليز . ثم ظهرت تدريجاً ، في عالم الوجود ، مجموعة القوانين الدولية ، وأوفد السفراء إلى الخارج ليساعدوا على التفاهم الدولي . وقد نادى صناع الجمهورية الأمريكية قائلين : « خالق الناس جميعاً متساوين » . وكان شعار رجال الثورة الفرنسية في زحفهم « حرية ، مساواة ، إخاء » وتمت فكرة أن الناس في مقدورهم ، ومن واجهم ، أن يعيدوا جعل دنياهم مكان سرور وسلام لكل إنسان . وقد اعتقد بعض المفكرين ، في القرن الثامن عشر ، أن الفهم الصائب والتعقل كفيلا أن يحفزا الناس إلى مثل هذا التصرف . فإذا سيطر التعقل على أفئدتهم لم يجعلوا مكاناً للحرب ولا للجريمة ولا للقسوة ولا للفقر . « سوف يكون حكم العقل حكم السلام » .

على أن الحسد والحقد والصرامة عيوب متأصلة . ونحن ما زلنا جالدين في إدخال السكينة والرضى على قلوب الأمم المبلوّة . وما عصبية الأمم بعد

الحرب العالمية الأولى وما الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية غير محاولتين تحولان مطمع د لا مكان ، إلى حقيقة . وهذا أمل كل الناس الطيبين وحلم كل رجال السياسة المخلصين . ومع أن الخوف قد يكون باعثاً سيئاً فإن خوف التخريب في الحروب المستقبلية يقوم بدوره في الإهابة بالناس بأن يندشدوا السلام والتعاون .

الماضى الحى :

إنما نحن ما نحن عليه بسبب الماضى . فالسنون المنصرمة تعيش فينا ، ولا ينصبّ هذا على الحديثة منها فحسب بل ينصب كذلك على الأعوام السحيقة . ذلك أنه لا يوجد فى أى مكان فى سجل الجنس البشرى — فى أسلافنا أو أسـرنا — نهاية تامة وبدء جديد .

فنحن جزء من تاريخ طويل ، نحن جزء من نسيج كبير دائم النولحيوات لا تحصى . والحاضر على حاله الآن حدث بسبب كل ما جرى قبل الآن : بسبب أن إمبراطوريات ارتفعت وسقطت فى قديم الزمان ، وبسبب أن رجالا مجولين عجبوا لسماوات بابل القديمة ، وبسبب أن إغريقين مجولين أطاعوا القائد الإغريقى الذى هزم الفرس ، وبسبب أن الرومان دمروا قرطاجنة ، وبسبب أن أنطونيوس وقع فى حب كليوباترا ، وبسبب أن كولومبوس استكشف أمريكا ، وأن لوثر بشر ضد البابا ، وأن نابليون دهم أوروبا . ومن الممكن المضى فى هذه القائمة إلى الأبد .

كل هذا صحيح ، عرفنا الحقيقة أو لم نعرفها . ولكننا ، فى سجلاتنا المطبوعة ، نحافظ على مؤلفات الرجال العظماء الذائعى الصيت ، من أمثال

أفلاطون وهومر ودانتى وشيكسبير وباخ ومتسارت وجموع غير هؤلاء .
لقد ماتوا ولكن مؤلفاتهم ما تزال تتحدث إلينا .

وكل سجل تاريخى يلتزم ، فى أغلب الحالات ، أن يكون حكاية عظماء
وقواد ومفسكرين وفنانين . إذ أن مدنيقتنا ميراث صنعه وحفظه الملايين من
الصناع المجهولين الذين قدموا أعمالا ممتازة ، وهكذا يكون قد صنعه
النيات الحسنة ومظاهر الوفاء الصادرة عن ملايين القلوب المجهولة .



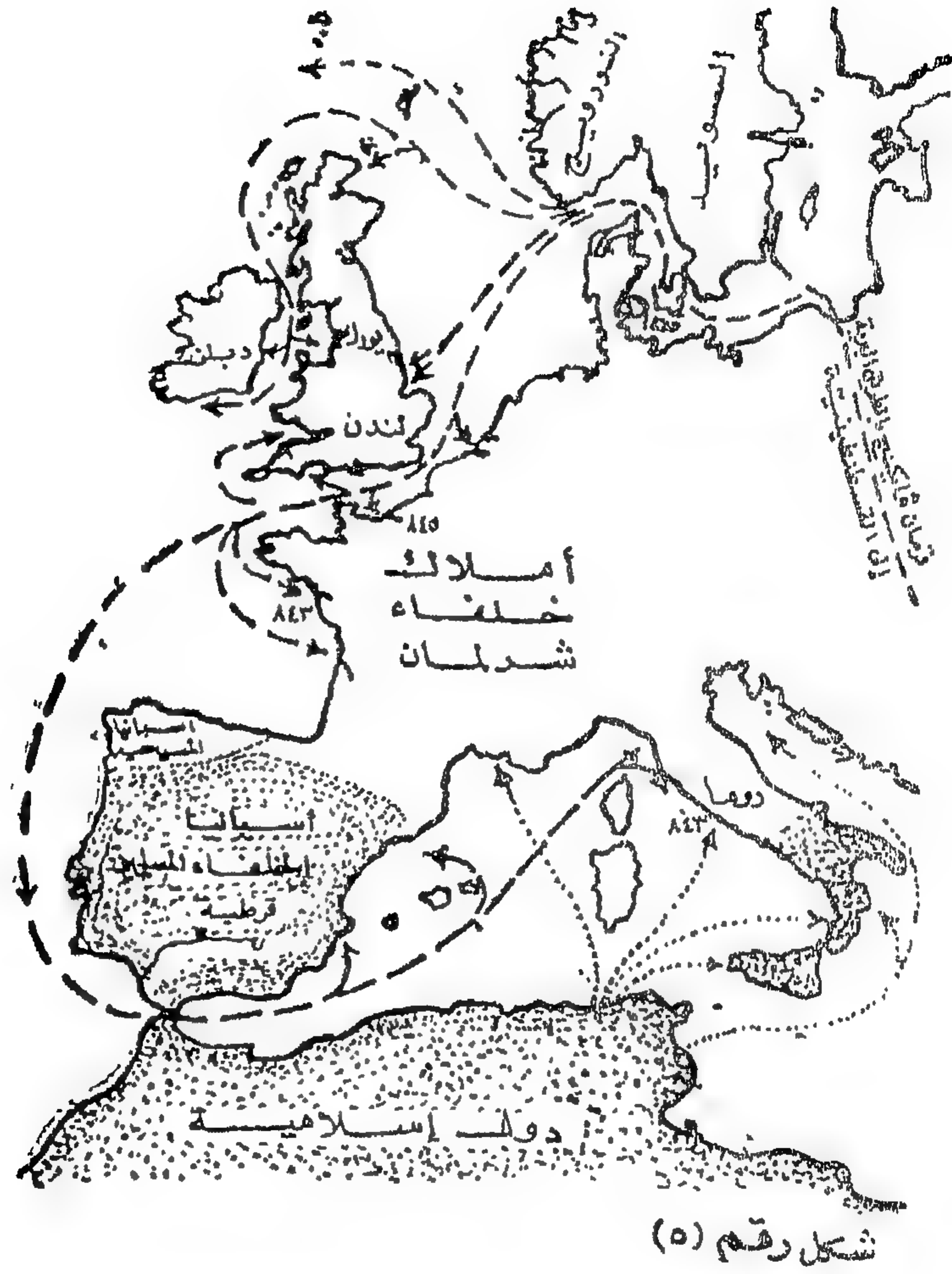
شكل رقم (٣)

الامبراطورية الرومانية في أوسع مدى لها



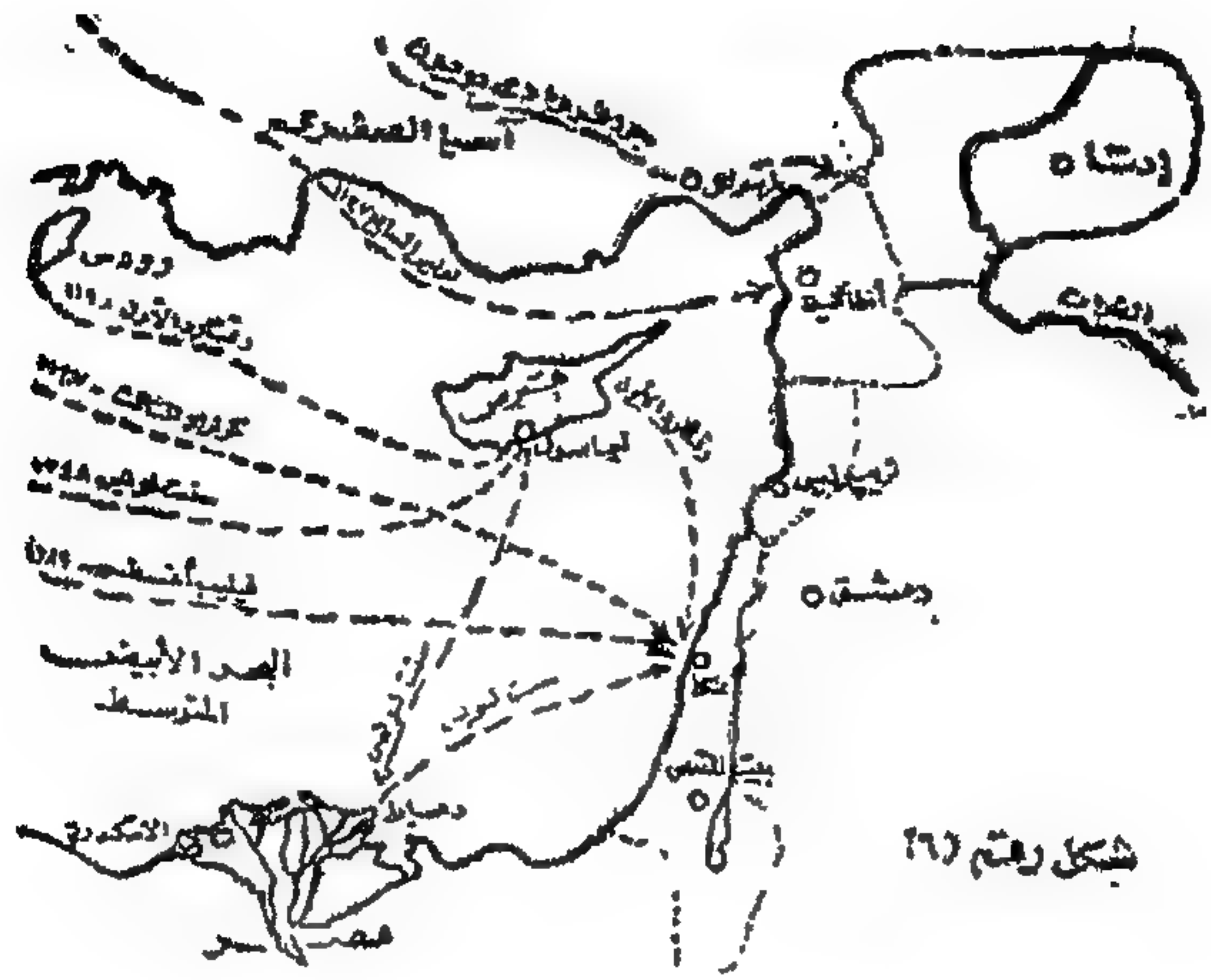
شكل رقم (٤)

غزو البربر للامبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس



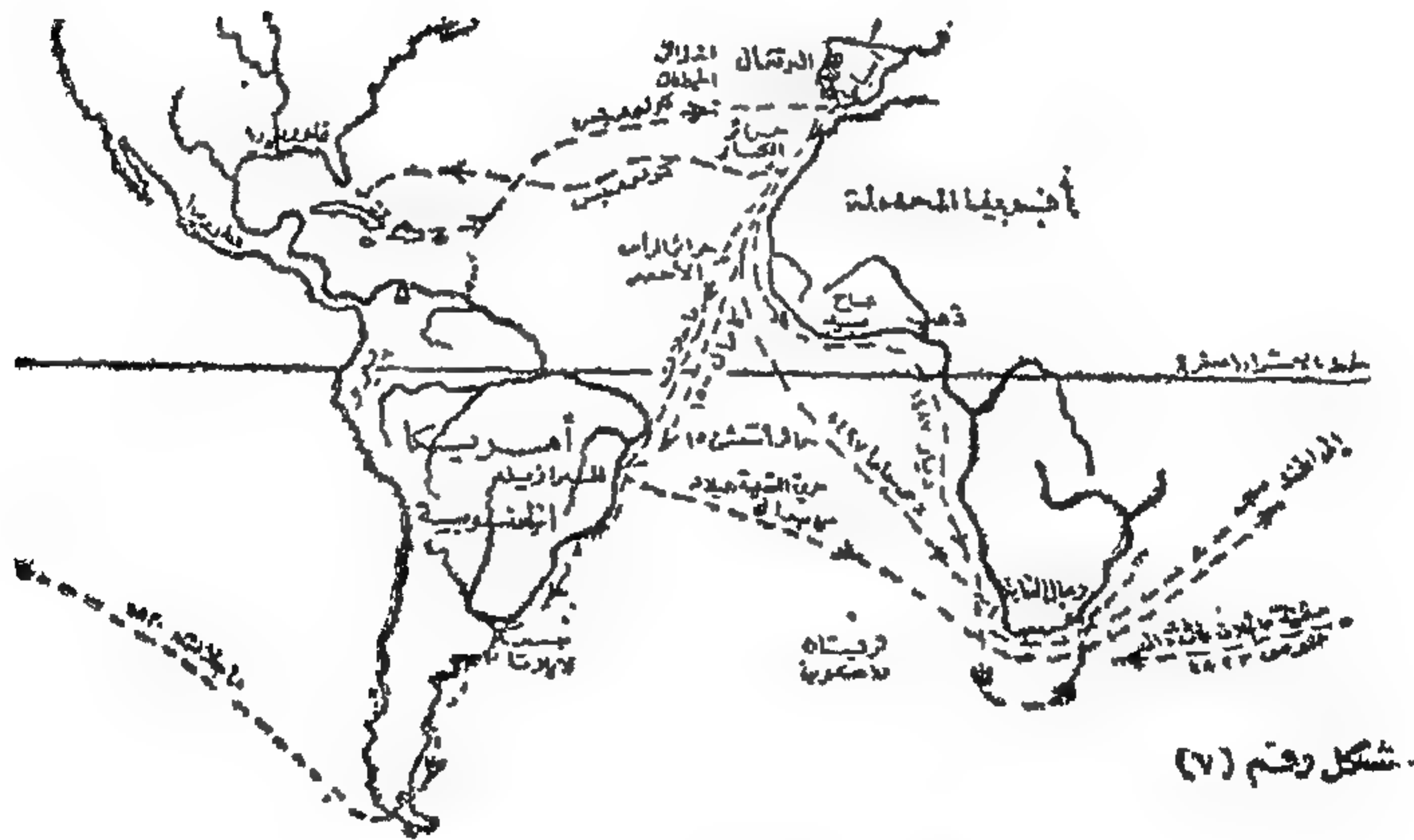
شكل رقم (٥)

مقايير أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر



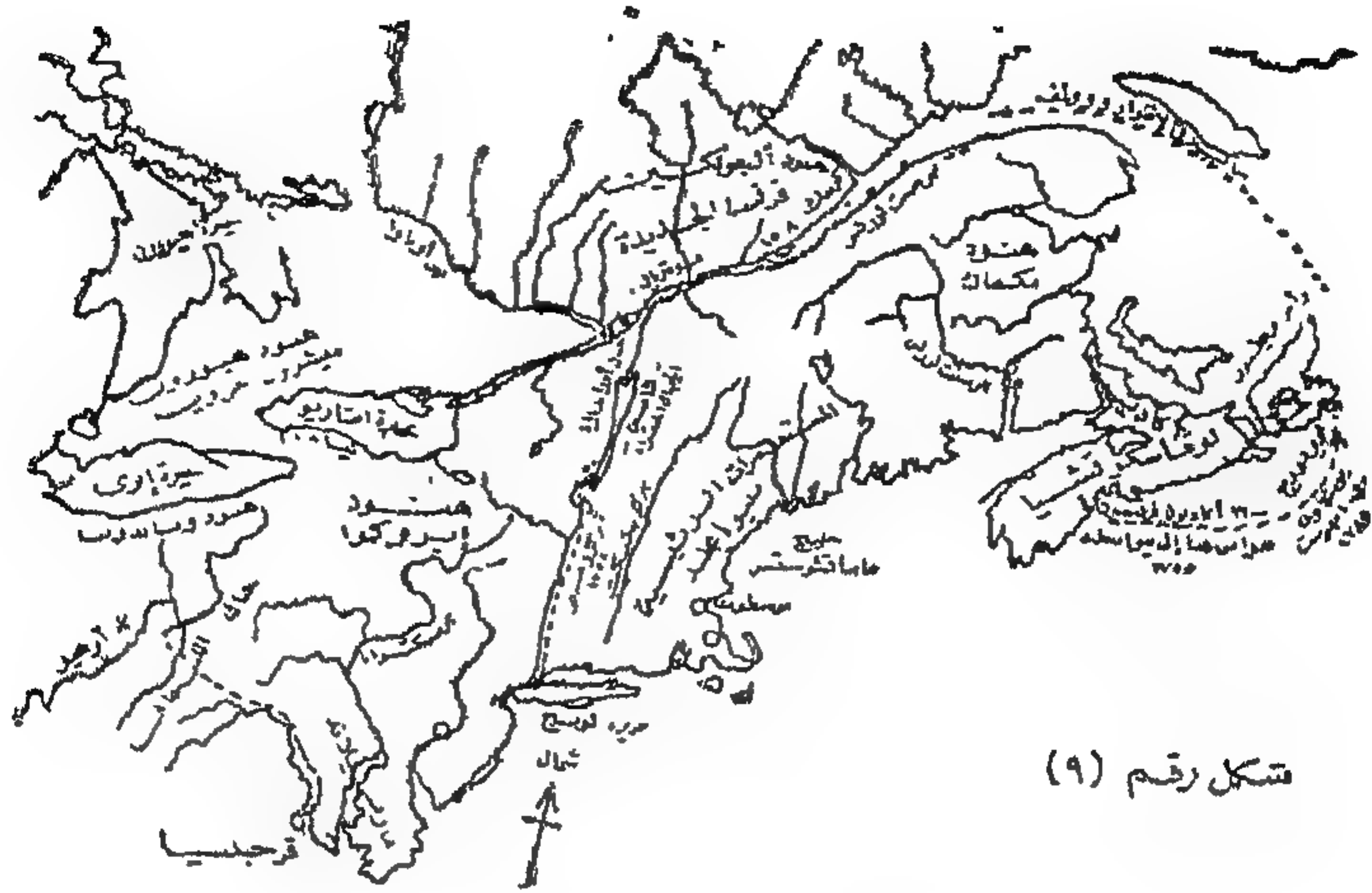
الولايات اللاتينية الصليبية

- ولاية لاديسا : ١٠٩٨ — ١١٤٤
- إمارة أنطاكية : ١٠٩٨ — ١٢٦٨
- ولاية طرابلس : ١١٠٠ — ١٢٨٩
- مملكة بيت المقدس : ١٠٩٩ — ١١٨٧



مخارج جنوبية من الأطلنطي

(الأسبان والبرتغاليون يستكشفون الطرق الملاحية الجنوبية الخارجة من المحيط الأطلنطي)



شكل رقم (٩)

انجلترا الجديدة وفرنسا الجديدة
(صراع من أجل قارة ١٧٥٥ - ١٧٦٣)



شكل رقم (١٠)

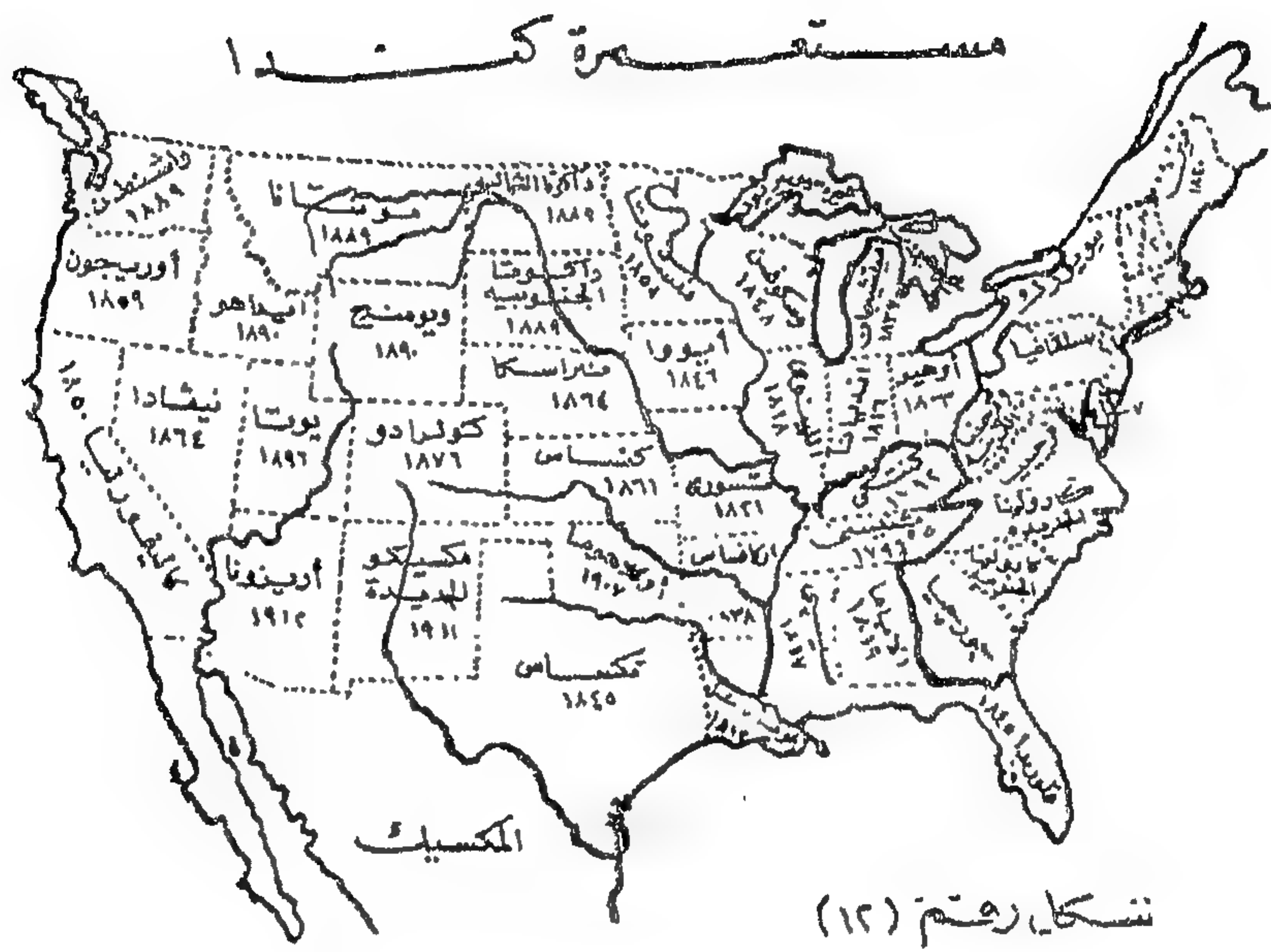
شبح امبراطورية نابليون الحربية على أوروبا عام ١٨١٠.



شكل رقم (١١)

توحيد إيطاليا

(تحت حكم آل سافوي ملوك سردينيا وبيدمونت)



توسع الولايات المتحدة الأمريكية نحو الغرب



شكل رقم (١٤)

ممالك ودوقيات امبراطورية آل هابسبورج
(النمسا والمجر عام ١٩١٤)



مستقبل رستم (١٥) *

تفتيت شرق أوروبا

(حدود الإمبراطوريات القديمة : ألمانيا ، النمسا ، روسيا ، تركيا)

فهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة	٥
محتويات الكتاب	٧
مصورات جغرافية	١٠
تمهيد	١١
الباب الأول : حول البحر الكبير أو شعوب العصور الخالية	١٣
قبل الميلاد وبعد الميلاد	١٣
قبل استعمال الحديد	١٥
العصر البرونزي	١٩
علم العاديات (الآثار القديمة)	٢٢
أين بدأت المدنية	٢٥
مصر الفرعونية	٢٩
الإمبراطوريات البائدة في الشرق القديم	٣٢
قوة كريت البحرية وقوة آشور البرية	٣٨
الفرس	٤٢
الإغريق	٤٦
مجد المدن الإغريقية وانحلالها	٥١
الإسكندر	٥٥
جوابو البحار ومدن غرب البحر الأبيض المتوسط	٥٧
كيف بسط الرومان نفوذهم على العالم	٦٢
قيصر	٦٧
أهالي « مدينة غير دنيئة »	٧١
الديانات القديمة واليهود	٧٩

المنوع	صفحة
المسيحية	٨٢
سقوط بيت المقدس	٨٦
الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية	٨٧
الباب الثاني : نهاية الإمبراطورية الرومانية وضياع العلوم القديمة	٩٣
الإغارة على الغرب	٩٣
البربر والأساقفة	٩٩
الإمبراطور جستينيان	١٠٣
الباب الثالث : رايات الصليب أو ملكة وحصن وكنيسة	١٠٧
المسيحية : البابا جريجوري الكبير	١٠٧
رجل من الصحراء	١١٠
الهلل في أولى مدافعاته	١١٣
شارلمان	١١٣
رجال من الشمال	١١٦
ألفرد وسكس	١٢٠
مدينة عربية	١٢٤
النور منديون والحروب الصليبية الكبرى	١٢٦
شئون الحرب والعبادة : الحصن والكنيسة	١٣٣
حجاج من كانتربيري	١٤٧
الفرسان والشهامة	١٥٠
أرباب الحرف بالمدن	١٥١
رجال القانون ورجال الدين	١٥٤
المزارعون	١٥٨
الكنيسة	١٦٢

الـمـوضـوع	الـمـوضـوع	الـمـوضـوع
١٦٥	البحارة والرحالة	١٦٥
١٧٠	حروب الصليبي	١٧٠
١٧١	نهاية القسطنطينية	١٧١
١٧٤	سقوط غرناطة في أسبانيا	١٧٤
١٧٤	الاتجاه صوب الجنوب	١٧٤
١٧٧	وراء رأس الرجاء الصالح	١٧٧
١٨٠	جزائر غروب الشمس (سنست) وإمبراطوريات عجيبة	١٨٠
١٨٥	توسع المعمورة	١٨٥
١٨٧	المسالك البحرية	١٨٧
١٨٩	الرابع : إعادة استكشاف العلوم القديمة	١٨٩
١٨٩	ثلاث مدن	١٨٩
١٩٤	بدء التنقيب	١٩٤
١٩٦	عصر النهضة العلمية	١٩٦
١٩٩	الطباعة	١٩٩
٢٠٢	الأرض والسماء	٢٠٢
٢٠٣	الخامس : بمالك الغرب الكبرى والدنيا الأمريكية الجديدة	٢٠٣
٢٠٣	الإمارات والدول	٢٠٣
٢٠٥	مذاهب كنسية متعددة بدلاً من مذهب واحد	٢٠٥
٢١١	الملك هال المخادع	٢١١
٢١٦	كتب مقدسة للفلاحين	٢١٦
٢١٨	المائة السنة الأسبانية	٢١٨
٢١٩	ماري ملكة الاسكتلنديين	٢١٩
٢٢٢	الهولنديون	٢٢٢
٢٢٤	رواد البحر الإنجليز — و — دريك	٢٢٤

الصفحة	الموضوع
٢٢٦	الأرمادا الأسبانية
٢٢٩	إنجلترا في عصر اليزابيث
٢٣٢	قرن جديد
٢٣٥	المقارنة : بريطانيا
٢٤١	المقارنة : فرنسا
٢٤٥	الاتجاه صوب الغرب
٢٥٠	السلطان والقيصر
٢٥٤	بريطانيا تعادى لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر
٢٦٠	حرب السنوات السبع
٢٦٧	الإنسان والكون
٢٧٣	الثورة الأمريكية
٢٨٠	ثروة الأمم
٢٩٣	الباب السادس: الثورة الفرنسية
٢٩٣	الثورة
٢٩٩	نابليون والبحرية البريطانية
٣٠٥	نابليون وأسبانيا وروسيا
٣١١	الباب السابع: اختراعات عديدة ومعارف جديدة : العالم اليوم
٣١١	ثلاث مجموعات من الأحداث
٣١٢	أحداث السياسة : ممالك وجمهوريات
٣١٦	السياسة : الحرية
٣٢١	السياسة : أم البرلمانات
٣٢٤	الاختراع : المهندسون
٣٢٦	الاختراع : الطرق والقنوات

الصفحة	الموضوع
٣٢٩	الاختراع : الفحم ، والحديد ، وقوة البخار
٣٣٧	الاختراعات : الأرباح والخسائر
٣٤٧	السياسة : عام ١٨٤٨ في أوربا
٣٥١	السياسة : إيطاليا وألمانيا
٣٥٧	السياسة : روسيا والثورة
٣٦٣	التوسع
٣٦٤	التوسع : قصة الإمبراطورية والسلم البريطانى
٣٦٨	التوسع : المستعمرات البريطانية المستقلة
٣٧٣	التوسع : الولايات المتحدة الأمريكية
٣٧٨	التوسع : الهند
٣٨١	التوسع : الشرق الأقصى
٣٨٥	التوسع : إفريقيا
٣٩٠	الأمم في جهادها من ١٩١٤ إلى ١٩١٨
٣٩٧	الإمبراطوريات التى تهافت
٤٠٣	إحدى وعشرون سنة بين حربى ١٩١٨ و ١٩٣٩
٤٠٧	الأمم في جهادها من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥
٤١٤	اختراعات لا حد لها وأناس كرمال البحار
٤١٩	دخول الحاضر فى المستقبل
٤٢٤	الباب الثامن : خاتمة
٤٢٤	أخبار العالم
٤٢٥	أخبار من لا مكان
٤٢٧	الماضى الحى
	الخرائط

مطبعة الاستقلال الكبرى
في شعبة المطابع من ٤٧٢٨

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الرمان بالقاهرة م ٤٧٤٨٦

Bibliotheca Alexandrina



0389864

التن ٣٧,٥